

مركز البحوث والدراسات التاريخية

أعمال ندوة

« فلسطين عبر عصور التاريخ »

اشراف وتقديم

أ.د. حامد زيان غانم

مدير مركز البحوث والدراسات التاريخية

كلية الآداب - جامعة القاهرة

القاهرة ١٩٩٦



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

يسعدنى أن أقدم للقارئ الكريم أعمال أول ندوة يعقدها مركز البحوث والدراسات التاريخية بكلية الآداب جامعة القاهرة فى الفترة من ٤ إلى ٦ نوفمبر ١٩٩٦ وموضوعها : (**فلسطين عبر عصور التاريخ**)

والحديث عن فلسطين وتاريخها الحديث قديم جديد فقد تمتعت بأهمية خاصة على

مدار التاريخ فبالإضافة إلى موقعها الجغرفى الممتاز ومناخها الجيد ووفرتها الاقتصادية، فإن تشريف أرضها بالأنبياء الكرام وتمتعها بوجود المسجد الأقصى والأماكن المقدسة على أرضها ، جعل لفلسطين مذاق خاص فى النفوس .

ويبدو أن ماتمتعت به فلسطين من مزايا ونعم كان نعمة ونقمة فى نفس الوقت ؛ حيث تصارع على إفتراسها الكثيرون !! ففى العصور الوسطى بذل الغرب الأوربى كل طاقته من أجل الاستيلاء عليها ، وأشعل لذلك نار حرب عرفت فى التاريخ باسم الحروب الصليبية استمرت قرابة قرنين من الزمان ، ولكن لم تلبث فلسطين أن عادت لأصحابها واستطاع المسلمون استردادها بعد جهاد وكفاح طويل ، وفى العصر الحديث تكرر العدوان على فلسطين لكنه فى شكل مؤامرة دبرها الغرب الأوربى خاصة انجلترا وفرنسا بمباركة من الولايات المتحدة الأمريكية من أجل تمكين اليهود من أغتصاب أرض فلسطين؛ وكما عادت فلسطين إلى أصحابها من قبل ستعود بإذن الله مرة أخرى .

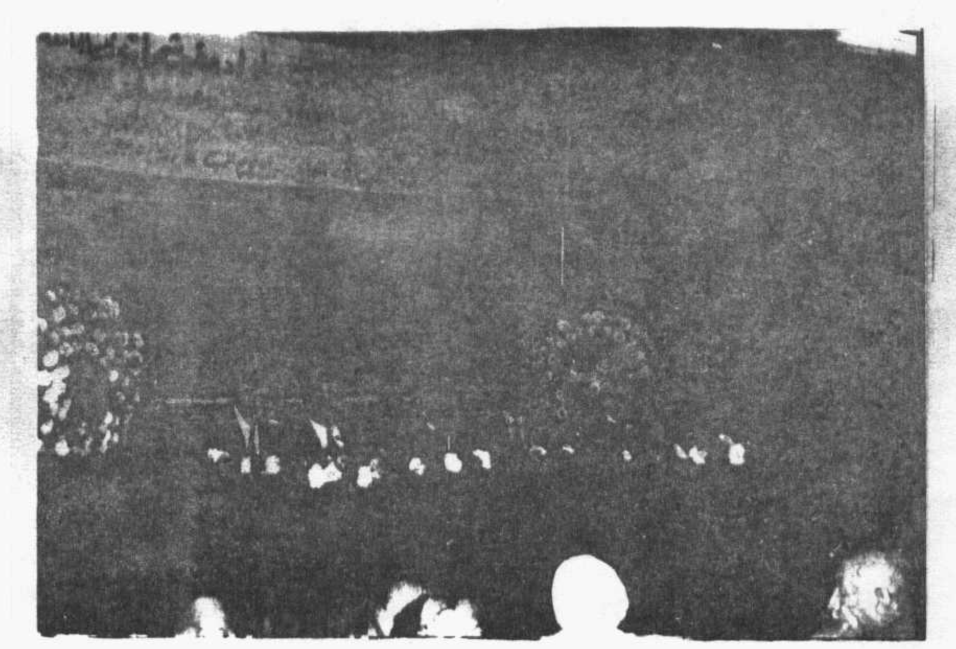
ويحتوى هذا السفر الذى بين أيدينا على عدد من الأبحاث المتخصصة التى ألقيت ونوقشت فى هذه الندوة ونأمل أن يجد القارئ الكريم فيه متعة وفائدة .

ولا يفوتنا أن نوجه خالص الشكر والتقدير بإسم مركز البحث والدراسات التاريخية إلي إدارة كلية الآداب - جامعة القاهرة علي الدعم والجهد الذي توليه للمركز دائماً كذلك للمساعدة في طباعة هذا المجلد، وأخص بالشكر الأستاذ الدكتور محمد حمدي إبراهيم عميد الكلية ورئيس مجلس إدارة المركز والأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود السيد وكيل الكلية لشئون الدراسات العليا والبحوث، وكذلك القائمون علي أمر وحدة النشر العلمي بالكلية .

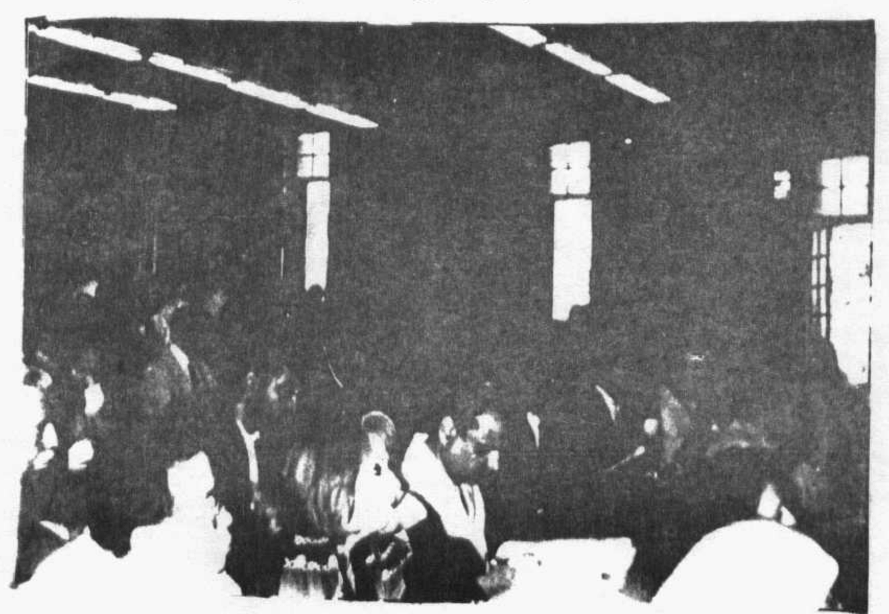
والله ولى التوفيق . . . . .

أ.د حامد زيان غانم

مدير مركز البحوث والدراسات التاريخية



جانب من حضور جلسات الندوة



جانب من حضور جلسات الندوة



كلمة الأستاذ الدكتور / حامد زيان غانم

مدير مركز البحوث والدراسات التاريخية

بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ الدكتورمفيد شهاب رئيس جامعة القاهرة ، الاساتذة الأفاضل باسم مركز البحوث والدراسات التاريخية أرحب بحضراتكم فى أول ندوة يعقدها المركز ، حيث هو حديث المولد فلم يشب بعد عن الطوق حيث تجاوز عمره العام الأول ، وهذا المركز يهتم فى المقام الأول بتقديم خدماته البحثية سواء على شكل كتابة الأبحاث والمقالات التاريخية فى كافة جوانب التاريخ ، أو فى شكل تقديم الاستشارات التاريخية ، أو فى كتابة ومراجعة المناهج الدراسية والمواد العلمية المقدمة لوسائل الإعلام سواء كانت مسموعة أو مرئية ، ويضع خدماته لكل من يطلبها داخل مصر أو خارجها ، ومن بين اهتمامات المركز الاهتمام بالمشاكل السياسية المثاره على محيط العالم خاصة فى الآونة الحديثة والتى لها جذور تاريخية ومن بينها المشكلة الفلسطينية التى عزم المركز على تقديم دراسة تاريخية عنها ، وكان بداية هذا العمل هو عقد هذه الندوة وذلك الحوار .

ويشكل تاريخ فلسطين أهمية كبيرة على مر الزمن ، فقد كان لها أهمية خاصة فى التاريخ القديم ، واشتعلت حولها الحروب الصليبية فى التاريخ الوسيط التى استمرت قرابة قرنين من الزمان ، أما فى التاريخ الحديث فقد تبلورت الأحداث عن محاولة ابتلاع أرضها .

واليوم من خلال ندوتكم هذه المعنونة « فلسطين عبر عصور التاريخ » والتى يشارك فيها عشرون باحثا غير السادةالأفاضل المناقشين والمعلقين نتناول تاريخ فلسطين بالحديث والحوارولكي تعم الفائدة نأمل أن تساعدنا الجهات المختلفة لطبع أعمال هذه الندوة .

وحتى لا اطيل على حضراتكم اتقدم بخالص الشكر وعظيم الامتنان لسعادة الاستاذ الدكتور مفيد شهاب رئيس جامعة القاهرة الذى تفضل مشكوراً للحضور وافتتاح هذه الندوة رغم مشاغله الكثيرة . كذلك أتقدم بالشكر للأستاذ الدكتور حسنين محمد ربيع نائب رئيس الجامعة لشئون خدمة المجتمع على اهتمامه بمركز البحوث والدراسات التاريخية الذى هو من بين العديد من المراكز التى تقع تحت إشراف سيادته . كذلك أتقدم بالشكر للأستاذ الدكتور محمد حمدى إبراهيم عميد الكلية ورئيس مجلس إدارة المركز لما بذله معنا من جهد من أجل إتمام هذه الندوة،كذلك أتقدم بالشكر إلى رئيس وأعضاء هيئة التدريس بقسم التاريخ بكلية الآداب - جامعة القاهرة - لتعاونهم الصادق مع إدارة المركز على إخراج هذه الندوة أما الشكر الخاص فأتقدم به إلى سعادة السفير محمد صبيح المندوب الدائم لدولة فلسطين بجامعة الدول العربية لترحيبه بالمشاركة والمساهمة فى هذه الندوة . أما الأخوة الأفاضل الذين لبوا الدعوة للمشاركة فى هذه الندوة بفكرهم وأبحاثهم سواء كانوا من الأخوة العرب أو المصريين الذين تحملوا مشقة السفر والحضور رغم مشاغلهم الكثيرة فلهم منا خالص الشكر . كذلك أتقدم بالشكر للأخوة الحضور الذين شرفوا بحضورهم أعمال هذه الندوة

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

كلمة سعادة السفير **محمد صبيح**

المندوب الدائم لدولة فلسطين ـ بجامعة الدول العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

معالى الدكتور مفيد شهاب الأخ الدكتور حامد زيان أخوتى سيداتى وسادتى إنه لمن دواعى إعتزازى أن تتاح لى الفرصة اليوم للتحدث أمام هذا الجمع الفاضل من الأساتذة والعلماء فى هذا الصرح العلمى الحضارى العريق بجامعة القاهرة .

فمصر هى التاريخ وعلى ضفاف النيل الخالد عاشت مبادئ العدل والحق وحسن الجوار وعُرف دوما عن الشعب المصرى الشقيق محاربته للظلم والاضطهاد ؛ وأمة لا تاريخ لها لا مستقبل لها مهما حدث من قوة .

فى يوم ٢ نوفمبر ١٩١٧ كان وعد بلفور الذى كان تزويراً للتاريخ وللحقائق فقد مُنح من قبل من لا يملك لمن لا يستحق ولأسباب استعمارية لا تنفع أحد قصد منها فصل عرب المشرق عن عرب المغرب حتى لا تقوم وحدة واحدة ، واحدث أكبر فتنة فى التاريخ ستمتد لأجيال قادمة عندما اعتبر الشعب الفلسطينى أقلية .

وقرار الكونجرس الأمريكى الأخير بنقل السفارة الأمريكية للقدس المحتلة تزوير للتاريخ وانتهاك لكل القرارات الدولية ، صدر لأسباب انتقادية ضيقة وبروح غير مسئولة .

لقد دافع الشعب الفلسطينى عن أرضه عبر التاريخ وتصدى لكل الغزوات وبالالتحام مع الشقيقة الكبرى مصر ، وبقيت آثارهم فى حطين وعين جالوت وغيرهما ،واليوم يقف بكل ثبات فى وجه هذه الغزوة الصهيونية الجديدة وقدم فى

السنوات القليلة الأخيرة آلاف الشهداء وآلاف الجرحى وآلاف المعتقلين من كل فئات الشعب الفلسطينى رجاله ونسائه وأطفاله ومن كل طبقاته الإجتماعية ، والتاريخ ممتد على الأرض الفلسطينية فى الجليل والخليل وفى غزة والقدس وبيت لحم ، رغم كل أدعائهم مازال الشعب الفلسطينى يملك أكثر من ٩٤٪ من الأرض الفلسطينية .

لقد قام مثلث الصهيونية على ثلاثة أضلاع الأرض ، الإنسان ، والمال ، رغم كل التهجير إلي أرضنا ، ورغم اقتلاع أهلنا من أرضنا ، فإن العامل الديموغرافى فى صالح شعبنا الذى يتضاعف كل عشرين عاماً أما الأرض فالشعب الفلسطينى منزرع في كل شبر فيها ، وسيستردها مدينة مدينة وقريه مهما طال الزمن ، لكن أطماعهم هى فى المال العربى بعد أن انتهت الحرب الباردة .

قد يختلف أبناء فلسطين على طريق الحل السلمى إلا أنهم يتفقون على المستقبل ، إن هذه الأرض عربية مهما طال الزمن ، والمستقبل لدولة يعيش فيها الجميع فى عدل ومساواة وديمقراطية من نسيج هذه المنطقة ، ولا مكان لدولة عدوانية تقوم على التوسع وامتلاك السلاح النووى ، ووحدة امتنا العربية هو طريقنا فى هذه الحقبة من الزمن .

أيها السادة هذه إحساسات مواطن فلسطينى يعيش جروح أمته العربية ولا يحق له أن يتحدث فى التاريخ أمام علمائه وأهله ، وندوتكم هذه لها أهمية قصوي للرئيس ياسر عرفات الذى رحب بها أنقلها إليكم ، ولها أهمية كبيرة لتعليم أجيالنا العربية القادمة ، وهي كذلك هامة فى الرد والتوضيح للحقائق التى تزيف فى التاريخ وخاصة تاريخ فلسطين عبر العصور والتى تمثل القدس درة هذا التاريخ .

أشكركم وأتمنى لكم التوفيق ،

كلمة

الأستاذ الدكتور مفيد شهاب

رئيس جامعة القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

يسعدنى أن أفتتح معكم اليوم هذه الندوة الهامة التى يعقدها مركز البحوث والدراسات التاريخية بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، وترجع أهمية هذه الندوة - فى رأيى - إلي مجموعة من العوامل ، أولها هو موضوع الندوة ذاته ، فإن فلسطين هى أقرب جارات مصر ، ويعتبر أمنها واستقرارها جزءاً من أمن مصر القومى ، وقد ثبت من خلال أحداث التاريخ وتجارب الحاضر أن مصر لم تتخل لحظة واحدة عن حرمة هذا الجوار ، ولم تقصر فى الدفاع عنه بكل غال ونفيس من أرواح أبنائها وأبطالها ، وكانت وستظل حريصة ومدافعة عن حقوق الشعب الفلسطينى حتى يتم استردادها .

أما العامل الثانى وراء أهميتهذه الندوة فيرجع إلى التوقيت الجيد ، الذى تتخذ فيه القضية الفلسطينية - وهى كما نعلم لب أزمة الشرق الأوسط كله - مسارا حاسما على طريق الحل السلمى ، الذى اختارته مصر بعد انتصارها المشرف فى حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ .

أجل ، فقد كان لهذا الانتصار المشرف دوره الكبير فى التحول الكامل من حالة الهزيمة النفسية لدى العرب جميعا ،إلى آفاق الاعتزاز بالنفس ،والثقة فى القدرة الذاتية على التقدم والإنطلاق ، وقد هيأنا ذلك للدخول فى المفاوضات السلمية

على مستوى الندية الكاملة ، مما كان له أكبر الأثر فى استرجاع الحق السليب ، والقضاء على الدعاوى الزائفة .

ونحن ندرك أنه إذا كانت للحرب مآسيها ، فإن للسلام مصاعبه ، ومن المعروف أن بناء السلام أشق بكثير من أشعال الحرب ، لذلك فإننا ينبغى ألا نيأس أبدا مما قد يصادفنا على طريق السلام من عقبات ومصاعب ، وعليناdائما أن نكون قادرين على تجاوزها من أجل ازدهار المنطقة ، وفى سبيل أجيال قادمة ، تنتظر ما نفعله اليوم ، وسوف تحاسبنا بكل دقة على كل موقف نتخذه ، أو قرار نصدره .

كذلك فإن من عوامل أهمية هذه الندوة - فى رأيي - هو مكان انعقادها ... هنا فى رحاب الكلية العريقة كلية الآداب - جامعة القاهرة ، التى كانت ومازالت رائدة فى الاهتمام بقضايا المجتمع المصرى ، ومشكلات العالم العربى ، ولقد تابعت جامعة القاهرة قضية فلسطين منذ نشأتها وحتى اليوم ، وعلينا أن نتذكر بالفخر أبناء جامعةالقاهرة الذين استشهدوا فى حرب ٤٨ ، وامتزجت دماؤهم الزكية بالأرض الفلسطينية ، ومن ناحية أخرى ، فقد فتحت جامعة القاهرة أبوابها بكل ترحاب لأبناء فلسطين الذين نهلوا من علمها ، وتخرجوا فى مختلف كلياتها ، وأصبحوا اليوم فى مواقع القيادة والمسئولية .

تلك هى علاقة مصر بفلسطين ، أنها علاقة قدر ومصير .. علاقة تاريخ وحاضر ومستقبل ،ولا يسعنى فى هذا المقام إلا أن أحيي هذه الندوة التى جعلت عنوانها «فلسطين عبر عصور التاريخ » واشترك فيها عدد من صفوة العلماء والمؤرخين والباحثين ، لكى يلقوا الضوء على فلسطين المعاصرة من منظور تاريخى ، ومن المؤكد أن أية مشكلة لا يمكن التوصل إلى حلها بدون الكشف عن جذورها ، ومتابعة تطورها ، لذلك فإننى متفائل بقيمة النتائج التى سوف تسفر عنها هذه الندوة ،

وأرجو لكل المساهمين فيها أن يسعدوا باستضافتهم فى جامعة القاهرة ، التى

يشرفنى أن أرحب بكم فيها أشد الترحيب ، متمنيا أن تدور أعمال ندوتكم فى جو علمى خالص ، وأن تخرج توصياتكم فتضيف مزيدا من التقدم إلى البحث التاريخى ، وتلقى الأضواء الكاشفة على المشكلات المعاصرة .

تحية خالصة إلى جميع القائمين على إعداد هذه الندوة وإخراجها بهذه الصورة الجديدة ، وفى مقدمتهم الأستاذ الدكتور حامد زيان غانم ، مدير مركز الدراسات والبحوث التاريخية ، ولكل الذين بذلوا جهودهم من أجل إنجاح هذا اللقاء العلمى .

وفقكم الله ، وسدد على طريق الحق والخير خطاكم ،،،،

والسلام عليكم ورحمةالله وبركاته ،،،



كلمة

الأستاذ الدكتور حسنين محمد ربيع

نائب رئيس جامعة القاهرة لشئون خدمة المجتمع وتنمية البيئة

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد الأستاذ الدكتور مفيد شهاب رئيس جامعة القاهرة

السيد الأستاذ الدكتور محمد حمدى إبراهيم عميد كلية الآداب

السيد الأستاذ الدكتور حامد زيان مدير مركز البحوث والدراسات التاريخية

السيد السفير محمد صبيح المندوب الدائم لدولة فلسطين بجامعة الدول العربية

اساتذتى الأجلاء وزملائى الأساتذة

سيداتى وسادتى

يسعدنى كل السعادة ويشرفنى أن أتحدث إلى حضراتكم فى الجلسة الافتتاحية لندوة (فلسطين عبر عصور التاريخ) ، وهى باكورة نشاط مركز البحوث والدراسات التاريخية بجامعة القاهرة ، داعيا الله سبحانه وتعالى أن يعين هذا المركز الجديد على تطوير وتحديث البحوث والدراسات التاريخية فى مصر والوطن العربى .

والحقيقة – حضرات السادة الزملاء – أن الدراسات التاريخية فى معظم الجامعات الأوربية والأمريكية تقدمت تقدما كبير فى العشرين سنة الأخيرة إلى درجة استخدام الحاسب الآلى (الكمبيوتر) فى دراسة التاريخ ، وأشعة الراديوم فى فحص ودراسة

النقود الإسلامية لموضوعات فى التاريخ الاقتصادى ، ووصل الأمر بالباحثين فى التاريخ إلى تطبيق قواعد بعض العلوم / مثل علم النفس الاجتماعى وغيره / فى دراسة موضوعات تاريخية معينة / ووصلوا إلى حقائق جديدة .

وكان أحرى بالمشتغلين بالتاريخ فى جامعاتنا العربية مسايرة ذلك التطوير السريع ، ونحن نعيش عصر ثورات ثلاث : ثورة المعلومات ، وثورة الاتصال ، وثورة التكنولوجيا ، فقد أخذت البشرية فى أيامنا هذه تخرج وتقفز فى الأجواء العليا بسلطان العلم محققة ما أنبأنا به القرآن الكريم فى سورة الرحمن ، ولم يعد التاريخ كما كان فى الماضى ، عبارة عن قصص أساطير الأولين ، ولم يعد الهدف من دراسته هو إمكانية الحصول على حلول جاهزة ناجحة لمشاكل متكررة هى بعينها أو نظائرها ،فقد أصبح هذا من الأوهام والأخطاء وسوء فهم للتاريخ ، فقد أصبح التاريخ اليوم مدرسة لتخريج الإطارات السياسية ، ومن أهم مقومات الشخصية ، فالفهم الصحيح للتاريخ يعين على بناء الشخصية ووقايتها من الذوبان الذى يهددها ، وكما أن الإنسان يحتاج إلى ذاكرة ، فهو يحتاج إلى تاريخ ، لأن التاريخ هو ذاكرته القومية، وكما يمرض الأفراد لفقدان الذاكرة أو أضطرابها ، كذلك تمرض الأمم والشعوب لضياع تاريخها أو دخول التشويه والتشويش عليه .

وكان لابد - حضرات السادة - لمركز البحوث والدراسات التاريخية ، وهو مركز من المراكز والوحدات ذات الطابع الخاص بجامعة القاهرة ، أن يعمل على تنشيط وتطوير الدراسات التاريخية ، ويقوم بإعداد هذه الندوة عن تاريخ فلسطين .

حضرات السادة الزملاء والزميلات - لاشك أن ملتقى اليوم الذى يشترك فيه عدد كبير من المؤرخين ، يجمع بينهم هدف واحد هو التعريف بتاريخ فلسطين منذ أقدم

العصور حتى العصر الحديث ، وتاريخ فلسطين صفحة مشرقة ناصعةمن تاريخنا القومى، ففى فلسطين تركزت رسالات الله إلى البشر ، وبها تعلقت قلوب الملايين من مسلمين ومسيحيين ويهود ، وفى قدسيها التقت كل رسالات السماء حينما أسرى بالنبى محمد ﷺ من مكة إلى بيت المقدس فى تلك الرحلة النورانية التى ذكرها القرآن الكريم .

وعلى مدى التاريخ كله كانت فلسطين جوهرة متألقة تخلب البصر ، وتملأ القلب ، وتثير الوجدان ، وتجذب الناس من شرق وغرب ، وتشغل المؤرخين والجغرافيين والسياسيين والعسكريين والشعراء على السواء .

هى على خريطة العالم بقعة صغيرة ، ولكنها فى ضمير البشرية معنى كبير ، وفى كتاب التاريخ صفحات متألقة ، وإن لطختها دماء الغزاة والطامعين فى بعض الأزمان .

وإذا كانت الأطماع الأجنبية فى فلسطين قد بدأت بالحروب الصليبية فى العصور الوسطى ، أو اخر القرن الحادى عشر الميلادى ، فإنها لم تنته بنهاية الحروب الصليبية فى القرن الثالث عشر وما بعده ، وإنما عادت تطل برأسها وتخرج من جحرها فى العصر الحديث حينما أبتلت تلك الأرض الطيبة بالاحتلال الصليبى .

ولعل مما يلفت الانتباه ويثير الأسى أن الأطماع فى فلسطين تخفت دائما وراء قناع الدين ، والدين منها براء ، فعلى هذه الأرض التقت الديانات : الإسلام والمسيحية واليهودية لقاء محبة وإيمان ، وعليها أيضا التقت الجيوش لقاء عداوة وقتال .

ولم تشغل الأمة العربية فى عصرها الحديث بشئ كما شغلت بالقضية الفلسطينية ، التى عاشت فى ضميرها ووجدانها ، وأصبحت قضيتها الأولى التى شغلتها فكرا وقولا وعملا معظم سنوات هذا القرن الذى نعيش فيه ، والذى أوشك على نهايته .

سيداتى ، سادتى / أساتذتى وزملائى من شيوخ المؤرخين وشبابهم : لا أريد أن اقتطع من وقت ندوتكم الثرية بموضوعاتها ، ولا أحب أن تغلب على طبيعة المؤرخ المحترف ، أو أن يغرينى حق الزمالة بأن أخوض فى تلك الموضوعات فى هذه الكلمة الافتتاحية ، فحسبى أن أوجه إليكم الشكر خالصا على مشاركتكم فى هذه الندوة ، وأن أتمنى لأعمالها كل التوفيق والنجاح ، فنحن الأن فى مفترق طرق ، ومن حق فلسطين علينا جميعا أن يُسهم كل ذى فكر بفكره وعلمه ورأيه ، ولسوف يذكر لكم التاريخ أن المؤرخين فى مصر والوطن العربى لم يتخلوا عن رسالتهم ، ولم يبخلوا بعطائهم ، وإنما أدوا دورهم ، وقاموا بواجبهم الذى تفرضه عليهم مسئوليتهم العلميةالتاريخية ، وشعورهم الوطنى ، وانتمائهم العربى .

وبعد : فإن سعادتى كبيرة بهذه الندوة ، التى ، تضم نخبة ممتازة من المشتغلين بالدراسات التاريخية، الصفوة فى هذا الميدان ، ومن واجبى هنا - فى كلية الآداب - أن أتقدم بخالص الشكر وعظيم التقدير للسيد الأستاذ الدكتور مفيد شهاب رئيس جامعة القاهرة لأن تكون هذه الندوة الهامة تحت رعايته ، ولتشريفه الندوة وافتتاحها ، ولتشجيعه المستمر، ولما نجده دائما من سيادته من تشجيع ودعم وعون لاحد له ، لما فيه اثراء النشاط العلمى والثقافى والفنى بجامعة القاهرة .

ولا يفوتنى فى هذا الصدد إلا أن أحيي من هذا الموضع ، أساتذتنا الأجلاء النخبة الممتازة من رواد التنوير فى الدراسات التاريخية ، منهم من انتقل إلى الرفيق الأعلى ، ومنهم من لا يزالون يحملون الراية لإثراء المكتبة التاريخية العربية ببحوثهم ودراستهم .

كما أتقدم بخالص الشكر للأستاذ الدكتور محمد حمدى إبراهيم عميد كلية الأداب واللجنه التحضيرية لهذه الندوة وأخص بالشكر الزميل الأستاذ الدكتور حامد زيان غانم مدير مركز الدراسات التاريخية .

السيد الأستاذ الدكتور مفيد شهاب رئيس جامعة القاهرة

السيد الأستاذ الدكتور محمد حمدى إبراهيم عميد كلية الآداب

السيد الأستاذ الدكتور حامد زيان

حضرات السادة الأساتذة الزملاء

سيداتى وسادتى

اسمحوا لى فى النهاية أن أتوجه إلى حضراتكم بخالص الشكر ، وأرجو للندوة كل توفيق ونجاح والله من وراء القصد إنه نعم المولى ونعم النصير ...

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . . . .



كلمة الأستاذ الدكتور / محمد حمدي إبراهيم
عميد كلية الآداب ورئيس مجلس إدارة مركز البحوث والدراسات التاريخية

الأستاذ الدكتور مفيد شهاب رئيس جامعة القاهرة . . . .

الأستاذ الدكتور حسنين ربيع نائب رئيس جامعة القاهرة . . . . .

الأستاذ الدكتور حامد زيان مدير مركز البحوث والدراسات التاريخية . . . . . .

معالى الأستاذ / محمد صبيح أمين سر المجلس الوطنى الفلسطينى .

السادة الأساتذة الأفاضل والآجلاء ضيوف الندوة والمشاركين فيه ... أرحب بكم أجمل ترحيب باسم هذه الكلية العريقة وفى رحابها .. فكلية الآداب جامعة القاهرة سباقة دوما فى عطائها ورائدة فى أداء رسالتها وفعالة فى الأضطلاع بمسئوليتها سواء داخل مصر أو فى خارجها ويسعدنى أن أعلن اليوم أن مراكز البحوث التابعة للكلية والتى وصل عددها الآن إلى عشرة مراكز تحمل على عاتقها رسالة ربط هذه الكلية العريقة بالمجتمع ومشاكله .. ومن هذا المنطلق استقر عزم مركز البحوث والدراسات التاريخية على إقامة هذه الندوة عن تاريخ فلسطين ...

ذلك الجزء الغالى من تراب وطننا العربى .. وتلك البقعة الطاهرةالتى أريقت من أجلها وفى سبيلها أزكى الدماء على مر العصور والتى شهد ثراها أعظم التضحيات وأمجد البطولات ... وما من عربى من الخليج إلى المحيط إلا ويضنيه القلق ويعذبه الأسى ويعتصره الألم لكل كرب يحل بها ولكل جرح يدمى بنيها ... وبعد سنوات طويلة من الصراع حفلت بأنواع من النضال والكفاح وصنوف من التضحية والفداء ... وبعد حرب ضروس استمرت حتى أكلت الأخضر واليابس ... بعد هذه المعاناة التي لا

مثيل لها فى تاريخنا المعاصر يلوح الآن فى الأفق بريق يهدينا لدرب جديد ربما كان أجدى وأكثر فاعلية ... ألا وهو درب العقلانية والفكر الهادئ المتزن .

إنه دور الحل السياسى المتسلح بالدراسة الأكاديمية .. وهو دور أيا كان الرأى فيه يثبت الحق ولا يفرط فى المصلحة ويقنع بالمنطق دون أن يلوح بالتهديد أو يجأر بالصراخ ... ولا ريب أن العالم الآن يصغى للصوت المتعقل وتأسره الحجة المقنعة ويجذبه الأسلوب المتحضر .. وحتى ولو تجاوز عدونا حدوده وعبث بالقيم أو انتهك القوانين أو تحدى الأعراف فإن ذلك سيحسب دوما عليه لا له . . .

سيداتى سادتى . . .

وإيمانا منا فى وطننا العربى بأننا لم نفرط فى حق أمتنا وأننا حافظنا على مستقبل الأجيال التالية وأننا لم نترك وسيلة دون أن نجربها ولا دربا دون أن نطرقه .. فإننا نمضى اليوم فى طريق السلام الذى دعت إليه الأديان وحضت عليه الشرائع وحبذته القيم الإنسانية الرفيعة وأكده درس التاريخ على الدوام .. وأمتناالعربية بأسرها وهذا هو يقيننا جميعا لن نفرط أبدا فى حقها مهما كان السبيل الذى يوصلها الى ذلك الحق ... ولكن من حقها فيما أرى أن تجرب فى سبيل حل قضيتها كافةالطرق التى من شأنها أن توصلها إلى ذلك الحق وتقنع العالم به . . . .

ومن هنا أيتها السيدات والسادةيأتى دور العلماء والمؤرخين الذين يتحدثون بلغة الأدلة ويمنطق البراهين ويقنعون سواهم بالحجة العادلة والمنطق الرصين ... وهم بهذا يكملون دور رجال السياسة ويدعمونه ويرسخون فى الأذهان أنه ما ضاع حق وراءه مطالب ... وإننا فى مصر قلب الأمة العربية وعقلها نؤكد على الدوام أننا لسنا الذين نقرر للشعب الفلسطينى مايريد وأننا لا نتكلم باسمه .. بل نحن فى الحقيقة نتدارس قضيته ونتكاتف صفا واحدا معه ونؤازر كل مسعى من أجل السلام العادل والحقوق

المشروعة لهذا الشعب المكافح الذى لم يستسلم أبدا طوال تاريخه وعندما تختار فلسطين الحل الذى يرضى آمالها فنحن به جد مغتبطون ولاختيارها مباركون ....

وكل شخص فى الوطن العربى يعلم حق العلم أن مصر على مر التاريخ لم تقف موقف المتفرج ولم تكتف بالوقوف على الحياد بل كانت طرفا أساسيا فى القضية وجزءا لا يتجزأ من الصراع الدامى .. وأنها دفعت من دم أبنائها ومن ترابها الغالى ثمنا فادحا من أجل فلسطين الحبيبة ....

ونحن هنا لا نفاخر أو نتباهى بل نقرر فقط حقيقة تاريخية وحقائق واقعية وأيا كان الثمن الذى تكبدته مصر فهو ثمن زهيد لأنه يتناسب مع مكانتنا ومنزلتنا فى العالم العربى ولأننا نناصر أرضا غالية مقدسة ونقف إلى جوار إخوة أشقاء ونعضد قضية عادلة لا لبس فى شرعيتها ولا غموض .

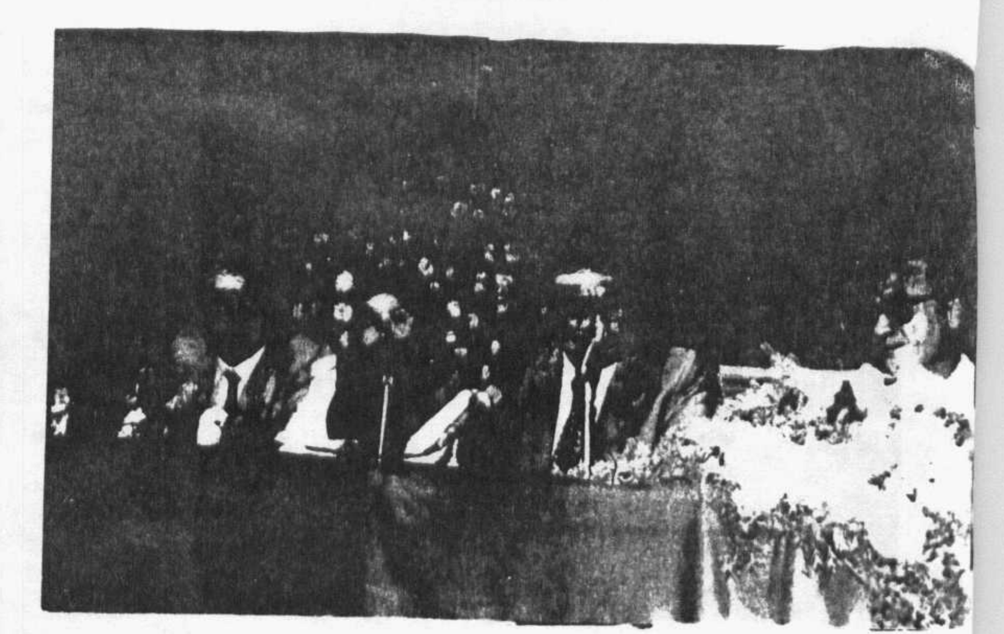
سيداتى وسادتى حضور الندوة الكرام . . .

أستمحيكم عذرا لأننى لست من المتخصصين فى علم السياسة ولكنني مصرى عربى يؤمن بالحق والعدل ويحترم القانون إلى درجة التقديس ... ومن هذا الموقع وحده اتكلم وأبدى رأي ... ولكننى فى نهاية الأمر لا أملك عن اقتناع حق تشخيص المشكلة . .. ومؤتمرنا هذا فى تصورى هو صاحب هذا الحق وصاحب الكلمة العلمية والمؤهل بحكم خبرة أعضائه وتخصصهم فى إبداء الرأى وتقديم المشورة ... وهذا ما أرجوه من أعماق قلبى لمؤتمركم وما أتمناه بصدق وباسم الكلية لكم ... وفى اعتقادى أن كل رأى حكيم وأن كل فكر حصيف متزن وأن كل نية مخلصة وفية لا بد وأن يقدر لها النجاح ويكلل مسعى أصحابها بالتوفيق ... وإنه لشرف لكلية الآداب ممثلة بمركزها للدراسات التاريخية والجامعة لقاهرة ممثلة بحضور رئيسها الأستاذ مفيد شهاب الخبير الدولى فى القانون والنجم المرموق فى حل المشاكل السياسية المستعصية والوطنى المخلص لجامعته ولبلاده ولوطنه لعربى ... أن يقام هذا المؤتمر تحت رعايته وبتعضيد منه من أجل فلسطين التى تحتل فى عالمنا العربى مكان الفؤاد من الجسم . . .

العلماء الأجلاء أعضاء الندوة الكرام . . .

فى ختام كلمتى هذه التى أتحدث فيها باسم الكلية أبتهل إلى الله أن يوفقكم إلى مافيه الخير وأن يكلل بالنجاح أعمال مؤتمركم هذ الذى يكتسب أهمية بالغة هذه الأيام العصيبة التى تحدق فيها الأخطار بأمتنا العربية .. وإنى لعلى ثقة من أعمال هذا المؤتمر سوف تؤتى بعون الله ثمارها ... وإن كل جهد وكل بحث سوف يسهم بعون الله في المضي قدما إلى الأمام بعزم ثابت وأمل وطيد واسمحوا لى سيداتى وسادتى أن أشكر باسمكم رئيس جامعتنا الأستاذ الدكتور مفيد شهاب الذى يدعم كليتنا دوما فى شتى مجالات نشاطها والذى نعتز على الدوام بحبه لكليتنا وافتخاره بدورها وتقديره الكامل لدورها وتاريخها .. وأرحب بكم مرة أخرى فى رحاب كلية الآداب جامعة القاهرة وأدعو المولى عز وجل أن يجعل فكركم السامى وعقلكم المستنير خير عون لكل عربى وأن يكتب لأبحاثكم أن تصبح النجم الساطع الذى يرشد أمتنا إلى ماهو أفضل وسط هذا الطوفان من الشرور والآثام ...

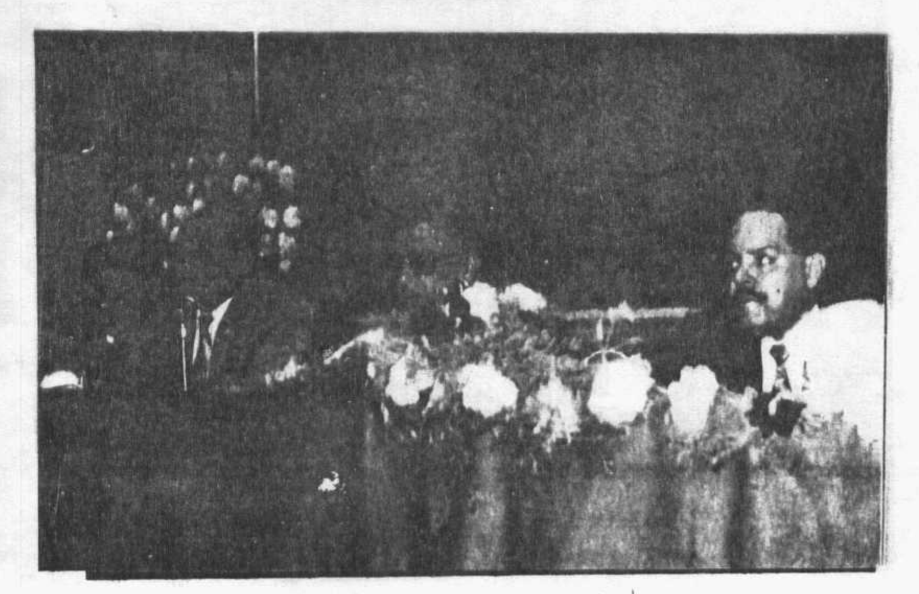
وتقبلوا خالص أمانى الخير والسعادة وطيب الاقامة فى وطنكم وبين عشيرتكم وأهلكم ...



جانب من حضور جلسات الندوة



جانب من حضور جلسات الندوة



جانب من حضور جلسات الندوة



جانب من حضور جلسات الندوة

فلسطين الموقع والموضع

« دراسة جيوبوليتيكية »

د. فتحى عبد الله فياض
أستاذ الجغرافيا البشرية المساعد بكلية التربية الأساسية بالكويت

يعتبر « رودلف كلن » أول من أبتدع اصطلاح الجيوبوليتيكيا فى عام ١٨٩٩م واعتبرها توأما للجغرافيا السياسية ، كما يعتبر البعض أن السير " هالفورد ماكيندر " أبو الجيوبوليتيكيا بنظريته التى وضعها للسيادة العالمية ، وقد استفاد الألمانى " كارل هاوسهوفر " ناظر مدرسة الجيوبوليتيكيا عام ١٩٢٤م من أولئك الرواد ولم تعد الجيوبوليتيكيا فى نظره توأما للجغرافيا السياسية فالجغرافيا السياسية باحثة عن حال الدولة بحدودها الثابتة بينما الجيوبوليتيكيا عن الدولة ككائن حى ينمو على حساب الآخرين .

ولعل الباحث يمكنه أن يستشف مما تقدم أن الجيوبوليتيكيا تعنى بدراسة المطالب المكانية للدولة ، أم الجغرافيا السياسية فتبحث فى ظروف مجالها الأرض ، ولعل الباحث أيضا يمكنه أن يقرر بما لا يدع مجالا لأدني شك أن عالم اليوم ، عالم القطب الواحد ، ليوحى للجميع أنه لا يختلف اليوم عن البارحة ، وأن اختيار موقع وموضع فلسطين جيوبوليتيكيا جاء تصديقا على هذا القرار .

ولا يجد الباحث حرجا فى الإدلاء اليوم بأن الجيوبوليتيكيا ولدت المانية بمفهوم سياسى كاتب تسلل لمفردات الجغرافيا كى يصنع سندا قويا تقوم عليه سياسة الغزو واستيلاء ذوى القوة على أراضى الغير واستنزاف مواردها الطبيعية وبث الفرقة ونشر

الذعر بين ذويها . ومع الأسف فمازالنا نجنى ثمار جيوبوليتيكيا الأمس بنفس المعنى وذات السلوك

وأن كان الهدف من بحثنا هذا هو بيان الأهمية الجيوبوليتيكية لموقع وموضع فلسطين . فلكى تحقق هذا الهدف لزم علينا تناول هذين العنصرين (الموقع والموضع) على النحو التالى : -

موقع فلسطين جيوبوليتيكيا :

تقع فلسطين فلكيا بين خطى طول ١٥ ٣٤ - ٤ ٣٥ شرقا ، ودائرتى عرض ٣ ٢٩ - ١٥ ٣٣ شمالاً .

ومن ثم تدخل ضمن أقليم مناخ البحر المتوسط الذى يتميز بحرارته وجفافه فى الصيف ودفئه ومطره فى الشتاء ، باستثناء صحراء النقب فى الجنوب ، وتتوسط فلسطين الوطن العربى بشطريه الأسيوى والأفريقى ولذلك فهى البوابة الشرقية لأفريقيا ومعبرا للهجرات وقت السلم والغزوات وقت الحرب ، و جيوبوليتيكيا فإن الطامع فيها يشطر الوطن العربى إلى قسمين ، ويقطع أتصاله المساحى .

ووقوع فلسطين على رأس الأخدود الأفريقى العظيم صنع حدها السياسى الشرقى مع الأردن - و جيوبوليتيكيا فإن هذا الحد الطبيعى يشتمل على وادى العربه بدءا من رأس خليج العقبة جنوبا والبحر الميت ، ونهر الأردن ، وبحيرة طبرية . منتهيا بسهل الحولة تجاه الشمال ، و جيوبوليتيكيا فإن هذا الحد الطبيعى يمنع المرور من أو إلى فلسطين إلا من أماكن معينة عبر أربعة جسور تربطها بشرق الأردن ، ويعتبر هذا الحد درعا يحمى فلسطين من الشرق .

وهب الموقع الجغرافى فلسطين واجهتين بحريتين إحداهما على البحر المتوسط وهى الأطول (٣٢٣كم) والأخرى على خليج العقبة بطول حوالى ١٠كم فقط ، وهذا جعل من الضرورى وجود أسطولين لحماية هاتين الواجهتين مما زاد قوة فلسطين بعامة والقوة البحرية بخاصة ، ومن ناحية أخرى جعل لفلسطين حصة فى خليج العقبة مع ثلاث دول عربية أخرى هى مصر والسعودية والأردن مما أضاف الأهمية الاستراتيجية ، علاوة على تسهيل العلاقات التجارية بين الدول المطلة على الخليج والبحر الأحمر وشرقى أفريقيا وجنوب شرقى آسيا .

كما وهبها الموقع الجغرافى عددا من الموانىء العريقة لاسيما الواقعة منها على البحر المتوسط مثل عكا وحيفا ، و جيوبوليتيكيا عملت هذه الموانئ على فتح واجهة بحرية أمام تجارة أوربا وأساطيلها سلما أو حربا خاصة بعد الإستفادة من وقوع ميناء حيفا على خليج عكا العميق فى إقامة قاعدة بحرية هامة لفلسطين . كما سهلت هذه الموانئ الاحتكاك الحضارى بالوجود الفينيقى فى الشمال والفلسطينى فى الجنوب منذ ٢٥٠٠سنة قبل الميلاد ، إضافة إلى ميناء إيلات على خليج العقبة بظهيره الصحراوى الممثل فى صحراء النقب ونظيره الغنى بموارده ممثلاً فى البحر الأحمر وشرق افريقيا والخليج العربى وشبه القارة الهندية وجنوب شرقى آسيا ، مكن فلسطين من الانفتاح تجاريا وعسكريا على خليج العقبة ومضيق تيران وموانئ البحر الأحمر وجزره ومضيق باب المندب ، ولم تعتمد إيلات على وظيفتها كميناء وحسب بل أصبحت مركزا صناعيا ونقطة من نقاط الجذب السياحى لاسيما وهى تتمتع بشتائها الدافئ .[1]

جذب الموقع الجغرافى لفلسطين أنظار الطامعين عبر التاريخ فسار عن طريقها الهكسوس إلى مصر وردهم أحمس الأول ، ودخل عن طريقها نابليون إلى بلاد الشام

---

(١) أطلق اسم إيلات على منطقة أم الرشراش المصرية تمشيا مع إسم المستر " إيلات " سفير فلسطين المحتلة ببريطانيا الذى بلغت به الحماسة إلى أن استبدل اسمه الشرعى باسم يحمل الاسم اليهودى إيلات ، وكان اسمه " الياهو ساسون " فاصبح " الياهو إيلات " .

بعد إحتلاله لمصر ، وهزمه عبد الله الجزار فى عكا فرده على عقبية خاسرا ، وتنازع عليها الحلفاء عند تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية بعد الحرب العالميةالأولى ، واستخدمها العرب معبرا لنشر الدعوة الإسلامية فى مصر وشمال افريقيا وبلاد الأندلس ، وترجع أطماع بريطانيا وغيرها من الدول الأوربية فى فلسطين إلى عهد بعيد ،وبالتحديد إلى عصر الحملات الصليبية ، لما يمثله موقع فلسطين من أهمية اقتصادية وعسكرية ودينية ، كما أن حملة بونابرت على مصر وبلاد الشام فى أواخر القرن الثامن عشر قد أثارت أطماع بريطانيا من جديد فى فلسطين ، ولذا دعت بريطانيا إلى المحافظة على ممتلكات الدولة العثمانية ، لتقف حاجزا فى وجه الدول الأوربية الأخرى ، ذات الأطماع الاستعمارية فى المنطقة .

وليس من شك فى أن بريطانيا لم تكن حريصة على مصالح الدولةالعثمانية بقدر ما كانت حريصة على مصالحها الاستعمارية فى المنطقة ، فهى تريد أن تبقى المنطقةضعيفة تحت سيطرة الدولة العثمانية ليسهل عليها احتلالها مستقبلا .

زاد من أهمية الموقع الجغرافى لفلسطين قربها من قناة السويس التى تعتبر شريانا حيويا لنقل تجارة الشرق الزراعيةوسلع الغرب الصناعية والبترول عصب الصناعة فى المشرق والمغرب ، فانعكس ذلك جيوبوليتيكياعلى اختيار بريطانيا فرض الانتداب على فلسطين (١٩٢٠ - ١٩٤٨م) تأمينا لطرق مواصلاتها إلى الهند عبر هذه القناة .

منح الموقع الجغرافى لفلسطين موارد إقتصادية متنوعة ، فقد أمدها البحر الميت بالعديد من الأملاح ذات الأهمية الاقتصادية مثل المغنسيوم وكلوريد البوتاسيوم الذى يدخل فى الصناعات الكيماوية ، ويقول الخبراء أن المخزون فى فلسطين من البوتاس يسد حاجة العالم كله لمدة مائتى عام ، وأمدها غور الأردن بمختلف أنواع الإنتاج الزراعى بعدما سادت التربةالبركانية الخصبة فى هضبة الجليل شمال

فلسطين ، أما صحراء النقب فقد أمدتها بالفوسفات والنحاس ولا يخفى على أحد الأهمية الاستراتيجية لهذه المعادن .

هيأ الموقع الجغرافى لفلسطين القام بدور هام كمركز للطرق البرية والبحرية والجوية لاسيما وأن تجارة الخليج العربى والجزيرة العربية ترد عبر البحر المتوسط ، وبترول ما بين الرافدين كان يجد طريقه إلى أوربا عبر ميناء حيفا الفلسطينى ، وزاد من أهميتها النقلية ارتباطها بشبكة من السكك الحديدية مع لبنان وسوريا والأردن ومصر والحجاز ، و جيوبوليتيكيا فالمسيطر على هذا الموقع يوقف هذه الحركة النقلية ويؤثر سلبا فى تجارة دول الخليج العربى التى ليس لها منفذا على البحر المتوسط .

وأخيرا فقد اختار الله سبحانه وتعالى موقع فلسطين كى تكون ملتقى للديانات الثلاثة اليهودية والمسيحية والإسلام ، ومركزا من مراكز الجذب الدينى على المستوى العالمى .

موضع فلسطين جيوبوليتيكيا :-

يمثل الموضع الرقعة الأرضية التى تقوم عليها الدولة ، ومن ثم فإن الموضع يمثل جزءا محدودا من الموقع الذى يبرز شبكة العلاقات الخارجية للدولة ، ومن الملاحظ أن خصائص الموضع شديدة المحلية ، وهى لذلك لا تتكرر وتمثل خصائص الموضع - أن جاز للباحث القول - البصمة التى تنفرد بها كل وحدة سياسية ،فلكل دولة جوانبها الموضعية الخاصة بها والتى تؤثر فى نموها وتطورها ، وكثيرا ما تكون عناصر الموضع هى التى أدت بالإنسان إلى إختيار البقعة التى يقيم عليها من بين المواضع المختلفة التى تقع فى الموقع الواحد ، ومن ثم وجدنا أن خصائص الموقع تتعلق بعامة العلاقات بين الدولة وما يجاورها من الدول الأخرى ، أما الموضع فمرتبط بجوانب محلية مباشرة .

ومن المعروف قانونا أن نطاق الدولة الأرض (الموضع) يعبر عنه بمشتملات المكان الذى تختص به ويخضع لسيادتها وحدها ، ولا تقتصر ملكية الدولة لاقليمها على سطح

الأرض ، وإنما تشمل أيضا الطبقات السفلى منه حتى ما لا نهاية فى العمق . كما تشمل المرتفعات الواقعة عليه من جبال وهضاب وتلال ،ومجارى مائية من أنهار وبحيرات وقنوات ، إضافة إلى البحار التى تلاصق شواطئها وطبقات الجو التى تعلوه

ومشتملات المكان بالنسبة لفلسطين تغطى رقعة من الأرض بلغت مساحتها نحو ٢٧ ألف كم٢ ، ومن ثم يمكننا مقارنتها ببعض المناطق ، ، فهى تكبر قليلا مساحة ويلز فى بريطانيا ، وتكاد تتساوى مع مساحة ولاية ميريلاند الأمريكية ، ، ويغلف هذا المكان حدودا أرضية بلغت جملة أطوالها ٩٧١ كم ، منها ٦٤٨ كم حدودا برية ، مع مصر حوالى ٢٥٥ كم ،والأردن ٢٣٨ كم ، ولبنان ٧٩ كم وسوريا ٧٦ كم ، إضافة إلى حدودها البحرية التى بلغت ٣١٢ كم ، تعاد البحر المتوسط بحوالى ١١١ كم ، وخليج العقبة بحوالى ١٠كم ، ومن ثم يصبح تلث (٣٣,٣ ٪) الحدود الفلسطينية حدودا بحرية ، وتأخذ فلسطين شكلا مستطيلا وحدودها مع جيرانها الأربعة طويلة ، و جيوبوليتيكيا تعتبر هذه نقطة ضعف أساسية ، لأن طول الحدود يشكل عبئا عسكريا ثقيلا .

تجاور فلسطين أربع دول عربية هى مصر التى تكبرها فى المساحة بأكثر قليلا من سبعة وثلاثين مرة ، وتكبرها فى السكان بنحو تسع مرات عام ١٩٩١م ، وسوريا التى تكبرها فى المساحة بنحو سبع مرات ، وفى السكان لأكثر قليلا من مرتين ، والأردن الذى يمثل عدد سكانه نحو ٥٦٪ من مجموع سكان فلسطين عام ١٩٩١م أما مساحته فتكبر مساحة فلسطين بأكثر من ثلاث مرات، ولبنان يمثل سكانه عام ١٩٩١م نحو ٤٥٪ من سكان فلسطين، ومساحته ٣٨٪ من مساحتها، وجيوبولوتيكيا فإن مجموع سكان الدول المجاورة لفلسطين [١] يتجاوز عددهم أحدى عشر مرة قدر سكان فلسطين عام ١٩٩١ هذا الضغط السكانى علاوة عل الضغط المساحى [٢] الذى يتجاوز ٤٢ مرة قدر مساحة فلسطين يمثلان بعدان يتدخلان بشكل مباشر أو غير مباشر فى إنضباط

---

(١) عدد سكان الدول المحيطة بفلسطين بلغ ٧٣,٦٦٥,٥٨٨ مليون نسمة عام ١٩٩١ م .
(٢) مساحة الدول المحيطة بفلسطين حوالى ١,٢٨٤,٣٥٦ كم٢

العلاقات الدولية والالتزام قدر الامكان بضبط النفس وحسن الجوار فى حل المتعلق من المشكلات العارضة .

أما واجهات فلسطين البحرية فمجموع أطوالها ٣٢٣ كم ، منها ٣١٣كم تمثل إطلالتها على البحر المتوسط ، و١٠كم إطلالتها على خليج العقبة وقد تقدم بنا أنه فى مثل هذه الأحوال يلزم امتلاك أسطولين للدفاع عن الدولة ومن ثم زيادة فى تنوع تسليحها وحجمه ، ومزيدا من القوة التى تكلف الكثير .

فمن المعروف أن لكل دولة بحرية تجاه سواحلها مصالح حيوية يجب أن تتولى حمايتها ضد الأخطار التى تتعرض لها من جهة البحر ، فالسواحل حدود للدولة فى طريق كل الدول ، فهى بذلك منطقة هجوم محتمل يجب أن تجهز بوسائل دفاع دائمة و جيوبوليتيكيا لا يكون هذا الدفاع فعالا الا اذا سيطرت الدولة على مسافة معينة من المياه المتاخمة لسواحلها ، وليست هذه السيطرة ضرورة استراتيجية فحسب ، وإنما هى أيضا ضرورة اقتصادية وصحية ، لاسيما فى مراقبة أعمال التهريب ، أو منع اقتراب السفن الموبوءة أو التى تخشى منها على الصحة العامة لسكانها ، ومن ثم تبسط فلسطين سيادتها على شريحة من البحر الاقليمى عرضها ٦ أميال بحرية [١]، علاوة على كونها تمتلك إطلالة على خليج العقبة طولها ١٠ كم تشترك بها مع ثلاث دول شاطئية هى مصر والسعودية والأردن ،وهو ما يمكنها من الاستغلال الاستراتيجى والاقتصادى والسياحى لجميع المناطق التى تنفتح عليها هذه النافذة (خليج العقبة) فى آسيا وافريقيا على السواء .

ومن حق الدولة البحرية أيضا التنقيب فى رصيفها القارى ، ومنحدرها القارى عن مكنونها من ثروات مختلفة ، جيبوبوليتيكيا فإن هذا يشكل المجال الحيوى للدولة ومن شأنه (أحيانا) أن يرقى بها إلى مصاف الدول ذات القوة الاقتصادية التى يحسب لها ألف حساب فى السياسة الدولية .

---

(١) الميل البحرى ١٨٥٢ مترا .

وإذا انتقلنا داخل هذا الاطار الحدودى ، فإن أول لافت للنظر هو طبيعة المكان ، فرغم صغر مساحة فلسطين إلا أنها تمتلك تمايزا طبيعيافريدا ، قد يكون مرجعه بنيتها الجيولوجية من ناحية ، ووقوعها بين أقليم مناخ البحر المتوسط واقليم المناخ الصحراوى (المتطرف) السائد فى الجزيرة العربية من ناحية أخرى .

فليس من شك فى أن هذه العوامل قد اسهمت فى تباين أشكال السطح ، والمناخ والتربة ، والغطاء النباتى وتأسيسا على ذلك يمكنا تقسيم فلسطين إلى أربعة أقسام طبيعية متمايزة : -

١ - *السهل الساحلى* :-

يقع غرب فلسطين على ساحل البحر المتوسط ، ويمتد من رأس الناقورة شمالا على الحدود الفلسطينية اللبنانية إلى نقطة الحدود الفلسطينية المصرية فى رفح جنوبا بطول يبلغ نحو ٣١٣كم ، يتسع فى الجنوب ويضيق فى الشمال ، ويتراوح اتساعه بين ٧كم عند عكا فى الشمال ، و٣٥كم فى الجنوب عند غزة .

ويقسم جبل الكرمل (٥٤٦مترا فوق سطح البحر) هذا السهل إلى قسمين ، سهل عكا فى الشمال وسهل مرج بن عامر فى الجنوب ، وجيوبوليتيكيا فإن هذه المنطقة فضلا عن غناها فى الانتاج الزراعى ومواردها المائية فهى منطقة حربية تتحكم فى حيفا وعكا ، فضلا عن أنها أصلح مكان للعبور من البحر المتوسط إلى نهر الأردن ، لاسيما من جسر بنات يعقوب .

وإلي الجنوب مباشرة من جبل الكرمل ومدينة حيفا يمتد سهل فلسطين حتى الحدود الفلسطينية المصرية فى الجنوب عند رفح ، وهو يبدأ ضيقا جدا قرب حيفا ثم يأخذ فى الاتساع بالتدريج ، حتى يصل اتساعه قرب يافا إلى حوالى ٣٥ كم ، **وينقسم هذا السهل إلى قسمين : -**

أ) **سهل مارونا** ، وهو يمتد بين حيفا ويافا ، يشتهر بزراعة الحبوب وأشجار الموالح والحمضيات وخاصة البرتقال .

ب) **سهل شفالة** ، هو يشمل المنطقة السهلة لساحلية التى تمتد من يافا حتى الحدود المصرية الفلسطينية فى الجنوب .

وعلى الرغم من طول سهل فلسطين واتساعه إلا أن ضحالة مياهه واستقامة ساحله لم يمكنا من الناحية الجيوبوليتيكية من قيام أى موانئ حربية أو تجارية تخدمه .

٢ - نطاق الهضاب الوسطى :-

كان فى الاصل هضبة واحدة ثم مزقتها الإنكسارات إلى عدة هضاب من الشمال إلى الجنوب وهى : هضبة الجليل ، هضبة السامرية ، هضبة اليهودية .

أ) هضبة الجليل : تعتبر امتدادا طبيعيا لجبال لبنان ، ويتراوح إرتفاعها فى المتوسط ما بين ٣٥٠ مترا - ٧٠٠ مترا فوق سطح البحر ، وتطل بحافة إنكسارية شديدة الانحدار على سهل مرج بن عامر الخصيب ، وهى أغنى هضاب فلسطين من الناحية النباتية ، كما أن بها أعلى القمم الجبلية وهى التى يطلق عليها اسم جبل الجرمق ،يبلغ ارتفاعه ١٧١٠ أمتار ، ويقع إلى الشمال من مدينة صفد ويشرف عليها ، وتنحدر الهضبة بشدة فى ثلاث اتجاهات، غور الاردن شرقا ، والسهل الساحلي غربا ، وسهل مرج بن عامر جنوبا ، ومن ثم تكون فى صالح لبنان عسكريا وفى غير صالح فلسطين .

وإلى الجنوب من هضبة الجليل الأعلى تقع مرتفعات الجليل الأدنى التى تصل إلى أقصى ارتفاع لها فى جبل طابور قرب مدينة الناصرة إذ يصل ارتفاعه إلى نحو ٥٦٢ متر فوق سطح البحر ، ويضم الجليل الأدنى سهولا أهمها سهل البطوف ويرتفع عن سطح البحر من ١٢٢ مترا - ١٥٢ مترا ، وتحيط به تلال يصل ارتفاع بعضها إلى ٥١٨ مترا ، وإلى الجنوب من سهل البطوف سهل طرمان الذى يعلو سطح البحر بمقدار ٢١٣ مترا ، ومن المعروف جيوبوليتيكيا أن الجبال ظاهرة دائمة ومرئية وعريضة

وعرة وقليلة السكان ، وهي الصفات التى تجعل هضبة الجليل صالحة لإقامة التحصينات الدفاعية ضد أى غزو خارجى .

ب) *هضبة السامرية* : تقع إلى الجنوب من سهل مرج بن عامر ، ومنها يمتد جبل الكرمل فى اتجاه الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى عند خليج عكا ، وقد قامت على سفوحه المشرفة على هذا الخليج ميناء حيفا ، ومن أشهر قمم هضبة السامرية سليمية أوعيبال ويبلغ ارتفاعه حوالى ٩٤٠ مترا ، وجبل الطور وارتفاعه ٨٨٠ مترا ويحتضن هذان الجبلان مدينة نابلس ، ومن أبرز مدنها مدينة جنين .

جـ) *هضبة اليهودية* : ويطلق عليها أيضا هضبة الخليل ، ويتراوح الارتفاع فى هذه الهضبة ما بين ٦٠٠ مترا - ٩٠٠ مترا ، وتتميز بأن بها بعض قمم الهضاب التى أحيانا ما تكون مستقيمة ، أو منحدرة ومقطمة ، لاسيما تجاه وادى غور الأردن ، ومن جبالها جبل الكبر ، وتل العاصور ، وجبل الزيتون ، وأبرز المدن هنا القدس ، بيت لحم ، الخليل ويطة والفاهرية ، وجيوبوليتيكيا فإن موضع هذه الهضبة انفرد باحتواء مدينة القدس والمزارات الدينية العديدة التى تجذب السياحة الدينية من جميع أنحاء العالم ، بالإضافة إلى أن موضع القدس عاصمة فلسطين يعتبر موضعا مثاليا فى توسطه فلسطين من ناحيةوسهولة الدفاع عنه من ناحية أخرى ، ومن المعروف جيوبوليتيكيا أن توسط العاصمة للدولة أفضل من تطرفها ، وقد أضفى موضع القدس عليها مركزا للشبكة النقلية بطول فلسطين وعرضها .

٣ - منخفض وادى الأردن :-

يطلق عليه منخفض الغور ، وهو عبارة عن وادى انكسارى يشرف عليه المرتفعات من الغرب ، والشرق بانحدار شديد ، ويمتد من الشمال إلى الجنوب مسافة ٤٠٠كم تقريبا ، ويختلف مستواه عن سطح البحر من منطقة إلى أخرى ، فالقسم الشمالى منه حتى منتصف المسافة بين سهل الحولة وطبرية فوق مستوى سطح البحر ، وبعدهايأخذ المستوى فى الانخفاض حتى يبلغ اقصاه إلى الشمال من البحر المتوسط وبعدها يعود

إلى الارتفاع تدريجيا وخاصة جنوب هذا البحر بالاتجاه نحو خليج العقبة .

ويجرى فى هذا المنخفض نهر الأردن الذى يبلغ طوله حوالى ٢٦٠ كم ، ويتكون من قسمين :

أ) **نهرالشريعة** : ويطلق هذا الاسم على النهر قبل دخوله بحيرة طبرية ويتشكل من الروافد الاتية : -

- بانياس ، وينبع من بلدة بانياس فى السفح الجنوبى الغربى لجبل الشيخ فى الأراضى السورية ، ثم يتجه نحو الجنوب الغربى حيث يلتقى بنهر الحصبانى .
- الدان ، وينبع من تل القاضى وله جريان ثابت بخلاف نهر الحصبانى و نهر بانياس.
- الحصبانى ، وينبع من لبنان من جبل حرمون إلى الشمال الشرقى من حاصبيا .

وتلتقى هذه الينابيع الثلاثة بعدما يلتقى بها نهر بريفت الذى يأتيها من مرجعيون فى لبنان ، على بعد ١٤ كم ، شمالى سهل الحولة مشكلة نهرا واحدا هو نهر الشريعة ، وجيوبوليتيكيا فإن هذه الشبكة النهرية تعمل على توطيد العلاقة الدولية بين كل من سوريا ولبنان وفلسطين إضافة إلى أن سهل الحولة يعتبر من الناحية العسكرية مكشوفاً أمام هضبة الجولان السورية .

ب) **نهرالأردن** ، ويطلق هذا الاسم على النهر الممتد من مخارج بحيرة طبرية حتى مصبه فى البحر الميت ، ويرفد نهر الأردن من الشرق رافدان هما : اليرموك وينبع من منطقة حوران في سوريا ويصب في نهر الاردن جنوب بحيرة طبرية ويبلغ طوله ٧٥ كم ، والزرقاء ، وينبع من بلدة الزرقاء شمال عمان ويصب فى نهر الأردن جنوب بحيرة طبرية ويبلغ طوله ٧٥ كم ، أما من الغرب فيرفده نهر جالوت ، وينبع من بيسان داخل فلسطين ويصب فى نهر الأردن بالقرب من بيسان .

وتجدر هنا ملاحظة أن نهر الأردن كثير التعاريج عميق الوادى مما يحول دون الاستفادة من مياهه فى الرى ولا وجود للمدن والقرى في هذا القسم لارتفاع درجة حرارة الجو ، أما بحيرة طبرياالتى يقترب شكلها من شكل حبة الكمثرى ، ومساحتها ١٦٥كم٢ ، وينخفض مستواها بمقدار ٢٠٢ مترا عن مستوى سطح البحر ، وعمقها فيصل إلى حوالى ٥٠ مترا ، غير أن ماؤها عذب ، وبها كثير من الاسماك ، ويشتغل عدد من سكان البلدان المجاورةبصيدها كما هو الحال فى مدينة طبرية الواقعة إلى الجنوب الغربى منها ومدينة سمخ الواقعة إلى الجنوب منها .

وجيوبوليتيكيا فإن منخفض غور وادى الأردن يعتبر من الحدود الطبيعية المنيعة التى تشكل دوما الحماية فلسطين من الشرق وقد ألحت صرامة هذا الحد فى ضرورة إقامة بعض الجسور لتيسير الحركة من وإلى فلسطين من هذه الجبهة .

ويقوم بين سهل الحولة وبحيرة طبرية ، وعلى نهر الأردن جسر بنات يعقوب ، الذى يجتازه طريق برى يصل حيفا ودمشق عن طريق صفد والقنيطرة ، ويجتاز النهر فيما بين بحيرة طبرية والبحر الميت أربعة جسور هى من الشمال إلى الجنوب بالترتيب ، جسر المجامع ، وجسر الملك حسين بين عمان والقدس ، وجسر دامية بين عمان ونابلس ، وجسر اللنبى بين القدس وعمان شمال البحر الميت .

وجيوبوليتيكيا أيضا كان تجفيف بحيرة الحولة التى كانت أنهار الحصبانى وبانياس والدان تصب فيه ، وتحويلها إلى سهل يضيف ٦٠ ألف دونم للاراضى الصالحة للزراعة وحسب ، بل سهل حركة الجيوش بكثافة عالية عبر هذا السهل عكس ما كان عليه الحال وهو مستنقع كبير تزداد مياهه فى الشتاء بفعل السيول والقنوات وذوبان الثلوج من قمم الجبال المحيطة لاسيما مرتفعات الجولان فى سوريا ، مما جعله موطنا للأمراض وخصوصا الملاريا .

وضمن غور الأردن فإن البحر الميت يمثل شكلا فريدا من أشكال السطح فهو من أعلى البحيرات الطبيعية فى العالم ملوحة ، ومن أكثر بقاع الأرض إنخفاضا حيث يقع سطح الماء به على عمق ٤٠٠ مترا ولارتفاع نسبة الأملاح به فهو يخلو من أشكال الحياة.

وجيوبوليتيكيا فإن البحر الميت يعتبر عقبة أمام الحركة ، وبالتالى فيمثل درعا لحماية هذه البقعة من الحدود بين فلسطين وشرق الأردن كما أن وجوده فى ظل مطر جبال القدس جعله أفقر المناطق فى الموارد وفى السكان ، ومن ثم أضعفها فى المقاومة .

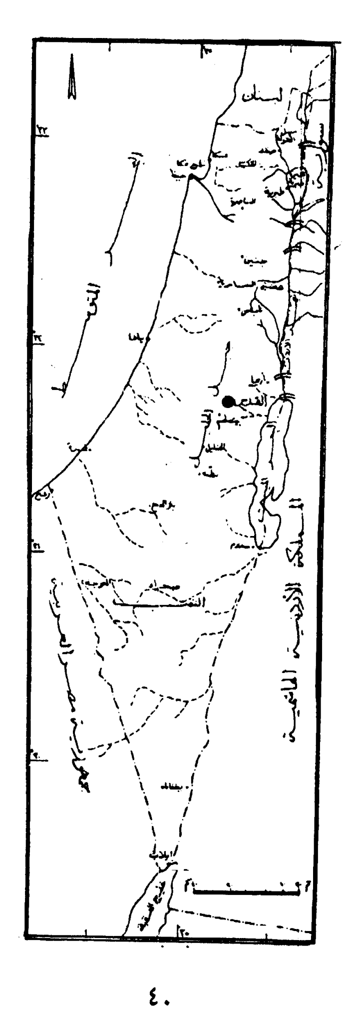
أما وادى العربة فيبلغ طوله حوالى ١٦٨ كم ومتوسط اتساعه ١٥ كم ، وتشرف عليه حواف الاخدود الأفريقى العظيم بحوائط مستقيمة ، وبالطبع يقع جزءه الشمالى تحت سطح البحر ثم يأخذ فى الارتفاع كلما بعدنا عن البحر الميت إلى أن يصل إلى مستوى سطح البحر فى منتصفه وعند خليج العقبة .

وترفد وادى العربة العديد من الأودية الآتى ترتيبها من الشمال إلى الجنوب : وادى الحسا ، وادى فيدان ، وادى البوبويدة ، وادى جور قرب معان فى الأردن ، وأخيرا وادى اليتم جنوب بلدة القويرة شمال العقبة ، ومن الغرب ترفده الاودية الآتى ترتيبها من الشمال إلى الجنوب ، وادى قسين الذى يرفده جنوب البحر الميت وبلدة سدوم مباشرة ، وادى عشش ، ثم واديا الجدافى وباران ، ورغم ذلك فالمنطقة تكاد تكون خالية تماما من السكان إلا من بلدة سدوم شمال الوادى ، وإيلات فى الجنوب .

ولما كان نهر الأردن والاغوار مانعا طبيعيا يصعب اجتيازه ، فقد بنيت القلاع الحصينة فى صفد ، وطبرية ، والطور وغيرها من المناطق المرتفعة لاحكام السيطرة على الغور وعلى جميع المسالك المؤدية إلى دمشق .

٤ - صحراء النقب :-

إلى الجنوب من هضبة اليهودية أو الخليل تمتد هضبة النقب أو صحراء النقب التى تبلغ مساحتها ١٢,٠٧٦ كم٢ ، أو ما يعادل ٤٦,٧٪ من المساحة الكلية لفلسطين ، وهو على هيئة مثلث قاعدته فى الشمال تمتد من البحر الميت إلى البحر المتوسط عند غزة ، ورأس المثلث إلى الجنوب عند خليج العقبة .



وجيوبوليتيكيا فإن هذه المنطقة أخطر المناطق الاستراتيجية فى الوطن العربى ،فهى حلقة الوصل والمعبر البرى الوحيد بين شمال شبه الجزيرة العربية وسيناء ، وبعبارة أخرى بين مصر وبقية دول الوطن العربى الاسيوى ، فالمتحكم فى هذه المنطقة يعزل شطرى الوطن العربى عن بعضهم البعض ، ومن ثم يعمل على فقدان الامل فى قيام كيان عربى واحد .

ويتميز القسم الشمالى من صحراء النقب بكونه هضبة متوسطة الارتفاع تغطيها تربة رملية مختلطة بالجير مكونة من فتات التكوينات الايوسينية الجيرية التى حملتها الرياح ، ومن ثم سميت تربة اللويس الصحراوية وهى خصبة تجود بمحاصيل الشعير إذا توافرت مياه الرى ، حيث يمكن زراعة نصف مساحتها تقريبا ، والمنطقة المحيطة بالعوجة قرب الحدود المصرية الفلسطينية تمثل اكثر مناطق النقب عمرانا .

كما تتمثل اهمية النقب فى موقعها الاستراتيجى الهام ، فهى طريق فلسطين إلى البحر الاحمر ، ولما كانت أهمية فلسطين تنبع أساسا من قربها من مصر ، فقد دعا اللورد كتشنر حكومته لتأمين فلسطين كحصن لبريطانيا فى مصر وكحلقة وصل برية مع الشرق .

كما أن صحراء النقب هى المتنفس السكانى المستقبلى لفلسطين ، فنظرة سريعة إلى توزيع السكان فى فلسطين توضح أن الغالبية العظمى تحتشد فى بقعة ضيقة جدا على الساحل الممتد من حيفا إلى يافا وبعمق يتردد بين ١٥ - ٢٠ كم فقط ، أما النقب فهو خال تقريبا من السكان وهذا الفراغ فى حد ذاته مصدر خطر عظيم ، ومن ثم وجب إقامة الخطوط الدفاعية الحصينة العميقة ، وإعادة توزيع السكان ، ولما كانت النقب تشكل أقل قليلا من نصف مساحة فلسطين فإنها من أقدر الأماكن على استيعاب المزيد من السكان ، وتخفيف ضغطهم على المناطق الشمالية ، ولا يتأتى ذلك إلا بتحويل مجرى نهر الأردن لاستصلاح أرض النقب الجرداء ، وتجميع الأمطار وتحويل نهر اليركون ومد خطوط أنابيب البترول لنقله من ميناء إيلات إلى بئر السبع . والي اشدود علي ساحل البحر المتوسط فيكون عوضا عن قناة السويس.

وجيوبولوتيكيا تعتبر صحراء النقب ارضا مكشوفة وخاصة من الجوانب حيث تنعدم المواقع الطبيعية، ومن هنا تأتي أهمية القوات الجوية في حمايتها ، وتكمن خطورتها في انشاء المحطة النووية في ديمونة الواقعة علي بعد ٢٠ ميلا الي الجنوب من بئر سبع .

والخلاصة أن فلسطين وأن تعددت أقسامها وتميز الواحد منه عن الآخر من الناحية الطبيعية فإنها بلاد صغيرة لا يمكن لأى قسم منها أن يقوم وحده من غير معاونة الاقسام الأخرى له فقد أختص بعضها كالسهل الساحلى مثلا بالقرية الخصبة والمطر الكافى والمياه الباطنية الغزيرة وكلها عوامل ساعدت على كثرة الإنتاج الزراعى الذى يمكن الاعتماد عليه فى تغذية سكان المناطق المجدبة الداخلية كهضبة اليهودية وصحراء النقب ووادى الأردن .

ومجمل القول فى طبيعة أرض فلسطين أنها فى صالح المدافعين إذ حبتها الطبيعة بعوائق وموانع تسهل مهمة الاحتماء ، فهى على حد قول آدم سميث ، أرض المخابئ والعراقيل والمفاجآت لا تجد الجيوش الكبيرة فرصة لحمايتها .

والله ولى التوفيق ، ، ، ،

عروبة فلسطين فى التاريخ القديم

أ.د. محمد خليفة حسن احمد
قسم اللغات الشرقية
كلية الآداب - جامعة القاهرة

مقدمة :

يمدنا التاريخ السياسى لليهود بعدد من الأدلة التاريخية على عروبة فلسطين فى التاريخ القديم ، وهذه الأدلة نستمدها من تتبع مسيرة التاريخ السياسى اليهودى قبل ظهور الإسلام ونود أن نشير فى البداية إلى أن تاريخ فلسطين القديم تاريخ عربى منذ بدايته وإلى الوقت الحالى وفى التاريخ القديم بالذات بدأ تاريخ فلسطين عربيا وانتهى عربيا ، والدعاوى الصهيونية المستندة إلى يهودية فلسطين فى التاريخ القديم دعاوى ليس لها سند من التاريخ العام لفلسطين .كما أن مسيرة التاريخ اليهودى القديم لا تؤكد هذا الإدعاء الصهيونى الحديث كما سنوضح فى هذا البحث .

لقد بدأ تاريخ فلسطين عربيا بفضل الهجرات العربية المتوالية إلى المنطقة السورية من قلب شبه الجزيرة العربية ، والتى أدت إلى تكوين البنية السكانية الأساسية للمنطقة السورية ، وبخاصة فلسطين الواقعة على الحدود الشمالية لشبه الجزيرة العربية مباشرة ،

وتأثير الهجرات العربية القديمة لم ينحصر فقط فى المنطقة السورية ولكنه امتد إلى بلاد أخرى من الشرق الأدنى القديم من بينها شعوب بلاد النهرين التى أدت الهجرات العربية إليها إلى تغيير بنيتها السكانية ، وفرض السيادة العربية السامية عليها ، وتحويل سكانها من هندوأوروبيين إلى عرب ساميين ، وقيام أول دولة عربية سامية فى بلاد النهرين وهى دولة أكد كما امتد تأثير الهجرات العربية من شبه الجزيرة إلى مناطق أخرى من بينها مصر القديمة وكانت شبه جزيرة سيناء بؤرة احتكاك العرب بالمصريين ، ومنطقة ربط لمصر القديمة بشبه الجزيرة العربية ، وقد تغلغلت القبائل العربية إلى هذه المنطقة ومنها امتد تأثيرها إلى الأجزاء الشرقية من مصر القديمة ، ومن الجنوب العربى توجهت الهجرات العربية أيضا إلى الساحل الشرقى للقارة الأفريقية ، فتكونت جاليات عربية على هذا الساحل توغل بعضها إلى داخل القارة الأفريقية ، وكان لها تأثيرها فى البنية السكانية للساحل الشرقى ، وقد ظهر هذا التأثير فى مجال اللغة والعادات والتقاليد وانتهى الأمر فى بعض هذه المناطق إلى تطور لهجات عربية سامية مثل اللغة الحبشية القديمة . وكثير من اللهجات المنتشرة فى المنطقة الشرقية من القارة ، وأدى التغلغل العربى إلى شبه جزيرة سيناء وبعض المناطق الشرقية من مصر القديمة إلى احتواء اللغة المصرية القديمة على عناصر ومظاهر لغوية سامية كثيرة .

هذا ولم تغير الأوضاع السياسية فى الشرق الأدنى القديم من هذه الصبغة العربية لشعوب المنطقة السامية، فالقوى الأجنبية الدخيلة على المنطقة ، كالفرس والمصريين والرومان وغيرهم لم تتمكن من تغيير البنية السكانية للمنطقة ، كما أنها أيضا لم

تتمكن من فرض فكرها وثقافتها على شعوب هذه المنطقة فظل تفكيرها عربيا ، وظل سكانها محتفظين بأصولهم العربية التى قوتها وغذتها الهجرات العربية التى لم تتوقف على الإطلاق ، ولم يكن للأوضاع السياسية والعسكرية فى الشرق الأدنى القديم تأثير عليها ، وذلك لأنها هجرات طبيعية لم تأخذ شكلا عسكريا تجعلها مرفوضة من سكان المنطقة ، ولكنها اتخذت شكل الدخول السلمى إلى مناطق لم تعرف حدودا فاصلة فيما بينها فضلا عن أن هذه المناطق كانت الامتداد الجغرافى الطبيعى لشبه الجزيرة العربية ، ومن هنا فقد كانت منطقة جذب مستمر لسكان شبه الجزيرة كلما ألمت بهم ضائقة اقتصادية واستجابة لظروف ااقتصادية لشبه الجزيرة جعلتها منطقة طرد مستمر لسكانها ، وجعلت مناطق الوديان المحيطة بها وجهة مستديمة لإنسان شبه الجزيرة العربية.

وكما بدأ تاريخ فلسطين القديم بداية عربية فقد انتهى تاريخ فلسطين القديم أيضا نهاية عربية ، فقد أدى ظهور الإسلام فى شبه الجزيرة العربية وانتشاره فى بيئة الشرق الأدنى القديم إلى عودة البنية العربية للشرق الأدنى القديم خاصة المنطقة السامية منه والتى أدى بها التطور السياسى والفكرى إلى الاستقلال والبعد تدريجيا عن أصلها العربى القديم ، فنشأت مجموعة من الشعوب القوية التى كونت حضارات مستقلة عن الحضارة العربية وإن كانت هذه الأخيرة قد استمرت واحدة من أهم روافد هذه الحضارات الناشئة والمتطورة وهى الحضارات المستقلة لبلاد النهرين وللمنطقة السورية .

وقد صاحب هذه الاستقلال الحضارى لشعوب المنطقة السامية استقلال لغوى حيث تطورت لهجات هذه المناطق المرتبطة بالعربية كأصل لها ، ونتج عن هذا التطور ظهور عذذ من اللغات السامية المستقلة عن اللغة العربية ومن أهمها الأكدية فى بلاد النهرين والكنعانية والفينيقية والآرامية والعبرية وكلها لغات سامية ظهرت فى المنطقة السورية، كما استقلت اللغة الحبشية التى تطورت على أرض غير سامية استنادا إلى أصول عربية، وهكذا نجد أن شعوب المنطقة السامية التى ساعدت على تكوينها الهجرات العربية من شبه الجزيرة العربية قد استقلت سياسيا وفكريا وتطورت لغاتها المتأثرة بالعربية إلى لغات مستقلة كونت لنا أسرة اللغات السامية المعروفة .

وقد أدى ظهور الإسلام إلى التأكيد من جديد على الأصول العربية للشعوب السامية، وبفضل الإسلام عادت هذه الشعوب السامية إلى حظيرةالعروبة بعد دخولها فى الإسلام ، ووحد الإسلام هذه الشعوب دينيا ، كما وحد بينها فكريا من خلال وحدة اللغة التى أصبحت لغة الخطاب والكتابة لكل سكان الشرق الأدنى القديم بعد سيادة الإسلام فيه ، وعادت اللغة العربية من جديد لتحتل مكانها القديم حين كانت أصلا لكل اللغات السامية قبل أن تستقل هذه اللغات عنها ، ولم يكتف الإسلام بجعل العربية أصلا للغات المنطقة ولكنه وحد شعوب هذه المنطقة لغويا من خلال القضاء على كل اللغات السامية فى المنطقة ، وجعل العربية لغة للشرق الأدنى القديم ولسانا للدين الجديد ، وهو الوضع الذى استمر إلى يومنا الحالى ، وهكذا بدأ تاريخ فلسطين القديم عربيا وانتهى مع ظهور الإسلام عربيا وظل بعد ظهور الإسلام عربيا إلى يومنا الحالى ،

وعروبة فلسطين مسألة ليست فى حاجة إلى تأكيد من خلال التاريخ العربى الإسلامى ، وهو أمر مفروغ منه ، والأدلة عليه لا تحصى كما أن الدراسات التاريخية التى أثبتت ذلك كثيرة على اختلاف العصور الإسلامية ، بل إن عروبة فلسطين تجاوز أعنف أزمة كان من الممكن أن تؤثر فيها وهى أزمة الوجود الصليبى فى فلسطين ، والذى لم ينجح أبدا فى طمس معالم فلسطين العربية ، لذلك فإن هدف هذا البحث ليس إثبات عروبة فلسطين من خلال التاريخ العربى الإسلامى ،ولكن إثبات هذه العروبة من خلال التاريخ السياسى والدينى لليهود ، وهو الأمر الأكثر صعوبة ، والأخطر على المستوى الفكرى ، والأجدى نفعا فى الرد على المزاعم الصهيونية الحديثة التى تحاول أن تنفى عروبة فلسطين فى الماضى من أجل تأصيل الوجود الصهيونى فيها فى الحاضر ، وسنحاول فى الصفحات التالية تقديم الأدلة على عروبة فلسطين علي المستويين التاريخى والدينى على الرغم من تداخل هذين المستويين فيما يتعلق بالتاريخ اليهودى العام .

أدلة عروبة فلسطين فى التاريخ السياسى لليهود :

من المقدمة السابقة ، أتضح لنا أن القاعدة السكانية الأساسية لفلسطين فى التاريخ القديم السابق على الإسلام قاعدة عربية ، فالبنية السكانية لفلسطين أعتمدت أعتمادا كليا على الهجرات القادمة من شبه الجزيرة العربية ، وهى هجرات قديمة سابقة على الهجرة التى كونت العبريين .

وقد تسببت هذه الهجرات العربية المتكررة فى تكوين طبقات من البنية السكانية فى فلسطين تظهر فى تعدد الشعوب الساكنة لهذه المنطقة مع تعدد الهجرات العربية إليها ،

ورغم تعدد هذه الطبقات إلا أنها جميعا تشترك فى أصلها العربى ربما باستثناء الطبقة التى حملتها هجرة أو غزو شعوب البحر للساحل السورى والتى خلفت وراءها بعض جماعات استقرت فى بعض بلدان الساحل السورى ،بل إن بعضها تجاوز المنطقة السورية إلى مصر حيث غزت هذه الجماعات بعض الأجزاء الشمالية واستقرت فيها .

والجدير بالذكر أن الهجرة التى كونت العبريين فى فلسطين هى هجرة عربية تمت فى بدايات الألف الثانى ق.م مؤكدة الأصل العربى للعبريين ومدعمة لكون هذه الهجرة المسماة بالهجرة العبرية ممثلة لطبقة من الطبقات السكانية فى منطقة فلسطين ،وهى بالتأكيد من الطبقات المشتركة فى القاعدة العربية وفى الأصل العربى ، فالعبريون أنفسهم حملتهم إحدى الهجرات العربية إلى فلسطين مسبوقين بهجرات عربية سابقة وملحوقين أيضا بهجرات عربية تالية ومكونين لطبقة من الطبقات السكانية فى المنطقة إلى جانب الكنعانيين والفينقيين والفلسطينيين والمؤآبيين والأدوميين واليبوسيين وغيرهم من الأقوام الذين سكنوا فلسطين فترات متوالية وانصهروا جميعا فى شكل واحد متعدد الطبقات ومشترك فى القاعدة العربية الأساسية .

ومسألة انفصال العبريين عن أصولهم العربية مسألة ليست محسومة تاريخيا ، فحدود فلسطين وحدود شبه الجزيرة العربية ليس لها وجود حقيقى فى التاريخ القديم ، وفلسطين ما هى إلا امتداد لشبه الجزيرة العربية فى الشمال ودليلنا التاريخي والدينى على ذلك أن سكنى إبراهيم عليه السلام كانت على الأرجح فى منطقة تجمع بين جنوب فلسطين وشمال شبه الجزيرة العربية وقد انتشر الإسماعيليون أبناء إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام إلى الجنوب بينما كان انتشار أبناء إسحاق بن إبراهيم عليه السلام إلي

الشمال. وفي عصرهم هذا كان الكل عربا فاسماعيل واسحاق عليهما السلام اخوان من أبيهم إبراهيم عليه السلام . تجمعهما الأسرة الواحدة والمستقبل الواحد ، وقد شاء مؤرخو التوراة أن يجعلوا انفصال اسحاق عن اسماعيل انفصالا تعسفيا ، فاعتبروا اسحاق البداية للتاريخ العبرى القديم ، وأنكروا التاريخ الإسماعيلى تماما ، وفسروا أحداث هذه الفترة تفسير يخدم عملية الفصل هذه وكأنها حدثت زمن إبراهيم عليه السلام بالصاق الوعد الإلهى به ، وتحقيق وراثة هذا العهد فى اسحاق وذريته وإنكار نسبة العهد إلى اسماعيل وذريته ، بل والتعتيم كلية على أخبار اسماعيل ، وكأنه لم يكن موجودا على الإطلاق وقد بدأت هذه العملية بإنكار بكورة اسماعيل لكون أمه أجنبية ، ومنح البكورة لإسحاق رغم أنه الأصغر وذلك لأن أمه إسرائيلية ، وكذلك إنكار كون إسماعيل عليه السلام هو الذبيح وتحويل هذا الشرف إلى اسحاق عليه السلام ويجب أن نشيرإلى هذه العملية المحرفة والمشوهة للتاريخ ليست من فعل أبناء العصر نفسه فهم أبناء النبوة وأبناء الأسرة الواحدة ،ولكنها عملية من تركيب العقل اليهودى المتأخر الذى عمل علي طمس المعالم العربية لعصر إبراهيم واسماعيل واسحاق عليهم السلام بالتركيز على اسحاق وذريته وإهمال اسمعاعيل وذريته وتفسير أحداث هذه الفترة لصالح الإتجاه العنصرى الذى ساد اليهود فيما بعد وطغى على كتاب ومدونى التوراة وبقية كتب العهد القديم .

وعلى الرغم من ذلك فهناك براهين تشير إلى أن مسيرة التاريخ العبرى القديم اتجهت وجه مؤدية إلى تفريغ فلسطين من سكانها العبريين بالذات دون غيرهم من الأقوام العرب الآخرين الذين سبقوا العبرانيين فى الوجود فى فلسطين حيث حملتهم هجرات عربية سابقة على هجرة العبريين .

بالإضافة إلى أن مسيرة تاريخ هؤلاء الأقوام العرب لم تؤد بهم إلى ترك فلسطين كما حدث مع العبريين لأسباب كانت أحيانا إقتصادية وفى معظم الأحيان كانت سياسية ، والذى نجم عنه ما نسميه بعمليات التفريغ أو الإخلاء السياسى لفلسطين من سكانها العبريين والتى نوجزها فى الأحداث الاقتصادية والسياسية الهامة التالية : -

أ - الخروج الاقتصادى إلى مصر :

يمكن القول إن أول عملية إخراج للعبريين من فلسطين قد تمت فى ظروف اقتصادية خالصة ولم يكن للسياسة دور فيه على الإطلاق ، ونقصد بهذه العملية خروج يعقوب وبنيه وذريته فى هجرة جماعية إلى مصر هربا من المجاعات والظروف الاقتصادية الصعبة التى مرت بها منطقة فلسطين خلال هذه الفترة والتى أكدتها المصادر الدينية كالتوراة والقرآن الكريم ، وإسلاميا يمكن أن تضيف سببا دينيا لهذه الهجرة اليعقوبية وهو ارتباط الهجرة بنبوة يعقوب ويوسف عليهما السلام ، وما يتعلق بذلك من دروس دينية وأخلاقية تتصل بعلاقة يوسف بإخوته من ناحية وجهود الدعوة إلى التوحيد فى مصر بواسطة يوسف عليه السلام من ناحية أخرى ، وهذا السبب الدينى لا تهتم به المصادر اليهودية . كما أن التوراة فى روايتها لقصة يوسف تغفله إغفالا تاما ، فالهجرة إلى مصر خالية من المضمون الدينى في الرواية اليهودية لها ، وهى بلا شك رواية متأخرة متأثرة بالاتجاه الرامى إلى عنصرة التاريخ الإسرائيلى القديم ، وخصوصية التوحيد تعد إحدى وسائل هذه العنصرة ، وهى تعنى فى هذا الخصوص أن خصوصية التوحيد فى الإسرائيليين لا تسمح بالضرورة بنشره خارج بنى إسرائيل ، ومن هنا خلت قصة يوسف عليه

السلام فى التوراه من الهدف الدينى الساعى إلى نشر التوحيد والدعوة إليه بين غير الإسرائيليين .

لذلك فالخروج إلى مصر زمن يعقوب ويوسف عليهما السلام من وجهة نظر المصادر اليهودية لم يكن خروجا دينيا أى لتحقيق أهداف دينية ، ولكنه صور على أنه خروج إقتصادى لمقاومة الجوع الذى حل بالأرض ، والذى يهمنا فى هذه المسألة أن الخروج قد تم بصرف النظر عن دواعية وأهدافه ، وبنظرة فاحصة إلى أسماء بنى إسرائيل الذين جاءوا إلى مصر يتضح أن الهجرة إلى مصر اشتملت على كل ذرية يعقوب عليه السلام الذين أصبحوا فيما بعد رؤوس أسباط بنى إسرائيل أى أنهم يمثلون علية القوم خاصة فى ارتباطهم بالنسب اليعقوبى من ناحية ، وارتباط الأحداث الدينية أو التاريخ الدينى لبنى إسرائيل بهم من ناحية أخرى ، وهذا يعنى أن أرض فلسطين قد خلت تماما من العنصر الأساسى والهام فى بنيةالجماعة العبرية أوالإسرائيلية فى فلسطين وأن ما بقى من الإسرائيليين فى فلسطين ممن لم يهاجروا مع يعقوب وبنيه إنما يمثلون أراذل القوم وضعفائهم الذين لا يملكون المقدرة السياسية أو الدينية على الاستمرار فى الوجود وهذا يدل على أن أرض فلسطين من بعد هجرة يعقوب عليه السلام لم تكن واقعة تحت أى سيادة للعبريين بسبب هذا النزوح الجماعي لعلية القوم ورؤسائهم الدينيين والسياسيين إن صح هذا التعبير الأخير، حيث لم يكن هناك تاريخ سياسى بالمعنى المعروف لهذا الاصطلاح .

ولكى نؤكد هذا لابد من الرجوع إلى سفر التكوين فى التوراة الذى حدد لنا الشخصيات الإسرائيلية التى هاجرت مع يعقوب عليه السلام ولا بد أيضا من

الرجوع إلى سفر العدد الذى جدد لنا أعداد الخارجين من مصر زمن موسى عليهما السلام لكى نعلم بالدليل الإحصائى أن البنية الأساسية للإسرائيليين كجماعة زمن يعقوب عليهما السلام لم يكن مقرها فلسطين ، ولكنها كانت تعيش خارج فلسطين ، وفى مصر بالذات حتى زمن الخروج من مصر ، ومن الدخول إلى مصر زمن يعقوب والخروج منها زمن موسى قرابة خمسة قرون عاشها الإسرائيليون بعيدا عن أرض فلسطين .

ففى سفر التكوين نقرأ : وهذه أسماء بنى إسرائيل الذين جاؤا إلى مصر ، يعقوب وبنوه : بكر يعقوب رأوبين .... وبنو شمعون ... . وبنو لاوى ....

وبنو يهوذا .... وبنو يساكر .... وبنو زبولون ....

جميع نفوس بنيه وبناته ثلاث وثلاثون ...... وبنو جاد ...... وبنو أشير ...... وبنو بنيامين .... وابن دان حوشين .... وبنو نفتالى .. (١) " جميعهم بالإضافة طبعا إلى أبناء يوسف عليه السلام الذين ولدوا أصلا فى مصر ، وهذه المجموعةالمذكورة هم أبناء يعقوب الأثنى عشر روؤساء أسباط بنى إسرائيل فيما بعد، وهذا يعنى خلو فلسطين من القاعدة أو البنية السكانية الأساسية للإسرائيليين أى المنتسبين إلى يعقوب نفسه حيث يقول سفر التكوين ، جميع النفوس ليعقوب التى أتت إلى مصر الخارجة من صلبه ما عدا نساء بنى يعقوب جميع النفوس ست وستون نفسا وابنا يوسف اللذان ولدا له فى مصر نفسان ، جميع نفوس بيت يعقوب التى جاءت إلى مصر سبعون (٢) وفى نص سابق تأكيد على أن الإسرائيليين الذين قدموا إلى مصر أتوا ومعهم ممتلكاتهم ومواشيهم أى أنهم لم يتركوا شيئا ذا قيمة عند رحيلهم من فلسطين ، يقول النص :

« وحمل بنو إسرائيل يعقوب أباهم وأولادهم ونساءهم فى العجلات التى أرسل فرعون لحمله وأخذوا مواشيهم ومقتناهم الذى اقتنوا فى أرض كنعان وجاءوا إلى مصر ، يعقوب وكل نسله معه بنوه وبنو بنيه معه وبناته وبنات بنيه وكل نسله جاء بهم معه إلى مصر » (٣) .

وعبارة « أخذوا مواشيهم ومقتناهم الذى اقتنوا فى أرض كنعان » عبارة لها دلالة خاصة فهى تعنى أن هجرة يعقوب وبنيه لم تكن هجرة مؤقتة إلى مصر تنتهى بانتهاء المجاعة فى فلسطين ولكنها كانت هجرة جماعية غير مؤقتة وربما للاستقرار النهائى فى مصر ، ولنا فى طول الفترة التى قضاها الإسرائيليين فى مصر دليل قوى على ذلك ، فهى فترة تقترب من خمسة قرون كاملة ممتدة بين زمن يعقوب فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد إلى زمن موسى فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، كما أن التوراة تؤكد فى أكثر من موضع على أن بنى إسرائيل سيصبحون أمة فى مصر بمعنى أن الهجرة إليها ليست هجرة مؤقتة : « فكلم الله إسرائيل فى رؤى الليل ، فقال أنا الله وأنا إله أبيك ، لا تخف من النزول إلى مصر لأنى أجعلك أمة عظيمة هناك » (٤) .

ويؤكد سفر الخروج على هذا بعد إحصاء أسماء بنى إسرائيل الذين أتوا إلى مصر : « وهذه أسماء بنى اسرائيل الذين جاءوا إلى مصر مع يعقوب جاء كل انسان وبنيه رأوبين وشمعون ولاوى ويهوذا ويساكر وزبولون وبنيامين ودان ونفتالي وجاد وأشير ، وكانت جميع نفوس الخارجين من صلب يعقوب سبعين نفسا ولكن يوسف كان فى مصر ومات يوسف وكل أخوته وجميع ذلك الجيل ، وأما بنو إسرائيل فأثمروا وتوالدوا ونموا وكثروا كثيرا جدا وامتلأت الأرض بهم » (٥) .

تشير هذه الاقتباسات السابقة إلى أن الإسرائيليين هاجروا إلى مصر هجرة تامة حاملين مواشيهم وممتلكاتهم ، وانقطعت صلتهم بفلسطين ، ومارسوا حياتهم الطبيعية فى مصر حيث كثروا وأصبحوا جماعة كبيرة كما يدل الإحصاء الذى ذكرته التوراة لأعداد الخارجين من مصر أيام موسى عليه السلام : « فارتحل بنو اسرائيل من رعمسيس إلى سكوت نحو ست مائة الف ماش من الرجال عدا الأولاد .... وأما إقامة بنى اسرائيل التى أقاموها فى مصر فكانت أربع مئة وثلاثين سنة » (٦) ، هذا وقد وصفت الأرض التى اتجه اليها الاسرائيليون بعد خروجهم من مصر بأرض الفلسطينيين : « وكان لما أطلق فرعون الشعب أن الله لم يهدهم فى طريق أرض الفلسطينيين مع أنها قريبة لأن الله قال لئلا يندم الشعب إذا رأوا حربا ويرجعوا إلى مصر » (٧) ، وفى نفس هذا الموقع تذكر التوراة أسماء الأقوام الساكنين الأرض التى سيدخل إليها الإسرائيليين : " ويكون متى أدخلك الرب أرض الكنعانيين والحيثيين والأموريين والحويين واليبوسيين التى خلف لآبائك أن يعطيك أرضا تفيض لبنا وعسلا .. " (٨) .

كل هذه النصوص تحمل لنا اعترافات توراتية بأن الأرض التى اتجه إليها الخارجون من مصر لم تكن أرضا إسرائيلية ، ولكنها أرض فلسطينية ، كما أن شعوبا أخرى تواجدت فى هذه المنطقة أو حولها ، ولم يكن الإسرائيليون واحدا من هذه الشعوب حسب النصوص التوراتية وذلك بسبب تواجدهم فى مصر ويحصى لنا سفر العدد (٩) أعداد الخارجين من مصر حسب أسباط بنى اسرائيل فى السنة الثانية لخروجهم ، والإحصاء يخص الخارجين للحرب من كل سبط ولا يشتمل على أعداد من هم أقل من عشرين عاما أو على النساء والشيوخ والأطفال : " فكان

المعدودون منهم لسبط رأوبين ستة وأربعين ألف وخمس مائة ... المعدودون منهم لسبط شمعون تسعة وخمسين ألفا وثلاث مائة ... والمعدودون لسبط جاد خمسة وأربعين ألف وست مائة وخمسين ...... والمعدودون منهم لسبط يهوذا أربعة وسبعين ألفا وست مائة " وهكذا مع بقية الأسباط إلى أن يصل عددهم جميعا : " فكان جميع المعدودين من بنى إسرائيل ست مئة ألف وثلاثة وخمس مئة وخمسين وأما اللاويون .. فلم يعدوا بينهم " (١٠) والغرض من إعطاء هذا الإحصاء التوراتى لبنى إسرائيل إثبات أن الوجود الفعلى للإسرائيليين خلال هذه الفترة التى بدأت بهجرةيعقوب عليه السلام لم يكن فى أرض فلسطين كما يظهر من هذه الأعداد الضخمة للخارجين من مصر زمن موسى عليه السلام من ناحية ، وكما يبدو من تسمية فلسطين بأرض الفلسطينيين فى التوراة ذاتها وخلال نفس هذه الفترة ، وكمايتضح أيضا من أن رؤساء أسباط بنى إسرائيل كانوا على رأس المهاجرين إلى مصر ، وأن هذه الأسباط لم تتكاثروتتوالد إلا خارج فلسطين وفى مصر بالذات ، ولم يكن لها وجود فعلى فى فلسطين فى الفترة من القرن الثامن عشر ق.م وحتى الخروج من مصر فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد .

ب - الغزو الآشورى لفلسطين وأثره فى التكوين السكانى :

الحادثة التاريخية التالية ذات التأثير فى التغيير فى البنية السكانية لفلسطين هى حادثة الغزو الآشورى لمنطقة فلسطين فى القرن الثامن قبل الميلاد ، ففى عام ٧٤٣ق.م ، بدأ تجلات بيلاسر الثالث (٧٤٥ - ٧٢٧ ق.م) فى شن مجموعة حملات على المنطقة السورية انتهت فى عام ٧٣٨ ق.م بخضوع معظم الولايات السورية وشمال فلسطين لحكم تجلات بيلاسر الثالث ودفع الجزية له (١١) .

وقد اختلفت حملات تجلات بيلاسر عن سابقيه فى أنها لم تكن حملات لجمع الجزية ولكنها كانت غزوا كاملا واستيطانا حيث طبق تجلات بيلاسرنظام الضم الكامل للمناطق المغزوة إلى ملك أشور كما طبق سياسة تهجير وترحيل جماعات من السكان فى المناطق التى تم فتحها ، واستبدالهم بسكان جدد ، واجراء تعديلات فى البنية السكانية بهدف القضاء على عناصرالتمرد من خلال ترحيلهم وإحلال غيرهم بدلاً منهم ، فيقضى بذلك على كل استمرار للمقاومة وقطع سبل إمدادها وهى سياسة سنها تجلات بيلاسر الثالث وانتهجها ملوك آشور من بعده (١٢) ،ولمقاومة الغزو الآشورى دخلت إسرائيل الشمالية مع الولايات الآرامية فى المنطقة السورية فى اتحاد عسكرى ضد الآشوريين ، بينما رفضت مملكة يهوذا فى الجنوب الانضمام إلي هذا التحالف ، وقد انقض تجلات بيلاسر الثالث على هذا التحالف ودمره من خلال عدة حملات بدأت عام ٧٢٤ ق.م ، ونتج عنها إخضاع مملكة اسرائيل الشمالية والمدن الفلسطينية المتمردة خاصة مدينة غزة ووصل بحملاته إلى وادى العريش حيث أسس قاعدة عسكرية هدفها منع المساعدة المصرية عن هذا التحالف (١٣) وفى عام ٧٣٣ ق.م بعث بعدة حملات أخرى إلى مملكة اسرائيل الشمالية نتج عنها احتلال " عيون وابل بيت معكة ويانوح وقادش وحاصور وجلعاد والجليل وكل أرض نفتالى وسباهم إلى آشور " (١٤) .

وفى عام ٧٢١ ق.م سقطت السامرة عاصمة الشمال الفلسطينى ، وكان ذلك حسب رواية العهد القديم فى السنة التاسعة لهوشع أخذ ملك آشور السامرة وسبى اسرائيل إلى أشور وأسكنهم فى حلح وخابور نهر جوران وفى مدن مادى " (١٥) .

والذى يهمنا فى هذه التفاصيل التاريخية ما يخص بالتغيرات السكانية التى أجراها ملوك أشور فى منطقة فلسطين ، فتطبيقا لنظام الضم المباشر للمناطق الخاضعة لحكم

أشور وسياسة الإحلال السكانى القائم على سبى وتهجير السكان وإحلالهم بسكان آخرين إما من بلاد آشور ذاتها أو من البلاد المجاورة لفلسطين، فإن هذا النظام الآشوري تم تطبيقه حرفيا علي سكان فلسطين فعلى حسب النصوص الواردة فى سفر الملوك الثانى نجد أن النتيجة النهائية للغزو الآشورى للشمال الفلسطيني هى سبى سكان هذه المناطق وتهجيرهم إلى اشور وإسكان غيرهم فى أماكنهم ففى أحد هذه النصوص نقرأ : " فسبى اسرائيل من أرضه إلى آشور إلى هذا اليوم . وأتى ملك آشور بقوم من بابل وكوث وعوا وحماة وسفروايم وأسكنهم فى مدن السامرة عوضا عن بنى إسرائيل فامتلكوا السامرة وسكنوا فى مدنها ... فكانت كل أمة تعمل آلهتها ووضعوها فى بيوت المرتفعات التى عملها السامريون كل أمة فى مدنها التى سكنت فيها ، فعمل أهل بابل سكوث بنوث وأهل كوت عملوا نرجل وأهل حماة عملوا أشيما ... " (١٦)، ويوضح هذا النص أن الأقوام الذين حلوا مكان الاسرائيليين فى السامرة وغيرها استوطنوا هذه المناطق ، ومارسوا فيها حياتهم العادية بما فى ذلك حياتهم الدينية كم كانوا فى مناطقهم الأصلية فى بابل وغيرها من مدن بلاد النهرين وكذلك فى حماة وغيرها من المدن المحيطة بفلسطين والواقعة تحت الغزو الآشورى فالسياسة الآشورية كما هو واضح اعتمدت اعتمادا كليا على الإبدال والاحلال لسكان المناطق المغزوة ، فأحدثت بذلك خلخلة فى البنية السكانية لهذه المنطقة ، وفى نص آخر يدعو ملك آشور أورشليم وسكانها إلى عقد صلح معه هذا نصه : " اعقدوا معى صلحا واخرجوا إلىّ ... حتى آتى وآخذكم إلى أرض كأرضكم أرض خبز وكروم أرض زيتون وعسل وأحيوا ولاتموتوا ولا تسمعوا لحزقيا (ملك يهوذا) (١٧) ومعنى هذا النص أن عقد الصلح مع ملك آشور لا يعفى سكان أورشليم من تركها إلى أرض أخرى يحددها ملك شور لمعيشتهم إما فى بلاد النهرين أو فى مناطق أخرى تابعة للحكم الآشورى .

وتأكيدا لسياسة الإبدال والاحلال هذه تذكر المصادر التاريخية أن عدد الذين تم ترحيلهم من مدينة السامرة وحدها إلى أعالى بلاد النهرين وإلى ميديا تبلغ حسب وثائق سرجون الثانى (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م) - الذى يعتقد أن السامرة سقطت فى عصره - تبلغ ٢٧,٢٩٠ إسرائيليا [١٨] وقد حل بها سكان جدد مرحلون من بابل وعيلام وسوريا بواسطة سرجون وأسرحدون فى سرو نابالوس ملوك أشور [١٩] وهناك إشارات إلى أن بعض سكان بلاد النهرين تم تهجيرهم لسكنى بعض المناطق التى غزاها الآشوريون ومن بينها شكيم [٢٠] .

وقد أدى الغزو الآشورى للشمال الفلسطينى إلى أضعاف البنية السكانية للإسرائليين فى الشمال حيث تسبب الغزو الآشورى فى تهجير أعداد كبيرة من الشماليين إلى الجنوب هربا من السبى الآشورى ومن ناحية أخرى تم بالفعل سبى أعداد أخرى كبيرة تم تهجيرها إلى بلاد النهرين ويمكن القول أن شتاتا فعليا قد وقع بالشماليين أثر فى ظروفهم التاريخية فيما بعد فقد كانت هناك أقليات إسرائيلية مشتتة فى عمون وسوريا وفينيقية وهناك اسرائيليون استقروا فى منطقة حوران وفى منطقة أشور ذاتها ، وغيرهم تم تهجيرهم إلى ميديا .

ولم يتوقف هذا التأثير الآشورى عند حد تشتيت الإسرائيليين الشماليين ، ولكن كان للشتات الشمالى شأن كبير فى تطور اليهودية ذاتها خاصة أن أعداد المشتتين الشماليين فاقت بكثير أعداد المشتتين من الجنوب [٢١] ومن هذه الآثار اختلاط التراث الشمالى الإلوهيمى بالتراث الجنوبى اليهودى [٢٠] .

ومن هذا نرى أن الغزو الآشورى لفلسطين فى القرن الثامن قبل الميلاد أدى إلى إخلاء الشمالى الفلسطينى من سكانه الإسرائليين ، وتهجيرهم إجباريا إلى مناطق متفرقة فيما

سماه علماء التاريخ للشرق الأدنى القديم بالشتت الشمالى أى الشتات الذى وقع بسكان الجزء الشمالى من فلسطين ، والذين لم يقع بهم التهجير الإجبارى هربوا إلى الجنوب الفلسطينى ، وأصبح الشمال خاليا من السكان الإسرائيليين فيما عدا قلة قليلة خضعت للآشوريين بدون مقاومة ، فأبقى الآشوريون على بعضهم وهجروا بعضهم الآخر ، فقد كانت هذه سياسة عامة للآشوريين بصرف النظر عن طبيعة العلاقة بينهم وبين الشعب المغزو ، وقد رأينا أنه حتى فى حالات عقد الصلح مع الآشوريين وقبول حكمهم لم يتنازل الآشوريون عن هذه السياسة .

وتاريخيا يمكن القول أن هذا الوضع الخاص بالشمال الفلسطينى استمر ولم يزل بزوال الآشوريين بعد ظهور القوة البابلية الجديدة فى بلاد النهرين ومنافستها للآشوريين على حكم بلاد النهرين وتغلبهم أخيرا على الاشوريين ،وإسقاطهم لحكمهم ، لكى يبدأ عصرجديد تماما فى تاريخ الشرق الأدنى القديم وهو عصر البابليين الكلدانيين الذى هو بالنسبة إلى أوضاع الشرق الأدنى وأوضاع فلسطين بالذات ما هو إلا امتداد للعصر الآشورى المنصرم .

ونعود فنلخص من جديد التأثير الآشورى على البنيةالسكانية للشمال الفلسطينى فنقول إن سياسة تفريغ المنطقة الشمالية من سكانها الإسرائيليين بواسطة الآشوريين انتهت إلى تشتت السكان الإسرائيليين فى مناطق متعددة فى الشرق الأدنى سواء فى بلاد النهرين ، أو فى أجزاء من المنطقة السورية خارج فلسطين ، كما أن جماعة من الشماليين فرت إلى الجنوب حيث يهوذا ، وأن هذه الجماعات الفارة أو المهاجرة إجباريا لم تعد ثانيةإلى المنطقةالشمالية خاصة بعد زوال الملك الاشورى ، وذلك لأن الحكم البابلى استمر على نفس سياسة الحكم الآشورى فى المناطق المغزوة ، وهى سياسة الضم

المباشر والتغيير فى البنية السكانية فاستبدل السكان الأصليون بسكان آخرين من بلاد النهرين أو من المناطق المحيطة بفلسطين والواقعة تحت الحكم الآشورى أو البابلى .

هذا بالنسبة إلى الوضع فى الشمال ، أما الجنوب ففى البداية تمكن من الهروب من مصير الشمال وذلك برفض الدخول فى التحالف الذى حدث بين الشمال والآراميين ضد الآشوريين ، ولكن هذا الوضع تغير فى عهد سنحريب (٧٠٤ - ٦٨١ ق.م) حين قرر حزقيا ملك يهوذا (٧١٥ - ٦٨٧ ق.م) عدم دفع الجزية لآشور إحساسا منه فى البداية بهدوء نسبى من جانب سرجون وضعف من جانب ابنه سنحريب ، ففى بداية حكمه سمح بظهور تحالف جديد ضد الآشوريين ضم ملك صور والعديد من المدن الفينيقية ، وضم كذلك عسقلان وعكا وموأب وأدوم وعمون ، وتعهدت مصر بمد يد العون إلى المتمردين ضد الحكم الآشورى فى عصر سنحريب ، وقد انضم حزقيا ملك يهوذا فى الجنوب إلى هذا التحالف .

وأمام هذا التحالف اضطر سنحريب إلى إرسال حملة فى عام ٧٠١ ق.م ورد ذكرها فى العهد القديم (الملوك الثانى / ١٨ : ١٣ - ١٦) وأيدتها الكتابات المتخلفة عن عصر سنحريب نفسه (٢٤) وقد نتج عن هذه الحملة إسقاط ملك صور وإبداله بملك آخر بعد هزيمة المدينة ، وقد أدى سقوط صور إلى إسراع بقية المدن المتمردة إلى إعلان ولائها لسنحريب ودفعها الجزية وكذلك فعلت موآب أدوم وعمون ، وواصل سنحريب مسيرته إلى الجنوب حيث يهوذا وعسقلان وعكا كما هزم الجيش المصرى الذى خرج لنجدة عكا وأسقط كل المدن الفينيقية (٢٥).

ثم تفرغ سنحريب ليهوذا فدمر أكثر من أربعين من مدنها المحصنة وطبق على سكان هذه المدن نفس النظام الآشورى فى التعامل مع أهالى المناطق المفتوحة ، حيث قام

بتهجير سكان هذه المدن ، وفرض حصارا على حزقيا وبقية جيشه داخل أورشليم ، ويقدر عدد المهاجرين فى هذه الحملة على يهوذا بمائتى ألف ومائة وخمسين يهوديا حسب الوثائق الخاصة بسنحريب (٢٦) .

وقد أشارت الحفائر فى لاخيش إلى بقايا ما يقرب من ١٥٠٠ جثة يعتقد أنها نتيجة إحدى المذابح التى قام بها لسنحريب فى المنطقة (٢٧) وانتهى الأمر بحزقيا إلى عقد صلح مع سنحريب كانت شروطه قاسية ومدمرة ليهوذا حيث أخذت أجزاء من يهوذا وأعطيت للملوك أشدود وغزة ، وطالب سنحريب بجزية مضاعفة أرهقت حزقيا فى جمعها والذى وهب أيضا بعض بناته كمحظيات لسنحريب وتم إرسالهن إلى نينوى (٢٨) وعاد حزقيا إلى التمرد مرة أخرى ضد آشور منتهزا الأوضاع السياسية الداخلية فى بلاد النهرين والمناوئة لحكم سنحريب وطامعا فى المعونة العسكرية المصرية لاسترداد المواقع التى خسرها من يهوذا ، وقد بعث إليه سنحريب طالبا استسلامه ، ويأتى رفض حزقيا تعبيرا عن أخذه بنصيحة النبى اشيعا من ناحية ، وعن خوفه من أن يكون فى الاستسلام نهاية يهوذا والتهجير الكامل لسكانها وإحلالهم بسكان أخرين من ناحية أخرى (٢٩).

وهكذا يتضح أن الغزو الآشورى لكل من الشمال والجنوب الفلسطينى قد أدى إلى إسقاط الشمال تماما وتهجير أعداد كبيرة من سكانها الإسرائيليين ، ويكفى أن نذكر أن مدينة واحدة هى السامرة قد تم تهجير ٢٩,٢٩٠ من سكانها إلى بلاد النهرين ومناطق أخرى مثل ميديا وغيرها وأن سكانا من هذه المناطق الخارجية تم إحلالهم بدلا من الإسرائيليين المهجرين أو المرحلين من الجزء الشمالى ، وبالنسبة للجزء الجنوبى من فلسطين فعلى الرغم من أنه لم يسقط تماما فى يد الآشوريين وأن العاصمة الجنوبية ظلت بعيدة عن منالهم إلا أن دمارا كبيرا قد حل بمناطق متعددة اشتملت على مايزيد عن

أربعين مدينة جنوبية ، وأن سياسة التهجير الإجبارى والإحلال قد طبقت فى هذه المدن التابعة للجنوب ويكفى أن نشير إلى أن السبى الذى وقع زمن سنحريب بلغ مائتى ألف ومائة وخمسين يهوديا جنوبيا حسب وثائق عصر سنحريب فضلا عن الذين قتلوا فى الحروب منهم ، ولعل أخطر ما فى هذه المسألة التغيرات الجذرية للبنية السكانية للشماليين أولا ولليهوديين ثانيا حيث حل أقوام أجانب فى مناطقهم حسب السياسة الآشورية مماأدى إلى نقص ملحوظ فى أعداد الإسرائليين خاصة وزيادة ملحوظة فى أعداد الأجانب الوافدين مكانهم ، ومن الأمور ذات الدلالة الهامة أيضا نوعية السكان الذين تم تهجيرهم ، فهم يمثلون فى الحقيقة صفوة المجتمعين الإسرائيلى واليهودي ، حيث لم يترك الآشوريون سوى ضعفاء القوم وأراذلهم الأ ـر الذى ترك أثره على طبيعة الحياة ذاتها فى هذه المناطق التى أصبحت مشلولة بسبب فقدان الطاقة البشرية العاملة من ناحية والفئة المفكرة ذات التأثير الثقافى على المجتمع من ناحية ثانية وقد بلغ من حدة تأثيرهم على الوضع السكانى لفلسطين أن إعتبرهم بعض الدارسين وذريتهم القبائل العشرة المفقودة .

جـ - الغزو البابلى لفلسطين واثره على بنيتها السكانية : -

لم يتمكن الآشوريون من إتمام غزوهم ليهوذا الجنوبية واضطروا إلى رفع حصارهم عن أورشليم وترك هدف إسقاطها ، وذلك بسبب الأوضاع السياسية الجديدة فى بلاد النهرين والتى تمثلت فى ظهور قوي جديدة منافسة على الحكم من بينها البابليون الكلدانيون (الآراميون) والعيلاميون ، بالإضافة إلى ضغط بعض الشعوب الهندوأوربية من الشمال مثل الميديين ، وكذلك نمو القوة المصرية من جديد بعد فترة ضعف خلال الحكم الآشورى وفى عام ٦٥٢ ق.م واجه الملك الآشورى أشور بانيبال تمردا كبيرا مهددا للدولة قاده أخوه شمش - شوم - أوكين فى بابل بتأييد من السكان الكلدانيين والعيلاميين

وسكان المرتفعات الإيرانية ، كما ثارت اضطرابات مماثلة فى فلسطين وسوريا بتشجيع من المصريين ، واستغلت القبائل العربية فى الصحراء السورية هذا الوضع ورغبت فى احتواء الولايات الآشورية فى شمال فلسطين وفي سوريا وذلك امتدادا من أدوم ومواب شمالا إلى منطقة ذوبح (٣٠) .

وقد تمكن آشور بانيبال من قهر هذا التمرد والسيطرة على الموقف ، وقد عزز المستوطنات الآشورية فى السامره وفى مناطق أخرى إلى الغرب بمستوطنين من بابل وعيلام كم ورد فى نص سفر عزرا ، حيث يقول : " وسائر الأمم الذين سباهم أسنفر (أشوربانيبال) العظيم الشريف وأسكنهم مدن السامرة وسائرالذين فى عبرالنهر وإلى أخره " (٣١) ومن بين هذه الأمم التى يذكرها النص البابليون والعيلاميون والشوشنيون والدهويون والأركويون ، والأفرسيون والطرفليون والأفرستكيون (٣٢) .

وكان أشوربانيبال آخر ملوك أشور الأقوياء ، وبعد موته فى عام ٦٢٧ ق.م بعشرين عاما بدأت آشور فى السقوط حيث بدأ الميديون تحت حكم سياكسارس (٦٢٥ - ٥٨٥ ق.م) الهجوم على آشور من ناحية ، كما سعى البابليون الكلدانيون إلى الإستقلال عن آشوز تحت حكم نبو بولاسر (٦٢٦ - ٦٠٥ ق.م) مؤسس دولة بابل الحديثة ونجح فى ذلك عام ٦٢٦ ق.م ولم يجد الآشوريون بدا من طلب العون من مصر التى خشيت التحالف مع البابلى الميدى فعملت على الحفاظ على آشور كحاجز بينها وبين هذه القوة الجديدة من ناحية ، وطمعا فى فرض السيادة على فلسطين وسوريا من ناحية أخرى ، ولكن هذا لم يمنع من سقوط آشور حيث سقطت عاصمتها آشور فى ٦١٤ ق.م وكذلك سقطت نينوى فى ٦١٢ ق.م (٣٣) .

وبالنسبة لفلسطين ينتهى هذا الصراع الدائر بين الاشوريين والبابليين والميديين والمصريين نهاية تراجيدية ، فقد وقعت يهوذا تحت السيادة المصرية ٦٠٩ - ٦٠٥ ق.م

على الرغم من فشل مصر فى نجدة أشور خلال حملة ٦٠٩ ق.م وفى عام ٦٠٥ ق.م هزم نبوخذ نصر البابلى المصريين فى قرقميش وبالقرب من حماة (٣٤) ومع البداية الفعلية لحكم نبوخذ نصر فى ٦٠٤ ق.م وصل الجيش البابلى إلى الساحل الفلسطينى ، وتم تدمير عسقلان ، وتمت أيضا أول عملية تهجير فى العصر البابلى الحديث حيث أجبر البابليون العناصر القيادية الرئيسية من سكان عسقلان إلى بابل (٣٥) وأعلن يهوياقيم ملك يهوذا خضوعه لملك بابل فى ٦٠٣ ق.م وبعد معركة غير حاسمة بين نبوخذ نصر ونيخو فرعون مصر فى عام ٦٠١ق.م تمرد يهوياقيم على بابل وفى عام ٥٩٨ ق.م تحرك الجيش البابلى متجها إلى يهوذا ،وفى نفس العام مات يهوياقيم وحل مكانه ابنه يهوياقين الذى أعلن استسلامه لجيش بابل فى ٥٩٧ ق.م وهنا تحدث ثانى عملية ترحيل إجبارى إلى بابل ، حيث حمل الملك والملكة الأم وكبار الموظفين وزعماء المواطنين مع أسلاب عظيمة (٣٦) وعين متانيا (صدقيا) حاكما جديدا بدلا من يهوياقين ، وقدر عدد المسبيين بعشرة آلاف مسبى من أورشليم وحدها : " وسبى كل أورشليم وكل الرؤساء وجميع جبابرة البأس عشرة آلاف مسبى وجميع الصناع والأقيان ، لم يبق أحد إلا مساكين شعب الأرض وسبى يهوياقين إلى بابل وأم الملك ونساء الملك وخصيانه وأقوياء الأرض سباهم من أورشليم إلى بابل وجميع أصحاب البأس سبعة آلاف والصناع والأقيان ألف وجميع الأبطال أهل الحرب سباهم ملك بابل إلى بابل (٣٧) .

والملاحظة الأساسية هنا تتعلق بالتغيير الذي طرأ علي البنية السكانية للجنوب، فبعد سقوط مدنها الأساسية ضاقت أرضها خاصة بعد ضياع النقب فأصبح اقتصاد الجنوب مشلولاً وانخفض عدد سكانها . ويقدر ألبرايت عدد سكان الجنوب بمائتين وخمسين ألفا في القرن الثامن قبل الميلاد انخفضوا الي نصف هذا العدد بين الأعوام

٥٩٧ ـ ٥٨٧ ق.م [٣٨] ورغم أن عدد المسبيين من « أورشليم » يصل إلي عشرة آلاف في هذه المرة إلا أن نوعية المسبيين تجعل خسارتهم فادحة . فوفقاً للسياسة البابلية المستمدة من السياسة الآشورية السابقة عليها عادة ما يتم تهجير الفئات أو الطبقات العليا في المجتمع والذي يتكون من موظفي الدولة وأثريائها ورجال الجيش فيها، وكذلك كهنتها أو رجال الدين فيها، وكما رأينا في السامرة بلغ الإسرئيليون المهاجّرون البالغون قرابة الثلاثين ألفا من هذه الفئات السابقة الذكر وتم إعادة توطين هذه الفئات فى بلاد النهرين وميديا بينما بقي الضعفاء غير القادرين على المقاومة أو الذين قبلوا الحكم البابلى على الفور [٣٩] .

ويؤكد ألبرايت انخفاض عدد سكان يهوذا من ٢٥٠,٠٠٠ إلى نصف هذا العدد تقريبا فى الفترة من القرن الثامن إلى عام ٥٨٧ ق.م الذي شهد خراب أورشليم وترحيل بقية أثريائها واصحاب الحرب فيها إلي بابل ، ويشير ألبرايت إلى أن الحفريات فى دبير ولخيش توضح فقر هذه المدن المتزايد بعد الضربات البابلية التى تعرضت لهما فى عامى ٥٩٨ ق.م وعام ٥٨٧ ق.م .

وهذا الوضع يعتبره ألبرايت سائدا فى كل المدن اليهودية التى غزاها البابليون ويشير إلى أن بقية قادة الجيش الذين لم يحملوا إلى بابل جمعوا البقية الباقية من اليهود وهربوا إلى مصر .

ومن هؤلاء اليهود يقول ألبرايت تكونت الجالية اليهودية فى الفانتين قبل الغزو الفارسى فى ٥٢٥ ق.م [٤٠] وفى عام ٥٨٢ ق.م سبى البابليون مجموعة أخرى من اليهود من ذوى الجاه وأصحاب المهارات [٤١] ففى سفر ارميا تأكيد على هذا السبى البابلى المتكرر لمجموعات من أفضل اليهود إلى بابل [٤٢] وفى بعض مواضع من سفر أريا إشارات إلى أن مجموعات من فقراء اليهود تم أيضا سبيهم إلى بابل ، فالأمر لم

يقتصر على أغنياء اليهود والموظفين وأصحاب الحرف بل شمل أيضا من يسميهم أرميا بمساكين الأرض " أو فقراء الشعب " (٤٣) .

وبالإضافة إلى عمليات السبى المتكررة إلى بابل وفرار الكثيرين إلى مصر قسمت يهودا فى عام ٥٨٩ ق.م بين الأدوميين من ناحية وولاية السامرة البابلية من ناحية أخرى (٤٤) .

ويلخص جون برايت حالة يهوذا بعد خراب أورشليم بأنه تم إخضاع يهوذا لنظام الولايات البابلية ، وتم تدمير الأرض تماما بما عليها ، وخربت مدنها ودمرت ، كما دمر اقتصاديا وقتل سكانها وزعماؤها أو تم تهجيرهم إلى بابل ولهذا زالت دولة يهوذا من الوجود وضمت أراضيها إلى الولايات المجاورة كالسامرة وأدوم (٤٥) .

د. أثر السبى الآشورى والبابلى على الوضع السكانى فى فلسطين : -

بعد هذا العرض لأحداث السبى الاشورى والسبى البابلى نركز فى الصفحات التالية على الآثار المباشرة لهذين السببين على الوضع السكانى فى فلسطين ، ونوجز هذه الآثار فيما يلى :

١ - أن سبى اليهود إلى اشور وبابل فى أعداد ضخمة أدى إلى تخفيض شديد فى نسبة عدد السكان اليهود فى كل من الشمال الفلسطينى والجنوب الفلسطينى (إسرائيل الشمالية ويهوذا الجنوبية) .

٢ - أدت سيادة إخلاء مدن الشمال من سكانها اليهود وإحلال سكان من خارج فلسطين (بلاد النهرين وميديا وسوريا) إلى حدوث اختلاط فى البنية السكانية للمنطقة الشمالية وإندماج تام للمستوطنين الجدد الذين قدموا إلى الشمال الفلسطينى ومعهم عباداتهم وعاداتهم وتقاليدهم الجديدة والغريبة على المنطقة ، مما أدى إلى إحداث

تغيير فى الشكل العام للحياة فيها ولم تعد الحياة فيها إسرائيلية خالصة خاصة لو تذكرنا الأعداد الضخمة لليهود المهجرين إلى آشور وميديا والبالغ عددهم من مدينة السامرة وحدها قرابة ثلاثين ألفا .

٣ - أدت سياسة إخلاء مدن الجنوب من السكان اليهود وعدم إحلال البابليين لسكان جدد مكانهم من خارج فلسطين - كما فعل الأشوريين فى الشمال - إلى إنخفاض شديد فى عدد السكان وتدهور شديد للحياة فى الجنوب بسبب تهجير أعداد ضخمة من الطاقة البشرية العاملة كأصحاب الحرف والصناعات والجنود ورجال الدين ، وترك ضعفاء القوم وفقرائهم ، وكما ذكر ألبرايت أن سكان الجنوب نقصوا من ٢٥٠,٠٠٠ إلى نصف هذا العدد تقريبا ، كما أن مدينة أورشليم سبى منها قرابة عشرة آلاف من أفضل سكانها .

٤ - إن التركيز على تهجير نوعية معينة من السكان وهى الفئات النشطة العاملة والتى لا غنى للمجتمع عنها ، كرجال الجيش وأصحاب الحرف والأغنياء أدى إلى حدوث تدهور شديد فى الأنشطة الإنسانية وإلى شبه توقف لحياة السكان الباقين والذين كانوا فى غالبيتهم ضعفاء فقراء ، وبهذا فقد الجنوب الطاقة البشرية العاملة فيه .

٥ - أدى تهجير الأغنياء من اليهود إلى أشور وبابل إلى شبه توقف للحياة الإقتصادية فى فلسطين شمالا وجنوبا وكان وضع الجنوب أشد فقراً لعدم إستبدال المهجرين بمستوطنين جدد يمثلون طاقة سكانية جديدة ومقوما إقتصاديا جديدا ، فالهجرة الإجبارية لأصحاب رؤوس الأموال أوقفت النشاط الإقتصادى والمالى فى الجنوب خاصة.

٦ - نشأة نظام الإستيطان ربما لأول مرة فى تاريخ فلسطين وذلك بخلق مستوطنات للوافدين الجدد من بلاد النهرين وغيرها ، وذلك بإنشاء مستوطنات لليهود خارج فلسطين سواء فى بلاد النهرين أو فى ميديا أو سوريا ، كما تم توطين اليهود الفارين من الحكم البابلى إلى مصر على الحدود الشمالية لمصر ومنهم من تم توطينه فى مصر

حيث نشأت مستوطنة الفانتين في العصر الفارسي (وبالتحديد بعد هزيمة مصر من فارس في ٥٢٥ ق.م) وهي بلاشك نتيجة من نتائج السبي البابلي .

٧ - إن من أهم نتائج السبى البابلى فقدان الوجود السياسى والقومى لليهود خاصة فى الجنوب وكذلك فقدان الأرض التى هى من علامات أو مقومات الوجود السياسى القومى ، حيث ضمت أرض يهوذا إلى ولاية السامرة فى الشمال وإلى ولاية أدوم التابعتين للحكم البابلى ، فلم يعد ليهوذا كيان سياسى له حدود جغرافية واضحة .

٨ - من أهم النتائج الأخرى للسبى البابلي بداية ظاهرة الشتات اليهودى العام والتى يربطها المؤرخون عادة بالسبى الرومانى عام ٧٠م ولكن بدايتها الحقيقية فى التاريخ مرتبطة بآثار السبى البابلى الذى أدى إلى نشأة مجتمعات يهودية خارج فلسطين فى بلاد بعيدة مثل بلاد النهرين وميديا ومصر وفى بلاد قريبة من فلسطين مثل أدوم ومواب وعمون التى فر إليها عدد كبير من اليهود أو تم توطينهم فيها بواسطة البابليين ، ولذلك فبداية الشتات العام الحقيقية وجذورها فى التاريخ إنما تعود حقا إلى فترة السبى البابلى ٥٨٦ - ٥٣٨ ق.م .

هـ - *السبى الرومانى والشتات اليهودى العام* :-

يعتبر السبى الرومانى الحلقة الأخيرة من حلقات إخلاء فلسطين من السكان اليهود فى التاريخ القديم ، وهى أشد هذه الحلقات تأثيرا على الوضع السكانى فى فلسطين ، فالشتات العام الذى نتج عن السبى الرومانى فى عام ٧٠م استمر تأثيره فعالا حتى القرن العشرين الميلادى .

والحديث عن السبى الرومانى سيضطرنا إلى العودة إلى الوراء لنرى مسيرة التاريخ السياسى واليهودى بعد السبى البابلى الذى انتهى عام ٥٣٨ ق.م بعد

سقوط دولة بابل الكلدانية على يد الفرس ، والحقيقة أن العصر الفارسى كان بالنسبة لليهود عصرا مختلفا تماما عن العصر البابلى السابق إليه ، فبعد سقوط بابل على يد قورش الخمينى فى عام ٥٣٩ق.م أصدر قورش فى عام ٥٣٨ ق.م مرسوما بعودة المسبيين اليهود من بابل إلى فلسطين وإعادة بناء الهيكل واعتبر هذا المرسوم وجها من وجوه تسامح قورش العام تجاه الخاضعين لحكمه وهو تسامح قوبل به البابليون أنفسهم حين حافظ لهم قورش على مدنهم وعلى عبادتهم وآلهتهم بل وقد بلغ تسامحه حد المشاركة العامة فى عبادة مردوك وكرمز من ناحية أخرى إلى أن حكم قورش لبابل حكم شرعى وبانتخاب إلهى (٤٥) .

ولقد كان رد الفعل اليهودى فى بابل وآشور تجاه مرسوم العودة ردا سلبيا لأن معظمه قد استقر فى موطنه الجديد فى بلاد النهرين ومارس فيها حياته العادية ، وكذلك كان لطول الرحلة من بابل إلى فلسطين وخطورتها وتكاليفها الباهظة أثر فى تثبيط حماس الراغبين فى العودة (٤٦) هذا بالإضافة إلى أن أوضاع يهودا بالذات لم تكن مرضية ، كما أن استقبال حكام ونبلاء السامرة للعائدين لم يكن مشجعا فقد نظر السامريون إلى أراضى الجنوب على أنها أصبحت من إقليمهم ، ولذلك لم يرحبوا بالعائدين ولم يتحمسوا لإعادة بناء أورشليم (٤٧) وبعد قرن تقريبا من قرار العودة لم يزد سكان الجنوب عن أثنين وأربعين ألفا من اليهود الأحرار بالإضافة إلى سبعة آلاف عبد .

ومن بين هذا العدد عاش ما يقرب من خمسة عشر ألفا فى أورشليم وحولها (٤٨) وهى زيادة ملحوظة عما كان عليه الوضع عام ٥٢٢ ق.م حيث لم يزد سكان يهودا عن عشرين ألفاً (٤٩) .

وقد واجه العائدون صعوبات كبيرة من بينها الفقر والمجاعة وكراهية السامريين لهم ، وعدم ترحيب السكان بهم وعدم السماح لهم بالاستقرار فى أرض اعتبرها المقيمون الأصليون أرضهم وقد زاد من الصراع بين العائدين والمقيمين إحساس العائدين بأنهم يمثلون " إسرائيل الحقة " ، فانعزلوا عن السامريين وغيرهم واعتبروهم من النجس ، خاصة بسبب تأثرهم بالبيئة الوثنية المحيطة بهم (٥٠) وإختلاطهم بالأغيار عن طريق الزواج المختلط (٥١) .

وهكذا لم تتحقق العودة التى سمح بها قورش فى نفس الوقت الذى ازداد فيه اليهود تمسكا بالحياة فى بلاد النهرين وفى بلاد فاس بعد ازدهار مجتمعاتهم هناك واندماجهم الفعلى بسبب التسامح الذى ساد العصر الفارسى خاصة تجاه اليهود فى أرجاء الأمبراطورية الفارسية ، واستمرت بابل كمركز رئيسى للحياة اليهودية غطى على المركز القديم فى أورشليم والسامرة اللتين استمرتا على عداوتهما القديمة والتى أصبحت أساسية إنتهت إلى الانفصال الكلى للسامريين دينيا عن بقية اليهود ، وظهورهم كفرقة دينية يهودية مستقلة لا تعترف إلا بالتوراة وأصرار الجنوبيين على أنهم يمثلون " اسرائيل الحقيقية " ، وهكذا تتأكد العداوة السياسية القديمة من خلال الفصل الدينى للسامريين عن بقية اليهود ، وهكذا فمع نهاية الحكم الفارسى وخلال العصر اليونانى كان المجتمع اليهودى قد تفسخ من الداخل دينيا وانقسم بالفعل إلى جماعتين دينيتين متعارضتين : السامريين فى الشمال ويهود الجنوب ، وقد أكدت القطيعة الدينية الصراع السياسى القديم بينهما : كما انقسم يهود الداخل أيضا إلى فريقين وهما اليهود الذين لم يتم سبيه واليهود المسبيون العائدون وهؤلاء نشأ بينهم أيضا صراع سياسى بسبب مزاحمة العائدين الموجودين فى الأرض والأنشطة المختلفة ، وصراع دينى سببه إحساس العائدين

بأنهم أهل الدين الحقيقى بينما دين الموجودين فى الداخل قد فسد بسبب الاحتكاك بالوثنية وفقدان الحماس الدينى الذى كان عليه العائدون .

هذا وقد كان العصر اليونانى بالنسبة إلى اليهود عصر مزيد من التهجير لليهود خارج فلسطين ففى عام ٣٢٠ ق.م سقطت أورشليم فى يد بطليموس الذى حمل معه إلى مصر عددا كبيرا من الأسرى اليهود الذين زاد عددهم بالآلاف فى الحملات اليونانية التالية وعملوا كعبيد أو خدم فى جيش وبلاط بطليموس ، وقد حررهم بطليموس الثانى (٥٢) ويمكن أن نقول إن مركزا يهوديا جديدا خارج فلسطين بدأ يجذب إليه أعدادا ضخمة من يهود لفلسطين فى العصر اليونانى وهذا المركز هو الإسكندرية التى تحولت فيما بعد إلى مركز منافس لأورشليم والسامرة فيما يتعلق بالحياة الثقافية والدينية لليهود ، وفى الإسكندرية تحدث اليهود باليونانية وتركوا العبرية والآرامية وقاموا بنشاط دينى كبير من أبرزه ترجمة العهد القديم إلى اليونانية ، وهى الترجمة المعروفة بالترجمة السبعينية حتى يتمكنوا من ممارسة حياتهم الدينية باليونانية .

وفى عهد أنطيوخوس ابيفانس صدر مرسوم فى عام ١٦٨ ق.م بعد الاستيلاء على أورشليم بمنع اليهود من ممارسة دينه والحكم بالإعدام على من يفعل ذلك ، وكان هدف ذلك دمج كل الأقوام الخاضعة للحكم اليونانى فى الثقافة اليونانية والديانة اليونانية وأدخلت الآلهة اليونانية إلى المعبد فى أورشليم ، وقدمت الأضحيات الوثنية على المذبح اليهودى ، وأقيمت مذابح وثنية ، وحرقت نسخ التوراة وأعدم حاملوها وأجبر اليهود على أكل لحم الخنزير (٥٣) إلى غير ذلك من ألوان الأضطهاد التى تركت أثرا كبيرا فى اليهودية كدين ، والتى أدت فيما بعد

إلى ظهور المكابيين ومقاومتهم للاضطهاد اليونانى وتمكنهم فى عام ١٦٤ ق.م من تطهير المعبد وإعادة الحياة الدينية إليه (٥٤) .

كانت هذه بعض الأحداث الهامة التى وقعت باليهود بين نهاية الحكم الفارسى مرورا بالحكم اليونانى وحتى بداية الحكم الرومانى وهى فترة مضطربة فى التاريخ السياسى لليهود وكذلك فى تاريخهم الدينى ، وقد حدث أول تدخل رومانى فى فلسطين على يد بومباى الذى تغيرت على أيامه السياسة الرومانية واتجهت نحو التوسع وفرض السيادة، ووقعت أورشليم تحت الحصار الذى فرضه بومباى ومات فيه أثنا عشر ألفا من اليهود واستمرت العلاقة بين الرومان واليهود مضطربة وقلقة إلى أن تمكن فسباسيان من إخضاع فلسطين فى ٦٧ - ٦٨ ميلادية ثم تمكن ابنه تيتوس من إسقاط أورشليم وتخريب الهيكل عام ٧٠ م والذى يعتبره المؤرخون بداية لما يسمى بالشتات اليهودى العام .

هذا وقد قدر بعض المؤرخون اليهود الذين قتلوا فى الحرب الرومانية وفى الصراع ضد الحكم الرومانى وهى أعداد ضخمة توضح نسبة أو درجة الانخفاض الشديد فى سكان فلسطين من اليهود فى العصر الرومانى ، فالمؤرخ اليهودى جوزيفوس حدد عدد اليهود الدين قتلوا أو أسروا بواسطة تيتوس على أنهم مليون ومائة وسبعون ألفا (٥٥) بينما أعطى المؤرخ تاكيتوس عددا مغايرا وأقل بكثير من تقدير جوزيفوس حيث حددهم تاكيتوس بستمائة ألف يهودى (٥٦) هذا ويذكر المؤرخ ديوكاسيوس أن حرب بوكاخبا ضد الرومان كلفت اليهود خمسمائة وثمانين ألفا من اليهود الذين قتلوا فى الحرب بخلاف هؤلاء الذين ماتوا جوعاً ، أو حرقوا ، أو مرضوا ، ويؤكد ديوكاسيوس أن يهوذا بأكملها أصبحت صحراء جرداء ، ويقر

أحد المؤرخين اليهود المعاصرين بأن خسائر فى حروب تراجان لا يمكن أن تحصى وهى خسائر امتدت إلى يهود مصر وقبرص وأثرت تأثيرا شديدا فى حجم يهود مصر بينما محت من الوجود تماما يهود قبرص ، وأن إجمالى خسائر اليهود من القتلى وضحايا الجوع والمرض خلال الفترة من ٦٦ م إلى ١٣٥م لابد وأن تكون خسائر هائلة لا يمكن إحصاؤهاويعتبر هذه السنوت أفظع سنوات الاضطهاد الرومانى لليهود على حد تعبيره (٥٦) وبالإضافة إلى هذا كله فإن أعدادا من اليهود أعتبروا من المفقودين بالنسبة إلى الجماعة اليهودية ، فهناك أعداد من اليهود الذين وقعوا أسرى فى يد الرومان وتم بيعهم فى الأسواق الرومانية ، وكذلك فقد كثير من الأطفال الذين تمت تربيتهم فى بيئة غير يهودية فأصبحوا فيما بعد لا يحسبون من الجماعة اليهودية (٥٧) .

وبالإضافة إلى هذه الخسائر فى الأعداد اليهودية الساكنة فى فلسطين زمن الحكم الرومانى فإن الخسائر السياسية كانت هى الأخرى عظيمة ، ومن أولها أن فلسطين فى العصر الرومانى أصبحت مدمرة سياسيا واقتصاديا ودينيا ، وتحولت أورشليم إلي مدينة للجنود الرومان مع عدد قليل من المدنيين اليهود القائمين على خدمة الرومان (٥٨) .

والأهم من هذا كله أن السبى الرومانى فى عام ٧٠م وخراب أورشليم وما تبع ذلك السبى من خروج يهودى من فلسطين بسبب الأضطهاد الرومانى المتواصل ... كل هذا أدى فى النهاية إلى التشتت اليهودى فى بلدان الإمبراطورية الرومانية فى الغرب والشرق ، وتكونت على أساس من السبى الرومانى الجماعات أو الأقليات اليهودية فى اليونان وإيطاليا واسبانيا وفى كل الشمال الافريقي وفى مصر بطبيعة

الحال ، وكذلك فى البلدان الأوروبية المختلفة التى كانت خاضعة للإمبراطورية الرومانية (٥٩) لكى تضاف هذه الجماعات إلى ما تسبب من السبى الآشورى والبابلى قديما من تجمعات يهودية فى بلاد النهرين وبلاد فارس وميديا وشبه الجزيرة العربية التى بلا شك كانت هدفا لجماعات يهودية هاربة من السبى الاشورى والبابلى ، كما تسبب السبى الرومانى فى هجرة جماعات جديدة من اليهود إلى شمال شبه الجزيرة العربية ومنها إلى جنوب شبه الجزيرة ، وربما من جنوب شبه الجزيرة العربية إلى الحبشة ، حيث وجدت جماعة يهودية باسم الفلاشا منذ زمن بعيد ، ومن بلاد فارس هاجرت جماعات يهودية إلى الهند والصين ، وهكذا ظهرت جماعات يهودية بعد السبى الرومانى انتشرت فى معظم بلدان العالم القديم وتركزت فيما بعد بين بلدان العالم المسيحى فى الغرب وبلدان العالم الإسلامى فى الشرق .

أما فلسطين فقد فقدت أهميتها كموطن أو مستقر أصلى للسكان اليهود ، واضمحل عدد اليهود الساكنين فيها (٦٠) وضعف دورها كمركز مهم للحياة اليهودية خاصة بعد ظهور مراكز للتجمعات اليهودية أكثر ازدهارا وحيوية من فلسطين ، كما كان الحال فى مصر وبلاد النهرين وايطاليا واسبانيا وايران ، وانتقال مركز الحياة اليهودية إلى خارج فلسطين خاصة بعد أن تحولت المسيحية إلى قوة سياسية فى القرن الرابع الميلادى ، وأصبحت الجماعة اليهودية تمثل أقلية تعيش فى ظل الحكم المسيحى سواء فى فلسطين أو فى بلدان العالم المسيحى فى أوربا ، وكذلك الحال بعد ظهور الإسلام وتحول فلسطين إلى بلد عربى مسلم .

خاتمة

حاولنا فى الصفحات السابقة دراسة الوضع السياسى لليهود فى فلسطين فى التاريخ القديم الذى وقفنا فيه عند العصر الرومانى ، وكان هدف هذه الدراسة إثبات ضعف الوجود السياسي لليهود فى فلسطين من خلال الأدلة التاريخية والبيانات الإحصائية التى نعتقد أن فيها ردا حاسما على دعاوى الصهيونية التى تحاول ربط الكيان الصهيونى الحالى بجذور من التاريخ السياسى والدينى لليهود فى الماضى ، وأثبتنا أن هذه الجذور واهية ، وأن فلسطين عربية طوال تاريخها وأن الوجود اليهودى فيها وجود طارئ وأن التاريخ السياسى لليهود فى فلسطين القديمة تاريخ قلق غير مستقر ولم يضرب بجذوره فى الأرض الفلسطينية التى ظلت واستمرت عربية والأدلة التاريخية التى قدمناها نلخصها فيما يلى :

١ - القاعدة السكانية الأساسية لفلسطين قاعدة عربية ، فسكان فلسطين تكونوا فى الأصل من هجرات عربية متوالية من شبه الجزيرة العربية ، ومن بين هذه الهجرات ، الهجرة التى كونت العبريين أنفسهم فهم أيضا أصولهم عربية مما يؤكد عروبة فلسطين فى التاريخ القديم حتى على مستوى العبريين أنفسهم .

٢ - أنه من القرن الثامن عشر إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد تم خروج العبريين من فلسطين فى هجرة جماعية إلى مصر لأسباب اقتصادية ، وكان المهاجرون هم صفوة القوم ورؤساء قبائلهم التى تكونت فيما بعد والذين نقلوا الحياة العبرية من فلسطين إلى مصر منذ عصر يعقوب ويوسف عليهما السلام والى زمن الخروج من مصر ، وخلال هذه الفترة لم تكن هناك حياة عبرية تذكر فى فلسطين.

٣ - إن القرون من الثالث عشر إلى العاشر قبل الميلاد شهدت فترة عدم استقرار فى حياة العبريين (الإسرائيليين) ، فهي تشتمل على فترة الخروج من مصر والتيه فى سيناء وصراع الدخول إلى كنعان على المستويات السياسية والدينية والحضارية.

٤ - إن فترة الوجود والاستقرار الوحيدة فى حياة الإسرائيليين فى فلسطين هى فترة الدولة المتحدة التى نشأت فى عصور شاؤول وداود وسليمان وتغطى تاريخيا الفترة من ١٠٣٠ - ٩٣٣ ق.م أى فترة مائة عام تقريبا وانقسمت بعدها إلى دولتين " إسرائيل الشمالية " و " يهوذا الجنوبية " وسقطت الأولى عام ٧٢١ ق.م على يد الآشوريين وسقطت الثانية عام ٥٨٦ ق.م على يد البابليين .

٥ - والفترة من ٩٣٣ إلى ٥٨٦ ق.م فترة صراع شديد بين الدولتين المنشقتين عن دولة داود وسليمان ، وهى فترة حروب متواصلة بين الإسرائيليين فى الشمال والجنوب كما أنها فترة إنفصال دينى كبير بين الشماليين والجنوبيين ، فهى إذن فترة اضطراب وعدم استقرار على المستويين السياسى والدينى ، وأخيرا يضع الآشوريون نهاية الشماليين ويضع البابليون نهايةالجنوبيين .

٦ - لم يضع الآشوريون والبابليون نهاية الدولتين فقط ، ولكنهما سبوا أهلها إلى آشور وبابل وغيرهما من مدن بلاد النهرين ، كما أتوا بسكان جدد من هذه المناطق ليستوطنوا أماكن الإسرائيليين فى الشمال بينما ترك الجنوب خاليا بعد تهجير سكانه مم أضعف البنية السكانية اليهودية فى فلسطين عامة ، بانتقال الحياة اليهودية إلى المنفى فى بلاد النهرين وهروب أعداد كبيرة إلى بلاد أخرى مثل مصر وشبه الجزيرة العربية .

٧ - فترة الحكم الفارسى واليونانى كانت أيضا فترة اضطراب وقلق بالنسبة إلى اليهود ، ولم يستجب كثيرون لقرار العودة الفارسى لأسباب متعددة ، كما أن العصر اليونانى أتى بمزيد من الهجرة اليهودية خارج فلسطين خاصة إلى مصر والشمال الأفريقى فضلا عن التأثير الكبير للثقافة اليونانية فى اليهودية .

٨ - فى العصر الرومانى حدث الشتات العام لليهود وضعفت البنية السكانية لليهود فى فلسطين عامة بسبب كثرة أعداد القتلى نتيجة الحروب مع الرومان خاصة زمن تيتوس وتراجان والتى وصلت زمن تيتوس وحده إلى ستمائة ألف يهودى حسب إحصاء المؤرخ تاكيتوس ومليون ومائة وسبعة آلاف وفقا لحساب جوزيفوس ، بينما حرب بركوخابا ضد الرومان كلفت اليهود خمسمائة وثمانين ألف ، وانتهى الأمر إلى تحول فلسطين إلى بلد خال من اليهود ، وتحول أورشليم إلى مدينة رومانية يسكنها جنود الإمبراطورية الرومانية .

٩ - أنه خلال هذا التاريخ الطويل بأزماته المتعددة بالنسبة إلى الوجود اليهودى فى فلسطين لم تنقطع موجات الهجرة العربية من شبه الجزيرةالعربية إلى المنطقة السورية وخاصة إلى فلسطين فظروف شبه الجزيرة العربية لم تتغير خلال هذه العصور ، وظلت منطقة طرد لسكانها الذين استقبلتهم المنطقة السورية وبلاد النهرين دون توقف ،وهكذا فالنقص فى نسبة السكان اليهود بسبب الظروف السابقة الذكر يقابله زيادة مطردة فى نسبة السكان العرب بسبب استمرار الهجرة العربية من ناحية ، وبسبب عدم تعرض السكان العرب فى المنطقة السورية وفى فلسطين خاصة لما تعرض له

السكان اليهود من سبى وتشتيت ، بل على العكس لقد استفاد السكان العرب من هذه الظروف التاريخية فحلوا فى مناطق عديدة من تلك التى تم إخلاؤها من السكان اليهود كما حدث مثلا بعد سقوط يهوذا حين ضمت أراضيها إلى ولاية السامرة من ناحية وإلى ولاية أدوم من ناحية أخرى .

وهكذا فضعف الوجود اليهودى فى فلسطين كان دائما فى صالح زيادة ونمو الوجود العربى فيها .

تم بحمد الله

المـراجـع

١ - التكوين ٤٦ : ٨ - ٢٥

٢ - التكوين ٤٦ : ٢٦ - ٢٧

٣ - التكوين ٤٦ : ٥ - ٧

٤ - التكوين ٤٦ : ٣

٥ - الخـروج ١ : ١ - ٧

٦ - الخـروج ١٢ : ٣٧ - ٤٠

٧ - الخـروج ١٣ : ١٧

٨ - الخـروج ١٣ : ٥

٩ - العـدد الإصحاح الأول

١٠ - العـدد ١ : ٤٧

١١ - John Bright , A History of israel , 2nd. Edition, the westminister press, philadelphia, 1972, pp 268 - 9 .

١٢ - Ibid ., p 269 .

١٣ - Ibid ., pp. 272 - 3 .

١٤ - سفر الملوك الثانى ١٥ : ٢٩ .

١٥ - الملوك الثانى ١٧ : ٥ .

١٦ - الملوك الثانى ١٧ : ٢٣ - ٢٤ ، ٢٩ - ٣٢ .

١٧ - الملوك الثانى ١٨ : ٣١ - ٣٢ .

١٨ - W. F. Albright the Biblical piriod from Abraham to Ezra an historical survey , Harper , 1949, p. 73 .

١٩ - W. F. From The Stone Age to Chritsanity , Monotheism and the Historical process,Doubledayv and Co. N. Y. 1957, p. 314 .

٢٠ - John Bright , A History of Israel , p. 27

وعن المستوطنين من بلاد النهرين فى شكيم انظر

G. E Wright , Shechem , Mc Graw-Hill 1967, p.162

Albright, the Bilical Period from Abraham to Ezra, P.74 . .

٢١ - وعن المهجرين إلى بلاد النهرين نظر

Aibright , North Israelite deportees in Mesooptamia , Bulletin of the American School of Oriental Research , 149 , 1958 , pp. 33 - 36 .

٢٢ - Michael Grant , The History of Ancient Israel , Weidenfeld and Nicolson , London , 1986, p. 134 .

٢٣ - سفر الملوك الثانى ١٨ : ٧

وانظر أيضا . John Bright , A History of Israel , p. 282

٢٤ - الملوك الثانى ١٨ : ١٣ .

٢٥ -

٢٦ - اشيعا ١ : ٤ - ٩ وانظر

M. Grant , The History of ancient Israel, p. 139 .

٢٧ - John Bright , A History of Israel , p. 284 .

٢٨ - Ibid, p. 284 ونظر الملوك الثانى ١٨ : ١٤ - ١٦ .

٢٩ - الملوك الثانى ١٨ : ٣١ وانظر

John Bright , A History of Israel , p. 285 .

٣٠ - Grant. P . 163 .

٣١ - John' Bright, p. 313.

٣٢ - عزرا ٤ : ١٠

٣٣ - عزرا ٤ : ٩ .

٣٤ - John Bright, pp. 314 - 315 .

٣٥ - Ibid. , p. 325 .

٣٦ - ارميا ٤٧ : ٥ - ٧

٣٧ - الملوك الثانى ٢٤ : ١٠ - ١٧ .

٣٨ - الملوك الثانى ٢٤ : ١٤ - ١٦ .

٣٩ - Albright , The Biblical period , p. 84, 105.

٤٠ - Max L. Margolis and Alexander Marx, A History of the jewish people , Atheneum , N. Y. 1969 , p. 99 .

٤١ - Albright, The Biblical period, p. 84 .

٤٢ - Ibid., p. 58 .

٤٣ - ارميا ٥٢ : ٢٨ - ٣٠ .

٤٤ - ارميا ٥٢ : ١٥ - ١٦ .

٤٥ - Albight, The Biblical period,p.86 .

٤٦ - John, Bright, A History of Israel, PP. 330 - 331 .

٤٧ - John Brighy , pp. 361 - 362 وانظر عزرا ١ : ٢ - ٤ .

٤٨ - Albright, The Biblical period, p. 87 .

٤٩ - Ibid. , pp. 88 - 89 .

٥٠ - Bright ,p. 378 .

وانظر Ibid. , p. 93 .

٥١ - Bright ,p. 365 - 6..

٥٢ - حجمى ٢ : ١٠ - ١٤ وانظر Bright ,p. 368 .

٥٣ - Bright ,p. 386 .

٥٤ - Marglis and Marx, A History of the Jewish Peopl , p.129 .

٥٥ - Norman Snaith, The Jews from Syru to Herod , Abingdon Press ,N.Y.,P.37 .

٥٦ - Ibid., p.39- .

٥٧ - Salow W. Baron , A Social and Religious History of the Jews , Vol. 11, Columbia Univ , Press , and The Jewish Publication Society of America , Y.Y. and Philadelphia , 2nd ed . 1952, p. 102 .

٥٨ - Ibid. , p. 102 .

٥٩ - Ibid. , p. 102 .

٦٠ - Ibid. , p. 102 .

٦١ - Ibid. , p. 102 .

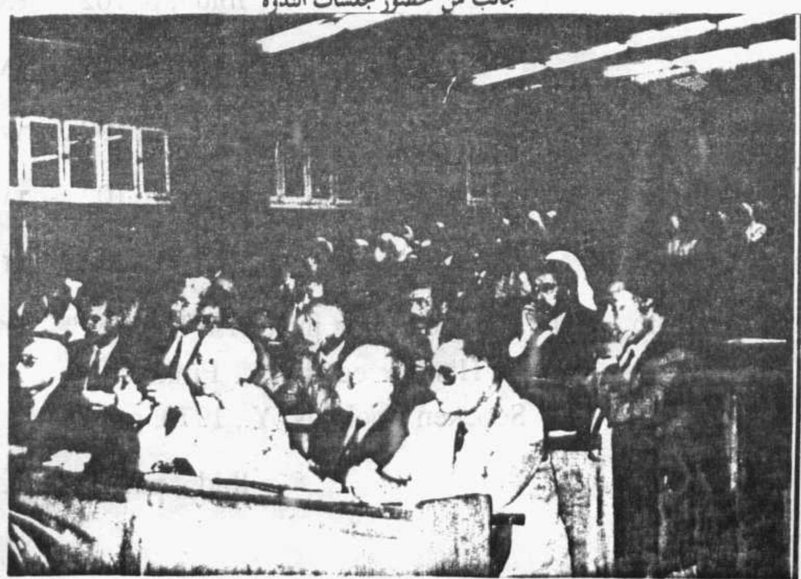
٦٢ - Ibid. , p. 102 .

٦٣ - Cecil Roth , " The European Age in Jewish History " in the Jews : Their History ed. by L. Finkelstein , Scocken Book , N. Y., 1970, p. 225 .

٦٤ - Ibid. , p. 229 .



جانب من حضور جلسات الندوة



جانب من حضور جلسات الندوة

سـوزومنـوس Sozomenos

المؤرخ الغـزاوى
فى القرن الخامس الميلادى

أ. د رافت عبد الحميد
استاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة عين شمس

عندما ارتضى الله أن يظهر نفسه متجسدا فى الزمان والمكان ، فإنه بذلك قدس مسرى التاريخ، واستطاع العالم المسيحى أن يصبح انعكاسا على أرض مدينة السماء Civitas Caelestis(١) ؛ ذلك أن السنة المسيحية على مدار أيامها ، بأعيادها ، وفترات الصوم بها ، لم تكن تتعلق فقط باحتياجات كل مسيحى على حده ، بل كان ينظر إليها باعتبارها المظهر الحقيقى الذى يعبر عن فحوى الحياة اليومية المسيحية ، الكنيسة والإمبراطورية ، إذ كلاهما متلازمان تلازم النهار وضوئه ، منذ البدء وحتى يوم الدينونه ، « وقال الله لتكن أنوار فى جلد السماء لتفصل بين النهار والليل ، وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين ... فعمل الله النورين العظيمين : النور الأكبر لحكم النهار » (٢) .

لقد خرجت كل من الإمبراطورية والكنيسة إلى الوجود فى وقت واحد تقريبا ، ولذا فإن العناية الإلهية هى التى خلقت الإمبراطور من أجل رفعة العقيدة المسيحية وخير الكنيسة (٣) ، كان هذا هو التصور الذى انتهى إليه ، شيخ مؤرخى الكنيسة يوسيبيوس Eusebius أسقف قيسارية فلسطين ، الذى كان شاهد عيان لعصرى الاضطهاد

والتسامح وقاسى ويلات العذاب فى الأول ، ونعم فى الثانى بالأمن والسلام، وأصبح من المقربين إلى قلب الإمبراطور قسطنطين Constantinus وله من المادحين ، وقد عبر عن ذلك خير تعبير عندما راح يختم مؤلفه الكبير « التاريخ الكنسى » Historia Ecclesiastica ، يقوله : « ... لقد سمح لنا الآ أن نرى ونمارس تلك الأمور التى اشتهى أن يراها على الأرض الكثيرون ممن سبقونا من الأبرار والشهداء ... لقد هلك أعداء الله ، واجتثوا فجأة من أمام أعين بنى البشر ... وأخيرا أشرق نهار صحو جميل لا تتخلله السحب ، وأضاء بأشعة نور سماوى كنائس المسيح فى العالم » (٤) .

ويضيف : « ... هكذا انتزع من البشر كل خوف سبق أن تملكهم ، وامتلأ بالنور كل شئ ،وأسدل الستار على الشرور الماضية ، وتم تناسى كل فعال الشر ، وعم الفرح بالخيرات الحاضرة ، لقد أصدر الإمبراطور الظافر مراسيم أمان عمت الإمبراطورية ، تفيض بالرحمة ، وتزداد بالتقوى ، وتمتلئ بالمحبة » (٥) .

وإذا كان يوسيبيوس القيسارى قد كتب ذلك فى أعقاب انتصار قسطنطين على صديقه وصهره وآخر أعدائه في الحرب الأهلية الضروس « ليكينيوس » Licinius:(٣٢٣م) ، ولم يكن قسطنطين قد أظهر بعد بجلاء تعاطفه مع المسيحيين وسياسته التسامحية (٦) ، فإن هذه الأفكار ازدادت رسوخا بمرور الأعوام وتيقن يوسيبيوس من زوال غمة الاضطهاد ، فقد ألقى فى العيد الثلاثينى tricennalia لاعتلاء قسطنطين العرش (٣٣٦م) خطبة دارت فى معظمها حول هذا التزاوج الذى حدث بين الدولة والكنيسة ، كان من بين ما جاء فيها ، « بينما الناس على الأرض بالمسرة يبتهجون ، ويزدانون بزهرات العلم الإلهى ، ندرك يقينا أن « الكورس » الملائكى السماوى ، بدافع الحب الكامن فيه ، قد واصلوا بسعادة أهل الأرض سعادته .. لا .. بل إن الأب الرحيم .، وقد رضى بحب بنيه له وعبادتهم أياه ، قد أنعم على صاحب الفضل فى ذلك ، ليس فقط بعدد من السنين يصل إلى ثلاثة عقود ، ولكن بعمر يطول وعهد لانهائى » (٧) ، والرمز هنا واضح تماما فى العلاقة السرمدية بين

الدولة والكنيسة ، ومن ثم غدا يوسيبيوس ، شيخ مؤرخى الكنيسة ، المبشر بالنظرية التفاؤلية فى عالم الغد بالنسبة للمسيحية وعلاقتها بالدولة ، على عكس ما ذهب إليه أبو الكنيسة اللاتينية فى الغرب فى القرن الخامس .. القديس أوغسطين Augustinus ، الذى ارتبط اسمه بـ « النظرية التشاؤمية » [٨] التى سيطرت على فكره بعد الذى رآه بعينى رأسه من تجرع روما ، مدينة الخلود ، لكأس الهوان على يد القوط الغربيين فى عام ٤١٠ ، واحساسه قبل أن يموت بوقت غير بعيد بوقع أقدام الوندال وهم يدقون أبواب ولاية أفريقية ، وتصك مسامعه الاتهامات التى أطلقها الوثنيون حول مسئولية المسيحية عن خرب روما وانهيارها ، مما دفعه إلى وضع كتابه الشهير « مدينة الله » De civitate Dei دفاعا عن المسيحية ، وعرض فيه لآرائه فى فلسفة التاريخ ، حيث قسم تاريخ العالم إلى ستة عصور ، جعل آخر الفترات ، أى العصر الذى يعيش فيه « عصر الشيخوخة » فكان ذلك أصدق تعبير عن « التشاؤمية» عند أوغسطين .

والذى يلفت الانتباه أن مؤرخى الكنيسة الذين زخربهم القرن الخامس الميلادى ، والذين عاصروا أوغسطين أو لحقوه بزمن يسير ، وسجلوا بأقلامهم وقائع الأحداث التى ابتليت بها الامبراطورية على يد الجرمان ، لم يسيروا على نهج أوغسطين «التشاؤمى» ، بل حذوا حذو شيخهم يوسيبيوس القيسارى فى تفاؤله ، وفعل كل من صاحبنا سوزومنوس ، ثيودوريتوس Theodoretus وإفاجريوس Evagrius مثلما فعل ، وكان المؤرخ الغزاوى أكثرهم وضوحا فى هذا السبيل وأشدهم تهليلا للتزاوج بين الدولة والكنيسة [٩] ومن ثم فليس غريبا أن يتهم « فيلاستورجيوس » Philastor-gius المؤرخ الكنسى الآريوسى ، جماعة « الهوموسيين » Homoousians إتباع المذهب النيقى بعبادة الإمبراطور قسطنطين كما لو كان لهم إلها [١٠] .

ولاشك أن هذا كان أمر طبيعيا يتفق وحادثات التاريخ ، ذلك أن النصف الشرقى من الإمبراطورية الرومانية نجا من الوقوع فى براثن القبائل الجرمانية التى هطلت على

الامبراطورية بعد معركة أدريانوبل Adrianopolis سنه ٣٧٨ ، والتى راح ضحيتها الامبراطور « فالنز » Valens بعد أن وقفت القسطنطينية بحصانة موقعها وتحصيناتها العسكرية سدا منيعا أمام زحف أولئك الجرمان باتجاه الشرق ، وإن لم تمنعهم كلية من مهاجمة بعض ولايات آسيا الصغرى ، بينما وجهت كل ضرباتها الموجعة إلى النصف الغربى ، ولم يكد قرن من الزمان بعد أدريانوبل يتم دورته ، إلا وكانت ولايات الغرب الإمبراطورى كلها قد سقطت فى أيدى الجرمان وقامت مقامها ممالك حملت أسماء قبائلهم .

وقدر لأغسطين ، باعتباره أسقف مدينة « هبو » Hippo فى نوميديا { حاليا أبونة فى الجزائر } أن يشهد مدينة القديس بطرس تهوى تحت أسنة رماح القوط الغربيين Visigoths ، بينما تستعد قرطاجة هلعا لاستقبال جحافل الوندال كارهة بعد عام واحد من وفاة القديس !! لذا اعتبر العصر السادس من تقسيماته للتاريخ ، والذى بدأ منذ مقدم المسيح ، والذى يحيا هو فيه ، « عصر الشيخوخة » .

ومن المعروف أن تدوين التاريخ ظل حتي مطلع القرن الرابع الميلادى فنا وثنيا خالصا تخطه أقلام المؤرخين الوثنيين ، فيما عدا أعمال الرسل ، ولم يحاول أحد حتى ذلك التاريخ أن يتصدى لكتابة تاريخ الكنيسة ، ولعل هذا يعود فى المقام الأول إلى الاضطهادات التى شهدها المسيحيون فى القرون الأولى ، والانشقاقات العديدة التى عهرت خلال القرنين الثانى والثالث وتضمنت العديد من الآراء والأفكار التى تدور حول المسيح والتجسد ، واقتضت أن يتصدى آباء المدرستين اللاهوتيتين الشهيرتين فى الاسكندرية وأنطاكية ، للدفاع عن العقيدة وتفسير الكتاب المقدس فى ضوء الفكر الأفلاطونى فى الأولى ، والمنهج الأرسطى فى الثانية (١١) .

حتى إذا جاء القرن الرابع وحل التسامح محل العداء فى السياسة الامبراطورية تجاه الكنيسة ، افتتح يوسيبيوس القيسارى قائمة الكتابةعن التاريخ الكنسى ، ولم يلبث أن تابعه فى خطوة ، فيليب سيدتس Philippus Sidetes ، وفيلاستورجيوس Philastorgius

وهكسيكيوس Hesychius وسقراط Socrates وسوزومنوس ، Sozomenos، وثيودوريتوس Teodoretus وإفاجريوس Evagrius وإذا كانت أعمال الثلاثة الأول قد ضاعت لصعوبة استخدام أولها ، وآريوسية ثانيها ، وعدم المعرفة بمصير ثالثها، فإن أعمال الأربعة الأخيرين قد بقيت لتمدنا بمعلومات إضافية عن تاريخ هذه الفترة حتى تسعينات القرن السادس الميلادى .

ومن الأهمية بمكان أن ندرك أن معظم الذين تصدوا لكتابة « التاريخ الكنسى » هؤلاء ، كانوا إما من رجال الدين أو الرهبان الذين رأوا فى التاريخ ملحمة مقدسة تبدأ منذ الخليقة حتى يوم الدينونة ، وتدور حول الصراع الأبدى بين الخير والشر ، وتنتهى بانتصار الخير (١٢) .

وهذه وإن كانت فى جوهرها أفكارا هللينية وعبرية وشرقية إلا أنها صيغت فى قوالب مسيحية ، بحيث تبدو حركة التاريخ وكأنها تسير باتجاه واحد منذ البدء ، جوهره التبشير بمقدم المسيح وآثبات ألوهيته ، ومن ثم فإن القوى الغيبية فى التاريخ المسيحى لم تطغ على الرواية فحسب ، بل أنها كانت تتحكم فى سياق الرواية أيضا إذ كانت العناصر الإلهية فى الرواية التاريخية راسخة ومحددة ، فالرب هو خالق العالم وهو كاتب تاريخه كما يتجلى فى الكتاب المقدس (١٣) ، وقد عبر مؤرخنا عن ذلك أصدق تعبير بقوله « كم العجائب والتغيرات قد جرت ، فها هى الأرباب القديمة قد تهاوت ، والأنظمة وقوانينها قد ازدريت ، ولم كان العديد من أعظم كتاب الإغريق قد سخروا فصاحتهم ، وبلاغتهم فى وصف خنزير كاليدونيا وعداء ماراثون وغير ذلك من الأعاجيب التى حدثت حقا ، أو تعود إلى أصول أسطورية .. تساءلت : لم لا أسمو فوق نفسى وأكتب للكنيسة تاريخا ؟! غير أنى كنت مقتنعا أن هذا الموضوع فوق طاقة البشر ، وأنه من غير المعقول أن يقوم مثلى بكتابة هذا التاريخ ، لكنى كنت على يقين .. أن مع الله ليس هناك مستحيل » (١٤) .

ومن هذا المنطلق أيضا فى الفكر التاريخى المسيحى تصبح الأحداث التاريخية ليست من قبيل النشاط الإنسانى وأهدافه ، وإنما إقرارا لمشيئة الله ، ومادامت من مشيئة الله قد قصد بها أن تكون مشيئة الإنسان ، فإن نصيب الله فى هذه الأحداث يتضمن تقدير الهدف الذى تسعى الإنسانية إلى تحقيقه بين الحين والحين ، ومعنى ذلك أن كل فرد من بنى الإنسان يعرف ما يحتاج إليه ، ويتلمس السبيل إلي تحقيقه ، دون أن يعرف جوهر احتياجه لبلوغ هذا الهدف بالذات ، لأن السبب فى احتياجه الى هذا الشئ هو أن الله كتب عليه أن يحتاج إليه ، لأنه بذلك يساهم فى تنفيذ مشيئة سبق تقديرها فى علم الله (١٥) ، ولاشك أن هذه الرؤية كان لها أثرها الواضح فى تعطيل الإرادة الإنسانية عن تحقيق الغفران ، وما قاد إليه ذلك من صراع طويل ومرير بين الكنيسة الكاثوليكية وخصومها منذ القرن الخامس على يد الراهب البريطانى بلاجيوس Pelagius وحتى القرن السادس عشر بزعامة مارتن لوثر (١٦) .

وما دام الله هو الذى يكتب التاريخ ، وحياة المسيح هى محور أحداث التاريخ ، وكل الأحداث التى سبقتها تدور حولها ، وما تبعها نتائج له (١٧) ، فمن الجوهرى أن يكون التاريخ تاريخا عاما ، عالميا ، يبدأ منذ بدء الخليقة ، ويمثل ذلك - فى النظرية - خير تمثيل المراحل التاريخية الست عند القديس أوغسطين (١٨) وفى التطبيق « التاريخ الزمنى » الذى كتبه شيخ مؤرخى الكنيسة يوسيبيوس القيسارى ، وتناول فيه تاريخ الخليقة منذ البدء حتى مجئ المسيح ، وهذا الكتاب ليس بين أيدينا فقد فُقد، و « التاريخ المقدس » Historia Sacra للمؤرخ العالمى «سولبيكيوس سفدوس » Sulpicius Severus فى الثلث الأخير من القرن الرابع والربع الأول من القرن الخامس ، وضمنه تاريخ العالم منذ بداية الخلق حتى عام ٤٠٠ للميلاد ، وهى نفس الفكرة التى راودت مؤرخنا سوزومين ويحدثنا عنها بقوله :« أحسست - أول الأمر - برغبة شديدة فى تتبع الأحداث التى وقعت منذ بداية الخلق » ، ويضيف « وتمكنت من وضع ملخص فى جزئين سجلت فيه تاريخ الكنيسة منذ صعود المسيح ، حتى عزل ليكينيوس » ومن أسف أن هذا الذى تمناه سوزومنوس وسجله قد

ذهبت به السنون ، ولم يعد بين أيدينا إلا كتابه « التاريخ الكنسى » ، الذى استكمل فيه رواية الأحداث منذ قسطنطين حتى زمانه .

وكان طبيعيا أن يصبح المصدر الأساسى لدى مؤرخى الكنيسة ، لكتابة مثل هذه «المزمنات » Chronographia الكتاب المقدس ، بعد أن بات ينظر إلى الأعمال الوثنية التى خلفها عظماء الإغريق ، من الأدباء والمفكرين والمؤرخين ، نظرة ازدراء باعتبارها أعمالا محض شيطانية ، وأنها كلها مجرد أساطير وخرافات لا حقيقة لها ، واعتمدوا اعتمادا مطلقا على ما جاء فى التوراة رغم أنها كانت من الناحية الأدبية أقل بكثير مما أبدعه مشاهير الإغريق أمثال هوميروس وثوكيديدز وبوليبيوس وليفيوس [١٩]، ومع ابتعاد المؤرخين المسيحيين بعيدا عن القواعد التى وضعها هؤلاء الأخيرون ،وتعصبهم الشديدضد الوثنية ، مما أدى بالتالى إلى تغاضيهم عن الموضوعية كثيرا ،كان لزاما عليهم أن يبتكروا أسلوباً خاصاً لمعالجة الوثائق ذات الطابع الدينى ، حيث رأوا أن تناول مسائل كثيرة خاصة بالخلق والأنبياء - كما ورد فى التوراة - يعتبرهرطقة لا تغتفر ، ومن ثم فإنه فى الأمور التى لا يقبلها العقل يجب تبريرها باللجوء إلى معنى خفى أو تفسير باطنيى ، ومن ثم حل المجاز والمعانى الرمزية والصوفية محل التحليل الناقد والقول الصريح كأسس للمنهج التاريخى [٢٠] ، وكان فيلون Philo اليهودى السكندرى فى القرن الأول الميلادى ، وأوريجن Origenes أستاذ اللاهوت وعميد المدرسة اللاهوتية وعميد المدرسة اللاهوتية السكندرية [٢١] فى القرن الثالث الميلادى خير تعبير عن هذا الاتجاه .

هكذا انقسم حقل التاريخ المسيحى إلى ميدانين ، التاريخ المقدس أو الكنسى ، والتاريخ العلمانى أو الدنيوى ، أو بتعبير نورمان بينز [٢٢] تاريخ شعبى وضع خصيصاً للجموع الذين يضمهم شعب الكنيسة ، وتاريخ علمى محقق كتبه أناس على قدر كبير من الثقافة العامة ، محتذين فى كتاباتهم أسلوب اليونان الأقدمين ، خاصة بعد أن راحت بيزنطة ترتقى سلم الزمن ، ويفرض

العالم البيزنطى نفسه على أرض الرومان ، ويدرك بنوه ومثقفوه أنهم حفدة اليونان وغرسهم ، وورثة الرومان وامتدادهم ،وكان من أبرز هؤلاء بروكوبيوس Procopius القيسارى فى القرن السادس ، وقسطنطين السابع الأرجونى المولد Constantinus VII Porphyrogenitus وليو الشماسى Leo the deacon فى القرن العاشر وأنا كومننا Anna Comnena ونيقتاس الخونياتى Nicitas Khoniates فى القرن الثانى عشر ، بينما الميدان الأول « الشعبى » اختص به الرهبان أنصاف المثقفين ورجال الكنيسة ، وبين هؤلاء نجد مؤرخى الكنيسة فى القرنين الرابع والخامس وكتاب « المزمنات » أمثال يوحنا مالالاس John Malalas فى القرن السادس ، وجورج الراهب George the Monk فى القرن التاسع ، ويوحنا زوناراس John Zonaras فى القرن الثانى عشر (٢٣) .

وهذا التصنيف لا يقلل من قيمة الأخرين وأهميتهم ، فالفترة التى وضع أولئك الرجال مؤلفاتهم فيها ، كانت تحتاج فعلا إلى مثل ذلك النوع من الكتابات التى تستهوى الجموع للدخول فى المسيحية ، فقد كانت فى أول عهدها بالتحرر من ربقة الاضطهاد وتسعى إلى كسب أنصار عديدين إلى صفها ، وتحاول لملمة نفسها بعد هذا التفسخ السائر قدماً فى داخلها من جراء الآراء والمذاهب العقيدية الكثيرة التى منيت بها ، ولذا كان من الضرورى التأكيد على أن السماء تقف دوما بجانب الكنيسة الجامعة والمنتمين إلى حرمها ، وهذا ما عبر عنه سوزومنوس (٢٤) بصورة واضحة عند حديثه عن الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى Theodosius II (٤٠٨ - ٤٥٠) ، الـذى أمضى جل عمره فى ظل عهده ، يقول ، « لقد بات واضحا لى من خلال معاينتى لأحداث هذه الفترة ، أن التقوى وحدها كافية لخلاص الأباطرة ، وبدونها فإن جيوش الإمبراطورية وقواتها وكل ما تتسلح به ، لا تملك لنفسها ضرا ولا نفعا ، فالقوة الإلهية الحارسة للعالم ، المهيمنة على شئونه ، هى التى تحمى الإمبراطور بعد أن سبق فى علمها أنه تقى ورع » .

صاحبنا المؤرخ سوزومنوس إذن ينتمي إلى هذه الطائفة الأخيرة من المؤرخين كتاب التاريخ الكنسي ، الذين يضعون نصب أعينهم حياة المسيح وسمو الكنيسة وتقوى الأباطرة ، جاعلين إياها محور - تواريخهم وجوهر مؤلفاتهم ، لقد كان من أهم أهداف «التاريخ الكنسى » الذى وضعه سوزومنوس ، البرهنة على أن العناية الإلهية ترفع دائما قدر الإيمان المسيحى ، وأن السماء تثيب الأخياروتوقع بالظالمين أشد العذاب ، وبمقتضى هذه الفكرة فإن الجوانب السيئة فيمن يدينون بالأرثوذكسية ، الإيمان القويم ، وجوانب التفوق عند خصومهم من لوثنيين أو الآريوسيين (٢٥) . تظل طى الكتمان وليس من المستحسن الافصاح عنها ، ويدخل فى ذلك هزائم الأباطرة النيقيين (٢٦) وانتصارات الآريوسيين ، ففى حديثه عن قسطنطين يصفه بأنه كان أعظم من أى حاكم آخر فى كل ما أداه من أعمال ، ذلك أنه لم يتم عملا - « وأنا على يقين من ذلك - دون عون الله » (٢٧) ، أما خصمه ليكينوس فقد كتب عنه معلقا على هزيمته أمام قسطنطين يقول : « من بين حقائق عديدة فإنه يظهر لى دائما أن التعاليم المسيحية تدعمها السماء ، وأن تقدمها وازدهارها تضمنه عناية الله ، ذلك أنه ما أن اعتزم ليكينيوس العودة إلى ممارسة السياسة الاضطهادية ضد المسيحية ، حتى اندلعت الحرب ، ولقى الهزيمة فى البر والبحر ، وكان عاقبة أمره خسرا (٢٨) .

وعلى نفس المنوال يشحذ سن قلمه لينزل به نقمة وشماتة على الإمبراطور قسطنطيوس Constantius ابن قسطنطين ، لأنه كان آريوسى المسيحية ، يعامل أساقفة النيقية خاصة الأسقف السكندرى أثناسيوس بالأزدراء ويذيقه عذاب النفى ، لقد ابتلته السماء بالفرنجة على نهر الراين في الغرب ، والفرس على نهر الفرات ، والزلازل فى الداخل (٢٩) ، أما جوليان Iulianus الذى أعلن العودة إلى الوثنية غداة اعتلائه العرش فحدث عن النكبات التي لازمت خطوه وسودت عهده !! ولاحرج (٣٠) بينما آل ثيودويوس الأول ، وخاصة حفيده وسميه الثانى ، فكل أعمالهم تحوطها عناية السماء وتحفها الرعاية الإلهية (٣١) ، أما الكوارث الطبيعية مثل الزلازل ،

والغزوات العسكرية التى قام بها الجرمان على عهدى الجد وحفيده ، فلا ذكر لها أو يؤتى به على استحياء ، ولم تذكر صراحة إلا عندما أوذى يوحنا ذهبى الفم ، Iohannes Chrysostomus أسقف القسطنطينية وعزل من منصبه ، فقد « تعرضت القسطنطينية وضواحيها لسقوط البرد بشكل لم يسبق أبدا من قبل ، وما هى إلا أربعة أيام حى ماتت زوجة الأمبراطور » . حتى إذا جاء دور سوزومنوس للتعليق على ذلك نراه يقول بذكاء شديد لأن هذه الأحداث وقعت على عهد أركاديوس Arcadius ابن امبراطوره المفضل ثيودوسيوس الأول ، ووالد امبراطوره المحبوب ثيودوسيوس الثانى ، « لقد بدت هذه الأحداث فى نظر الكثيرين دليلا على غضب السماء بسبب الاضطهاد الذى تعرض له يوحنا » (٣٢) ، وحتى ألاريك Alaric الجرمانى زعيم القوط الغربيين ، الذى اكتسح روما سنة ٤١٠ وعاث فيها فسادا وجعل أعزة أهلها أذلة ، إنما كان يفعل ذلك كله بقوة دفع لا يمكن تفسيرها إلا فى ضوء سخط السماء على هذه الرذيلة التى تردى الرومان فى حمأتها ، والرفاهية المفسدة ، والممارسات الظالمة التى يوقعونها بأنفسهم والآخرين ، بينما نجا النصف الشرقى من الامبراطورية من أخطار هذه الهجمات ، وساده السلام على عكس كل التوقعات ، حيث كان حاكمه مايزال فى ريعان الصبا (٣٣) يعنى بذلك ثيودوسيوس الثانى « الامبراطور الورع » الذى لم يكن عمره يتجاوز آنذاك تسع سنين .

على هذا النحو يمكن القول أن « التاريخ الكنسى » الذى وضعه سوزومنوس ليس إلا مظاهرة لنصرة العقيدة المسيحية ، جاء بتوفيق من السماء وإلهام الروح القدس ، هو هنا يسير على خطى سلفه ورائده فى هذا السبيل ، وابن وطنه يوسيبيوس القيسارى ، متمما ما بدأه شيخ مؤرخى الكنيسة ، ممسكا بخيط التاريخ عند النقطة التى انتهى إليها سلفه فى كتابه « التاريخ الكنسى » .

وقد حدد سوزومنوس فى مقدمة كتابه ، المنهج الذى سوف يلتزم به فى معالجة حادثات التاريخ ، يقول : « لما كان هدفى الرئيسى أن أظهر الحق ، وألفت الانتباه إلى

أجل معانيه ، والتزم الدقة التاريخية فيما أروى ، فإنى سوف أسجل بكل أمانه ما عاينته بنفسى ، أو سمعته من أناس يعرفونه أو رأوه فى أيامنا هذه أو فيما سبق من أيام ، سوف أسعى جاهدا للحصول على سجلات الأحداث التى وقعت فى ماضي الزمان، والتى لابد أن تكون موجودة فى القوانين المتعلقة بالعقيدة ، ومضابط الجلسات الخاصة بالمجامع الدينية التى عقدت فى تلك الفترة ، والأراء العديدة التى ظهرت ، والرسائل الخاصة بالملوك والآساقفة ، وأنا على يقين أن هذه الوثائق كلها إما موجودة فى القصور أو الكنائس أو تفرقت عند الدارسين » (٣٤) .

ويعترف سوزومنوس أن تحقيق مثل هذا الأمر ، فى الحصول على كل هذه الوثائق ، يعد ضربا من المستحيل ، ومن ثم يعد قراءة أن يقدم لهم ملخصا لبعضها فى حالة تعذر الحصول عليها أو الوصول إليها ، ويقرأن هذه الوثائق أيضا قد يشوبها فى بعض الأحيان الهوى الشخصى ، خاصة إذا كانت تتعلق بآراء فريق من المجادلين فى أمر العقيدة ، أو كان من يكتبها ينتمى لفريق الخصوم ، ولذا فسوف يكون حريصا على فحصها حسب إمكانياته ومقدرته على حد قوله (٣٥) ، ويناشد صاحبنا قراءه فى النهاية ألا يظنوا به الظنون ويقول ،« لا تلصقوا بى أى روح شريرة أو خبيثة إذا توقفت طويلا عند المناقشات الجدلية اللاهوتية الدائرة بين الكنائس ، موضحا النزعة الهرطقية عند هؤلاء أو أولئك ، فقد قلت من البداية إن المؤرخ يجب أن يضع أى شئ فى المرتبة الثانية بعد الحقيقة ، وهى أن يكون إيمان الكنيسة الجامعة عاليا على رءوس الأشهاد » (٣٦) .

والنقاط الأولى التى وضعها سوزومنوس فى البداية ليسير عليها ، تبدو متسقة مع منهج البحث التاريخى الجاد فى الاعتماد على الوثائق التاريخية الأصيلة فى بيان صدق الأحداث ، أما العبارة الأخيرة فى هذه النقاط فقد جاءت متنا غمة مع شخصيته هو ، متفقه مع أسلوب حياته وتكوينه وثقافته ، وهو ما يعد بعيدا عن مجال المنهج التاريخى الجاد ، إذ ليس من صفات المؤرخ أن يضع من البداية رأيا معينا خاصا به ، ويطوع له الحقائق التاريخية ، فإفتراض سمو الكنيسة الجامعة

من البداية جعل كتابه كله يدور فى حلقة واحدة كما أسلفنا ، وهو أنه جاء مظاهرة لمناصرة المسيحية والأباطرة القائمين بأمر رفعتها وانتشارها .

ولاشك أن مؤرخا على هذا النحو لابد أن يكون راويه أكثر منه محللا ، أو بتعبير أدق مؤرخا ناقداً كما كان معاصره المؤرخ الكنسى سقراط Socrates ، ففى الوقت الذى سجل الأخير فى كتابه عددا من المواقف التى وضعته فى صف المؤرخين النقاد ،أكتفى سوزومنوس بإيراد الأحداث دون أن يصدر فيها أحكاما معينة ،فمثلا عند حديثه عن الإمبراطور قسطنطين لا نجده يخرج فى قليل أوكثير عما كتبه مواطنه يوسيبيوس القيسارى فى كتابه « حياة قسطنطين » Vita Constantini دون مناقشة ، وهو نفسه يثبت ذلك بقوله : « لقد أكد يوسيبيوس الملقب بـ « البامفيلى(٣٧) Pamphius أن الإمبراطور [قسطنطين] أقسم بأغلظ الأيمان ... » (٣٨) ، ويورد بعد ذلك قصة الهالة التى تراءت للإمبراطور فى السماء قبل معركة القنطرة الملفية ضد خصمه ماكسنتيوس Maxentius عام ٣١٢ وعند حديثه عن موت آريوس السكندرى يورد خمس رويات مختلفة ، وينقل عن الأسقف السكندرى أثناسوس Athanaeius روايته حول هذ الأمر (٣٩) ولم يحاول التوقف لمناقشة هذه الروايات أو حتى التعليق على مانقله عن أثناسيوس بحرفه (٤٠) .

وفى عام ٣٤٣ شهدت الكنيسة حدثا غير عادى بانعقاد المجمع المزدوج ، المنشق على نفسه ، فى كل من سرديكا «Sardica وفيليوبوليس Philippopolis ، والذى كان من المفروض أن يعقد كمجمع واحد ، لكن أساقفة النيقية انحاذوا إلى سرديكا ، بينما اعتزل الآريوسيون فى فيليبوبوليس ، وعند عرض سوزومنوس لهذه الأحداث نجده يقف موقف المتفرج مكتفيا بعرض وجهتى النظر المتضادتين لكلا الفريقين ، ولم يحاول مجرد التعليق على ما أورده الأسقف السكندرى أثناسيوس (٤١) .

وعند هذه المسألة بالذات يمكن أن نلتمس العذر لسوزومنوس ، ذلك أن الرجل لم يكن على قدر ولو ضئيل من الثقافة اللاهوتية ، ولم يكن متعمقا فى مثل هذه الدراسات

شأن الآباء الكبادوكيين الثلاثة الأشهار ، باسيليوس Basilius أسقف قيسارية الكبادوك ، وجريجورى النازيانزى Gregory of Nazianza وجريجورى النيساوى Gregory of Nyssa الذين كان لهم دورهم الكبير خلال اشتداد أزمة الجدل الكريستولى الدائر حول المسيح فى القرن الرابع الميلادى ، ومن ثم كان من الطبيعى ألا يغوص سوزومنوس فى الخلافات العقائدية العميقة الدائرة بين الفرق المتصارعة ، بل كان طبيعيا أيضا ألا يعرف مؤرخنا شيئا عن كبار اللاهوتيين الذين سبقوه أو عاصروه ، فهؤلاء الثلاثة الذين سبق للتو ذكرهم ، لم يشر إلى كتاباتهم اللاهوتية ، وجاءت إشاراته إليهم مقتضبة وبصورة سطحية ، رغم أنه يعتبرهم من أعمدة الإيمان النيقى ، و« من أشهر الخطباء فصاحة وبلاغة » (٤٢) .

وجرى الحال بالنسبة لأثناسوس على نفس المنوال ، ومع أنه حدثنا عنه كثيرا وعن صراعه مع الأباطرة الآريوسيين والوثنيين ، إلا أنه لم يأت على ذكر لواحد من أعماله العديدة ، وإذا كان هذا شأنه مع أعمال آباء اللاهوت فى الشرق ، فقد كان قرناؤهم فى الغرب بالأحرى بعيدين تماما عن معرفته ، مثل اللاهوتى الشهير هناك هيلارى Hilarius أسقف بوابييه فى القرن الرابع الميلادى ، فإنه لم يسمع به مطلقا ، أما فيما يتعلق بالوثيقة الآريوسية التى وضع فيها آريوس كل آرائه وفكره ، والمعروفه باسم « ثاليان Thalia ، فإنه لم يذكر منها إلا اسمها فقط ، ويضيف إلى جواره أنه « لم يقرأ هذا العمل أبدا » (٤٣) .

والحقيقة أن سوزومنوس كان صريحا جدا فى هذا المجال ، فقد حرص على أن يبين لنا فى أكثر من موضع فى كتابه ، أنه لا قبل له بمثل هذه المسائل اللاهوتية العميقة ، فبعد حديثه عن « يونوميوس » Eunomius زعيم الأنوموين (٤٤) Anomoeans الذين ينكرون أى شبهية بين الآب والابن ، وهم إحدى الفرق الآريوسية العديدة يقول إنه لا يدعى الفهم ولا يمتلك القدرة على تفسير مثل هذه الأمور » (٤٥) ، ويضيف ، ليست لدى المهارة الجدالية التى يمتلكها أصحاب هذه الفرق على اختلا فهم (٤٦) ، ثم يقر

ذلك صراحة بعد حديثه عن ديديموس Didymus الضرير آخر من تولى زعامة مدرسة اللاهوت السكندرية فى آخريات القرن الرابع الميلادى ، وآيتيوس Aetius المؤسس الحقيقى للعقيدة الأنومية فى عهد الامبراطور قسطنطينوس ، والتى تولى زعامتها من بعده يونوميوس (٤٧) ، فيقول «لا أنكر أننى حقا معجب بفصاحتهم ومدى قدرتهم على إدارة دفة المناقشات ، لكنى فى الوقت نفسه أترك الحكم على مراسيمهم العقيدية لمن لهم الحق فى ذلك والقدرة عليه ، ولن آخذ على عاتقى مهمة تسجيل مثل هذه الأمور، لأن ذلك لا يتناسب وكتابة التاريخ ، لأنى فقط سوف أذكر الأحداث كما وقعت بالفعل دون أن أضيف إليها شيئا من عندياتى » (٤٨) .

وهكذا يفصح سوزومنوس بلامواربة عن رأيه فى كتابة التاريخ ، مبينا أن دوره لن يتعدى مجرد تسجيل الوقائع التاريخية دون أن يبدى رأيا فيها ، هذا فى الوقت الذى يذكر فيه سلفه ومعاصره المؤرخ الكنسى سقراط رأيه صراحة فى هذه الخلافات الجدلية اللاهوتية ، ويعلق فى نهاية كتابه عليها بقوله : « إذا ساد السلام بين الكنائس فلن يجد المؤرخون شيئا يكتبون عنه ، ومن ثم تنقرض هذه الطائفة من كتاب المآسى » (٤٩) .

والحق أن سوزومنوس التزم فى كتابة تاريخه بهذا الخط الذى اختطه لنفسه ، ولم يخرج عن هذه القاعدة إلا فى حالات نادرة تتعلق برفعة شأن الكنيسة الجامعة وصالح المسيحية ، وجاءت تعليقاته القصيرة بمثابة عظة مؤثرة لجموع المسيحيين تدعوهم إلى الوئام ونبذ هذه الخلافات العقيدية ، فبعد مصرع الامبراطور جوليان سنة ٣٦٣ واعتلاء جوفيان Iuvianus العرش ، وعودة الأمان للكنيسة المسيحية والمسيحية مرة ثانية ، بعد الفزع الذى انتابها على عهد الإمبراطور الفيلسوف ، يقول سوزومنوس فى عبارات بليغة بالغة الدلالة : « والآن ... هاقد عاد آباء الكنيسة من جديد يستأنفون جدالهم العقيدى ومناقشاتهم المذهبية ، لقد ظلوا هادئين ملتزمين السكينة طيلة عهد جوليان ، لأن المسيحية نفسها كانت فى قمة الخطر ، وساعتها قدم الآباء جميعهم ضراعاتهم وتوسلاتهم من أجل أن تحل بهم رحمة الله ، هكذا

حال أولئك الرجال إذا هاجمهم خطر خارجى ، ظللهم الوئام وغشيتهم الوحدة ، فإذا ما انقشعت غمة هذه المتاعب الخارجية عادوا سيرتهم الأولى ، وراحت الانقسامات الداخلية تدب بين صفوفهم لتفعل بهم الأفاعيل » (٥٠) .

ويبلغ به الأسى مبلغه لهذا الذى يراه حادثا فى الكنيسة المسيحية من جراء هذا الاصطراع الكريستولوجى ، فيقول : « هكذا أوقعت العداوات الشخصية والحقد بين رجال الاكليروس أبلغ الضرر بالكنيسة بين الحين والحين ، وانقسمت العقيدة إلى أكثر من فرقة مهرطقة ، هذه المذاهب المتنافرة هى المصدر الرئيسى لكل المتاعب التى لاحصر لها للعقيدة ، لقد هجر الكثيرون المسيحية وعزفوا عن اعتناقها من جراء هذه الانقسامات التي يرونها وقد سادت العقيدة » (٥١) .

ولما كان سوزومنوس قد جعل المسيحية ودفعة كنيستها حجر الزاوية فى كتابه ، فقد حرص على أن يدافع عنها حتى ولو أدى به ذلك إلى أن يفقد تماما صفة المؤرخ، فالأباطرة الذين ناصروا المسيحية كانت رعاية السماء تحوطهم كما أشرنا من قبل ، وأما الذين اضطهدوها أو باعدت بينهم وبينها وجهة النظر المذهبية ، فقد أحاطت بهم الكوارث والنكبات ، ولعل أوضح الأمثلة على ذلك موقفه من قضية مصرع جوليان ، فبعد أن يورد جزءا مما قاله الفيلسوف الأنطاكى ليبانيوس Libanius الذى كان بمثابة أستاذا لجوليان ، والذى اتهم فيه المسيحيين صراحة بقتل الإمبراطور (٥٢) يقول سوزومنوس : « ربما تكون هذه هى الحقيقة ، ومن المحتمل أن يكون بعض الجنود الذين يعملون فى الجيش الرومانى قد اقتنعوا بمثل هذه الفكرة ، ولم لا ؟! والأغريق قديما والناس حتى وقتنا الحالى يمتدحون قاتلى الطغاة لأنهم يعرضون أنفسهم للموت فى سبيل الحرية ، يدعمهم بأموالهم وأنفسهم مواطنوهم وأهلوهم ومحبوهم ، أبعد كل هذا يستحق اللوم من أقدم على هذا العمل حب فى الله والدين ؟! (٥٣) ويبدى أحد الباحثين المحدثين تعجبه لذلك : « إلى هذا الحد يصل رجل القانون فى تدعيمه لمذهب الفردية القائل بأن جميع الحقوق والواجبات تنبثق من الأفراد ؟ » (٥٤) .

ورجل القانون هنا هو المؤرخ سوزومنوس نفسه ، ولكنه لم يحدثناكثيرا فى كتابه عن هذا الجانب من جوانب ثقافته ، وكل ما جاء فيه إشارات متناثرة لا تقدم مادة علمية كبيرة ، فى الوقت الذى حرص فيه حرصا شديدا طوال صفحات كتابه على أن يبرز الجانب الآخر من حياته وهو الرهبنة ، ومن ثم فليس لدينا ما يفيد عن الفترة التى بدأ فيها دراسة القانون ، ولا الدوفع التى حدت به إلى ذلك ، وإن كان يمكن تعليل فى ضوء الأحترام الذى كان يلقاه أصحاب مهنة المحاماة آنذاك فى الامبراطورية باعتبارهم من الخطباء وذوى البلاغة ، ونستدل على ذلك من حديثه عن الأسقف تريفيليوس Triphillius القبرصى الذى اشتهر بالفصاحة ، وكان يمارس مهنة المحاماة فى بيروت (٥٥)، وقد حدثنا جيروم (٥٦) أيضا عن الرجل نفسه ، والذى كان يعيش على عهد الامبراطور قسطنطيوس (٣٣٧ -٣٦١) ، وأثنى عليه بمثل ما أثنى سوزومنوس .

وليس من المستبعد أن يكون مؤرخنا قد تلقى دراسته القانونية فى بيروت والتى اشتهرت آنذاك بمدرستها فى القانون ، وتعد من أقدم مدارس القانون فى الإمبراطورية حيث أنشئت على عهد الإمبراطور اسكندر سفروس (٢٢٢ - ٢٣٥) ، ومن الجدير بالذكر أيضا أنهاكانت من المدارس التى تم استثناؤها من الإغلاق بمقتضى قانون الإمبراطور جوستنيان ، الصادر عام ٥٣٣ (٥٧) ، ومن المحتمل أيضا أن يكون قد قرأ بعض المدونات القانونية لمدرستى الاسكندرية وقيسارية ولاشك أن سوزومنوس قد درس القانون اعتمادا على المجموعتين المتاحتين آنذاك ، وهما لمجموعة الجريجورية Codex Gregorianus والتى تنسب إلى الفقيه البيروتى جريجورى ، والمجموعة الهرموجينية Codex Hermogenianus والمنسوبة هى الأخرى إلى الفقيه البيروتى « هرموجينيوس » ، حتى وصفت بيروت بأنها مركز نشر القوانين ومستودع الأحكام الأمبراطورية (٥٨) ، أما مجموعة القوانين الثيودوسية Codex Theodosianus التى تنسب إلى الأمبراطور ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨ - ٤٥٠) فقد كان العمل فيها يجرى آنذاك ، وأعلن العمل بها رسميا فى عام ٤٣٨ (٥٩) .

وقد أخبرنا سوزومنوس صراحة بأنه كان يمارس المحاماة ، وذلك عند حديثه عن صديقه أكويلينوس Aquilinus « الذى مازال يقيم معنا ويترافع أمام نفس الدوائر القضائية التى نترافع فيها » (٦٠) وعندما زار القسطنطينية كان القضاة والمحامون هناك من بين من حرص على أن يوثق علاقته بهم (٦١) ، وقد ضمن صاحبنا كتابه العديد من التشريعات التى صدرت فى صالح الكنيسة على عهود الأباطرة المتتالين إبتداء من قسطنطين وحتى فالنتينيان الثانى Valentinianus وأركاديوس Arcadius وكان هذا شيئا طبيعيا يتفق والخطة التى رسمها لكتابه منذ البداية .

ولا بد أن يقفز إلى الذهن هنا تساؤل عن مدى معرفة سوزومنوس باللغة اللاتينية ؟ فالرجل كان يعيش فى النصف الشرقى من الإمبراطورية الذى كانت اليونانية لسانه ، والهللنستية فكره وثقافته ، بينما المجموعات القانونية التى تلقى منها دروسه فى القانون كانت باللغة اللاتينية ، اللغة الرسمية للإمبراطورية الرومانية آنذاك ، وهو قد وضع كتابه « التاريخ الكنسى » باليونانية ، وقد ظلت اللاتينية لغة البحث والدراسة خاصة للعاملين فى حقل الدراسات القانونية حتى عهد الإمبراطور ليو الثالث LeoIII الايزورى وابنه قسطنطين الخامس Constantinus V فى القرن الثامن الميلادى ، والذى لاشك فيه أن سوزومنوس كان وحدا من المعروفين فى زمانه ببلاغة لغته اليونانية ، بالإضافة إلى وقوفه على كثير من مفردات السريانية والآرامية ، ومقدرته الدقيقة على معرفة تصحيفاتها (٦٢) وكل هذا أثرى كتابته وترك بصماته على أسلوبه ، لكن يبدو فى الوقت نفسه أن إلمامه باللاتينية كان سطحيا ، وأن دراساته القانونية لا بد أن تكون قد اعتمدت علي ترجمات معينة وجدها فى زمانه ، وبالطبع لم يكتب لهذه الشذرات المترجمة إلى اليونانية الذيوع فى وجود أصول المدونات باللاتينية .

ومؤرخنا يقدم لنا بنفسه الدليل على ذلك فى صراحة وأمانة علمية تحسب له ، فالوثائق اللاتينية الصادرة عن الأباطرة الرومان ، والمجامع الكنسية التى يعقدها أساقفة الغرب الأمبراطورى ، كانت كلها باللاتينية ، وقد أوردها فى تاريخه معترفا أنه

أخذها عن ترجمات لها ، مثال ذلك الرسالة التى بعث بها الا مبراطور قسطنطين الثانى Constantinus II (٣٣٧ - ٣٤٠) إلى السكندريين يخبرهم فيها بإعادة أسقفهم أثناسيوس من منفاه ، والنية التى كانت متوفرة لدى والده قسطنطين الأول] بإعادته لولا أن حالت وفاته دون ذلك ، ويقول إنه يسجل هذه الرسالة كما وجدها فى ترجمة يونانية (٦٣) .

وفى عام ٣٥٩ عقد المجمع المزدوج الثانى فى كل من ريمينى Ariminium بإيطاليا ، وسلوقية Selevcia بإيزوريا Isauria فى آسيا الصغرى ، ومن الجدير بالذكر أن سوزومنوس ينفرد وحده دون غيره من مؤرخى الكنيسة بالحديث عن الظروف التى سبقت عقد المجمع ، والمدن التى اقترحت من قبل لعقد المجمع ، وجهود الأريوسيين بفئاتهم المختلفة وسعيهم لدى قسطنطيوس فى هذا السبيل (٦٤) وانتهى المؤتمرون فى ريمينى إلى صيغة للإيمان ، وبعثوا بها فى رسالة إلى الإمبراطور حفظها لنا مؤرخنا وقدمها بقوله إنها نسخة يونانية مترجمة عن الأصل اللاتينى (٦٥) ، والأمر نفسه ينسحب على الرسالتين اللتين بعث بهما البابا إنوسنت الأول Innocent I (٤٠٢ - ٤١٧) إلى كل من يوحنا ذهبى الفم ، وإكليروس القسطنطينية بعد الأذى والاضطهاد الذى نزل بساحة يوحنا ، حيث يذكر سوزومنوس أنه سوف يورد نص الرسالتين كما وجدهما فى ترجمة يونانية (٦٦) .

على أننا من ناحية أخرى نجد بعض الإشارات التى توحى أن سوزومنوس ، ربما كان على معرفة بالتراث الكلاسيكى القديم ، عندما يورد أسماء فحول الشعراء الإغريق وكتاب المسرح مثل هومروس ومناندر Menander ويوريبيدس Euripides وبندار Pindar وذلك عندما تناول العمل الذى قدمه أبوليناريس Apollinaris الأب ، وردا على قرار الإمبراطور جوليان الخاص بمنع الأساتذة المسيحيين من تدريس الآداب الكلاسيكية فى المدارس والجامعات ، حيث ترجم أسفار الكتاب المقدس فى قصيد بطولى وعرض للجانب التاريخى من العهد القديم بالشعر حينا يقلد هومروس ،

وباختزالها حينا آخر فى صورة تراجيديا روائية يحاكى بها يوربيدس (٦٧) ، ودافع سوزومنوس عن هذا العمل الأبوللينارى دفاعا مجيدا ، معتبرا أياه منفسا للآداب الكلاسيكية ولن يقل عنها مكانة (٦٨) بينما لم يتردد سلفه ومعاصره سقراط فى الدفاع بجرأة عن هذه الأعمال الكلاسيكية (٦٩) ، وكان طبيعيا ألا يكتب لهذا العمل الكلاسيكى الزائف ، الذى وضعه أبولليناريس ، البقاء بعد موت جوليان ، حيث عاد للمدرسين الحق فى تعليم التراث الكلاسيكى الحق (٧٠) .

ولا ريب أن الأسلوب الذى عرض به سوزومنوس لهؤلاء الأغريق العظام ، توحى بأنه لم يقرأ شيئا لهم وإن كان لابد قد قرأ عنهم (٧١) ، وهو يطلعنا على ذلك عند حديثه عن جانب من جوانب التراث الكلاسيكى المتمثل فى الميثولوجيا ، مثل معبد أبوللو فى دافنى Daphne (٧٢) أو إنشاء مدينة طروادة (٧٣) حيث يقول إنه « سوف يترك الحديث عن مثل هذه الأمور لأولئك المختصين بالميثلوجيا » (٧٤) .

وإذا كان سوزومنوس قد فعل ذلك إزاء التراث الكلاسيكى وميثولوجيا الإغريق ، إلا أنه أوقف الصفحات الطوال من تاريخه » على الحديث عن معجزات وكرامات الرهبان فى فلسطين وسوريا ومصر ومساحة عريضة من الإمبراطورية ، واعتبرها من الأمور المسلم بها والتى لا يتطرق الشك إليه بأية صورة من الصور ، وقدم من التأكيدات فى كتابه ما يدعم موقفه من هذه المعجزات من وجهة نظره ، ويقول ، « إنى أؤكد هذا بناء على تجربة شخصية حيث حققت الكثير من النفع ، وحدث ذلك لكثيرين غيرى » وقد جاءت أمثلة فى معرض حديثه عن منطقة الـ « ميخالية » Michaelium فى القسطنطينية التى اكتسبت تسميتها هذه لظهور ملاك الرب ميخائيل بها ، بعد أن كانت تسمى قديما هستاى Hestiae (٧٥) .

لقد كان صاحبنا عاشقا للحياة الرهبانية متطلعا إلى النموذج المقدس للإنسان فى هذه الحياة ، ووجدت محاولة الرقى بالجانب الروحى على المادى فى الإنسان ، وهو

مانادت به الرواقية ، مدافعا قوايا فى شخص سوزومنوس (٧٦) ، وغدت الرهبانية فى رأيه الفلسفة الوحيدة النافعة التى تلقاها الإنسان من ربه ، وهى القوة الحقيقية فى مملكة الله ، الأسمى فوق كل معرفة ، والمسوغ لإهمال كل ماعداها من معرفة ! والواجبات التى تتطلبها هى نظام النفس وقمة الأخلاق وإعداد الروح لعالم سرمدى ، إنها الفلسفة التى سوف تحتل مكانة كل النظريات الفلسفية القديمة ، وهى المدرسة العالية التى ستملأ لفجوة التى نجمت عن انحلال الجامعات الهللينية (٧٧) .

كان الهدف الأساسى لسوزمنوس حديثه عن الرهبانية أن يحفظ للذاكرة - على حد قوله - تلك الحركة الهائلة ، وأن يحى عن الدوام دكرى زعمائها البارزين ، مشاركا فى ذلك كلا من أثناسوس السكندرى ، وباسيليوس الكبادوكى ، وجيروم ويوحنا ذهبى الفم، الذين دافعواهم الآخرون فى كتاباتهم عن هذه الحر اة ، وليس غريبا أن يستفتح تاريخه بقوله : « ليس بعيد عن تاريخ الكنيسةأن أقدم فى هذا العمل شيئ عن أولئك الذين كانوا آباء وعمداً لما يعرف بالحياة الرهبانية ، وعن خلفائهم المباشرين الذين أصبحت فضائلهم بالنسبة لنا - أمرا معروفا إما عينا أو بما قرأناه عنهم ، حتى لا أعد جاحدا لهم ، ولا واضعا فضائلهم فى زوايا النسيان ، ولا جاهلا بتاريخهم ، إنى أريد أن أخلف ورائى سجلا حافلا عن طرائق حياتهم حتى يقتدى بهم من خلفهم أملا فى نهاية سعيدة وخاتمة حياة مباركة » (٧٨) .

والمعلومات الصافية التى يقدمها سوزومنوس فى تاريخه الكنسى عن طبيعة هذه الحياة الرهبانية ، وأهميتها وأصولها وتنظيماتها ، وقواعدها وقادتها تدل على عمق معرفته بها وسعة اطلاعه ودراسته لتجمعات هؤلاء الرهبان (٧٩) ، ونراه يفاخر بأن الجموع تتعلق دائما بكل ما يعتنقه الرهبان ويفصحون عنه، كما أن شهادتهم مقبولة لدى الجميع دون أدنى شك فيها ، وذلك لما عرف عنهم من الفضيلة وحياتهم النقية الطاهرة (٨٠)، ويشير بكل الاعتزاز أيضا إلى أن الأريوسية لم تلق أى نجاح فى مصر لأنه فشلت فى أن تستقطب إلى جوارها جماعات الرهبان (٨١) ومن

المعروف أن الأسقف السكندرى حقق نجاحاً كبيرا فى تحديه للأباطرة الآريوسيين وجوليان الوثنى ، لصداقته الحميمة مع رهبان مصر ، وكانوا هم الذين قدموا له الأمان والحماية من بطش هؤلاء الأباطرة ، على امتداد فترة اسقفيته الطويلة (٣٢٨ - ٣٧٣) ، وأخفوه عن أعين السلطة الإمبراطورية ثلاث مرات متتالية من مرات نفيه الخمس ، ولم يكن الأمر قاصرا على رهبان مصر وحدهم ، بل أمتد إلى كل الرهبان فى المناطق الأخرى من الإمبراطورية ، مما أدى إلى انتشار النيقية وذيوعها ، وعدم نجاح الآريوسية إلا بسلطان الأباطرة مثل قسطنطين وفالنز [٨٢] .

لهذ لم يكن أمرا غريبا عند سوزومنوس ، بقدر ما بدا شيئا مستحبا بل ولازما ، أن يمتلئ كتابه بذكر معجزات وكرامات الرهبان باعتبارها أمورا حقيقية قد وقعت بالفعل ، مثل ظهور الصليب لقسطنطين فى السماء أثناء قدومه من غاله إلى إيطاليا لحرب خصمه ماكسنتيوس عام ٣١٢ ، وتجلى المسيح له فى نومه فى الليلة نفسها [٨٣] ، وما تبدى لهيلينا Helena أم الإمبراطور من معجزات عند بحثها عن خشبة الصليب الأساسى ، ويعلق على تلك المعجزات - على حد اعتقاده بقوله : « لا أعتقد أن المعرفة الإنسانية تصبح ذات معنى إذا ما أظهر الله الحقيقة بنفسه » [٨٤] وهذا هو الراهب المصرى بيامون Piammon وهو يقوم مقام الكاهن فى القداس ، شاهد ملاكا يقف بجوار المنضذة المقدسة وبيمينه كتاب يخط عليه أسماء الرهبان الحاضرين ويمحو أسماء الغائبين [٨٥] ، والأسقف السكندرى أثناسيوس يؤتى به إلى كرسى الأسقفية خلفا لاسكندر بوحى من السماء [٨٦] ، والراهب المصرى باخوميوس Pachomius ، مؤسس النظام الديرانى فى الرهبنة ، يطيع ملاكا يقوم بتوجيهه لجمع الناس وإلقاء عظاته ، بينما الراهب الفلسطينى ملاخيون Malachion فى أثناء قيامه برحلتمع ثلاثة رهبان آخرين هم فوسكون Phuscon وسلامينس Salamines وكريسبيون Crispion إختفى عن أعينهم فجأة لبعض وقت ثم عاد إلى الظهور ثانية وسار معهم إلى حيث يبتغون [٨٧] .

ولم يقف الأمر بسوزومنوس عند هذا الحد ، بل تعداه إلى إدخال المعجزات والكرامات فى مصائر الأباطرة الذين وقفوا من المسيحية موقفا معاديا عقيديا أو مذهبيا ، فعن الوثنية المبكرة عند الإمبراطور جوليان وهومازال بعد صبيا ،يحدثنا عما حدث عند بناء قبر القديس ماماس Mammas فى قلعة ماكلوم Macellum فى آسيا الصغرى ، وما كان من تصدع الجزء الخاص بجوليان مرة بعد أخرى كلما بناه ، مما يعنى أن القديس لم يقبل منه عمله (٨٨) ، أما عن موت جوليان فقد قدم سوزومنوس روايات للمعجزات التى يؤكد لنا أنه قد وقعت تبشر بمقتله وتطمئن رجالات الكنيسة ، كرواية الأنبياء والرسل وما كان من أمر اجتماعهم فى إحدى الكنائس وتشاورهم فى أمر القضاء على ذلك الإمبراطور الوثنى ، وانتداب أثنين منهما لنفسيهما للقيام بهذه المهمة ، وما كان من أمر الرؤيا التى رآها ديديموس الضرير عميد مدرسة الاسكندرية اللاهوتية ، والخاصة بالجياد البيض والصوت الصارخ فى السماء معلنا وفاة جوليان (٨٩) ، وعندما أعلن اعتلاء يوجينيوس Eugenius للعرش الإمبراطورى فى الغرب بعد اغتيال ڤالنتينيان الثانى Valentinianus II عام ٣٩٢ ، ورفض الامبراطور ثيودوسيوس الأول لهذه الأوضاع ، واتجاهه للقضاء على خصمه ، عمد أولا إلى الصلاة والضراعة فى كنيسة يوحنا المعمدان ، التى كان الأمبراطور قد بناها من قبل ، وما أن احتدم أوار المعركة وتأرجح النصر بين الطرفين ، هبت ريح صرصر عاتية باتجاه وجوه قوات يوحيبنيوس ، فاقتلعت خيامهم ، وبلغ من شدتها أن ارتدت سهامهم إلى صدورهم ! وكان النصر تبعا لذلك من نصيب ثيودوسيوس (٩٠) ، واستخدم سوزومنوس الرياح نفسها ليصوبها تجاه جيوش جايناس Gainas القوطى الذى حاول اقتحام القسطنطينية على عهد الإمبراطور أركاديوس Arcadius (٣٩٥ - ٤٠٨) من ناحية البسفور ، مما أدى إلى وقوع سفنه فى يد البيزنطيين (٩١) .

وإذا كنا قد سقنا هنا جانبا يسيرا مما ذكره سوزومنوس عماعده معجزات وكرامات ، فإن كتابه تمتلئ صفحاته بالكثير جدا من مثل هذه الأمثلة ، وهو يوردها كما أسلفنا مورد الصدق الذى يعلو فوق كل ريبة ، وكان هذا هو الذى دفع ول ديورنت (٩٢) إلى

أن يعلق على ذلك بقوله : « إن دراسة سوزومنوس للقانون لم تحل بينه وبين الإيمان بالخرافات » ، ولكن من الضرورى أن نعلم أن تلك كانت طبيعة العصر التى وجد أنها تمثل أمرا جوهريا فى مواجهة التيارات الفلسفية والفكرية السائدة فى محاولة لاستقطاب البسطاء من الناس الذين كانوا يكونون آنذاك القاعدة العريضة لشعب الكنيسة .

ولم يكن صاحبنا يقف وحده فارس ذلك الميدان ، فقد شاركه كثير فى مقدمتهم الأسقف السكندرى أثناسيوس الذى وضع كتابا عن القديس أنطونى رائد الرهبانية المسيحية (٩٣) ملأه بالمعجزات التى تصورها تجرى على يد ذلك الراهب والقديس جيروم ، وهو من أشهر آباء الكنيسة اللاتينية رغم مكثه فى الشرق ، يحدثنا فى كتاب مستقل عن بولس أول الرهبان فى مصر ، والذى كان سابقا لأنطونى ، حدثنا فيه عما جرى على أيدى هذا الراهب من الكرامات (٩٤) ، كما وضع كتابا شبيها عن القديس هيلاريون Hilarion الراهب الفلسطينى الشهير لا يقل عن سابقيه فى هذا المجال .

وإلى جواره أيضا يقف بالاديوس Palladius أسقف مدينة هيلينا Helnopolis فى بيثينيا Bythinia بآسيا الصغرى ، وقد ألف كتابا يعرف بـ «الفردوس» -Para disus أو ماشاعت تسميته بـ « التاريخ اللوزياكى » Historia Lausiaca نسبة إلى لوسوس Lausus الذى ربما كان يشغل أمين البلاط فى عهد الامبراطور ثيودوسيوس الثانى ، ورغم حديثه الجاد عن الرهبان ، خاصة فى مصر ، إلا أن صفحاته فى معظمه تزخر بالعديد من الروايات عن معجزات الرهبان (٩٥) ، ولم يكن ذلك قاصرا على الشرق وحده بل شهد الغرب أمثلة كثيرة على ذلك من أهمها ما كتبه المؤرخ سولبيكيوس سفروس عن القديس مارتن Martinus التورى (أسقف تور) فى كتابه عن حياة ذلك الرجل Vita S. Martini مما جعله واحدا من أشهر كتاب سير القديسين فى القرن الخامس الميلادى (٩٦) .

لقد كانت المعجزات والكرامات والظواهر الخارقة للعادة بالنسبة لسوزومنوس ومعاصريه من الكتاب وغيرهم ، شيئا جوهريا وضروريا للبرهنة على الأصول الإلهية للمسيحية ، حتى لقد أصبح اصطناع المعجزات والحديث عنها أمرا - كما يقول بارنز - ربما - أهم من الحديث عن قيام أسرة من الأسر الحاكمة (٩٧) وتتمه طبيعية للسلوك المسيحى المتخذ من المسيح أنموذجا يحتذى فى الحياة النسكية .

وقد انخرط سوزومنوس فى سلك الرهبنة منذ بواكير حياته قبل أن يتحول لدراسة القانون وممارسة المحاماة ، فقد كان الجو المحيط به يدفعه إلى ذلك دفعا ، فهو ينتمى لأسرة تعود فى جذورها إلى أصول فلسطينية وليست يهودية ، لأن أفرادها ظلوا على الوثنية حتى القرن الرابع الميلادى ، وقد استوطنت الأسرة قرية «بيت لاهية» Bethelia من أعمال غزة ، وقد ذاع فيها صيت القديس هيلاريون، الذى ذكرنا للتو أن القديس جيروم خلد ذكراه بكتابه عنه، وكان هيلاريون قد قدم إلي الإسكندرية ليتلقي فيها تعليمه ، ولكنه آثر أن يسلك درب الرهبنة ، ومن ثم عاد إلى فلسطين ووزع ممتلكاته واعتزل دنيا الناس ، وأقام فى صحراء فلسطين سالكا حياة الناسكين ، ليعد بذلك مؤسس الرهبنة هناك محتذي فى ذلك نهج القديس أنطونى أبى الرهبان (٩٨) .

وكانت القرية التى يقيم فيها ، ومنطقة غزة عامة يقطنها العناصر الوثنية ، وطائفة من اليهود ، وكانت الغلبة للوثنية ، ومن ثم فقد وقعت فيه الكثير من الأحداث لتى اندلعت رد فعل لقرارات جوليان التى جاءت فى صالحهم ، وقد حدثنا سوزومنوس عماتعرضت له المنطقة من فوضى ، وما نجم عنها من استشهاد عدد من الرهبان (٩٩) وهو حديث ينفرد به مؤرخنا دون بقية مؤرخى الكنيسة ، وذلك بحكم كونه واحدا من أبناء المنطقة .

وحتى عندما ذكر سوزومنوس مسألة انتشار المسيحية فى غزة وقراها ، يقدمها بأسلوب الراهب المؤمن بحديث المعجزات ، فيذكر أن أحد وجهاء القوم من الأسر النبيلة

فى « بيت الحلة » ويدعى « ألافيون » Alaphion كان به مس من الشيطان ، ولم تفلح تمائم الوثنيين ولا تعاويذ اليهود فى خلاص روحه من هذا الشر ، فلما أن جاء القديس هيلاريون وذكر عليه فقط اسم المسيح ، خرج الشيطان ولم يعد ، فتحول ألافيون إلى المسيحية وتبعه فى ذلك قومه ومعظم أهالى القرية (١٠٠) .

ويمضى سوزومنوس فى حديثه ليخبرنا أن ألافيون كان يتمتع بقدر كبير من احترام أهالى المنطقة لمكانته الإجتماعية ، هذا بينما كان جد سوزومنوس يتمتع بقدر معقول من الثقافة العامة ، ومعرفة معتدلة بالرياضيات ، ودراسات متنوعة فى المعارف الإنسانية، ونتيجة لذلك أضحى معلما للتعاليم المسيحية فى المنطقة الجنوبية الغربية من فلسطين، أما ألافيون فساعده ثراؤه على إقامة الكنائس والأديرة والإحسان إلى الفقراء وأبناء السبيل ، ومن ثم لم يكن غريبا أن يدخل بعض أفراد أسرة ألافيون ضمن رجال الاكليروس (١٠١) ، ولما كانت عائلة سوزومنوس على علاقة طيبة بأسرة ألافيون ، فقد نشأ مؤرخنا فى هذا الجو الدينى منذ نعومة أظافره ، مما حدا به كما قدمنا إلى الدخول فى سلك الرهبانية .

وليس هناك تاريخ محدد لميلاد سوزومنوس ، لكن يمكن وضع مثل ذلك التاريخ احتمالا بين عامى ٣٧٠ ، ٣٨٠ ، ذلك أن الأسرة آثرت الفرار بنفسها من غزة زمن الاضطرابات التى حدثت على عهد جوليان سنة ٣٦٢ (١٠٢) ، ولامراء فى أنها عادت ثانية إلى موطنها بعد مصرع جوليان واعتلاء جوفيان العرش سنة ٣٦٤ ، ويبدو أن الآب كان آنذاك فى ريعان شبابه ، ومن ثم تعد هذه الفترة الاحتمالية أنسب التواريخ لميلاد سوزومنوس (١٠٣) ، وقد عاش صاحبنا فترة شبابه الباكر طوال مدة حكم الامبراطور ثيودوسيوس الأول (٣٧٩ - ٣٩٥) ، وشاهد بعينى رأسه الإجراءات التى اتخذها ذلك العاهل فى صالح المسيحية ، حتى تحولت من ديانة شرعية إلى ديانة رسمية للإمبراطورية ، ولهذا كان مؤرخنا من أكبر أنصار مواطنه يوسيبيوس القيسارى فى نظريته التفاؤلية عن مستقبل المسيحية ، والتزاوج الدائم بين الدولة والكنيسة ، ومن ثم فهو يخلع على ثيودوسيوس من صفات التقوى والورع ما يجعله منذ

البداية قديسا (١٠٤)، وحتى قراراته التى أصدرها ضد من تنعتهم الكنيسة بالهرطقة ، كانت فى جوهرها تنحو إلى العدالة الصحيحة ، « فإذا كانت أعداد الذين أضيروا بالقوانين التى سنت ضد الهراطقة كثيرة ، إلا أنهم لم يذهبوا جميعا إلى القتل ؛ لأن الإمبراطور لم تكن لديه الرغبة فى اضطهاد رعاياه ... لقد كان هدفه إيجاد تناغم فى العبادة الخالصة لله » (١٠٥) وقد استخدم سوزومنوس العبارات نفسها فى حديثه عن قرارات قسطنطين أيضا ضد الهراطقة (١٠٦) .

غير أن الموقف يتغير تماما عندما يتناول موقف الامبراطور قسطنطينوس من المذاهب الأخرى المعارضة له ، وعلى رأسها النيقية ، والتى تعد فى نظر الإمبراطور هرطقة بنفس المعنى السابق باعتباره كان آريوسى العقيدة ، فهو يقول : « من المؤسف حقا أن كلا الفريقين المضطهدين والمضطهدين يدينون بالمسيحية ، وإنه ليحزننى أن أناسا يؤمنون بعقيدة واحدة يعامل الحاكم منهم رعيته بمثل هذه القسوة التى تحرم القوانين الكنسية استخدامها حتى مع الأعداء أو الأجانب » (١٠٧) .

ولم يقف احترامه وتقديره لرأس الأسرة الثيودوسية وحده فقط ، بل امتد ليشمل آل ثيودوسيوس جميعا ، خاصة الإمبراطور التقى ثيودوسيوس الثانى ، الذى كانت تقواه كافية لخلاصه (١٠٨) ، أما أخته بولكيريا Pulcheria فحدث عنها ولا حرج ،فقد أفرد لها وتقواها وورعها صفحات طوال من مؤلفه ، حتى أنها فاقت بنقائها وطهارة نفسها جموع الرهبان ، « وإذا جاز لنا أن ندين بالفضل لأحد على عدم انتشارالهرطقة فى زماننا هذا ، فإن ذلك يكون لها وحدها » (١٠٩) بل إن صاحبنا يصل فى تحمسه لها الى حد تحدى أى إنسان تسول له نفسه أن يشك فيما يكتبه فى تاريخه ، ويحيله إلى السجلات الرسمية حتى يقف على صدق مؤرخنا فيما يرويه عنها ، فإذا ظل الشك مهيمنا عليه - فالله وحده سوف يتولى اقناعه بنقاء سريرة الأميرة وطهارة ذيلها ، ولم لا ؟ أليست هى محبوبة الرب ؟ « (١١٠) وتبلغ به الحماسة مداها عندما يعلن أن تاريخه ليشرف بالحديث عن بولكيريا ، وأنه ليس من حق أحد أن يلومه إذا ما أفرد للحديث عنها عملا خاصا مستقلا » (١١١) .

وإذا كانت الأسرة الثيودوسية قد حظيت باحترام مؤرخنا ، فإن منطقة فلسطين قد نالت من جانبه اهتماماً كبيراً ، وقدم لنا معلومات إضافيه عن الشخصيات البارزة فيها فى مختلف المجالات خاصة رهبانها ، وعن الأماكن والأحداث التى وقعت بها بصورة تفوق ما كتبه مواطنه « إبيفانيوس » Epiphanius الذى أصبح أسقفا لأسقفية سلاميس Salamis فى قبرص فى أخريات القرن الرابع الميلادى ، كما أشار فى ثنايا كتابته إلى العادات والتقاليد عند أهل بلدته والبلدان المجاورة . مثل نابلس وبيسان -Scythopolis وبانياس (١١٢) ، وإن كان تركيزه بصفة أساسية على منطقة غزة (١١٣) ، وقد أفاض فى الحديث عن وقائع كثيرة جرت فى فلسطين ، فاق بها غيره من معاصريه، منها ما قصصنا من قبل مثل مسألة البحث عن صليب الصلبوت تحت إشراف هيلينا ، ومنها مالم نقصص مثل الجهود التى بذلها قسطنطين هناك (١١٤)، وقصة اختيار ماكسيموس Maximus أسقفا للقدس على عهد الامبراطور قسطنطين خلفا لمكاريوس Macarius (١١٥) ، ثم عن خلافة كيرلس Cyrillus لماكسيموس وما صحب ذلك من ظهور علامة الصليب فى السماء وقد سطع نورها حتى غطى منطقة جبل الزيتون كلها ، وما أصاب الناس من هلع لهذا الذى يدون ! وما كان من أمر التقارير التى أرسلت إلى الامبراطور قسطنطيوس حول هذه « الكرامات » ، ويقول مؤرخنا إن هذه المعجزة كانت تحقيقا لنبوءة وردت من قبل فى الكتاب المقدس تنبئ بتحول الوثنيين واليهود إلى المسيحية (١١٦) ، ثم يحدثنا بعد ذلك عن طموحات كيرلس حول منصبه الأسقفى ، ونزاعاته مع أكاكيوس Acacius أسقف قيسارية حول إدعاءات السيادة الأسقفية لكل منهما فى فلسطين ، وسلوك كيرلس فى قبول أساقفة فى شركة الكنيسة كانت بعض المجامع المحلية الكنسية قد قطعتهم مما عجل فى النهاية بعزل كيرلس (١١٧) ، وإن كان الرجل ظل يجاهد حتى عاد إلى كرسيه الأسقفى على عهد ثيودوسيوس (١١٨) .

وبنغمة الراهب يبسط لنا خلق القديس هيلاريون ، ويضفى على فراره من فلسطين إلى صقلية ، ومنها إلى دلماشيا ثم استقراره أخيرا فى قبرص ، جلال القراسة ، مبينا أن الرب حث على ذلك حتى ينجو الإنسان بنفسه من الأخطار المحدقة به ، مشيرا بذلك إلى

ما حدث على عهد جوليان من ابتهاج الوثنيين فى فلسطين عامة وغزة خاصة ، وقيامهم ببعض الأعتداءات على دور العبادة المسيحية هناك ، ولا ينسى أن يحدثنا عن المعجزات العديدة التى وقعت على يد هيلاريون طوال سفرته هذه وارتحاله (١١٩) أما ما كان من أمر راهبات بعلبك وقيام أهالى المدينة الوثنيين بالاعتداء عليهن وأطعامهن للخنازير ، فيخبرنا به خبر المتيقن مما يقول ، رادا هذا السلوك إلى العادة الوثنية التى تتعلق بالعذارى المقدسات فى المعابد القديمة (١٢٠) ويفصل الحديث عن القرار الذى اتخذه جوليان بالسماح لليهود بإعادة بناء الهيكل ثانية فى القدس ، وهنا يتوقف سوزومنوس ليحلل ، وهى من الأمور قليلة الحدوث فى كتابه كما أسلفنا - الدوافع التى حدت بجوليان إلى اتخاذ مثل هذا القرار ، فيقول : « إنى على يقين أن ذلك لم يكن راجعا إلى احترامه لديانتهم ، بقدر ما كان رغبة فى إغاظة المسيحيين ، إذ أنه يعلم أن أصل الديانتين واحد ، ولكنه يعلم فى الوقت نفسه أن اليهود هم ألد أعداء المسيحية ، ومن ثم فالوقوف إلى جانبهم فيه الكيد كل الكيد للمسيحيين » ، وبنغمة الراهب مرة أخرى يروى سوزومنوس تفاصيل غضب الرب على هذا العمل ، حيث وقع زلزال كبير فور وضع حجر الأساس للهيكل ، ودمرت المنطقة وما حولها ، وتناثرت الأشلاء وتطايرت الرءوس والأطراف ، ثم لم تلبث النيران أن اندلعت دون سبب واضح ، مهددة كل من يقترب محاولا إعادة الكرة ثانية ، وتمت « المعجزة » عندما وجد البناءون أن علامةالصليب قد رسمت على أرديتهم تتلألأ كالنجوم !! (١٢١) .

واستعراض حياة سوزومنوس على هذا النحو الذى قدمناه، وما ضمه تاريخه الكنسى، وارتدائه مسوح الرهبان فى كل أحكامه وروايته للأحداث يبين بما لا يدع مجالا للشك أن مؤرخنا يجرى المقادير كلها باتجاه واحد ، هو رفعة شأن المسيحية وعلو قدرها ، وأن ما عداها هالك لا محالة ، بل إن الذى يلفت الانتباه أيضا أنه رغم حماسته الشديدة للأباطرة النيقيين ، إلا أنه أحيانا ما يفصح عن مكنون نفسه بعلو شأن رجال الدين على الحكام الزمنيين ، ومع أن سوزومنوس لم يكن لديه فكرة ما عن الصراع الاكليروسى العلمانى حول السيادة ، فى إطار ابتعاد الشرق الرومانى

بصفة عامة عن هذا المعترك والذين غرق فيه الغرب حتى آذانه طيلة العصور الوسطى ، إلا أن الرجل كان كل ما يعنيه أن يرفع من قدر رجال الكنيسة إلى عليين حتى فى مواجهة الأباطرة الذين أظهروا ولاءهم الكامل للنيقية .

فالامبراطور قسطنطين مثلا ، « محبوب الرب » ، وهو من هو عند مؤرخى الكنيسة جميعا بلا استثناء ، لا يقبل سوزومنوس - على استحياء - أن تكون له الهيمنة المطلقة على شئون الكنيسة ، فإذا كان قد قبل مع غيره من المؤرخين أن يدعوا الأمبراطور لعقد المجمع الكنسية ، وتعيين الأساقفة وعزلهم ، والتدخل فى مراسيم الإيمان الصادرة عن تلك المجامع ، إلا أنه يؤكد أن « المقام الكهنوتى لا يعد مساويا فقط للسلطة الإمبراطورية ، بل إنه يفوقها خاصة فى الأمور العقيدية » (١٢٢) .

ولاشك أن سوزومنوس اغتبط كثيرا بالرد الذى أجاب به الامبراطور ڤالنتينيان الأول Valentinianus I على جمع من الأساقفة ، عندما استأذنوه فى عقد مجمع لمناقشة الأمور العقدية ، وذلك عند اعتلائه العرش وارتحاله من القسطنطينية إلى تراقيا فى طريقه إلى روما (١٢٣)، وكان رد الامبراطور « ما أنا إلا رجل بين العلمانيين مكانى ، وليس من حقى التدخل فى مثل هذه الأمور ، اذهبوا ... وليجتمع رجال الكنيسة الذين يعينهم ويخصهم الأمر ذاك ، وليعقدوا اجتماعهم أنى شاءوا » (١٢٤) .

ولقد شهد القرنان الرابع ، وبصفة خاصة الخامس ، صراعا عنيفا بين الكنائس الرسولية الخمس ... روما والقسطنطينية والاسكندرية وأنطاكية والقدس ، حول الزعامة، وجرى هذا الصراع فى ستار الجدال اللاهوتى الكريستولوجى ، وعقدت المجامع المحلية والمسكونية ، وصدرت عنها القر ارات التي ترفع هذة الكنيسة وتخفض تلك ، بدءا من نيقية ٣٢٥ ومرورا بالقسطنطنية سنة ٣٨١ ، وإفسوس عام ٤٣١ وصولا إلى خلقيدونية سنة ٤٥١ ، وإذا كان مؤرخنا قد عايش جانبا من هذه الأحداث يتمثل فى الصراع الذى ذار بين كل من يوحنا ذهبى الفم أسقف القسطنطينية ، وثيوفيلوس أسقف

الاسكندرية ، وحدثنا عنه حديث العارف [١٢٥] ، وعاين ظهورالآراء النسطورية والنزاع بين صاحبها نسطوريوس Nestorius أسقف العاصمة الامبراطورية ، وكيرلس السكندرى ، والمجمع المسكونى الثالث فى إفسوس ، وإن لم يحدثنا عن شئ من ذلك ، رغم هذا كله إلا أنه كان يؤمن بعلو كعب كنيسة روما وسمو مكانة أسقفها باعتباره خليفة بطرس أمير الرسل ، غير واع أو عارف بهذا التنافس الدائر بين هذه الكنائس الرسولية ، وحمى الصراع بين أسقفها من أجل الزعامة .

فهو يحدثنا عن أسقف روما يوليوس (٣٣٧ - ٣٥٢) متفردا ، ومعه أساقفة الغرب ، ويبين تلك المكانة المرموقة التى حققها الكرسى الرومانى الأسقفى عندما تقاطر عليه أساقفة الشرق ، أثناسوس السكندرى وبولس القسطنطينى ، وماركلوس أسقف أنقرة ، وأسكليباس Asclepas الغزاوى ، ولوقا أسقف أدريانويل ، والكل ينشد عنه بعد أن راح أساقفة الشرق ، تحت رعاية الإمبراطور قسطنطيوس ، يمارسون السيادة الآريوسية على الكنائس ويقتلعون اليقيين من مراكزهم ، ومن ثم راح يوليوس يدل بكرسيه ، ويكتب إلى أساقفة الشرق الآريوسيين يطلب إليهم عودة هؤلاء الأساقفة النيقيين [١٢٦] ومهما تكن النتيجة التى انتهى إليها هذا الطلب [١٢٧] ، إلا أن سوزومنوس يعتبر ذلك حقا من حقوق السيادة للأسقف الرومانى ،و ومن الجدير بالذكر أن سوزومنوس يورد فقرات من الخطاب الذى بعث به آريوسيو الشرق إلى يوليوس ردا على رسالته ، يعترفون هم الآخرون فيها برفعة شأن الكرسى الرومانى ، ومن بين ما قالوا : « مع تقديرنا لمكانة روما المرموقة باعتبارها مدرسة الرسل وقصبة الأرثوذكسية منذ البداية ... » [١٢٨] .

ولما اندلع الجدال حول مكانة الروح القدس فى الثالوث على عهد الامبراطور فالنز Valens (٣٦٤ - ٣٧٨) ، وسعر لهيبه بآراء أبو ليناريوس Apolinarius أسقف

اللاذقية Laodicea ، يخبرنا مؤرخنا أن أسقف روما حالة سماعه لهذا الشقاق حول الأقنوم الثالث اغتم وتملكه الحزن ، وكتب على الفور إلى كنائس الشرق يطلب اليهم قبول الرأى الذى آمن به أساقفة الغرب ، والذى يقضى بأن الأقانيم الثلاثة من جوهر واحد ، ويعلق سوزومنوس على ذلك بقوله : « هكذا حسم الأمر برشد الكنائس الرومانية ، وساد السلام ، وبدا أن النزاع قد ذهب إلى غير رجعة (١٢٩) إلا أن ذلك لم يحدث ، فسرعان ما بعثت من جديد على يد ماكيدونيوس Macedonius أسقف القسطنطينية (٣٤١ - ٣٤٦) ، (٣١٥ - ٣٦٠) ، وكان من أهم الأسباب التى دفعت بالامبراطور ثيودوسيوس إلى الدعوة لعقد المجمع المسكونى الثانى فى القسطنطينية عام ٣٨١ ، بعد أن ذاعت آراء ماكيدونيوس ولقيت رواجا هائلا فى منطقة الهللسبونت (١٣٠) ويورد مؤرخنا قرار المجمع الخاص بتنظيم الكنائس الرسولية، وهو القانون الثالث للمجمع والذى جاء فيه : « يحتل أسقف القسطنطينية التقدمة فى الكرامة بعد أسقف روما مباشرة لأن القسطنطينية هى روما الجديدة » ، ويعدد سوزومنوس الأسباب التى جعلت المؤتمرين يتخذون هذا القرار ، وكلها تتعلق بالمميزات التى تتمتع بها العاصمة الإمبراطورية (١٣١) .

هذه الصورة التى عرضناها لسوزومنوس على امتداد هذه الصفحات ، تجسدت تماما فى كتابه « التاريخ الكنسى » ، الذى وضعه محاكيا فيه مواطنه شيخ مؤرخى الكنيسة يوسيبيوس القيسارى ، وسلفة ومعاصرة سقراط ، وكانت الخطة التى اقترحها مؤرخنا منذ البداية لكتابه تتناول الأحداث الممتدة بين عامى ٣٢٣ و ٤٣٩ وإذا كان التاريخ الأول من السهل تفهمه لأنها السنة التى غدا فيها قسطنطين الحاكم الفرد للإمبراطورية الرومانية بعد تغلبه على خصمه ليكينيوس ، فإن التاريخ الأخير يثير التساؤل عن أهمية هذه السنة ، ولعل هذا هو الذى دفع البعض إلى افتراض أن هذه ليست السنة التى توقف عندها سوزومنوس ، إذ امتد بكتابه حتى عام ٤٥٠ أي قبل وفاته بقليل

جدا ، وأنه هو الذى تخلص من الجزء الأخير الذى كتبه لأنه كان يحتوى على سيرة الامبراطورة يودوكيا Eudocia زوجة محبوبه ثيودوسيوس الثانى ، والتى لم تكن سيرة نقية طاهرة فى بعض الأحيان ، مما دفع الإمبراطور إلى إكراهها على الابتعاد عن الأضواء فى القسطنطينية، والاعتكاف فى أحد الأديرة فى فلسطين حتى ينسى الناس فى العاصمة فضائحها (١٣٢) لكن هذا الرأى لا يمكن قبوله على علاته ، لأن ما أشيع عن يودوكيا كان فى معظمه مجرد افتراءات بحكم الصراع بين الشخصيتين النسائيتين الرئيسيتين آنذاك فى البلاط ، يودوكيا الامبراطورة ، والأميرة بولكيريا أخت الامبراطور ، وأن جانبا مما طال الأولى قد مس الأخيرة رغم هالة الرهبانية التى أحاطت بها ، ولابد أن يكون هذا الصراع بين السيدتين قد جاء نتيجة طبيعية لمجريات الأمور فى القصر الامبراطورى ، فبولكريا هى التى تولت تعليم أخيها الأصغر ثيودوسيوس وتربيته وتأديبه والوصاية عليه منذ وفاة أبيهما أركاديوس عام ٤٠٨ (١٣٣) ، فلما بلغ الأخ مبلغ الرجال وتزوج من أثينايس Athenais إبنة الفيلسوف الوثنى ليونتيوس Leontius ، واعتنقت المسيحية وتسمت باسم يودوكيا وأصبحت الامبراطورة وسيدة القصر كان لابد لبولكيريا أن تتولى بسلطانها إلى الظل .

أم ترى أن سوزومنوس فضل التوقف عند هذا التاريخ المقترح تقليدا لسقراط في تاريخه الكنسي والذي انتهي فيه إلي أحداث ذلك العام (٤٣٩) وكان مؤلف سقراط هذا بين يدى سوزومنوس وهو يكتب تاريخه الكنسى (١٣٤) وقد أمضى سقراط حياته كلها فى القسطنطينية ووضع كتابه فيها ، ونحن نعلم أن مؤرخنا سوزومنوس قد زار العاصمة الامبراطورية ، وأمضى فيها بعض حين ، وتعرف إلى قضاتها ورجال القانون فيها ، وأعطانا وصفا دقيقا لعدد من الأماكن التى زارها بنفسه هناك (١٣٥) ولابد أن يكون قد أطلع على نسخة من مخطوط كتاب سقراط ، وليس من المستبعد أيضا أن يكون قد أخذ عنه بعض معلوماته ، و من ذلك مثلا أن المؤرخ القسطنطينى يخبرنا أن

الامبراطور قسطنطين دعا « أكسيوس » Acesius أسقف جماعة النوفاتين -Nova tians التى يرجح أن سقراط كان يعتنق مبادئها (١٣٦) لحضور جلسات مجمع نيقية المسكونى عام ٣٢٥ ، وقص علينا الحوار الذى دار بين الامبراطور وأكسيوس عقب إنتهاء جلسات المجمع ، ويختتم سقراط حديثه بقوله : « لم يذكر يوسيبيوس البامفيلى (القيسارى) ولا أحد سواه هذه الأحداث ، ولقد سمعتها وحدى من رجل لا يرقى الشك مطلقا إلى حديثه ، لقد بلغ من الكبر عتيا لكنه يعرف جيدا كل مادار فى المجمع » (١٣٧) ، ولم يكن هذا الشيخ إلا « أوكسانون » Auxanon الكاهن الذى كان مساعدا لأكسيوس ، لكنا نجد هذه الرواية بنصها وقد ذكرها سوزومنوس فى تاريخه الكنسى (١٣٨) مقدما إياها بقوله « يروى أن ..... » دون أن يشير إلى مصدره .

ومهما يكن من أمر فإن « التاريخ الكنسى » لسوزومنوس إنتهى عند سنة ٤٢٣ ، وهى السنة التى توفى فيها هونوريوس Honorius إمبراطور النصف الغربى من الإمبراطورية ، وقسم صاحبنا تاريخه إلى تسعة كتب تبعا لعهود الأباطرة ، فالكتابان الأول والثانى قصرهما على الإمبراطور قسطنطين (٣٢٣ - ٣٣٧) ، أما أبناؤه الثلاثة قسطنطين الثانى (٣٣٧ - ٣٤٠) وقنسطانز (٣٣٧ - ٣٥٠) وقسطانطيوس . (٣٣٧ - ٣٦١) وهى فترة تمتد إلى أربعة وعشرين عاما ، فقد غطت الكتابين الثالث والرابع ، هذا على حين تناول الكتابان الخامس والسادس عهود الأباطرة جوليان (٣٦١ - ٣٦٣) وجوفيان (٣٦٣ - ٣٦٤) وفالنتينيان الأول (٣٦٤ - ٣٧٥) فى الغرب ، وفالنز (٣٦٤ - ٣٧٨) فى الشرق .

وحظى كل من جراتيان (٣٧٥ - ٣٨٣) وڤالنتينيان الثانى (٣٨٣ - ٣٩٢) فى الغرب ، وثيودوسيوس الأول (٣٧٩ - ٣٩٥) وأركاديوس (٣٩٥ - ٤٠٨) فى

الشرق ، وهونوريوس (٣٩٥ حتى عام ٤٠٨) فى الغرب بالكتابين السابع والثامن ، ثم يستكمل فى الكتاب التاسع والأخير ما بقى من عهد الامبراطور هونوريوس فى الغرب من سنة ٤٠٨ ، السنقالتى توقف عندها فى الكتاب الثامن حتى نهاية عهده ونهاية الكتاب سنة ٤٢٣ ، ويقابله فى الشرق الامبراطور ثيودوسيوس الثانى حتى هذا العام أيضا ، ومعنى ذلك أنه لم يتناول من تاريخ امبراطوره المحبوب الذى يمتد إلى اثنين وثلاثين سنة (٤٠٨ - ٤٥٠) إلا خمسة عشر عاما فقط ، ولواستكمل كتابته حتى وفاته هو ، لكان شاهد عيان على أحداث زمانه ، ولأمدنا بمعلومات لاشك كانت ستلقى أضواء كثيرة وهامة على تاريخ تلك الفترة .

وهذا التقسيم يوحى بمقدرة سوزومنوس على التفـ.ـقة بين الأباطرة الذين أسهموا بنصيب وافر فى صنع أحداث الفترة التى يشغلها مؤلفه ، وغيرهم من الذين أدوا دورا هامشيا ، ومثال ذلك من أمر قسطنطين مع الكتابين الأولين ، أما وجود ثيودوسيوس الأول وسط هذا الحشد من الأباطرة فى الكتابين السابع و الثامن ، فلا يعنى عدم الاهتمام به ، لأنه احتل معظم فصول هذين الكتابين ، بينما جاء ذكر الآخرين حسب مقتضيات الأمور ومجرى الأحداث .

وإذا كان سوزومنوس قد حذا حذو سقراط وأخذ عنه أحيانا دون أن يشير إلى مصدره، إلا أن صاحبنا كان مبدعا فى كثير من الأحيان ، منفردا دون غيره بكثير من فصول كتابه ، خاصة ما يتعلق بالرهبانية ، بل إنه ليس من المبالغة فى شئ القول بأن الكتاب التاسع من مؤلفه ، يتفرد فيه سوزومنوس بكل فصوله تقريبا ، حيث عاش أحداثها ... لذا كم كان يصبح عظيما لو أن سوزومنوس أكمل كتابه إلى حيث توقفت به الحياة !!!.

حواشي البحث

١ - هسي (ج. م) : العالم البيزنطي ، ترجمة رأفت عبد الحميد ، القاهر ١٩٨٤ ، ص ٣٧٣ .

٢ - تكوين ١ / ١٤ - ١٦ .

٣ - كانتو ن ، التاريخ الوسيط : قصة حضارة ، البداية والنهاية ، ترجمة قاسم عبده قاسم، القاهرة ١٩٨٤ جـ١ ص ١٧ .

٤ - EUSEBIUS, Historia Ecclesiastica , x, 1.9

٥ - Ibid. x, 9

٦ - عن موقف قسطنطين من المسيحية والآراء التي دارت حول هذه القضية ، راجع : رأفت عبد الحميد ، الدولة والكنيسة ، القاهرة ١٩٨٢ ، الجزء الثاني الفصل الثالث

٧ - EUSEB. Oratio ad Constantium m VI, 2

٨ - Paolucci, (H.) - editor - The political Writings of st. . Augustine , Indiaana (U. S. A.) 1962 .

٩ - SOZOMENOS, Historia Ecclesiastica, I.. 1.17, 19 - 21

١٠ - Hartranft (ch) , Introduction to the history of the church of SOZOM. in (Nicene and post Nicene Fathers) , Vol. II . p. 209 .

١١ - للمزيد من التفاصيل راجع : رأفت عبد الحميد : الدولة والكنيسة ، الجزء الثالث ، القاهرة ١٩٨٣ ، ص ٢٢ - ٤٢ .

١٢ - بارنز (هـ . إ.) تاريخ الكتابة التاريخية ، ترجمة محمد عبد الرحمن برج ، القاهرة ١٩٨٤ ، ص ٦٧ .

١٣ - سمالي (ب) ، المؤرخون في العصور الوسطي ، ترجمة قاسم عبده قاسم ، القاهرة ١٩٨٤ . ص ٣٦ .

١٤ - SOZOM. Hist. Eccl. I 1 .

١٥ - كولنجوود (ر. ج) : فكرة التاريخ ، ترجمة محمد بكير خليل ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ١٠٦ .

١٦ - عن بلاجيوس والبلاجية راجع

Johnson (p.), A history of christianity , Peelicann book 1982. : pp. 118 - 120, Chadwick (H.) ,. The earty church , Pennguin book, 1971, pp.- 227 - 231, Bokenkotter (Th.), A Concise history of the Cotholic Church, New york 1979, pp. 93 - 94 .

١٧ - كولنجوود : المرجع السابق ص ١٠٨ - ١٠٩ ، سمالي : المرجع السابق ص ٤٥ .

١٨ - المراحل التاريخية الست عند القديس أوغسطين هي : المراحلة الأولي من آدم إلي نوح (الطفولة) ، الثانية من نوح إلي إبراهيم (الصبا) ، الثالثة من إبراهيم إلي داود (الشباب) ، الرابعة من داود إلي الأسر البابلي (الرجولة) ، الخامسة من الأسر البابلي إلي مجئ المسيح (الكهولة) ، السادسة من المسيح إلي يوم الدينونة (الشيخوخة) .

١٩ - بارنز : المرجع السابق ص ٦٥ .

٢٠ - نفسه ص ٦٨ .

٢١ - عن فيلون راجع : نجيب بلدي : تمهيد لتاريخ مدرسة الاسكندرية وفلسفتها ، القاهرة ١٩٦٢ ص ٨٧ وما بعدها ، وعن أوريجن السكندري راجع ،

رأفت عبد الحميد ، الدولة والكنيسة جـ ٣ ص ٢٦ - ٣٢ .

٢٢ - Baynes (N.), Moss (H.), Byzantium , oxford 1969, p. 229/

٢٣ - Ibid, 230 .

٢٤ - SOZOM. Hist. Eccl. IX .1 .

٢٥ - للوقوف على حقيقة الآريوسية ومبادئها ونشاطها وعلاقة الكنيسة النيقية (الأرثوذوكسية) بها ، راجع ، رأفت عبد الحميد : الدولة والكنيسة جـ٢ الفصلين الخامس والسادس ، والجزء الثالث .

٢٦ - نسبة إلى مجمع نيقية الذي عقد في عام ٣٢٥ بناء على دعوة الامبراطور قسطنطين لعلاجة المشكلة الآريوسة ، وانتهى إلى إصدار وثيقة الإيمان التي نسبت إليه ، والقائلة بأن الابن مساو للآب في الجوهر Homoousius (الهوموسية) وأن الابن مولود غير مخلوق وأصبح هذا القانون هو قاعدة الإيمان الأرثوذكسي حتى اليوم رغم ما داخله من تعديلات في كنائس الشرق والغرب . راجع رأفت عبد الحميد ، الدولة والكنيسة جـ٢ ، الفصل الخامس .

٢٧ - SOZOM. Hist. Eccl. II, 34 .

٢٨ - Ibid. III. 7 .

٢٩ - Ibid. III. 6 .

٣٠ - Ibid. V21,V22, 1,2,35 .

٣١ - Ibid. VII. 24, VIII. 1, IX. 1,3.16 .

٣٢ - Ibid. VIII. . 27 .

٣٣ - Ibid. IX. 6 .

٣٤ - Ibid. I, 1 .

٣٥ - Id.

٣٦ - Id .

٣٧ - هذه النسبة تعود إلي أستاذه بامفيليوس الذي تتلمذ عليه وورث عنه مكتبته الضخمة التي ساعدته علي تأليف كتبه المختلفة .

٣٨ - SOZOM. Hist. Eccl. I . 3

٣٩ - Ibid. II. 29 - 30 .

٤٠ - لمزيد من التفاصيل عن موت آريوس ، راجع ، رأفت عبد الحميد ، إغتيال آريوس . سمنار كلية الآداب - جامعة الاسكندرية ١٩٩٤ .

٤١ - SOZOM. Hist. Eccl. III13 ولمزيد من التفاصيل حول هذين المجمعين راجع : رأفت عبد الحميد : الدولة والكنيسة جـ٣ ص١٣٦ - ١٥٠ .

٤٢ - SOZOM. Hist. Eccl. V. 18 VI. 12, 16, 27, VII. 5,9.

٤٣ - Ibid. I. 21 .

٤٤ - لمزيد من التفاصيل راجع : رأفت عبد الحميد : الدولة والكنيسة جـ٣ ص٢٤٩ وما بعدها .

٤٥ - SOZOM. Hist. Eccl. VI. 27

٤٦ - Ibid. Vii. 17

٤٧ - رأفت عبد الحميد : الدولة والكنيسة جـ٣ ص٤١ - ٤٢ ، ٢٥ - ٢٥١

٤٨ - SOZOM. Hist. ECCL. III. 15

٤٩ - SOCRATES, Historia Ecclesiastica , VII. 48

٥٠ - SOZOM. . Hist. Eccl. VI. 4,25

٥١ - Ibid. VI. 26

٥٢ - Ibid. VI. 1 وللوقوف علي تفاصيل موت جوليان والآراء التي دارت حول موته ، راجع ، رأفت عبد الحميد : مصرع جوليان الفيلسوف الامبراطور ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ١٩٩٣ .

٥٣ - SOZOM. Hist. Eccl. VI 2

٥٤ - Hartranft, op. cit. p . 209

٥٥ - SOZOM. Hist. Eccl. I . 11

٥٦ - HIERRONIMUS, De viris ILLustribus , 92.

٥٧ - صوفي أبو طالب : تاريخ النظم القانونية والاجتماعية ، القاهرة ١٩٨٦ ص٣٨٣ . وقد شمل الاغلاق مدارس أثينا والاسكندرية واستثني إلي جانب بيروت روما والقسطنطينية .

٥٨ - محمد معروف الدواليبي : الوجيز في الحقوق الرومانية وتاريخها ، حلب ١٩٦٣ . ص ٣٢٣ - ٣٢٤ .

٥٩ - نفسه .

٦٠ - SOZOM. Hist. Eccl . II . 3

٦١ - Id .

٦٢ - Hartranft, op. cit. p . 193

٦٣ - SOZOM. Hist. Eccl. III 2

٦٤ - Ibid. IV. 16 وللمزيد من التفاصيل عن المجمع المزدوج في ريميني وسلوقية ، راجع . رأفت عبد الحميد : الدولة والكنيسة جـ٣ ص٢٧١ وما بعدها .

٦٥ - SOZOM. Hist. Eccl . IV. 18

٦٦ - Ibid. VII 26

٦٧ - رأفت عبد الحميد . المرجع السابق . ص ٣٢١ - ٣٢٢

٦٨ - SOZOM. Hist. Eccl . V . 18

٦٩ - SOCR. Hist. Eccl . III .16

٧٠ - Jones (A.H.M.) The later Roman Empire 284 - 602 , 3 vols. Oxford 1964 ,Vol , 1 . p.122.

٧١ - Hartraanft, op. cit. o. 194

٧٢ - SOZOM. Hist. Eccl . V . 19

٧٣ - Ibid. II . 3

٧٤ - Ibid. II . 19

٧٥ - Ibid. II . 3

٧٦- Hartranft, op. cit. p. 212

٧٧ - Id.

٧٨ - Ibid. II . 1

٧٩ - Ibid. II . 12 - 14

٨٠ - Ibid. II . 10

٨١ - Ibid. II . 20

٨٢ - Ibid. II . 27

٨٣ - Ibid. I . 3

٨٤ - Ibid. II . 1

٨٥ - Ibid. VI. 29

٨٦ - Ibid. II . 17

٨٧ - Ibid. VI . 32

٨٨ - Ibid. V . 2

٨٩ - Ibid. VI 2

٩٠ - Ibid. VII 24 وعن تفاصيل هذه الحرب الأهلية راجع : رأفت عبد الحميد الدولة والكنيسة جـ٤ ص ١٥٨ - ١٦١.

٩١ - SOZOM. Hist. Eccl. VIII . 4

٩٢ - قصة الحضارة ، المجلد الرابع ، الجزء الأول ، ترجمة محمد بدران ص ٢٥٣ - ٢٥٤ .

٩٣ - ATHANASIUSS, Vita S. Antoni , Nicene Fathers , Vol IV , pp. 195 - 221.

٩٤ - HIER. vita S. Pauli Primi erimitae, Nicene Fathers , vol VI pp . 299 - 303.

٩٥ - PALLADIUS , Historia Lausiaca, trans , by Bodge in (Stories of the Holy Fathers) ,. London 1934.

٩٦ - Dictionnaire de theologie Catholique, 15 thomes , Paris 1923 Sqq. Vol. XIV , 2 Col. 2760.

٩٧ - تاريخ الكتابة التاريخية ص٦٩

٩٨ - Hartranft , po. cit . p 192

٩٩ - SOZOM. Hist. Eccl. V. 9,22,27

١٠٠ - Ibid. V. 15

١٠١ - Id .

١٠٢ - Ibid. V. 9

١٠٣ - Hartranft, op. cit, p. 192

١٠٤ - SOZOM. Hist. Eccl . VII . 4

١٠٥ - Ibid. VII . 4,12

١٠٦ - Ibid. II . 32

١٠٧ - Ibid. IV . 26

١٠٨ - Ibid. IX . 1

١٠٩ - Id .

١١٠ - Id .

١١١ - Id .

١١٢ - Ibid. V. 22 , 27 , VIII . 13

١١٣ - Ibid. II. . 5,20

١١٤ - Ibid. II. 4,5

١١٥ - Ibid. II . 20

١١٦ - Ibid. IV. 5

١١٧ - Ibid. IV. 25

١١٨ - Ibid. IV. 30

١١٩ - Ibid. V. 10

١٢٠ - Id .

١٢١ - Ibid. V. 22

١٢٢ - Ibid. II. 33

١٢٣ - رأفت عبد الحميد ، الدولة والكنيسة جـ٤ ص ١٥ وما بعدها .

١٢٤ - SOZOM. Hist. Eccl. VI. 7

١٢٥ - Ibid. VIII. 2

١٢٦ - Ibid. III. 7-8

١٢٧ - لمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث ، راجع : رأفت عبد الحميد ، الدولة والكنيسة ، الجزء الثالث ص ١٠٥ وما بعدها .

١٢٨ - SOZOM. Hist. Eccl. III. 8

١٢٩ - Ibid. VI. 22

١٣٠ - رأفت عبد الحميد : الدولة والكنيسة ، جـ٤ ص٦٤ وما بعدها .

١٣١ - SOZOM. Hist. Eccl . VII. 9

١٣٢ - New Schaff-Herzog Encyclopedia of Religious Knowledge, 13 Vols. Michigan 1957 et sqq. vol. XI p. 22. Col. B .

١٣٣ - SOZOM. Hist. Eccl . IX. 1

١٣٤ - C.M.H. vol. IV part 2. p. 266 , New Schaff Herzog Encycl. XI, p . 22 col . B.

١٣٥ - SOZOM. Hist. Eccl . II. 3

١٣٦ - تنسبب إلي نوفاتوس Novatus الأسقف الروماني في القرن الثالث الميلادي ، وهي ترفض قبول الذين ارتدوا وقربوا للأوثان بعد تناولهم سر المعمودية في شركة الكنيسة ثانية ، خاصة إذا كانوا من بين رجال الاكليروس ، وهي المبادئ التي نادي بها الدوناتيون في أفريقيا والمليتيون في مصر .

١٣٧ - Socr. Hist. Eccl. I. 10

١٣٨ - SOZOM. Hist. Eccl . I . 22

صليبيـــة نـافـــار

واسترداد المسلمين مدينة بيت المقدس

(١٢٣٩ - ١٢٤٠م)

أ.د . ليلي عبد الجواد إسماعيل
كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

اهتم ثلة من الباحثين فى ميدان الحروب الصليبية بدراسة الحملات الصليبية الكبيرة التى وصلت الى الشرق ، وكانت ذات تأثير فعال ، الا ان هناك عدداً كبيراً من الحملات الصغيرة لم تأخذ حظها من البحث والدراسة ، حقيقة ان هناك بعض الباحثين اشار اليها من قريب أومن بعيد الا انها لم تحظ بدراسة جادة ، ومن هذه الحملات الصغيرة الحملة الصليبية الفرنسية او صليبية نافار التى قدمت الى الشرق عام ١٢٣٩م وعلى رأسها احد امراء فرنسا وهو تيبو الرابع ملك نافار وكونت شمبانيا ، وقبل ان نخوض فى تفاصيل هذه الحملة لابد ان نتعرف فى عجالة على احوال الشرق الاسلامى عشية مجيء هذه الحملة .

توفى السلطان الكامل محمد فى ٢١رجب ٦٣٥ هـ/مارس ١٢٣٨ م ، وبايع الامراء ابنه العادل الثانى بالسلطنتفى اليوم التالى ، على ان يكون ابن عمه الملك الجواد يونس نائبه بدمشق ، ويكون اخوه الملك الصالح ايوب على ممالك الشرق على حاله (١)

(١) انظر ابن العميد ، اخبار الايوبيين ، القاهرة ١٩٩٠ م ، ص ٢٣ ، المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ١ ، ق٢ ، صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٥٧م ، ص٢٦٧ ، النويرى ، نهاية الارب فى فنون الادب ، جـ٢٩ ، تحقيق محمد ضيا ءالدين الريس ، القاهرة ١٩٩٢ م ، ص ٢٣٤ .

وكان هذا التقسيم نذيراً ببدء الصراع بين افراد البيت الايوبى ، فقد حاول الملك الجواد الاستقلال بدمشق عن السلطنة الايوبية بمصر ، غير ان العادل الثانى تصدى لمحاولته هذه ، وعندما شعر الجواد بعجزه عن الوقوف فى وجه العادل ، اتصل بأخيه الصالح ايوب ، واتفق معه على مقايضة دمشق بسنجار وعانة والرقة . (١) فقبل الصالح ايوب عرض الجواد ،وعندئذ قام الجواد بقطع الخطبة للعادل الثانى بدمشق ، وخطب للصالح ايوب الذى ترك بلاد الشرق لابنه تورانشاه ، واتجه نحو دمشق ، ودخلها ، واستقر بقلعتها (جمادى الاخر ٦٣٦ هـ/ فبراير ١٢٣٩م) .(٢) وغادر الجواد دمشق الى سنجار وغيرها من البلاد التى اعطيت له عوضا عن دمشق «وكانت صفقة الجواد فيما قايض فيه صفقة خاسرة »على حد تعبير السيوطى (٣).

ولم يعن ذلك استقرار الاحوال فى الدولة الايوبية ،فقد كان الناصر داود بن المعظم عيسى يتطلع بدوره الى حكم دمشق - التى كانت لابيه من قبل - لذلك عندما سمع بوقوعها فى يد الملك الصالح ايوب ، أخذ يخطط من اجل الاستيلاء عليها والوصول ايضا الى حكم مصر ، فبعث الناصر داود اولاً الى الصالح ايوب يعرض مساعدته له على اخيه العادل الثانى ، والوقوف الى جانبه لأخذ مصر منه ، فى مقابل ان يتسلم هو دمشق ومايتبعها من بلاد كانت فى حوزة ابيه المعظم عيسى ، فوعده الصالح ايوب بذلك بعد الاستيلاء على مصر ، ولكن الناصرداود أصر على تسلم دمشق اولاً ، فرفض الصالح ايوب ذلك ، وعندئذ ولى الناصر وجهه شطر العادل الثانى بمصر مستغلاً الخلاف

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ٨ ، ق٢ ، وقائع (٥٩٠-٦٥٤هـ) .حيدر آباد الدكن ١٩٥٢م، ص ٧١٨، المقريزي: السلوك،جـ١ ، ق٢ ،ص٢٧٩.

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب من تاريخ حلب ، جـ٣ ، تحقيق ونشر سامى الدهان ، دمشق ١٩٦٨م ، ص ٢٤٤-٢٤٥ ، ابن واصل،مفرج الكروب،في أخبار بني أيوب،جـ٥ ،تحقيق حسنين محمد ربيع،القاهرة ١٩٧٧م.ص٢٠٢ -٢٠٥ ، الحنبلى ، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، جـ١ مقدمة محمد بحر العلوم ، النجف ١٩٦٨م ، ص ٤٠٨ ، ابو الفدا ، المختصر فى اخبار البشر ، جـ٣ ، القاهرة بدون تاريخ ، ص١٦٣ ، النويرى ، نهاية الارب ، جـ٢٩ ، ص ٢٣٩ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ٦ ، مصور عن دار الكتب ، ص ٣٠٥ .

(٣) السيوطى، اتحاف الاخصا بفضائل المسجد الاقصى ، تحقيق احمد رمضان احمد ، القاهرة ١٩٨٢ م ، القسم الاول ، ص ٨٦ .

بينه وبين اخيه الصالح ايوب ، واتفق الناصر مع العادل على قتال الصالح ايوب ووعده العادل الثانى فى مقابل ذلك ان يسترد له دمشق وما يتبعها (١)

وعندما علم الصالح ايوب باتفاق الناصر داود واخيه العادل اتصل على الفور بعمه الملك الصالح اسماعيل - صاحب بعلبك - وطلب مساعدته ، فرحب الصالح اسماعيل بذلك ، وسار الصالح ايوب الى نابلس واستولي عليها - وهى من بلاد الناصر داود - ثم اقام فيها فى انتظار وصول عمه الصالح اسماعيل ليسيرا معا الى مصر خاصة وانه « كان يكاتبه ويعده انه واصل الى خدمته »(٢) ، ولكن الحقيقة انه كان يدبر فى نفس الوقت لانتزاع دمشق منه بالاتفاق مع اسد الدين شيركوه صاحب حمص مستغلاً فرصة غيابه عنها ، وهاجم الصالح اسماعيل المدينة ، وحاصر قلعتها وفتحها فى ربيع الاول ٦٣٧هـ / اكتوبر ١٢٣٩م .(٣)

وعندما سمع رجال الصالح ايوب بأخذ قلعة دمشق ، خافوا على اثقالهم واولادهم بدمشق ورحلوا اليها تاركين الملك الصالح ايوب ، ولم يبق معه سوى مماليكه وغلمانه ، واستغل الناصر داود هذه الفرصة وقام بالقبض عليه ، وحمله مقيداً الى الكرك وسجنه هناك (ربيع الأول ٦٣٧ هـ/اكتوبر ١٢٣٩ م). (٤)

---

(١) لمزيد من التفاصيل انظر : ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٥ ، ص ٢١٤-٢١٥ ،ابو الفدا ، المختصر ، جـ٣ ، ص١٦٤ ، على الغامدى ، بلاد الشام قبيل الغزو المغولى ، مكة المكرمة ، ١٩٨٨ م ، ص ١٥٩ ، حامد زيان غانم ، الصراع السياسي والعسكري بين القوي الإسلامية زمن الحروب الصليبية، القاهرة ١٩٨٣م، ص ١١٣ ـ ١١٤ .

(٢) سبط ابن الجوزى ، مرأة الزمان، جـ٨ ، ق٢ ،ص ٧٢٥ .

(٣) لمزيد من التفاصيل انظر :سبط ابن الجوزي : مرأة ، جـ٨ ، ق٢ ،ص٧٢٤ - ٧٢٥ ، ابن العميد ، اخبار الايوبيين ، ص ٢٨ -٢٩ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٣ ، ص٢٤٥ - ٢٤٦ ،الحنبلى ، شفاء القلوب فى مناقب بنى ايوب ، تحقيق ناظم رشيد ، بغداد ١٩٧٨م ، ص٣٧١-٣٧٢ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٥ ، ص ٢٢٨ - ٢٣٠ ، النويرى ، نهاية الارب ، جـ٢٩ ، ص٢٦٠-٢٦٢ ، المقريزى ،السلوك ، جـ١ ، ق٢ ، ص ٢٧٩ .

(٤) لمزيدمن التفاصيل انظر :ابن العميد ، اخبار الايوبيين ، ص٢٥ ، سبط ابن الجوزى ، مرأة ، جـ٢ ،ق٢ ، ص ٧٢٦-٧٢٧ ، ابن العديم ، زبدة ، جـ٣ ، ص ٢٤٦ ، ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، جـ٢، ق٢ ، ص٢٤٦ ، ابن واصل ، مفرج ، جـ٥ ، ص٢٣٩ -٢٤٠ ، ابو الفدا ، المختصر ، جـ٣ ، ص١٦٥ ، المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ق٢ ، ص٢٩٠ ، السيوطى ، اتحاف الأخصا، جـ ١، ص ٢٨٦ .

ومالبث الناصر داود ان اطلق سراح الصالح ايوب بعد ان ساءت علاقته بالعادل الثانى ، وبعد ان حلفه - كما يذكر ابن الجوزى على لسان الصالح ايوب - «على شيء ماتقدرملوك الارض عليه ، وهو أن أخذ له دمشق ، وحمص وحماة وحلب والجزيرة والموصل وديار بكر وغيرها ، ونصف ديار مصر ، ونصف مافى الخزائن من المال والجواهر والخيل والثياب وغيرها ، فحلفت من تحت القهر والسيف» (رمضان ٦٣٧هـ/ ابريل ١٢٣٩ م) (١)

وكان العادل الثاني فى مصر قد اساء السيرة ، وانشغل باللهو والشراب والطرب عن مصالح الدولة ، واستاء منه الامراء لكثرة تحجبه ولتقديمه جماعة لا يصلحون للتقدم ، واعراضه عن اكابر الدولة وعظمائهم ، (٢) ولذلك اتفق الامراء على عزله ، وكاتبوا اخاه الصالح ايوب ، فخرج بصحبة الناصر داود ، واتجها الى مصر حيث تمكن الصالح من القبض على اخيه ، واستولى على الديار المصرية « بغير كلفة ولامشقة ولاتعب» على حد تعبير السيوطى (٣) وذلك فى ذى القعدة ٦٣٧ هـ/يونيه ١٢٤٠ م .

وإذا كانت وفاة السلطان الكامل (٦٣٥هـ/١٢٣٨م) قد قلبت الاوضاع فى الدولة الايوبية ، فانها جاءت ايضاً قبل ان ينتهى اجل معاهدة يافا- التى عقدها الكامل مع الامبراطور فردريك الثانى فى ٢٢ ربيع الاول٦٢٦ هـ/١٨ فبراير ١٢٢٩ م وكانت مدتها عشر سنوات ، وتسلم الامبراطور فردريك بمقتضاها مدينة بيت المقدس باستثناء منطقة الحرم ، وعلى ان تظل اسوارها خربة ، خالية من وسائل الدفاع والحماية .(٤) وقد شجع ذلك البابوية وعلى رأسها البابا جريجورى التاسع (١٢٢٧-١٢٤١م) على الدعوة

---

(١)سبط ابن الجوزي، مرآة، جـ ٨، ق٢،ص٧٢٨ ،وانظر ايضا ابن واصل،مفرج،جـ ٥،ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨.

(٢) ابن العميد ، اخبار الايوبيين ، ص ٢٦ ، ابن واصل،مفرج،جـ ٥،ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣، المقريزي، السلوك، جـ١، ق٢،ص٢٧٥ ، ٢٩٤ .

(٣)السيوطي، اتحاف الاخصا، ص ٢٨٦، ولمزيد من التفاصيل انظر :
ابن العميد ، اخبار الايوبيين ، ص ٢٦ ، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، جـ ٨، ق٢،ص٧٢٨ ـ ٧٢٩، ابن العديم، زبدة الحلب، جـ٣، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧، ابن واصل،مفرج،جـ ٥،ص ٢٦٥ ـ ٢٦٧، النويري، نهاية الأرب، جـ ٢٩،ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧، المقريزي، السلوك، جـ١، ق٢،ص٢٩٦ ـ ٢٩٧ .

(٤) لمزيد من التفاصيل عن معاهدة يافا وبنودها انظر : عادل عبد الحافظ ، العلاقات السياسية بين الامبراطورية الرومانية المقدسة والشرق الاسلامى ١١٥٢-١٢٥٠م ، القاهرة ١٩٨٦م ، ص٢٩١-٢٩٥ .

لحملة صليبية جديدة لحاجة بيت المقدس الماسة الى مساعدة عسكرية خاصة وقد اوشك اجل معاهدة يافا علي الانتهاء . (١)

ويرى البعض ان دعوة البابا جريجورى التاسع لهذه الحملة قصد بها ايضاً ان تكون اداة لنضال البابوية ضد فردريك ، وان البابا كان يهدف من ورائها تعكير صفو السلام بين الامبراطور فريدريك الثانى والمسلمين ، لادراكه التام ان فردريك لن يعمل من اجل تخليص الاراضى المقدسة من ايديهم (٢)

كما ان دعوة البابا لهذة الحملة كان وسيلة لملىء الخزينة البابوية بالاموال فقد كتب البابا لكل الاساقفة انه على كل مسيحى لايحمل راية الصليب ، ان يدفع ديناراً اسبوعياً لاعداد جيش وارساله الى فلسطين قبل نهاية الهدنة الموقعة (معاهدة يافا) ، وان من يدفع هذه الضريبة لمدة سنة يعفى فى المطهر لمدة سنتين ، كذلك طالب جريجورى رجال الدين ان يدفعوا سلسلة من التبرعات المالية تتراوح بين $\frac{1}{20}$ و $\frac{1}{30}$ من دخولهم السنوية (٣) وكان يهم دعاة البابا ايضا فى المقام الاول الجانب المادى ، اذا كانوا يغفرون خطايا

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ، القاهرة ١٩٨٦ م ، ص٨١٧، باركر، الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، القاهرة ١٩٦٠م،ص ١٥١ .

(٢) تتمة كتاب وليم الصوري لمؤلف مجهول، والمنسوب خطأ الي روثلان، ترجمة وتعليق اسامة زكي زيد، الاسكندرية ١٩٨٩م، ص ٦٤،عادل عبد الحافظ ، العلاقات السياسية، ص٣٢٢، ميخائيل زابوروف، الصليبيون في الشرق، ترجمة الياس شاهين، الاتحاد السوفيتي، ١٩٨٦م، ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣ .

(٣) Matthiew Paris , Historia , English trans , London N . D , p . 261 ,
وانظر ايضاً :

Setton, History of the crusades, Vol. II, London 1969, pp.465 - 466 .

المتبرعين وذنوبهم بالذهب والفضة ، ويعفون من يدفع المال كفداء له او حل ايمانه من الذهاب الي الاراضى المقدسة والاشتراك فى الحرب الصليبية (١) .

وبدأ البابا جريجورى دعوته للحملة بأن ارسل الى فرنسا وانجلترا وسائر الاماكن المسيحية الاخرى يحث اهلها على انقاذ الصليب فيما وراء البحار ، ومنح العفو والسماح والرحمة والغفران لكل من سيشارك فى هذه الحملة (٢) ، ولم يكن كل من ملكى فرنسا وانجلترا مستعداً لان يستجيب بشخصه لنداء البابا ومع ذلك فقد بذلا للدعاة كل تشجيع وتأييد (٣)

واستجاب لدعوة البابا جريجورى نخبة من زهرة فرسان فرنسا وامرائها ونبلائها وفى مقدمتهم تيبو الرابع Thibaut IV كونت شمبانيا (٤) وملك نافار والذى آلت اليه قيادة هذه الحملة (٥) ونسبت اليه وعرفت باسم صليبية نافار وهو من اسرة لها باع طويل فى ميدان الحروب الصليبية فعمه الكونت هنرى كان حاكمالبيت المقدس ، وابوه تيبو الثالث كان قد عزم على الخروج الى الشرق بصحبة الحملة الصليبية الخامسة ، الا انه توفى وهو يستعد للرحيل الى الاراضى المقدسة ، ورغبة من تيبو فى أن يفى بنذر ابيه ، وفى ان يحوز رضى البابا وحمايته لصراعاته الطويلة ضد لويس التاسع - ملك

---

(١) Matthiew Paris , Historia , p,261 , Setton , Hist, of the crusades , 2 , p . 465 .
ميخائيل زابو روف، الصليبيون فى الشرق ، ص ٣٠٣ .
(٢) تتمة وليم الصورى ، الترجمة العربية ، ص٦٤ .
(٣) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٣ ، ترجمة السيد الباز العريني، بيروت ١٩٦٩م،.ص ٣٧.
(٤) تعتبر كونتيه شمبانيا اهم كونتيات فرنسا وأغناها ، وكانت تتألف فى منتصف القرن ١٣ من ست مقاطعات رئيسية هى : جوانى ، جراندبرى ، بورسيان ، وريشيل ، وروثى وبريين . انظر : چوانفيل ، القديس لويس : حياته وحملاته على مصر والشام ، ترجمة حسن حبشي ، القاهرة ١٩٦٨ م ، ص٢٥، حاشية ٢ .
(٥) أصبح تيبو كونتاً لشمبانيا فى عام ١٢٠١-١٢٥٣ م ، ثم ورث مملكة نافار فى عام ١٢٣٤ م من أمه بلانش القشتالية .، ودخل فى جميع الصراعات ضد لويس التاسع ، لمزيد من التفاصيل انظر :
چوانفيل، القديس لويس ، الترجمة العربية ، ص٥٥-٥٧ ،
Grousset , Histoire des Croisades , T . 3 . Paris 1946 , p.373 .

فرنسا - سارع تيبو بالخروج على رأس هذه الحملة . (١)

واستغل تيبو ملك نافار موهبته الشعرية وشعره المتميز المؤثر فى اثاره حماس فرسان فرنسا وامرائها وأهلها ، وحثهم على الخروج الى الشرق ، الى الارض التى عاش عليها المسيح وفيها مات (٢) وكان استخدامه للشعر فى الحث على الخروج الى الشرق ضرورة فى عصر فترت فيه الحماسة الصليبية ، بعد ان ادرك الصليبيون انهم لايجنوا من وراء الخروج الي الشرق سوى طول الغياب والبعد عن الاهل والاصحاب (٣) .

وحققت اشعار تيبو وخطبه الحماسية الهدف المرجو منها ، فلبي ندائه عدد كبير من الامراء والفرسان من كافة انحاء فرنسا ، واستعدوا للخروج بصحبته الى الشرق (٤) فخرج بصحبة تيبو هنرى من بار Henri de Bar (٥) وبطرس من درو Pierre de Dreux دوق بريتانى والمعروف باسم بطرس موكليرك Mauclerc (٦) وكان فارساً مشهوراً ذائع الصيت و سياسياً ماهراً محنكا يهوى الثروة والنفوذ ، وقد دفعه لحمل الصليب ومشاركة تيبو فى هذه الحملة حاجته لصداقة البابا ليساعده فى الفصل فى نزاعاته العديدة مع الكنيسة ، فضلاً عن رغبته فى زيادة اقطاعاته (٧) .

---

(١) Michaud , Histoire des croisades , T.3 paris 1817 , P . 531, Setton , Hist , of the crasudes , 2, P. 470 .

(٢) لمزيد من التفاصيل عن اشعار تيبو انظر :
Michaud , Hist .des Croisades , T.3 , PP.531-32,38-39 , 649-650

(٣) Michaud ,T . 3 , PP. 567 - 68 .

(٤) Michaud , Hist. des Croisades , 3 , P. 532 .

(٥) وهو هنرى الثانى بن تيبو الاول وايزابل ، خلف اباه فى كونتيه بار فى عام ١٢١٤ م وشارك فى الحروب ضد كونت شمبانيا انظر : L'Estoire d' Eracles Empereur dans Recueil des Historiens des Croisades , Historiens Occidentaux T. Second . Paris 1859 , P . 413 , Note f ., Setton , Hist . Of the crusades , vol . 2 , P . 470 .

(٦) وهو ابن روبرت الثانى ، وأصبح كونتا لبريتانى فى فرنسا لزواجه من الابنة الكبرى لكونتسه بريتانى ، ولعب دوراً كبيراً خلال حكم القديس لويس التاسع لفرنسا وشاركه فى حملته على الشرق ١٢٤٨ م ، ومات فى فلسطين عام ١٢٥٠ م . انظر L. Estoire d'Eracles . P.413 , Note, D

(٧) Setton , Hist . of the crusades , Vol . 2. P . 470 .

وشارك ايضاً فى هذه الحملة عمورى السادس مونتفورت Amaury VI Montfort كونستبل (١) فرنسا - وهو ابن سيمون الرابع قائد الحملة الالبيجنسية (٢)فى عام ١٢١٨ م وقد حل محل ابيه فى قيادة هذه الحملة ثم ترك جميع فتوحاته للويس الثامن وشارك فى هذه الحملة (٣) وشارك فى صليبية نافار ايضا روبرت الكورتناى Robert de Courtenay الذى شغل وظيفة كبير الخدم فى فرنسا، وحنا من برايان Jean de Braine (٤) ، ولويس الاول كونت سانكير Louis Ier Sancerre (٥) وهنرى السادس جرانديرى Henri VI de Grandpre' (٦) ، وسيمون الثانى Simon II وراؤل من كلير مونت Raoul de Clermont ، وراؤل من سواسون Raoul de Soissons ، وروبرت من بوفيس Robert de Boves ، ووليم من سنليس Guillame de Senlis ، وفيليب من نانتيويل Philippe de Nanteuil ، وريتشارد من بومونت Richard de Beaumont وغيرهم من الامراء ، ولذلك سميت هذه الحملة بحملة الامراء . (٧)

---

(١) وهوقائد الجيش ، ويعتبر بحكم وظيفته من رجال الدولة الاقوياء ، وهو الذى يقود الجند فى الميدان فى حالة غياب الامبراطور ، ويفصل فى القضايا بين الفرسان اثناء المعارك والحروب .
انظر : السيد الباز العرينى ، الاقطاع الحربى عند الصليبيين ، ص ٢٢ ، حاشية ٢٠ .

(٢)عن الحملة الالبيجنسية انظر : عبد الغنى محمد عبد العاطى ، دراسة في الفكر الكنسي المعارض .

(٣) Estoire d'Eracles,P.413,Note.f,Setton,Hist.of the Crusades,2,P.470 .

(٤) وهوالابن الثالث لروبرت الثانى كونت بريان ودرو . انظر Estoire dEracles , P . 413 , Note g

(٥)أصبح كونتا لسانكير فى عام ١٢١٨م ومات فى عام ١٢٦٣ م انظر :تتمة وليم الصورى ، الترجمة العربية، ص ٦٥ ، حاشية ٧ .

(٦) وهو ابن هنرى الخامس وتولى الحكم فى عام ١٢٣١م ، وتوفى فى عام ١٢٨٧ م .
انظر تتمة وليم الصورى ، ص ٦٥ حاشية ٦ .

(٧)انظر Les Gestes des Chiprois , Recueil des Chroniques francaises E'crites en Orient Aux XIII et XIV Siecle (Philippe de Navarre and Gerard de Monreal , Geneve 1887 , P . 118 ,
تتمة وليم الصورى ، الترجمة العربية،ص٦٦-٦٧ .

وصحب هؤلاء الامراء عدد من الفرسان والموظفين والخدم التابعين للتاج الفرنسى ومنهم اقارب بطرس بريتانى واتباعه ، وكذلك افصال تيبو واتباعه ، الى جانب لفيف من عامة الشعب وصغار السادة الاقطاعيين (١) ومن ثم فقد كانت « حملة مهيبة » كما وصفها رنسيمان (٢)

وشرع امراء فرنسا المشتركين فى الحملة ، فى اتخاذالاستعدادات اللازمة للرحيل الى الشرق ، وطلبوا ان يحضر كل فردومعه ما يملك من اسلحة وخيول واشياء اخرى (٣) . وقام بعض الامراء برهن اراضيهم أو بيعها لشراء الاسلحة والخيول، وتركوا قصورهم ونساءهم استعداداً للذهاب الى الشرق (٤)

وعندما اقترب وقت الرحيل تلقى الصليبيون رسالة من الامبراطور فردريك (١١ فبراير ١٢٣٨ م) يؤكد لهم فيها استعداده لمشاركتهم و مساعدتهم بكل قوته اذا أجلوا رحيلهم لمدة عام . (٥) وقد أثار هذا العرض دهشه الامراء والحجاج وكل شعب فرنسا - كما يروى صاحب تتمه وليم الصورى - لانهم كانوا على وشك الرحيل، ومع ذلك عقدوا إجتماعاً فيما بينهم وردوا على رسالة فردريك «بانهم سوف ينتظرون عاماً آخر من أجل الحصول على مساعده كبيرة براً وبحراً من أمير مثل أمبراطور المانيا ، رغم الخسائر التى سوف تحل بهم وبباقى الصليبيين " (٦)

والحقيقة أنه لم يكن فى إستطاعه صليبى نافار سوى الانتظار لانهم كانوا فى حاجة ماسة إلى مساعدة الامبراطور فردريك إذ كانت موانى الرحيل إلى الشرق واهمها ميناء

---

(١) تتمة وليم الصورى ، ص ٦٦

(٢) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٣ ، ص ٣٧٠ .

(٣) تتمة وليم الصورى ، ص٦٦.

(٤) Michaud , Hist. des croisades , 3, P. 538.

(٥) تتمة وليم الصورى ، ص٦٦ـ ٦٧

Matthiew Paris , Historia, Englis Trans., PP, 273 - 76.

(٦) تتمة وليم الصورى ، ص٦٧.

برنديزى تحت سيطرته ولابد أن يحصلوا منه على أذن بالعبور مع عدد من التسهيلات للمرور عبر أراضيه كما أن فردريك كان حاكما على عرش مملكة بيت المقدس بحكم وصايته على أبنه القاصر كونراد ، ومن ثم فإن تنظيم أية حملة لمساعدة تلك المملكة لابد وأن يخضع لاشرافه ولسلطته (١) ومن ثم فقد كانت مساعدة فردريك الثانى لصليبى نافار ضرورة ملحة دفعتهم لانتظاره .

وكتب الامبراطور فردريك للبابا جريجورى فى ٧ديسمبر ١٢٣٨م بأنه لا يستطيع أن يعد الصليبيين بالمساعدة قبل أن يمضى عام ، وعندما يأتى الوقت المحدد سوف يقدم لهم أية مساعدة ، وأنه يرغب فى حقيقة الامر أن يقودهم بنفسه أو يرسل أبنه كونراد كنائب عنه ، أما الآن فمشاغل الامبراطورية تمنعه من المخاطرة . (٢) وكان البابا على علم بهذا التأجيل قبل أن يرسل إليه فردريك ففى ٤ نوفمبر ١٢٣٨م أخبر البابا جر يجورى رئيس أساقفه سين Sens وريمس بفرنسا بأن الحملة الصليبية المتجة إلى بلاد الشام أرجأت لمدة عام . (٣)

ويبدو أن البابا لم يكن راضيا عن تأجيل رحيل الحمله فقد جاء فى خطاب أرسله فردريك لصهره هنرى الثانى ملك انجلترا المؤرخ فى ٢٥ إبريل ١٢٤٠م أنه رغم موافقة معظم الصليبيين على تأجيل الحمله لمدة عام إستجابه لطلبه إلا أن البابا - كما جاء على لسان فردريك - وضع تفسيراً شيطانياً لكلماتنا وافعالنا وهو أن الخطر سوف يحل بديننا وإيماننا الكاثوليكى بتأخير رحيل الحملة ، كما كتب البابا للصليبيين ينذرهم حينا ويأمرهم حينا آخر بضرورة الاسراع بالخروج إلى الشرق (٤)

---

(١) رنسيمان ، الحروب ، ج٣،ص٧٣١ Setton,Hist. of the Crusades, 2, PP. 467 - 68.

(٢) Matthiew Paris,P.274.Setton, Hist. of Crusades,2, P. 467 .

(٣) Setton.Hist.of the Crusades,2,P.467 .

(٤)انظر: Matthiew Paris,P.274 .

كما أن صليبى الشام لم يرضوا عن هذا التأجيل ، ففى ٧ أكتوبر ١٢٣٨م أجتمع أساقفة بلاد الشام مع والتربرين Wlter Brienne كونت يافا ، وباليان Balianكونت صيدا ، وكتبوا من عكا لقادة الحملة ينصحونهم بالابحار من ميناء جنوه أو مارسليا ، لأنه لافائدة من الانتظار حتى ينتهى أجل المعاهده مع المسلمين ، لانهم لايحافظوا عليها . (١)

ورغم إنذارات البابا وتهديداته ورغم نصح صليبى الشام بسرعه رحيل الحملة إلى الشرق ، إلا أن الصليبيين لبواطلب فردريك ، وقرروا الانتظار لمدة عام ، ولكن خاب أملهم فما أن أقترب موعد الرحيل الجديد حتى تلقى الصليبيون رساله أخرى من فردريك أخبرهم فيها هذه المره أنه كان مشغولاً للغاية، وانه غير مستعد للخروج معهم، وإذا ارادوا إنتظاره عاما آخر سوف يذهب معهم بكل تأكيد ، ولكن لم يستجب الامراء والفرسان لتوسلاته هذه المرة وردوا عليه برسالة تفيد عدم إمكانية الانتظار أكثر من هذا، وأنهم عزموا علي الخروج إلى الشرق (٢)

وترجع عدم إستجابة الصليبيين لتوسلات فردريك هذه المرة إلى أنهم أيقنوا كما يروى صاحب تتمة وليم الصورى أنه يهدف من وراء التأجيل عدم الخروج لمحاربة المسلمين فى الشرق لصداقته لهم من ناحية ، وحتى تظل هذه الجيوش تحت سيطرته وسلطانه من ناحية أخرى . (٣) ومع ذلك فقد عرض فردريك على الصلبيين أن يعبروا موانيه فى أمان ،

---

(١) Richard J, the Latin Kingdom of Jerusalem, Trans. by Janet Shirley, New York. Oxford 1979, P. 322 .

(٢) تتمة وليم الصورى ، ص٦٧.

(٣) تتمة وليم الصورى ،الترجمة العربية ، ص٦٧.

وتعهد بان يكتب لنائبه في بيت المقدس ليقدم لهم المساعدة ،فقد جاء على لسان فردريك فى خطاب ارسله إلى صهره هنرى الثالث ملك انجلترا مايلى : " وكتبنا لهم بأن يسيروا عبر مملكتنا ليبحروا منها ، واستعدينا لمساعدتهم بكل قوتنا " (١)

ولابد من وقفة عند موقف فردريك هذا من صليبى نافار ، والذى يبدو غريبا مثيرا للدهشة . الحقيقة أن فردريك حينما طلب التأجيل فى المرة الاولى كان يستهدف من وراء ذلك الحفاظ على بنود معاهدة يافا التى عقدها مع المسلمين فى ربيع الاول ٦٢٦ هـ / فبراير ١٢٢٩م وعلى العلاقات الودية التى تربطه بالمسلمين فى الشرق ، فقد كان خروجه على رأس هذه الحملة قبل إنتهاء المعاهدة يعد نوعاً من المخاطرة ، يمكن أن يكون رد فعلها من جانب المسلمين أن يسعوا لا سترداد بيت المقدس أما عن وعده بأن يذهب بنفسه على رأس الجيش الصليبى أو يرسل أبنه كونراد فمن المحتمل - أن كان صادقا - أنه كان يأمل أن يجدد معاهده يافا بمعاهدة صداقة جديدة مع المسلمين يحسن بنودها مع أبناء الكامل ووصول الصليبيين إلى الشرق سوف يبدد هذا الأمل مما دفعه لطلب التأجيل (٢).

ولكن بعد أن أنقضى العام وأشرفت معاهدة يافا على الإنتهاء ، عاد فردريك ونفض يده من المسألة - علي حد تعبير رنسيمان . (٣) وتنصل من وعده السابق لإنشغاله وعد م إستعداده للرحيل ، ولكن يبدو أن ما منع فردريك من الاستمرار فى مشروعه هو تجدد الصراع بينه وبين البابا جريجورى التاسع (٤) - الذى أصدر ضده قرار الحرمان

---

(١) انظر نص الخطاب في Matthiew Paris, English. Trans, P. 275.

(٢) انظر : رنسيمان ، الحروب ، ص٣،ص ٣٧١،
Grousset , Hist. des Croisades ,T. 3 , P. 375 .

(٣) رنسيمان ، الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٣٧١ .

(٤) لمزيد من التفاصيل عن الصراع بين البابا والأمبراطور انظر
Matthiew Paris , P P. 167 - 69 . ,
Michaud, Hist. des Croisades, 3 , PP. 541 - 44. , Tout , the empire and The papacy , PP. 367 - 69 , 383. , Oliver J. Thatcher , A Source Book , PP. 245 - 256.

للمرة الثانية (١) فى مارس ١٢٣٩ م / شعبان ٦٣٦ هـ لأسباب من أهمها ما جاء فى البند السادس عشر من مرسوم تحريمه ونصه .

«نوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لأنه حال دون استرداد الأرض المقدسة وأرض الأمبراطورية الرومانية .» (٢) وهذا البند يؤكد عدم رضى البابا عن فردريك لمحاولته ارجاء خروج الحملة الصليبية إلى الشرق ، كما يوضح أن الصراع بين البابا والأمبراطور أصبح على أشده ، مما يجعلنا نلتمس لفردريك العذر فى عدم الخروج إلى الشرق .

ومهما يكن من أمر فقد عقد الصليبيون وعلى رأسهم تيبو ملك نافار وكونت شمبانيا وقائد الحملة الصليبية اجتماعاً فى ليون LYON (يوليو ١٢٣٩ م) لوضع الترتيبات اللازمة لبدء الرحيل ، ويروى متى الباريسىMATTHIEW PARIS أنه اثناء هذا الاجتماع وصل رسول من البابا جريجورى التاسع ، يأمرهم بأسم سيده البابا بأن يعودوا إلى ديارهم فى الحال ، وأن يؤجلوا الحملة ، مما جعل الامراء يشعرون بصدمة قاسية ، جعلتهم يردون على رسول البابا رداً شديد اللهجة مضمونه أنه يمكن للبابا أن يغير سياسته ، ويرجع عما أمر به ، ولكنهم وهبوا أنفسهم لخدمة يسوع المسيح وسيظلوا متمسكين بمشروعهم خاصة وأنهم اتخذوا كافة الإستعدادات وباعوا أرضهم ومنهم من رهنوها ، وتركوا عائلتهم وأصدقائهم ، واعلنوا موعد وصولهم إلى الشرق ، هذا فضلا عن أن الدين والشرف يمنعهم من التراجع إلى الوراء (٣) ويتابع متى الباريسى روايته فيذكر أن الصليبيين اساءوا معاملة رسول البابا وانقضوا عليه واوشكوا أن يقتلوه ، ولم

---

(١) صدر قرار الحرمان الأول ضد فردريك الثانى فى عام ١٢٢٧ م لمماطلته في الخروج على رأس الحملة الصليبية السادسة الى الشرق ، ولسياسته في إيطاليا بوجه عام وتجاه البابوية بوجه خاص . انظر سعيد عبد الفتاح عاشور ، اوربا العصور الوسطى ، جـ١ ، القاهرة ١٩٩١ م ، ص ٣٩٦ .

(٢) انظر نص المرسوم في : سعيد عاشور، اوروبا، جـ ١ ، ص ٧٣١ ـ ٧٣٣، وبند ١٦ ، ص ٧٣٣، وانظر ايضا عادل عبد الحافظ، العلاقات السياسية، ص ٣٢٢ .

(٣) Matthiew Paris, P. 235.

وانظر ايضا : Michaud , Hist. des Croisades, 3 , P. 539

يستجيبوا لتوسلات من كان بصحبتهم من رجال الدين (١) .

ويتضح من هذه الرواية التى انفرد بها متى الباريسى دون غيره من معاصرى صليبية نافار أن حماس البابا الشديد - الذى كان يحرك هؤلاء الصليبيون لإنقاذ الأماكن المقدسة - قد فتر ولم يعد بنفس حماسهم وهم الذين استجابوا لدعوته ولبوا ندائه (٢) ولعل فتور حماس البابا - أن كان متى الباريسى صادقاً فى روايته يرجع إلى أن البابا أصبح محاطاً بأعداء اشداء في الغرب فى ذلك الحين مما جعله ينسى الحرب التى دعا إليها وتحمس لها وأصدر قرار الحرمان ضد فردريك الثانى من أجلها وجعله لا يفكر سوى فى الأخطار التى تهدده (٣) هذا فضلا عن صراع البابا مع الامبراطور ،ذلك الصراع الذى دفع البابا إلى منع كل مساعدة عن بيت المقدس طالما بقيت فى يد عدوه . (٤)

ورغم فتور حماس الأمبراطور والبابا إلا أن تيبو قائد الحملة قرر والسادة الفرنسيون الأبحار إلى الشرق ، ولكن ليس عن طريق ميناء برنديزى كما هى العادة بل عن طريق ميناء مارسيليا وميناء بروفانس بجنوب فرنسا (أغسطس ١٢٣٩ م) (٥) . وتعرض اسطول الصليبيين لعاصفة بحرية تفرقت علي أثرها سفنه فى جزر مختلفة منها قبرص وصقلية ، ولكن بعد أن هدأت العاصفة عاد الصليبيون إلى الإقلاع من جديد ، ووصلوا إلى عكا يوم عيد القديس جيل GILLE ، الموافق / أول سبتمبر ١٢٣٩ م (٦) .

---

(١) Matthiew Paris, P. 235., Michaud , Hist. des Croisades, 3 , PP. 540- 41.

(٢) Michaud , Hist. des Croisades, 3 , P. 539.

(٣) Michaud , T.3 , PP . 539 - 40 .

(٤) ارنست باركر ، الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العريني ، القاهرة ١٩٦٠ م ، حتى ١٥١ .

(٥) تتمة كتاب وليم الصورى ، ص ٦٧ - ٦٨ ،

Matthiew Paris , P. 275, Michaud , T.3 , P. 545 , Grousset , Hist. des Croisades, T.3 , P. 373

(٦)تتمة وليم الصورى ، ص ٦٨ ،

Les Gestes des Chiprois , dans , Recueil des Chroniques Francaises, Ecrites . en Orient Aux X III et X IV siécle , Philippe de Novarre and Gerard de Monreal , Publie par Gaston Raynaud , Geneve 1887 , P. 118 .

وعقد الصليبيون بعد أن استراحوا اجتماعاً فى عكا للنظر فيما يمكنهم عمله تجاه المسلمين ، وحضر الاجتماع تيبو قائد الحملة وجميع أمراء فرنسا الذين جاءوا بصحبته كما حضره لفيف من الأمراء الصليبيين فى بلاد الشام ، وممثلو الطوائف الدينية العسكرية ، وعلى رأسهم بطريرك بيت المقدس ، ورئيس اساقفة صور (١) واسقف عكا ، وارمان بريجورد مقدم الداوية ، وكونراد من ثورنج Thuringمقدم التيوتون ، وكذلك جوتييه الرابع برين Gautier IV de Brienne صاحب يافا ، وباليان صاحب صيدا وغيرهما من أمراء مملكة بيت المقدس . (٢)

وبعد مناقشات طويلة اتفق الصليبيون على التوجه إلى دمشق وفرض الحصار عليها لما تتمتع به من مساحة كبيرة ، وثراء عظيم فضلا عن إنها كانت مكتظة بالناس ، وبها مؤن طيبة وكنوز . (٣) كما قرر الصليبيون في نفس الوقت أن يقصدوا عسقلان لهدم تحصيناتها ، والإستيلاء عليها ثم يواصلوا الزحف نحو دمشق ، وحددوا موعد التحرك لتنفيذ ما أتفق عليه في يوم عيد جميع القديسين (الموافق ٢ نوفمبر ١٢٣٩ م) (٤) وعلي هذا النحو فتح الصليبيون علي أنفسهم جبهتين للعمل فيهما فى وقت واحد وهما دمشق وعسقلان .

وقد أثار هذا المشروع المزدوج غضب الصالح إسماعيل حاكم دمشق والعادل الثانى سلطان مصر، وراح كل منهما يعد العدة للدفاع عن ممتلكاته ، فقام الصالح اسماعيل

---

(١) غالباً ما كان بطرس سارجين Pierre de Sargines أو سيمون . انظر :
تتمة وليم الصورى ، الترجمة العربية ، حاشية ٣ ، ص ٧٢
Grousset , Hist. des Croisades , T. 3 P . 377, Note I .
(٢) تتمة وليم الصورى ، ص ٧٢ - ٧٣ ، وانظر ايضا
Setton , Hist. of The crusades Vol. 2. P. 472 .
اسامة زكى زيد ، صيدا ودورها فى الصراع الصليبى الاسلامى ، الأسكندرية ١٩٨١م ، ص٢٢٤.
(٣) تتمة وليم الصورى ، ص ٧٣ - ٧٤ .
(٤) تتمة وليم الصورى ، ص ٧٤ .

بتحصين دمشق وتزويدها بالمؤن ، وارسل العادل الثانى فرقة من الجيش إلى غزة للدفاع عن عسقلان ومنع الصليبيين من الإستيلاء عليها (١)

ويفصل صاحب تتمة وليم الصورى للإستعدادات التى اتخذها الملك الصالح لتأمين بلاده فيذكر أنه علم عن طريق جواسيسه ، أن الجيش الصليبى سوف يواصل طريقه ناحية دمشق ، ليستولى عليها بعد حصار عسقلان ، لذلك قام بتجهيز المدينة بكل ما يستطيع من لحم وسلاح وآلات دفاع ، وكل مستلزمات من بالمدينة وحث سكان المدينة على أن يستعد كل فرد قادر للدفاع عنها ، كما طلب منهم ان يجمعوا من المدن المحيطة القمح والشوفان والفول والشعير والنبيذ والزيت ، وكذلك عربات النقل والحديد وعدداً كبيراً من الماشية . (٢)

ولم يكتف الملك الصالح اسماعيل بذلك ، بل أرسل إلى كل أصدقائه يطلب مساعدتهم ويخبرهم أن المدينة أصبحت مستعدة تماما لمواجهة الصليبيين القادمين فساعده كل منهم بقدر مايستطيع ، وارسلوا له قوافل محملة بالمؤن . (٣) .

وفى ربيع آخر ٦٣٧ هـ / نوفمبر ١٢٣٩ م خرج تيبو الرابع علي رأس الصليبيين من عكا قاصداً عسقلان لتنفيذ ماتم الأتفاق عليه ، واتجهوا جميعاً إلى قلعة الحجاج (٤) حيث ظل بها بعض الصليبيين ممن عجزوا عن مواصلة السير بسبب مرضهم ، بينما واصل الاخرون رحلتهم حتى قلعة يافا ، وظلوا بها اربعة أيام . وبينما يقيم الصليبيون فى قلعة يافا علم بطرس موكليرك Pierre de Mauclerc كونت بريتانى أن هناك قافلة محملة بالمؤن ، وافرة الثراء تتحرك فى غور الأردن فى طريقها إلى دمشق ، فخرج بطرس

---

(١) Grousset, Hist. des Croisades, T.3, PP. 377 - 78 ,
وانظر ايضا : فايد حماد عاشور ، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي، القاهرة ١٩٨٣م، ص ٣٤٧ .

(٢) تتمة وليم الصورى ، ص ٧٥ .

(٣)تتمة وليم الصورى ، ص ٧٦ .

(٤) قلعة الحجاج قلعة ضخمة شرع الفرسان الداوية والتيوتون في بنائها فى عثليث جنوبى جبل الكرمل عام ١٢١٨ م . انظر تتمة وليم الصورى ، الترجمة العربية، حاشية ١، ص ٧٥.

وبصحبته راؤل من سواسون Raoul de Soissone على رأس مائتى من صفوة الفرسان الصليبيين ، لمباغتة هذه القافلة دون أن يشعر بهم بقية الصليبيين . (١)

ونصب الصليبيون الكمائن لهذه القافلة عند مدخل أحد الوديان - التى كان من المفروض أن تمر بها - وقام موكليرك بتقسيم جنوده فريقين قاد هو أحدهما وجعل الشاعر رالف من نيسلRalphof de Nesle علي رأس الفريق الاخر (٢)

وسلكت القافلة نفس الطريق الذي سلكه موكليرك ، وما أن لمحهم حتى أمتطى هو وعساكره صهوة جيادهم لمحاربة المسلمين - الذين تشاوروا فيما بينهم كما يروى صاحب تتمة وليم الصورى ، فرأى البعض ضرورة ترك كل ما بحوزتهم من غنائم واسلاب ، فيستولى عليها الصليبيون ، وتكون هناك فرصة كبيرة لرحيلهم دون صعوبة ، بينما عارض البعض الاخر هذا الرأى ، ورأوا أنه من العار الرحيل دون توجيه ضربة قاضية للصليبيين ؛ وأجمع فرسان القافلة علي الرأى الأخر ونظموا صفوفهم ، وجعلوا حاملى السهام فى المقدمة ، واثار قائدهم الحماسة فيهم وهون عليهم أمر المعركة ، وطلب منهم أن يقاتلوا بشجاعة ويثبتوا في أماكنهم .(٣)

وبدأ القتال فى الرابع من نوفمبر حيث أقترب رماة السهام المسلمين من الصليبيين ، وأصابوا كثيرا منهم حتي كاد موكليرك يلقي مصرعه أو يقع فى الأسر لولا ظهور راؤل دى سواسون الذى أظهر- كما يروى صاحب تتمة وليم الصورى - هو وعساكره شجاعة فائقةمما حسم النصر لصالح الصليبيين ، أما الجند المسلمون فقد ولوا الأدبار فى آخر الأمر بعد أن قاتلوا بشجاعة - تاركين ما معهم من ماشية وغنائم . (٤)

---

(١) تتمة وليم الصورى ، ص ٧٥ - ٧٦ ، وانظر ايضاً :Grousset, Hist. des Croisades, T.3, P. 378.

(٢) تتمة وليم الصورى ، ص ٧٦ Grousset, Hist. des Croisades, T.3, P. 328. ,

(٣) تتمة وليم الصورى ، ص ٧٧ - ٧٨ .

(٤) لمزيد من التفاصيل انظر : تتمة وليم الصورى ، ص٧٨-٧٩ وانظر ايضاً :
Grousset , Hist , des Croisades , T.3, P. 378. , Setton , Hist . of the Crusades , Vol .2 , P . 474 .,
رنسيمان ، الحروب الصليبية ، جـ٣ ، ص ٣٧٣

وعاد موكليرك منتصراً بالمؤن والدواب والأسرى إلى يافا حيث باقي الصليبيين ، ونظراً لحاجة الجيش الصليبي المقيم في يافا إلى المؤن ، فقد عم الجميع السرور بسبب كميات اللحم التى وصلتهم من الكونت موكليرك ومن معه تعويضاً لهم عما قاسوه من مجاعة . (١)

واثار الانتصار الذي حققه موكليرك كونت بريتانى علي المسلمين وكثرة ما وقع في يده من غنائم - غيرة وحسد الكونت هنرى من بار ، ودفعه الي السعي لتحقيق نصر مماثل على المسلمين ، وانضوي تحت لوائه عدد كبير من الامراء الصليبيين ومن هؤلاء عمورى كونت مونفورت ، والكونت جوتيبه صاحب يافا ، ، وجيرار من أو برفيل Gerard d' Auberville ، وروبرت من بوفيز ، وباليان كونت صيدا ، وحنا ابلين كونت ارسوف ، وفيليب من نانيتويل Nanteuil وغيرهم ، وبلغ عددهم - كما يروى صاحب تتمة وليم الصورى - ستمائة فارس مجهزين تماما بأسلحتهم الحديدية ، ومعهم سبعين فارسا من حملة الرايات ، فضلاً عن رماة السهام وعساكر من الفرسان والمشاة ، وعدد كبير من المحاربين ممن جاءوا طمعا في مزيد من المكاسب . (٢)

وعقد هؤلاء اجتماعاً قرروا فيه أن يفاجأوا مقدمة الكتيبة أو الفرقة التى أرسلها العادل الثاني سلطان مصر إلى غزة للدفاع عن عسقلان ، ويذكر مؤرخ الحملة صاحب تتمة وليم الصورى أن هذه الكتيبة كانت تتألف من عدد كبير جداً من الرجال والمشاه المسلحين ومن الفرسان ورماة السهام (٣) بينما يحدد فيليب نافار عددها فيذكر انها بلغت الف تركى ، كما ذكر اسم قائدها وهو الأمير ركن الدين الهيجاوى (٤) . وأكد

---

(١) تتمة ، وليم الصورى ، ص٧٩ .

(٢) تتمة وليم الصورى ، ص٨٥-٨٦ وانظر ايضا ،

L' Estoire d' Eracles Empereur, P.414, Grousset, Hist. des Croisades, T.3 P.379 , Setton , Hist. of The Crusades , vol.2 , P. 475 .

(٣) تتمة وليم الصورى ، ص ٨٣ .

(٤) Les Gestes des Chiprois , PP . 118 - 119 .

ذلك ما ذكره ابن واصل والنويرى من أنه «كان على غزة الامير ركن الدين الهيجاوى فى عسكر من المصريين فقصده الفرنج » (١) أما صاحب تتمة وليم الصورى فلم يحدد بالضبط اسم قائد الكتيبة واكتفى بقوله : " واسندت القيادة إلى أحد الاتراك الأغنياء الأقوياء وهو فارس ماهر جرىء واسمه ملك الجبل " . (٢)

وعندما علم الكونت تيبو - قائد الحملة - والكونت موكليرك وسادة الفرق العسكرية الدينية الثلاث وغيرهم من الأمراء بخطة الكونت هنرى من بار وعزمه علي الخروج لحرب المسلمين ، حاولوا منعه وحذروه من أن للمسلمين عيون وجواسيس فى كل الطرق والممرات ، وأن سلطان مصر يملك جيشاً كبيراً قد وضعه عند غزة لحماية اراضيه ، وأنه من الافضل الانتظار حتى يرحل الجيش الصليبى كله إلى عسقلان . (٣) ولكن الكونت هنرى ومن معه من فرسان اصموا آذانهم ، وأصروا علي مواصلة مشروعهم طالما انهم جاءوا لحرب المسلمين ؛ وعندما يئس تيبو منهم هددهم بأنهم إذا لم ينتظروا ليذهب الجميع معاً فإنه سيعود مع أتباعه إلى معسكرهم ، ومع ذلك لم يعيروه إهتمام ، وقرروا المضى فى طريقهم . (٤)

ووصل الكونت هنرى ومن معه من أمراء وفرسان إلى منطقة قرب غزة كانت عبارة عن منخفض محاط بتلال رملية علي ساحل البحر ، وقريبة جداً من معسكر المسلمين ، وقرروا ان يظلوا في هذه المنطقة لينالوا قسطا من الراحة بعد أن نال التعب منهم مناله . (٥)

وعلم الأمير ركن الدين الهيجاوى قائد الكتيبة الأيوبية بوصول الصليبيين عن طريق عيونه ، وعلم ايضاً أن التعب قد نال منهم كل منال ، كما تعرف على طبيعة المنطقة

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ٥ ، ص ٢٦٧ - ٢٦٨ ، النويرى ، نهاية الارب ، جـ ٢٩، ص ٢٥٣ .
(٢) تتمة وليم الصورى ، ص ٨٣ .
(٣) تتمة وليم الصورى ، ص ٨٧ .
(٤) تتمة وليم الصورى ، ص ٨٧ ، ٨٨ .
(٥) لمزيد من التفاصيل انظر تتمة وليم الصورى ، ص ٨٩ ، ٩٠ .

التى عسكروا فيها ، عندئذ بدأ يتخذ الإجراءات اللازمة لمواجهتهم فبدأ أولا بأستدعاء أتباعه ، وامدهم بالسلاح ونظم صفوفهم - كما يروى صاحب تتمة وليم الصورى - وأمر رماة السهام والنبال والرماح ، وأفراد المشاة أن يصعدوا جميعاً التلال ويحيطوا بالصليبيين من كل جانب ، ويقذفونهم بالاحجار بقوة وشجاعة ، ونفذ المسلمون خطة قائدهم ، وعجز الصليبيون عن التصدى لهم ، لانهم كانوا أعلي التلال ، ثم اتجه المسلمون نحو ممر ضيق ، كان يوجد به بعض الصليبيين ، واغلقوا مخارجه ، وعجز الصليبيون لذلك عن التراجع إلى الخلف للذهاب إلى مكان أوسع . (١)

وفطن الكونت جوتيبيه كونت يافا لحقيقة ما يحدث ، وأشار على الكونت هنرى والصليبيين بضرورة الأنسحاب ، لأنه ليس بوسعهم التحرك فى مكان رملى تغوص فيه أرجلهم ، فضلا عن قلة عددهم وكثرة عدد المسلمين . ولكن هذه الفكرة لم تلق قبولا لدى الكونت هنرى ، الذى قرر استمرار الحرب ، ولذلك انسحب جوتيبيه وصحبه دون برجوانى واتباعهما واتجهوا نحو عسقلان ، واقتفي اثرهم املريك مونتفورت ووالتر بريين وحنا ابلين لورد ارسوف وباليان كونت صيدا وسائر فرسان الشرق اللاتينى . (٢) ومع ذلك فقد أصر الكونت هنرى على الإستمرار في قتال المسلمين .

ودارت معركة بين الامير ركن الدين الهيجاوى ومن معه من العسكر الأيوبى وبين الكونت هنرى بار ومن معه من الصليبيين علي مقربة من غزة (ربيع آخر ٦٣٧ هـ / نوفمبر ١٢٣٩ م) (٣) وبالتحديد عند سطر الجميز

---

(١) تتمة وليم الصورى ، ص ٩١ .

(٢) تتمة وليم الصورى ، ص ٩٢ - ٩٣ وانظر ايضا :

Richard . J, The Latin Kingdom of Jerusalem, , P. 324 , Grousset , Hist. des Croisades, T.3, P. 781. , .

رنسيمان ، الحروب الصليبية ، جـ٣ ، ص ٣٧٥ .

(٣) حول تاريخ هذه المعركة انظر : المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ق٢ ، ص ٢٩٢ ، النويرى ، نهاية الارب ، جـ٢٩ ، ص ٢٥٣ ، تتمة وليم الصورى ، ص ١٠٠ ، حسن عبد الوهاب ، تاريخ جماعة الفرسان التيوتون ، ص ٢٣٤ .

كمايذكر النويرى . (١)وكانت نتيجتها كما يروى صاحب تتمة وليم الصورى : " أن الصليبيين لم يتمكنوا من إنقاذ أنفسهم ، وقاسوا الكثير ونزلت بهم خسائر فادحة في رجالهم وخيولهم ، واسر المسلمون اعداداً كبيرة منهم " (٢)

وذكر صاحب تتمة وليم الصورى بعض اسماء من وقع من الصليبيين فى الأسر ومنهم الكونت هنرى قائد المعركة ، والكونت مونفورت ، وفيليب من نانتيويل (٣) ، وجيل كونت دريسس ، جوتيليه من سنليس ، واتيان من كارنى ، وبطرس من فارنى وآخرين .(٤)

وتحدد المصادر العربية عدد الأسرى والقتلى في هذه المعركة فتذكر :« واسر ملكهم ، وثلاثة من الكنود (٥) ، ومايزيد على ثمانين فارساً ومائتين وخمسين راجلاً ، وقتل منهم الف وثمانمائة انسان ، ولم يقتل من المسلمين إلا عشرة منهم الامير سيف الدين محمد بن الأمير أبى عمر ، وعثمان بن الامير علكان بن ابى على الكردى الهيجاوى » (٦) . ويتضح من خلال ما ذكره صاحب تتمة وليم الصورى والمصادر العربية ان هنرى بار قد أسر فى المعركة ، واتفق معهم فى ذلك تاريخ هرقل إلا أن فيليب نافار يذكر " أنه كان من بين من ماتوا فى هذه المعركة كل من عمورى وكذلك هنرى بار وكثير من الفرسان وكثير من الناس " (٧) ويبدو أن صاحب تتمة وليم الصورى لم يكن متأكدا من المصير

---

(١) النويرى ، نهاية الارب ، جـ ٢٩ ، ص ٢٥٣ .

(٢) انظر تتمة وليم الصورى ، ص ٩٤ - ٩٥ .

(٣) الف فيليب هذا اثناء أسره فى مصر العديد من الأشعار المؤثرة التى بكى فيها فرنسا ،وذم الطوائف الدينية ووجه لها اللوم انظر صاحب تتمة وليم الصورى ، ص ١٠٦،

Grousset, Hist. des Croisades, T.3., P. 382

(٤) تتمة وليم الصورى ، ص ٩٦ - ٩٧ وانظر ايضاً .

L'Estoire de Eracles Empereur , P. 415 .

(٥) الكنود أى الاشراف والأمراء من الفرنج انظر النويرى ، نهاية الارب ، جـ٢٩ ، ص ٣٠٥ ، حاشية ١ .

(٦) ابن واصل ، مفرج ، جـ٥ ، ص ٢٦٧ - ٢٦٨ ، النويرى ، نهاية الارب ، جـ ٢٩ ، ص ٢٥٣ - ٢٥٤ ، المقريزى ، السلوك ، جـ١ ق ٢ ، ص ٢٩٢ . وانظر ايضاً :

Colonel, E. J . King , the knights Hospitallers , London 1931 , P.223.

(٧) انظر : Les Gestes des Chiprois, PP. 119 - 120 .

الذى انتهى إليه هنرى بار - قائد الصليبيين - في معركة غزة إذ ذكر ، «وطلب البعض الأستفسار عن الكونت بار ، لكنهم لم يسمعوا أى أخبار عنه ، فالبعض ذكر أن البدو كانوا مراقبين المعركة وعندما ايقنوا بهزيمة الصليبيين تقدموا توا لجمع الغنائم طبقاً لعادتهم ، واسروا الكونت بار بما معه من غنائم " ، وذكر صاحب تتمة وليم الصورى ايضاً " وهذا ما جاء على السنة بعض الناس دون ان يعرف آحد مصير هذا الكونت » (١) .

وبعد أن أحرز الأمير ركن الدين الهيجاوى النصر علي الصليبيين ، عاد إلى مصر وبصحبته الجيش الايوبى والأسرى الصليبيين ، ويذكر صاحب تتمة وليم الصورى ، «أن هؤلاء الأسرى سجنوا فى دمياط والقاهرة وبابليون (الفسطاط) ، ويذكر ايضاً ان المسلمين كانوا يجمعون روث الخيول والحيوانات الأخرى ويقومون بحرقها ليسببوا للأسرى مضايقات كبيرة من وراء استنشاقهم رائحتها " (٢) على أن هذا السلوك لايتفق وروح المسلمين السمحة مع أصحاب الديانات الاخرى .

وعلم تيبو وهو في عسقلان عن طريق فرسان الشرق اللاتينى الذين أنسحبوا من المعركة أن الكونت هنرى قد أشتبك مع المسلمين فى معركة قرب غزة وأنه فى حاجة إلى مساعدات كبيرة ، فخرج تيبو علي رأس الجيش فى عجالة متجهاً إلى غزة ، وعندما وصلوا إلى ساحة المعركة ، ووجدها قد أنتهت بهزيمة اتباعهم ووقوع اعداد كبيرة منهم فى الأسر ، فعزموا علي الاشتباك مع المسلمين لتخليص الاسرى ، ولكن بعد مشاورات دارت بينهم ، قرروا العودة خوفا من ان يؤدى اشتباكهم مع المسلمين فى قتال إلى قيامهم بقتل الاسرى (١٥ ربيع الاخر ٦٣٧ هـ / ١٤ نوفمبر ١٢٣٩ م) (٣) .

وهكذا اسفرت هزيمة الصليبيين علي مقربة من غزة (١٤ربيع الاخر ٦٣٦ هـ / ١٣ نوفمبر ١٢٣٩ م) عن تراجع الجيش الصليبيى إلى عسقلان ومنها إلى يافا ظنا منهم أن

---

(١) تتمة وليم الصورى ، ص ١٠٩ - ١١٠ .

(٢) تتمة وليم الصورى ص ٩٧ .

(٣) لمزيد من التفاصيل انظر : تتمة وليم الصورى ص ٩٧ - ٩٩ .

المسلمين سوف يطاردونهم ويحاصرونهم وفى يافا تركوا الكثير من مؤنهم ومعداتهم واتجهوا إلى عكا دون أن يظفروا بشى.(١)

وقد يظن المرء كما يذكر Setton أن الانسحاب إلى عكا يعد لغزا خاصة وأن الجيش الصليبى صار إلى عسقلان ليبنى قلعة هناك ولكن من المؤكد أن فقدان عدد كبير من الصليبيين فى هذه المعركة أضعف الجيش الصليبى وجعله لايستطيع أن ينفذ خطته هذا إلى جانب نقص المؤن فالجيش خرج من عكا دون مؤن كافيه كما أن غنيمه موكليرك لم تصمد طويلاً ، وأهم من هذا وذاك الصراع بين الصليبيين القادمين من الغرب والامراء المحليين ، فقد كان الامراء المحليون من امراء مملكة بيت المقدس ومقدمى فرق الفرسان الرهبان يميلون عادة إلى عدم الاحتكاك بالمسلمين وذلك لانهم يدركون بحكم خبرتهم الطويلة مقدرة المسلمين العسكرية الفائقة على القتال ، وهذا ماكان يخفى على الصليبيين القادمين من الغرب (٢)

هذا فضلاً عن الحروب الاهليه بين الامراء الصليبيين المحليين أنفسهم وبين ريتشارد فيلا نجيرى Richard Filangeri نائب الامبراطور فردريك الثانى فى الشرق . (٣)

استرداد الناصر داود مدينة بيت المقدس :-

استغل الناصر داود صاحب الاردن والكرك ماحققته الكتيبة الايوبية من إنتصار على الصليبيين قرب غزة ، وقرر إستعاده مدينة بيت المقدس من أيديهم ، وبينما تجمع المصادر العربية على أن إسترداد الناصر داود لبيت المقدس وقع بعد هزيمة الصليبيين قرب غزة وفى جمادى الاولى ٦٣٧هـ / ديسمبر ١٢٣٩م (٤) ينفرد صاحب كتاب تتمة وليم الصورى مؤرخ صليبية نافار بذكر أن المسلمين ما أن علموا بوصول اسطول كبير إلى عكا حتى اجتمعوا بسرعة ...

---

(١) تتمة وليم الصورى ص ١٠١ ، Les Gestes des Chiprois , P. 120

(٢) Setton, History of the Crusades , T.2. P. 477.

(٣) Setton, History of the Crusades , T.2. P. 464 , 477.

(٤) انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٥، ص ٢٤٧، ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، جـ ٢، ص ٢٢٥، الحنبلي، الانس الجليل، جـ٢ ، ص ٥، المقريزي، السلوك، جـ ١، ق٢، ص ٢٩١، النويري، نهاية الأرب، جـ٩، ص ٢٥٤ .

وذهبوا إلى مدينة بيت المقدس " ويذكر فى موضع آخر أن الصليبيين عندما وصلو إلى عكا سمعوا خبر تحطيم برج داود وإسترداد بيت المقدس بمعرفة المسلمين (١) .

يتضح من هذا أن صاحب تتمه وليم الصورى يجعل إسترداد المسلمين لمدينة بيت المقدس وتحطيم برج داود فى نفس الوقت الذى وصل فيه صليبيو نافار إلى الشرق أى فى سبتمبر ١٢٣٩م ، وهذا يتنافى مع ماتجمع عليه المصادر العربية من أن فتح المدينة فى جمادى الاولى ٦٣٧هـ/ ديسمبر ١٢٣٩م أى بعد وصول الصليبيين إلى عكا بثلاثة أشهر ونظراً لاجماع المصادر العربية وانفراد صاحب تتمة وليم الصورى دون غيره من المؤرخين الصليبيين المعاصرين للحملة ، فضلاً عن تحديده غير الدقيق لهذا الحدث إذ ذكر « وحدث ذلك فى عام ١٢٣٩م »(٢).فإنه يصح قبول ما اوردته المصادر العربية.

ودفع الناصر داود لاسترداد مدينة بيت المقدس ، إنها كانت ضمن ممتلكات أبيه المعظم عيسى ، وعندما حدث خلاف بين المعظم عيسى واخيه الكامل محمد سلطان مصر ، إستعان الكامل بفردريك الثانى ووعده بأن يعطيه بيت المقدس نظير مساعدته له ضد أطماع المعظم ، وعبر السيوطى عن شعور الناصر بقوله : " وهمته نفسه إلى إستنقاذ بيت المقدس من أيدى الفرنج وتطهيره من إرجاسهم ، وأظهر ما كان كامنا فى نفسه من ناحية الكامل بسبب إستغاثته عليه وإستنجاده فى أمره بالفرنج وإعطائهم بيت المقدس»(٣) .

كما أن الصليبيين لم يلتزموا بمعاهدة يافا (ربيع أول ٦٢٦ هـ/ فبراير ١٢٢٩م) - التى كان من بين شروطها أن يكون القدس خراباً ، ولا يجدد فيه عمارة أصلاً (٤) . ولكن الصليبيين أنتهزوا فرصه الخلاف بين أفراد البيت الايوبى وعمروا قلعه فى غرب القدس ، وجعلوا برج داود أحد ابراجها ، فلما بلغ الناصر داود عمارة هذه القلعة سار إلى

---

(١) تتمة وليم الصورى ،ص٦٩. ٧٠. ٧١ .
(٢) تتمة وليم الصورى ، ص ٧٠ .
(٣) السيوطى ، إتحاف الاخصا ، جـ١ ، ص ٢٨٧ .
(٤) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٥ ص ٢٤٦.

القدس (١). هذا إلى جانب أن تيبو - قائد حملة نافار - عندما نزل إلى عكا حاول إصلاح أسوار مدينة بيت المقدس ، فكتب لفردريك الثانى يخبره بوصوله وجيشه فى أمان ، ويطلب منه أموالاً لإعاده بناء سور المدينة (٢) وشرع الصليبيون بالفعل فى تحصين المدينة من ناحية باب القديس إتيان Estienne ـ ويعرف باسم باب العمود (٣) وفى بناء اسوار وابراج صغيرة بما لديهم من أموال جمعوها من التبرعات على نحو مايذكر صاحب تتمه وليم الصورى (٤) .

كذلك جاء خروج الناصر داود لاسترداد بيت المقدس رداً على مهاجمة موكليرك دوق بريتانى للقافلة الاسلامية فى وادى الاردن ، وسلب ما كانت تحمله من غنائم (٥) وهكذا فإن محاولة الناصر داود استرداد مدينة بيت المقدس وتدمير استحكاماتها جاء رد فعل مباشر لما قامت به الحملة الفرنسية أو صليبية نافار من هجمات على المسلمين . (٦)

إتخذ الناصر داود الاستعدادات اللازمة لمهاجمة مدينة بيت المقدس فيذكر السيوطى. « أنه جمع جمعاً عظيماً واعد للهجمة على الفرنج فى عقر ديارهم ، وقسم جمعه وجعله فرقاً ، وعقد لكل فرقة راية ، واعد لكل طائفة جانبا من جوانب البلد » (٧) .

وقد أختار الناصرداود وقتاً مناسباً للهجوم على المدينة وهو إنشغال الصليبيين بالاحتفال بيوم عيدهم الاكبر ، ورتب كل فرقة فى مكانها على أثر وصوله بينما إنشغل الصلئبيون باللهو واللعب . وشرع الناصر فى مهاجمة المدينة بأن اشعل المسلمون النيران

---

(١) أبن واصل ، مفرج ،جـ٥ ،ص٢٤٦، المقريزى ، السلوك ،جـ١ ،ق٢ ،ص٢٩١.

(٢) Setton , Hist. of the crusades , Vol . 2, P, 472.

(٣) Grousset , Hist. des croisades T.3,P.375.

(٤) تتمة وليم الصورى ، ص ٦٩ .

(٥) انظر ما سبق وانظر ايضا رنسيمان، الحروب الصليبية، جـ ٣، ص ٣٧٦، سميث، الاسبتارية : فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس وقبرص ١٠٥٠ ـ ١٣١٠م، ترجمة صبحي الجابي، دمشق ١٩٨٩م، ص ١٧٧ .

(٦) Grousset , Hist. des croisades T.3,P.374 .

(٧) السيوطى إتحاف الاخصا ، ص ٢٨٨ .

ورفعوا الاعلام والرايات ، وكبروا ، وهجموا قبيل الصبح على الصليبيين فى مواطنهم، مما سبب لهم الدهشة ووضع فيهم المسلمون السيف ، واستمروا يقتلون ويأسرون وينهبون كما يروى السيوطى (١).

وبعد أن دخل الناصر داود مدينة بيت المقدس ، ضرب الحصار حول القلعه التى عمرها الصليبيون ، وضربها بالمجانيق ، وأحدث النقابون ثقوباً فى الاسوار ، ورمى الزراقون (٢) نيرانهم حتى تمكنوا من أقتحام اسوار القلعه ،ورفعوا عليها أعلامهم ، ونجح الناصر داود بذلك فى الاستيلاء على القلعة(٣) .

وتردد الناصر داود فى أمر هذه القلعه أيبقى عليها لتصبح معقلا لحراسة بيت المقدس أم يهدمها ويجعلها أثراً بعد عين حتى لا يفكر الصليبيون فى استعادتها وحصارها ، واستشار فى ذلك الخليفة العباسى (٤) .

واتجه الناصر داود بعد ذلك إلى برج داود بعد أن لجأ اليه جماعة من الصليبيين للإحتماء به إذ يذكر النويرى « ولما فتح بيت المقدس تحصن جماعة من الخيالة والرجالة ببرج داود » (٥) . وكان هذا البرج على درجة كبيرة من التحصين فيصفه الناصر داود بقوله : «هو برج عظيم المقدار والحجم ، مُبار فى المنعة الجبل ، وفى الرفعه النجم ... قد بنى بالصفاح والعمد .. وهو من أسفله إلى ثلثه قد صب فيه الحجر والكلس صباً ، وردم بقوة ...... "(٦) أما صاحب تتمه وليم الصورى فقد أكتفى بقوله : " أن البرج كان

(١) السيوطى ، إتحاف ، ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ .

(٢) هم الذين ينصبون انابيب النفط ويرمون بها فى القتال ، أنظر أبن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، جـ٢ ، ص ٢٢٩ ، حاشيه ٦ .

(٣) أنظر نص كتاب الناصر داود إلى الخليفة العباسى أبي جعفر المنصور والذي يتحدث فيه عن تفاصيل أقتحام القلعة والبرج عند أبن شداد ، الاعلاق الخطيره ، جـ٢ ، ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

(٤) أبن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، جـ٢ ، ص٢٣٢ .

(٥)النويري، نهاية الارب ، جـ ٢٩ ، ص ٢٥٤ .

(٦) انظر أبن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، جـ٢ ، ص٢٢٧ .

مبنياً بناءاً متيناً من الاسمنت والجير» (١) وكانت تتولى الدفاع عن هذا الحصن حاميه صغيرة بقيادة فارس إنجليزى يدعى ريتشارد من ارجينتان Richard of Argentan (٢).

هاجم الناصر داود والمسلمون البرج بعنف من كل مكان ، وهنا تذكر المصادر العربية أن الصليبيين ارسلوا رسولاً للمسلمين يطلب لهم الامان على أنفسهم وأموالهم ، والخروج بما يقدرون عليه من أسلحتهم وأثقالهم ، فلم يعير الناصر الرسول إهتماماً ، وأمر الحجارين بأن يجدوا فى نقب جدران البرج من جميع الجهات ، وتتابع المصادر العربية فتذكر أن الصليبيين عادوا مرة أخرى وطلبوا الامان على أنفسهم وحسب ، فأجابهم الناصر إلى ذلك وأمنهم (٣). (١٥ جمادى الاولى ٦٣٧هـ / ديسمبر ١٢٣٩م).

بينما يذكر صاحب تتمة وليم الصورى أن المسلمين ادركوا عجز الصليبيين عن الاحتفاظ بالبرج طويلاً لانه ردىء التجهيز ، فتحدثوا اليهم وعرضوا عليهم تسليم الجرحى مقابل أن يسمحوا لهم ولاولادهم ولنسائهم أن يرحلوا تحت رعايتهم دون أن يتعرض لهم أحد (٤). ويذكر أيضاً أن الصليبيين المحاصرين داخل البرج كانوا يدركون جيداً عدم تمكنهم من الدفاع عن أنفسهم بسبب أفتقارهم للمياه والطعام وأنهم سوف يؤخذون أسرى أو يموتون جوعاً أو يقتلون بالسيف ، فاتفقوا على قبول عرض المسلمين عليهم ، وخرجوا من البرج وارسل المسلمون معهم بعض رجالهم لتوصيلهم وحمايتهم من أيه أخطار وعاملوهم معاملة حسنة . (٥)

وبذلك تختلف الرواية العربية والصليبية فبينما تذكر الرواية العربية أن الصليبيين هم الذين طلبوا الاستسلام مقابل الامان على أنفسهم تذكر الرواية الصليبية أن المسلمين هم

---

(١) تتمة وليم الصورى ، ص ٧٠ .

(٢) Setton , Hist. of the crusades ,Vol.2 P.472.

(٣) ابن شداد ،الاعلاق ، جـ٢ . ٢٣٠-٢٣١ ،المقريزي السلوك ،جـ١ ،ق٢ ،ص٢٩١.

(٤) تتمة وليم الصورى ، ٩٦.

(٥) تتمة وليم الصورى ، ص٧٠ .

الذين عرضوا على الصليبيين السماح لاولادهم أن يرحلوا من البرج فى أمان مقابل تسليم الجرحى المسلمين ، وقبل أهل الحصن عرض المسلمين لافتقارهم إلى الماء والطعام ولادراكهم أنهم سوف يؤخذون أسرى أو يموتون جوعاً، وتتفق الروايتان فى أن الصليبيين استسلموا فى نهاية الامر وسلموا الحصن مقابل الامان على أنفسهم .

أقتحم الناصر داود البرج ، وعزم على هدمه دون تردد حتى يجعله " مسجداً للركوع والسجود لامعقلاً للجموع والحشود ، ومعبداً يلتزم بمزاره ، لاحصنا يعتصم باسواره . » (١) وقد استغرقت عمليه الهدم وقتاً طويلاً ، ومجهوداً كبيراً نظراً لمتانة بناء هذا الحصن (٢).

وقد ارجع البعض السهولة التى تم بها فتح مدينة القدس وأقتحام برج داود إلى أن المدينة لم تكن تدين بالولاء للمملكة الصليبية في عكا، بل كانت تدين بالولاء لفردريك الثانى ونوابه فى صور وهما : Eude de Montbeliard والمارشال فيلا نجيرى Filanghieri فيذكر صاحب تتمة وليم الصورى «أن نائب فردريك - أى فيلانجيرى - لم يكن قد حشد البرج بالناس، ولم يمده باللحم والسلاح والالات وكل وسائل الدفاع مما دفعهم للاستسلام » (٣) . هذا فضلاً عن أن المدينة لم تستطع الحصول على مساعدة من مملكة بيت المقدس فى عكا وذلك للصراع بينها وبين رجال الامبراطور فى صور (٤).

ويرجع جروسيه Grousset أهمال نواب فردريك فى تحصين المدينة والبرج إلى تواطىء فردريك الثانى مع أصدقائه المسلمين وحتى لا يغضبهم (٥) وإذا كان نواب فردريك الثانى قد أهملوا فى تحصين المدينة والبرج تواطئا مع المسلمين فلماذا لم يحرك

---

(١) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، جـ٢ ، ص٢٣٢ .
(٢) تتمة وليم الصورى ، ص ٧٠ .
(٣) تتمة وليم الصورى ، ص ٦٩ ـ ٧٠ .
(٤) انظر رنسيمان ، الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٣٧٦ ،
Grousset , Hist. des Croisades T.3 , P . 375.
(٥) Grousset Hist. des Croisades, T. 3,PP. 375,76.

الصليبيون القادمون من الغرب وعلى رأسهم تيبو الرابع كونت شمبانيا وملك نافار والامراء الصليبيون المحليون لم يحركوا ساكنا ولم يتخذوا خطوة إيجابية لصد الناصر داود ومنعه من دخول مدينة بيت المقدس ؟

على أية حال بعد أن أتم الناصر داود فتح مدينة بيت المقدس ، وهدم برج داود «ولى فيه من قبله ». (١) واهتم بإقامة الشعائر فى المدينة وأمر بكتابة البشائر إلى سائر الممالك بهذا الفتح المبين والنصر العزيز ، ومنها كتاب الخليفة العباسى المستنصر بالله أبو جعفر المنصور (تـ ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢م) فى بغداد ، كتب الناصر بيده ومن انشائه ، يخبره فيه بهذا الفتح المبين (٢).

وعادت الردود إلى الناصر ومنها قصيدة لابن مطروح يمدح فيها الناصر وهى قصيدة طويلة تشتمل على ابيات كثيرة منها .

المسجد الاقصى له عادة ... سارت فصارت مثلا سائراً
إذ عاد بالكفر مستوطناً ... أن يبعث الله له ناصراً
فناصر طهره آولا ... وناصر طهره آخر (٣)

وهكذا سطرت هذه المثوبة فى صحائف الناصر وشكر له الناس مساعيه وترددت الالسنه بالدعاء له ، وارتفع شأنه وعلا نجمه (٤). ولاشك أن أستعادة المسلمين لمدينة بيت المقدس عندئذ جاءت صدمة قاسية قوية أصابت الصليبيين ، فجعلت سكان الأرض المقدسة يشعرون باليأس كما يذكر ميشو Michaud(٥) ، وجعلت سائر الصليبيين مشلولى الحركة ، عاجزين عن التصرف وكأنما غشيهم النعاس .

(١) ابن شداد ، الاعلاق .جـ٢.ص٢٢٥ .
(٢) انظر نص الكتاب عند ابن شداد ،الاعلاق ،جـ٢ ،ص٢٢٦-٢٣٣.
(٣) ابن واصل، مفرج،حـ٥ ،ص ٢٤٦ ، النويرى ،نهاية الارب ،ج٢٩ ،ص٢٥٤ ،الحنبلى الانس الجليل، جـ٢ ،ص٥ ، المقريزى ، السلوك ،جـ١ ،ق٢ ،ص٢٩١-٢٩٢.
(٤) السيوطى ،اتحاف الاخصا ،جـ١ ،ص٢٨٩.
(٥) Michaud Hist. des croisades T.3, P544.
وانظر أيضا : سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ ٢، ص ٨١٧ .

ومن الغريب أن المصادر الصليبية تصمت تماماً عن ذكر أصداء هذا الفتح فى الشرق اللاتينى وردود فعله ، أو تأثيره على الصليبيين الجدد القادمين من الغرب أى صليبى نافار ، الذين ذهبوا إلى عكا فور هزيمتهم قرب غزة بدلا من السعى لإتخاذ موقف جاد من المسلمين ، بل أكثر من ذلك - كما يذكر مؤرخ الحملة صاحب تتمه وليم الصورى -" أنهم راحوا يستقبلون رسائل الامراء المسلمين وعروض خدماتهم ، ويركنون إلى ثنائهم ومديحهم " (١).

فقد أدى الصراع بين المظفر الثانى صاحب حماه وبين خصومه المجاهد شيركوه صاحب حمص ، والصالح إسماعيل صاحب دمشق ، وضيفة خاتون الوصية على حلب إلى اسراع المظفر بطلب العون من الصليبيين ، وسعى لعقد صلح معهم رغبة فى الإنتقام من خصومه.(٢)

وارسل المظفر إلى تيبو ملك نافار بعد عودته إلى عكا وليم شامبين Willaume Champenes - كاتب طرابلس وهو أحد الفرنسيسكان وكانت تربطه صداقة مع المظفر - ليعرض على تيبو عروض المظفر ومنها أن يتنازل المظفر للصليبيين عن حصن أو حصنين ويسلمها لهم ، وأن يتحول إلى المسيحية فى مقابل بذل المساعدة له . (٣) وقبل تيبو العرض فى فرح وسرور واتجه إلى طرابلس على الفور إستجابة لنداء المظفر ، وعندما وصل الصليبيون إلى طرابلس، اقاموا معسكرهم عند تل الحاج ، ومن هناك ارسلوا رسلهم بصحبة وليم شامبين رسول المظفر مؤكدين له تمسكهم بمشروع التحالف .(٤)

---

(١) تتمة وليم الصورى ، ص ١٠١ .

(٢) أنظر Les Gestes des Chiprois , P.121., L,Estoire d' Eracles , P416
سعيد عاشور الحركة ،جـ ٢ ،ص٨١٩
ويرجع الصراع بين المظفر وخصومه إلى مساندة المظفر للصالح ايوب فى صراعه مع الصالح إسماعيل وكان عدوه اللدود شيركوه صاحب حمص فقد ساند الملك الصالح إسماعيل ، أما العداء بين المظفر وضيفة خاتون فيرجع إلى إنتزاع ضيفة خاتون معره النعمان منه. لمزيد من التفاصيل أنظر، ابن واصل ،مفرج الكروب ، جـ٥ ،ص٣١٢-٣١٣.

(٣) les Gestes des Chiprois ,p.120 , L'Estoires d'Eracle , pp.415,16, Grousset , Hist.des Croisades T.3, P.384., Setton , Hist. of the crusades,vol.2,P.478.,
رنسيمان ، الحروب ، جـ ٣ ، ص ٣٧٧ ،

(٤) L'Estoire d'Eracles, P. 416., LesGestes des Chiprois,P.120,Grousset, Hist.des Croisades, T.3, P. 385.

وكان مسير تيبو والصليبيين إلى طرابلس كافيا لان يخيف اعداء المظفر ، كما كان كافيا لتخليصه من تهديداتهم ولذلك أرسل فى ادب إلى تيبو يخبره بأنه لم يعد فى حاجة إلى خدماته ومساعدته .(١) ويعلق جروسيه Grousset على ذلك بقوله :" أن الصليبيين أخطأوا عندما وثقوا ثقة عمياء فى أنصاف الوعود الشرقية، فكان كل مايريده ملك حماه هو تخويف أميرة حلب التى كانت تهدده بتجريده من الملك بالاتفاق مع الصالح إسماعيل ملك دمشق "(٢)

وظل الصليبيون فى طرابلس بعض الوقت فى ضيافة أميرها بوهيمند الخامس ، الذى أظهر لهم احتراما وافراً ، وادباً عظيماً طول مدة أقامتهم هناك ، وعاد الصليبيون بعد ذلك إلى عكا حينما تفهموا حيلة المظفر (ذو القعدة ٦٣٨هـ / مايو ١٢٤٠م) (٣).

ولم يكد يمضى وقت طويل على عودة صليبى نافار إلى عكا حتى سعى الصالح إسماعيل صاحب دمشق للتحالف معهم وطلب مساعدتهم له ضد أبن أخيه الصالح أيوب - الذى اعتلى عرش مصر فى ذي القعدة ٦٣٨هـ / يونية ١٢٤٠م (٤)- لتخوفه منه لما اسلفه فى حقه من أخذ دمشق منه بعد أن صالحه وحلف له وتوثق منه (٥) وزاد من مخاوفه اشتراك الصالح ايوب والناصر داود صاحب الاردن في غزو بلاده (٦) هذا فى حين يذكر صاحب تتمة وليم الصورى " أن سلطان دمشق وسلطان الاردن والكرك ارسلا إلى ملك نافار وبارونات المعسكر الصليبى رسالة يطالبان عقد هدنه معهم (٧) وهذا يتنافى

(١)رنسيمان ،الحروب الصليبية ،جـ٣،ص٣٧٧.
Grousset , Hist. des Croisades, vol.3 , P . 385.
(٢) Grousset , Hist. des Croisades vol.3 , P . 385.
(٣) تتمه وليم الصورى ،ص١٠٣ L'Estorire d'Eracles,P.416.,
Les Gestes de Chiprois,P121.,Setton, Hist. of the Crusades , Vol. 2 , P. 478 .
(٤) لمزيد من التفاصيل انظر ماسبق .
(٥) أنظر ابن وصل ، مفرج ، جـ٥،ص٣٠٢ ، النويرى ، نهاية الارب ، جـ٢٩ ، ص٢٧٨. وانظر ماسبق .
(٦) أنظر المقريزى ، السلوك ،جـ١،ق٢،ص٢٩٣-٢٩٧ ، ابو الفد ، المختصر ،ج ٣، ص ١٦٦، الحنبلي، شفاء القلوب، ص ٣٧٣ ـ ٣٧٥.
(٧) تتمة وليم الصورى ،ص١٠٣.

مع ما أكدته المصادر العربية من أن الناصر داود كان فى ذلك الوقت عونا للصالح أيوب وحليفاً له خاصة وأن الصالح ايوب قد وعد الناصر بأن يسلمه دمشق بعد إنتزاعها من يد الصالح إسماعيل (١).

واتفق الملك الصالح إسماعيل مع الصليبيين على معاضدته ومساعدته ومحاربة سلطان مصر الجديد الصالح نجم الدين ايوب (٢) وأن يتولى الصليبيين الدفاع عن ساحل فلسطين ، وأن يعسكروا فى عسقلان أو يافا لمنع جنود السلطان الصالح من الوصول إلى بلاد الشام ، وإلا يعقدوا أى إتفاق بدونه وإلا يتفقوا مع سلطان مصر بأى شكل من الأشكال (٣) وفى مقابل ذلك أعطى الملك لصالح إسماعيل الصليبيين كما تذكر المصادر العربية - قلعه صفد وبلادها وأعمالها - وكانت القلعه خراب - وقلعة الشقيف (٤) وبلادها - وكانت عامره - ومناصفه صيدا وطبرية واعمالها ، وجبل عاملة وجميع بلاد الساحل (٥).

هذا فى حين يذكر مقدم الداوية فى بلاد الشام فى كتاب ارسله لزميله مقدم الداوية فى إنجلترا واوردة متى الباريسى Matthiew Paris - أن جميع الاراضى التى تقع بين الساحل ونهر الاردن كانت قد استردت ، كما أعلن الرسول الذى حمل هذا الكتاب أن سلطان دمشق قد أعلن أنه سوف يتلقى التعميد (٦).

---

(١) انظر : ما سبق .

(٢) النويرى ، نهاية الارب،ج٢٩،ص٢٧٨ ، المقريزى السلوك ،جـ١ ،ق٢ ،ص١٣٠٣،الحنبلي، الانس ، ج٢،ص٦ .

(٣) L'Estoire d'Eracles , P. 418, Les Gestes des Chiprois , P.121., تتمة وليم الصورى ، ص١٠٦ - ص١٠٧ ، Grousset , Hist. des Croisades, T.3,P. 387.

(٤) يقع حصن شقيف ارنون بين صور وصيدا ويحيط به من الناحيتين الجنوبية والغربية خندق عميق بمثابه خط دفاع أمامى عن الحصن . أنظر ياقوت ،معجم البلدان ، بيروت ١٩٨٤ ،جـ٣ ،ص٣٥٦ ، ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، جـ٢ ،ص١٤٦ ومايليها ، ص١٥٤ ومايليها .

(٥) ابن العميد ، اخبار الايوبيين ، ص٣١ ، ابو شامه ،الذيل على الروضتين ،ص٧٠ ، سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان ، جـ٨، ق٢ ،ص٧٣٢، النويرى ، نهاية الارب ،جـ٢٩ ،ص٢٧٨، المقريزى، السلوك ، جـ١ ،ق٢، ص ٣٠٣ ابن ابيك ،الدر المطلوب فى اخبار بنى ايوب ،ص ٣٤٧ ، ، الحنبلى الانس ،جـ٢ ،ص٦،

(٦) Matthiew Paris, P . 303 . ، وانظر ايضا les Gestes des Chiprois,PP.121 - 122, L'Estoire d; Eracles,P.418 .

على أن ما ذكره مقدم الداوية فى كتابه يعنى أن الصالح إسماعيل قد تنازل للصليبيين عن بيت المقدس وبيت لحم وعسقلان وغزة وغيرها من مدن الساحل الشامى إلا أن هذا ليس ممكنا لان معظم هذه الاقاليم كانت فى يد الناصر داود أمير الكرك والصالح ايوب سلطان مصر ، واعادتها للصليبيين كانت تتطلب أولاً الانتصار على هذين الحليفين، وهذا لم يتحقق للصالح إسماعيل (١) ويبدو أن الامور قد أختلطت على مقدم الداوية ، فهذه الاقاليم سوف يتنازل عنها الصالح إسماعيل بالفعل للصليبيين ولكن فى فترة تاليه وبالتحديد فى عام ٦٤١هـ / ١٢٤٣م حينما تسوء العلاقة بين الناصر داود والصالح ايوب ويلقى الناصر داود بنفسه فى احضان الصالح اسماعيل وينضم اليهما المنصور ابراهيم صاحب حمص (٢) .

كما أن ما جاء على لسان رسول مقدم الداوية من أن الصالح إسماعيل أعلن أنه سوف يتلقى التعميد ليس صحيحاً فالذى أعلن أنه سوف يتلقى التعميد بشهادة المعاصرين من الصليبيين هو المظفر صاحب حماه وليس الصالح إسماعيل (٣) .

ويذكر صاحب تتمة وليم الصورى أن الملك الصالح إسماعيل وعد الصليبيين فى بلاد الشام والداوية والاسبتارية أنه سوف يجلب للمعسكر الصليبى كميات كبيرة من اللحوم إذا ما رغبوا فى حصار أية مدينة مصرية .. لينال الصليبيون من وراء ذلك شرف وفخار، كما وعدهم ايضاً بتزويدهم بكل مايحتاجون إليه (٤) .

وعلى أثر توقيع الاتفاق بين الصالح إسماعيل وصليبى نافار ، أذن الصالح للصليبيين فى دخول دمشق وشراء السلاح ، فأكثروا من ابتياع الاسلحة وآلات الحرب

---

(١) Setton,Hist. of the Crusades, Vol.2,P. 479 .

(٢) انظر ابن واصل، مفرج الكروب ،جـ ٥، ص٥٣٣ ، المقريزى ،السلوك ،ص١، ق ٢ ، ص ٣١٤ - ٣١٥ وانظر ايضا وفاء محمد على / دراسات فى تاريخ الدولة الايوبية ،القاهرة ١٩٨٩م ،ص ١٧٢ .

(٣) انظر ماسبق ص .

(٤) تتمة وليم الصورى ، ص ١٠٦ - ١٠٧ .

من أهل دمشق، فانكر المسلمون ذلك ، واستفتى من يبيعون السلاح الشيخ عز الدين بن عبد السلام (١) خطيب جامع دمشق فى مبايعة السلاح للفرنج فأفتاهم أنه يحرم عليهم بيعه للفرنج وقطع من الخطبة بجامع دمشق الدعاء للملك الصالح إسماعيل، وعندما علم الأخير بذلك، أمر بعزله واعتقله هو والشيخ ابي عمرو بن الحاجب (٢) الذى أكثر من التشنيع على الملك الصالح وحبسهما ثم اطلقهما وامرهما بملازمة بيوتهما ، ثم طردهم من دمشق فذهب العز إلى مصر وذهب أبو عمرو إلى الكرك (٣)

وعندما شرع الصالح إسماعيل فى تنفيذ إتفاقه مع الصليبيين رفضت حامية الشقيف تسليم الحصن إلى باليان سيد صيدا فيذكر أبن شداد : " ولما أمر - أى الصالح - نائبه فيه بتسليمه للفرنج أبى وأمتنع وقال : والله لاجعلته فى صحيفتى» (٤) وكان نائب الصالح هذا هو الحاج موسى وكان أولا مشارف مطابخ الملك الصالح ثم قربه منه وعينه واليا للشقيف من قبله (٥) .

كذلك عندما علم من بالحصن أن الملك الصالح إسماعيل قد عزم على تسليمه للداوية ، اجمعوا رأيهم على عدم تسليمه للفرنج ، وعصوا به وكاتبوا الملك الناصر داود صاحب الكرك ، فسير إليهم من بعض أصحابه رجلاً يقال له : " فخر الدين العيدانى ، يصعد إلى القلعه ،ونادوا بشعار الملك الناصر صاحب الكرك على نحو ما يذكر ابن شداد (٦). ويؤكد صاحب تتمة وليم الصورى ذلك فيذكر :« وأمتنع رجال حاميه حصن

---

(١) انظرا ترجمة العز بن عبد السلام عند السبكى ،طبقات الشافعيه ، جـ٥،ص٨٠-١٠٣ ،ابن تغرى بردى،المنهل الصافي ،جـ٣،ص٦٥٠ - ٦٥٢ .

(٢) هو جمال الدين أبو عمرو عثمان الأسنائى المعروف بان الحاجب وكان اماما فى مذهب مالك بن أنس. انظر الادفوي، الطالع السعيد، ص٣٥٢ ـ ٣٥٧، ابن تغري بردي، المنهل، جـ٤ ، ص ٤٤ ـ ٤٧ .

(٣) لمزيد من التفاصيل انظر : سبط ابن الجوزى ،مرآة الزمان ، جـ٨،ق٢،ص٣٢٧ - ٣٣٣ ، ابن واصل ،مفرج جـ٥ ،ص٣٠٢-٣٠٣ ، النويرى، نهاية الارب ، جـ٢٩ ،ص٢٧٨-٢٩٩، المقريزى، السلوك جـ١ ،ق٢ ،ص٣٠٨-٣٠٩ .

(٤)(ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، جـ٢ ،ص١٥٥ .

(٥) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، جـ٢ ،ص ١٥٦ .

(٦) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، جـ٢ ،ص١٥٦ .

الشقيف عن تسليم الحصن واصروا على عدم مغادرته واتهموا الصالح اسماعيل بانه لم يكن اميناً أبداً فى الحفاظ على شريعة محمد (ﷺ) عندما اراد تسليم الحصن إلى هؤلاء الصليبيين (١) .

ولما تحقق الصالح إسماعيل من موقف حامية حصن الشقيف ، خرج بنفسه على رأس الجيش ليدخل الحصن ، فمنعته حامية الحصن من الدخول ، فضرب الصالح عليه الحصار ، وهاجمه من جميع الجهات بعد أن وصلته الاسلحة وآلات الحصار من دمشق واضطرت حاميه الحصن لطلب الامان قائلين له كما يذكر ابن شداد (٢) « أنت امرتنا أن نسلمه إلى نواب الداوية ونحن فما يحل لنا أن نسلمه للفرنج ، ونحن نسلمه اليك،وأنت تفعل فيه ماتختار ».

أما صاحب تتمة وليم الصورى فيذكر مفصلا لذلك أن حاميه الحصن طلبت المفاوضات مع الملك الصالح وابلغوه باستعدادهم لتسليم الحصن بشرط الإبقاء على حياتهم ،و لكن السلطان قطع المفاوضات ، وقال أنه لن يعمل وفق ارادتهم فإما أن يعيدوا إليه الحصن ويسلموا أنفسهم ليتصرف فيهم كما يشاء ، واما سيستمر فى الحصار حتى يستولى على الحصن بالقوة . وفى النهاية آثر المحاصرون الذهاب إليه مستسلمين لارادته . ويتابع صاحب تتمة الصورى روايته فيذكر أن السلطان قام بشنق بعضهم ، وطرد البعض الاخر من بلاده ، أما الباقون فقام بحلق لحاهم ، وهو أقسى احتقار يمكن أن يوجه لهم من قبل السلطان الملك الصالح (٣) على أن الرواية العربية لم تذكر شيئاً من هذا القبيل .

وبعد أن استرد الصالح إسماعيل حصن الشقيف سلمه إلى صاحب صيدا فقام بتزويده بالرجال والاسلحة والزاد وكل مايلزم الدفاع . (٤) إذا كان هذا الحصن ذا أهمية

(١) تتمة وليم الصورى ، ص ١٠٥ .
(٢) ابن شداد ،الاعلاق الخطيرة ، جـ٢،ص ١٥٦ .
(٣) تتمة وليم الصورى ،، ص١٠٥، ١٠٦ .
(٤)تتمة وليم الصورى ، ص ١٠٦ .

كبيرة بالنسبة لمدينة صيدا ، فقد كان بمثابة خط الدفاع الاول الذى يحمى مدينة صيداضد هجمات المسلمين (١) وكان هذا الحصن كما وصفه ابن واصل "منيع لايرام" (٢)

واشتد انكار المسلمين لما فعله الصالح اسماعيل خاصه بعد ان قام الصليبيون بتعمير صفد وكانت قد خربت ، وكانت صفد كذلك من امنع الحصون وهى كما وصفها أبن واصل " حصن فى غاية العلو والارتفاع مطل على عكا وبلاد الغور (٣). وبتسليم الصالح الشقيف وصفد للصليبيين عظم الضرر على المسلمين « إذاصار هذان الحصنان جمرتى بلاء » على حد تعبير ابن واصل (٤) .

ووجدت اتفاقية الصالح إسماعيل مع تيبو ملك نافار والصليبيين ترحيبا من بعض الصليبيين دون البعض الاخر ، فقد وجد فيها البعض فرصة لاتقاوم للعمل على زيادة الوقيعه بين المسلمين فى المنطقة ، فتزداد الهوة بينهم اتساعا ، مما يعود بالنفع والفائدة على الصليبيين (٥) كما أنها كانت سبيلاً لاسترداد الصليبيين أقاليم كثيرة (٦). أما الفريق الذى عارض اتفاقية الصالح إسماعيل وملك ونافار فكان على رأسه الاسبتاريه ، وترجع اسباب معارضتهم إلى أن هذه الاتفاقيه كانت من عمل الداوية إلى حد بعيد ومن ورائهم الرأى العام الصليبى فى بلاد الشام الذى كانت دمشق تعتبر حليفه التقليدي، فى حين كانت مصر عدوه التقليدى ايضا (٧). هذا إلى جانب أن الاسبتارية شعروا بأنهم اهملوا فى هذا الاتفاق خاصة وأن قلعة صفد وهى قلعة كبيرة قد آلت إلى الداوية، وأماهم فقد خرجوا من هذا الاتفاق سفر اليدين ، وفُضل الداوية عليهم مما أثار غيرتهم ودفعهم لمعارضة هذا الاتفاق (٨) .

---

(١) اسامة زكى زيد ، صيدا ودورها فى الصراع الصليبى الاسلامى ، ص٢٢٨.
(٢) ابن واصل، مفرج الكروب ، جـ٥ ، ص ٣٠١ .
(٣) ابن واصل ، مفرج ، جـ٥ ، ص٣٠١ .
(٤) ابن واصل، مفرج ، جـ٥ ، ص٣٠٢ .
(٥) اسامة زكى زيد ، صيدا ، ص ٢١٧ .
(٦) Grousset, Hist. des Croisades ., T.3, P. 390 .
(٧) سميث، الاسبتارية ، ص ١٧٨ .
(٨) سميث، الاسبتارية ، ص١٧٨ Grousset, Hist. des Croisades , T.3, P. 390., Setton, Hist. of the Crusades, Vol . 2. P 479.,

وعارض هذا الاتفاق إلى جانب الاسبتارية مجموعة من الصليبيين ممن ادركوا أن هذا الاتفاق يعنى الحكم على اسراهم فى غزة بأسر لايعرف مداه ، وفى مقدمة هؤلاء الاسرى مقدم الاسبتارية نفسه وهو فيلبريد Villebride وكونت مونتفورت واتباعه وغيرهم . (١)

ونظراً لقبول الغالبية العظمى من الصليبيين الاتفاق مع دمشق فقد شرع الصليبيون فى تنفيذ بنوده بعد أن استردوا الاقاليم المتفق عليها ، فاتجه تيبو ملك نافار وجميع الصليبيين إلى عسقلان ، وبدأوا فى تحصين القلعة والابراج وإقامة الخنادق حولها باعتبارها من المواقع الرئيسيه التى تتصدى لاى جيش قادم من مصر (٢) أما الملك الصالح فقد عسكر بالقرب من يافا بالاتفاق مع الصليبيين (٣)

وقد أثار هذا التحالف بين الصالح إسماعيل وهو ملك مسلم من بلاد الشام وبين الصليبيين ضد سلطان مسلم وهو سلطان مصر الصالح ايوب - أثار دهشة جروسيه Grousset (٤) ولكن مثل هذا النوع من التحالف ليس مدعاه لدهشة جروسيه ، إذ لم يكن التحالف الفريد أو الوحيد من نوعه فقد سبقه تحالفات مماثله أقربها مشروع تحالف الكامل محمد سلطان مصر مع الامبراطور فردريك الثانى امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة - ضد اخيه المعظم عيسى .

الحقيقة أن الذى يدعو للدهشة هو أنه لم يكد يمضى وقت طويل على إتفاق ملك نافار والصليبيين مع الصالح إسماعيل صاحب دمشق ، حتى عقد ملك نافار هدنه مع الصالح نجم الدين ايوب سلطان مصر وكانت تتضمن كما يذكر صاحب تتمة الصورى :" أن يعمل ملك الجبل (يقصد هنا سلطان مصر) واتباعه على إرجاع الصليبيين الذين تم أسرهم فى غزة واطلاق سراحهم »(٥) ويؤكد ذلك مايذكره المقريزى

---

(١) أنظر Colonel king , the knights Hospitallers in the holy land, London 1931 , P, 223, Setton Hist. of the crusades vol .2 . P 480 .

(٢) تتمة وليم الصورى ، ص ١٠٦ Les Gestes des Chiprois . pp. 121-122.,

(٣) L'Estoire d'Eracles , P 419., les Gestes des Chiprois . P.122,

(٤) Grousset, Hist. des croisades, T.3 , P. 389.

(٥) تتمة وليم الصورى ، ص ١٠٨ .

فى حوادث عام ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م " فيها تم الصلح مع الفرنج ،واطلق الملك الصالح الاسرى بمصر من الكنود والفرسان والرجالة ". (١) أما متى الباريسى Matthiew Paris فقد اورد فى تقرير ايرل ريتشارد Eral Richard المؤرخ فى عام ١٢٤١م - عن الاوضاع فى الشرق أن ملك نافار والكونت بريتانى عقدا معاهده مع الملك الناصر داود سيد الكرك واتفقا فيها على أطلاق سراح اسري معركة غزة مع بعض الاراضى ، وذلك مقابل التزام الصليبيين الحياد ، وكضمان لتنفيذ شروط المعاهدة ، قدم الناصر ابنه واخواته كرهائن للصليبيين كما نصت المعاهدة على أن يتم التنفيذ خلال اربعين يوماً (٢) .

ويتضح من هذه الرواية أن متى الباريسى أو ريتشاردفى تقريره قد أخطأ لانه من الثابت كما ذكرت المصادر الصليبية والعربية أن الاتفاق تم بين تيبو ملك نافار وبين الصالح نجم الدين ايوب سلطان مصر وليس بينه وبين الناصر داود ، كما أن الاتفاق بين تيبو والصالح ايوب نص حقيقه على إطلاق سراح اسرى معركة غزة ولكن دون أن يقدم الصالح ايوب اية رهائن إذ ليس هناك مايجبره على أن يقدم رهائن .

وقد سعى الاسبتارية وعلى رأسهم وليم سنليس william Senlis إلى وضع الترتيبات الخاصه بهذا التحالف الجديد مع السلطان الصالح ايوب وذلك رغبة منهم في إطلاق سراح اسراهم الذين وقعوا فى قبضة المسلمين فى معركة غزة ، ومن بينهم مقدم هيئتهم فيلبر يد Villebride (٣) هذا فضلاً عن الاعتبارات الاخرى التى دفعت الاسبتارية لمعارضه الاتفاق مع الملك الصالح اسماعيل صاحب دمشق (٤) وتمكن الاسبتارية - وبدون أية صعوبة - من إقناع تيبو ملك نافار بالتقرب من سلطان مصر

(١) المقريزى، السلوك ، جـ١،ق٢،ص٣٠٥ .

(٢) Matthiew Paris,P. 364 .

(٣) Grousset, Hist. des croisades T.3 , P. 390.

نبيلة ابراهيم مقامي، فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، القاهرة ١٩٩٤، ص ١١٤ .

(٤) انظر ما سبق ص .

عندما توجه بجيشه للحاق بقوات الصالح إسماعيل بين يافا وعسقلان (١) ولجح الاسبتارية فى مهمتهم ورفض تيبو وقادة الحملة الاخرين اقتراحات بلاط دمشق وفضلوا عقد الصلح مع مصر ، واقسم ملك نافار وكونت بريتاتى وكثير من الحجاج الاخرين أنهم لم يتعهدوا بشىء لسلطان دمشق . (٢)

وأوقع الاتفاق مع الصالح ايوب سلطان مصر الشقاق بين الصليبيين من جديد ، فلم يرغب الداوية والكونت نفير Nevers وعدد من الحجاج فى نقض المعاهدة . مع حاكم دمشق ، واقسموا علي المحافظة على الإتفاق الذى عقد مع دمشق والتصدى لأية محاولة من جانب مصر لغزو بلاد الشام ؛ كما أنهم اعتبروا الأتفاق مع سلطان مصر ضرباً من الخيانة لملك دمشق ، الذى لم يرد قلعتى الشقيف وصفد الا من أجل مشاركة عسكرية فعالة ضد سلطان مصر . (٣)

وارتاع الرأى العام والأمراء المحليين في الشرق الصليبى أيضاً لما حدث من التخلى المشين عن الأتفاق مع دمشق ، التى ظلت حتى عصر صلاح الدين الحليف التقليدى للمسيحيين فى الشرق ، واستنكروا التحالف مع سلطان مصر . (٤)

وليس من الصعب ان نفهم وضع الداوية والأمراء المحليين ، فقد تسلم الداوية صفد ، وحصل امير صيدا على ملكية الشقيف ، وربما أنهم شعروا انه من الأفضل ان يوافقوا على الاتفاق الذى اعطاهم هذه الأمتيازات ، كما أن سلطان دمشق كان أقرب لهم من سلطان مصر واكثر تهديداً للفرق العسكرية الدينية ولأمراء بيت المقدس من سلطان مصر. فإذا خاضوا حرباً ضده ستكون فرصة ينتهزها خاصة وان الصراع بين الأمراء المحليين ونواب الامبراطور فردريك الثانى فى الشرق - كان على اشده . (٥)

---

(١) رنسيمان ، الحروب الصليبية جـ٣، ص ٣٧٩ ، Setton ,Hist. of the Crusades vol. 2 , P. 480

(٢) Les Gestes des Chiprois, P.122.

(٣) L'Estoire d' Eracles, PP. 219 - 20 ., Les Gestes des Chiprois , P. 122, Grousset, Hist. des Croisades, T.3., P. 390,

رنسيمان ، الحروب الصليبية ، جـ٣ ، ص ٣٨٠

(٤) رنسيمان ، الحروب ، جـ٣ ، ص ٣٧٩ .Grousset, Hist. des Croisades, T.3., P. 391

(٥) Setton ,Hist. of the Crusades, vol. 2 , P. 481.

وإذاكان تاريخ هرقل وتاريخ نافار قد اجمعا على ان الاتفاق مع الصالح ايوب سلطان مصر قد اوقع الشقاق بين الصليبيين الا ان صاحب تتمة وليم الصورى لم يذكر ان ثمة اختلاف حدث بين الداوية والاسبتارية حول هذا الأتفاق بل يذكر " أنه عندما سمع الصليبيون بهذا الأتفاق اعلن الكثير منهم استياءه ، وعارضوا عقد هذه الهدنه فى ذلك الوقت بالذات ، إذ يتعين عليهم اولا ان يقوموا بحرب عنيفة ينتقمون فيها للصليبيين الذين اسروا في غزة أوماتوا بها ، وأيد فرسان الداوية والاسبتارية ومسيحى الأرض المقدسة هذا الإتجاه ، وأعلنوا انهم لايرغبون في إستمرار الهدنة مع سلطان بابليون " . (١)

اما عن تيبو فقد كان على يقين من أن اتباعه غير موافقين على الأتفاق مع سلطان مصر ، وانهم لن يطيعوا اوامره كما وعدوه عند بداية حضوره الى الاراضى المقدسة ، كما ساوره الشك فى أن هذا الأمر سوف يجلب عليه عارا كبيراً خاصة وأنه حدث في المعسكر الصليبى علي أثره هرج ومرج وصخب ضده كما يروى صاحب تتمة وليم الصورى (٢) ، لذلك كله قرر تيبو ملك نافار الرحيل والعودة إلى فرنسا (نهاية سبتمبر ١٢٤٠م) وبصحبته عدد من الامراء والأتباع ، بعد أن ترك بعض اتباعه تحت قيادة نائب عنه ، وقبل ان ينفذ السلطان الصالح ايوب بنود الأتفاق معه . (٣)

ويعلق جروسيه Grousset على تصرف تيبو ملك نافار وإتخاذه قرار الرحيل بقوله: " لم يتصرف الشاعر التائه فى السياسة بشكل عاقل ، فقد فقد شعبيته لدرجة أنه أصبح على يقين من أن اتباعه لن يطيعوا اوامره ، فخاف علي نفسه ، وفقد رشده واسرع بالرحيل وترك المعسكر الصليبى " (٤) وعندما علم الصليبيون برحيل قائدهم أخذ كل منهم يفكر ما وسعه الجهد فى بلده وارضه ، ويزمع العودة إلى فرنسا ، أما دوق

---

(١) تتمة وليم الصورى ، ص ١٠٨ .

(٢) تتمة وليم الصورى ، ص ١٠٨ .

(٣) تتمة وليم الصورى ، ص ١٠٨- ١٠٩ . وانظر ايضا
Setton, Hist. of the Crusades, Vol. 2, P. 481.

(٤) Grousset, Hist. des Croisades, T.3., PP. 391- 92.

بورجوانى فقد أعلن انه لن يرحل حتى يكتمل بناء التحصينات فى عسقلان بالقدر الذى يحقق للصليبيين الامان فيها ، وأوفي بعهده ووعده وأقام هناك سنة كاملة . (١)

اما عن الصالح نجم الدين ايوب فإن اتفاقه مع تيبو ملك نافار والصليبيين يعد انتصارا دبلوماسيا له ، فقد استطاع بتضحية بسيطة من جانبه ان يحطم تحالفا لم يتوصل اليه الملك الصالح إسماعيل مع الصليبيين الا بعد ان أذل نفسه ، تحالفا كان يستهدفه فى المقام الأول ، كما استطاع الصالح أيوب بهذا الأتفاق ان يضرب عصفورين بحجر واحد فقد نجح فى ان يفرق بين الصليبيين وعدوه الصالح اسماعيل صاحب دمشق من جهة ، وأن يبذر بذور الشقاق والإنقسام بين الصليبيين أنفسهم من جهة أخرى ، إذ ظل فريق منهم محافظا على إتفاقه مع الصالح إسماعيل فى حين ايد الفريق الآخر الصلح مع سلطان مصر (٢) . يضاف إلي ذلك ان الصالح ايوب جنب نفسه الدخول في معارك مع الصليبيين كان في غني عنها في وقت اراد فيه ان يبسط سلطانه علي البلاد ويقر احوالها الداخلية ، كما كانت لديه مشكلات عديدة تفوق الوضع في ساحل الشام . (٣) .

وحافظ السلطان الصالح نجم الدين ايوب على اتفاقه مع تيبو ملك نافار رغم رحيله إلى الغرب ، فقام بإطلاق سراح جميع الأسرى بعد أن مضت الاربعون يوما ، ومنهم مقدم الاسبتارية فيلبريد وعمورى مونتفورت ، وكونت مونتفرات ، وفيليب دى نانتيويل ، وعدد من الفرسان الأخرين الذين اسروا بعد هزيمة الصليبيين فى معركة غزة ، بل وأرسل معهم الصالح ايوب رسولا من قبله كما تشهد بذلك المصادر الصليبية المعاصرة لحملة نافار (٤)

---

(١) تتمة وليم الصورى ، ص ١٠٩ ، رنسيمان ، الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٣٨٠ .

(٢) رنسيمان ، الحروب الصليبية ، جـ٣ ، ص ٣٧٩ ،

Grousset, Hist. des Croisades, T.3., P. 391 ,

(٣) Setton, Hist . of The Crusades, Vol . 2 , P. 480.

(٤) تتمة وليم الصورى ، ص ١٠٩ ، Les Gestes des Chiprois , PP. 123- 124.

(٤) L'Estorire d'Eracles,P.416., Les Gestes de chiprois,P120., Grousset ,Hist. des croisades , T.3, P. 385.

وفى ختام هذه الورقة يمكن القول ان صليبية نافار كانت في حقيقة الامر حملة غريبة ، اعد لها فى البداية البابا والامبراطور بحماس شديد ، ثم مالبث حماسهما ان فتر بسبب الخلاف بينهما ، ووصلت الحملة إلى الشرق وعلي رأسها قيادة ضعيفة ، لتجد امراء بيت المقدس فى حرب مدنية طاحنة مع نواب الامبراطور فردريك الثانى ، لذلك ظهر التخبط فى إتخاذ القرارات منذ البداية ، إذا لم يكن في بيت المقدس حكومة توحد القوى وتجمع الكلمة ، وتقود الصليبيين تحت راية واحدة ، لذلك افتقرت الحملة إلى التنظيم المشترك ، وقضي الصليبيون معظم الوقت بين عكا ويافا وعسقلان ، واقتصرت نشاطاتهم العسكرية على أغارتين احداهما على القافلة الاسلامية المتجه إلى دمشق وقد حققت انتصارا ضعيفا ، والاخرى كانت عند غزة وانتهت بهزيمة منكرة للصليبيين واسر سادتهم ، وكلتا الاغارتين استهدفتا تحقيق مصالح شخصية دون اعتبار للصالح العام للصليبيين فى الشرق .

وافتقرت صليبية نافار ايضاإلى المرونة السياسية التى امتازت بها حملتى ريتشارد قلب الأسد وفردريك الثانى ، فلم يحاول الصليبيون استغلال الصراعات والخلافات بين حكام البيت الايوبى عقب وفاة السلطان الكامل ١٢٣٨ م ، بأن يعرضوا خدماتهم علي كل فريق على حدا ثم يضربونهم جميعاً ، ولكنهم لم يحسنوا استغلال هذه الفرصة ؛ فضلا عن انهم اخلوا باتفاقية يافا ١٢٢٩ م مما ترتب عليه ضياع مدينة بيت المقدس من ايديهم ، وعودتها إلى المسلمين ثانية بفضل جهود الناصر داود صاحب الكرك .

وانتهت صليبية نافار بزيادة حدة الخلافات بين الصليبيين بعضهم وبعض فأيد فريق منهم الاتفاق مع الصالح اسماعيل ، في حين أيد الفريق الآخر الاتفاق مع الصالح ايوب . وتجدر الإشارة إلى أن الصليبيين جنوا بعض الثمار من وراء هذه الحملة فقد أستردوا بعض القلاع ومنها قلعتى صفد والشقيف ، وكان هذا كفيلا بأن يحقق لهم السيادة على أقليم الجليل ، كما أنهم أعادوا تحصين عسقلان ، وهذا يجعل منهم سادة لفلسطين ، وهذه نتائج لايمكن اغفالها بأى حال من الأحوال ؛ والحقيقة ان هذه الحملة كان يمكنها ان تحقق نتائج ابعد من ذلك بكثير لو تمتعت بقيادة قوية ، ولو كان لها خطة سياسية واضحة تسير على هديها .

قائمة المصادر والمراجع

اولاً: المصادر الاجنبية :

1- L'Estoire d'Eracles Empereur, dans Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Occidentaux T. Second, Paris 1859 .

2 -Les Gestes des Chiprois, dans Recueil des Chroniques Francaises. E'crites en Orient Aux XIII et XIV Siecle (Philippe Novarre and Gerard de Monreal) Publie' Pour la premiere fois par La Societe' de L'Orient Latin, Geneve 1887 .

3- Matthiew Paris. Historia, Printed by William Clowes and Sons, English trans . London N. D.

4 -Philippe de Novarre , Memoires (ed) Charles Kohler Paris 1913 .

ثانياً: المصادر العربية والمعربة : -

١. ابن شداد (عز الدين أبى عبد الله محمد بن على بن ابراهيم الحلبى ت٦٨٤هـ / ١٢٨٥ م) الاعلاق الخطيرة فى ذكر امراء الشام والجزيرة - تحقيق سامى الدهان ، الجزء الثانى ، دمشق ١٩٦٢ م .

٢. ابن العديم (كمال الدين ابى القاسم عمر بن أحمد ت ٥٨٨ - ٦٦٠ هـ / ١١٩٢ - ١٢٢٣ م) زبدة الحلب من تاريخ حلب ، الجزء الثالث تحقيق سامى الدهان ، دمشق ١٩٦٨ م

٣ـ ابن العميد (المكين جرجس بن العميد)
اخبار الأيوبيين ، القاهرة ١٩٩٠ م
٤ـ ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م)
مفرج الكروب فى اخبار بنى ايوب ، الجزء الخامس ،تحقيق حسنين محمد ربيع ، القاهرة ١٩٧٧م).
٥ـ ابو شامة (شهاب الدين أبى محمد عبد الرحمن ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م)
الروضتين فى أخبار الدولتين
الجزء الثانى : تراجم رجال القرنين السادس والسابع بيروت ١٩٧٤ م .
٦ـ ابو الفدا (عماد الدين اسماعيل ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م)
المختصر في أخبار البشر (تاريخ ابى الفدا)
الجزء الثالث ، القاهرة بدون تاريخ
٧ـ تتمة كتاب وليم الصورى لمؤلف مجهول والمنسوب خطأ الى روثلان (١٢٢٩ - ١٢٦١ م)
ترجمة وتحليل وتعليق اسامة زكى زيد، الأسكندرية ١٩٨٩ م .
٨ـ الحنبلى (احمد بن ابراهيم ت ٨٧٦ هـ / ١٤٧١ م)
شفاء القلوب فى مناقب بنى ايوب ، تحقيق ناظم رشيد ، العراق ١٩٧٨م
٩ـ الحنبلى (مجير الدين قاضى القضاة ابو اليمن (٨٦٠ - ٩٢٨ هـ)
الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل جزءان ، قدمه محمد بحر العلوم ، النجف ١٩٦٨ .
١٠ـ جوانفيل : القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام ، ترجمة حسن حبشي ، القاهرة ١٩٦٨م .
١١ سبط ابن الجوزى (شمس الدين إبى المظفر يوسف قزاوغلى التركى تـ ٦٥٤هـ / ١٢٥٦ م) ، مرآة الزمان فى تاريخ الاعيان حـ ٨ ،قسم ٢،
وقائع ٥٩٠ - ٦٥٤هـ ، حيدر اباد الدكن الهند ١٩٥٢م

١٢- السبكى (تاج الدين إبى نصر عبد الوهاب ت ٧٧١ هـ / ١٣٦٩م)

طبقات الشافعيه ، الجزء الخامس ، الطبعه الاولى بدون تاريخ

١٣- السيوطى (أبو عبد الله محمد بن شهاب الدين ٨١٣ - ٨٨٠هـ)

اتحاف الاخصا بفضائل المسجد الاقصى، القسم الاول

تحقيق أحمد رمضان أحمد، القاهرة ١٩٨٢م

١٤- المقريزى (أحمد بن على المقريزي ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١م)

السلوك لمعرفه دول الملوك ، الجزء الاول - القسم الثانى

صححة ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة القاهرة ١٩٥٧م.

١٥- القلقشندي (ابو العباس أحمد بن على ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م)

صبح الاعشي فى صناعة الانشا ، الجزء الرابع، نسخه مصوره عن مطبعه دار الكتب ،القاهرة، بدون تاريخ .

١٦- النويرى (شهاب الدين أحمد عبد الوهاب ت ٧٣٣هـ / ١٣٣٢م)

نهاية الأرب فى فنون الأدب ،جـ ٢٩، تحقيق، محمد ضياء الدين الريس القاهرة ١٩٩٢م .

ثالثا : المراجع الاجنبية :-

1- Colonel, King, The Knights Hospitallers in the Holy Land, London 1931 .

2- Grousset, R , Histoire des Croisades, T.3, Paris 1946.

3- Michaud, Histoire des Croisades, Vol . 3, Paris 1817 .

4- Richard , J , the Latin Kingdom of Jerusalem, Trans.By Janet Shirley. New - York Oxford 1979 .

5- Setton, History of the Crusades ,Vol . 2 The Later Crusades 1189 - 1311, ed by Robert Lee Wolff and Harry Hazard ,London 1969 .

رابعاً المراجع العربية والمعربة :-

١. اسامة زكى زيد، صيدا ودورها فى الصراع الصليبى الاسلامى الاسكندرية ١٩٨١م

٢.ارنست باركر ، الحروب الصليبية ، نقله إلى العربية السيد الباز العريني القاهرة ١٩٦٠م.

٣. جوزيف نسيم يوسف ، العدوان الصليبى على مصر ، الاسكندرية ١٩٦٩م .

٤. جوناثان رايلى سميث ، الاسبتارية فرسان القديس يوحنا فى بيت المقدس وقبرص ١٠٥٠-١٣١٠م ، ترجمة صبحى الجابى ،دمشق ١٩٨٩ م

٥. حامد زيان غانم، الصراع السياسى والعسكرى بين القوى الاسلامية زمن الحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٨٣م .

٦. حسن عبد الوهاب حسنين، تاريخ جماعه الفرسان التيوتون فى الاراضى المقدسه ١١٩٠ - ١٢٩١م / ٥٨٦ - ٦٩٠ هـ . الاسكندرية ١٩٨٩م.

٧. رنسيمان (ستيفن) ، تاريخ الحروب الصليبيه . الجزء الثالث، ترجمة السيد الباز العريني ، بيروت ١٩٦٩ م.

٨. سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، حـ٢ القاهرة ١٩٨٦م

الايوبيون والمماليك فى مصر والشام ، القاهرة ١٩٩٠م .

اوربا العصور الوسطى الجزء الاول ، القاهرة ١٩٩١م .

٩. سعيد عبد الله جبريل البيشاوى ، الممتلكات الكنسية فى مملكة بيت المقدس الصليبيه (١٠٩٩ - ١٢٩١م / ٤٩٢ - ٦٩٠هـ)، الاسكندرية ١٩٩٠ م

١٠. السيد الباز العرينى ، مصر فى عصر الايوبيين ، القاهرة ١٩٦٠ م.

١١. عادل عبد الحافظ عثمان حمزة ، العلاقات السياسية بين الامبراطورية الرومانية المقدسة والشرق الاسلامى . (١١٥٢ - ١٢٥٠م / ٥٤٧ - ٦٤٨هـ) القاهرة ١٩٨٩م .

١٢. على محمد على عودة الغامدى ، بلاد الشام قبيل الغزو المغولى (٥٨٩ - ٦٥٧هـ /١١٩٣ - ١٢٥٩م) مكة المكرمة ١٩٨٨ م.

١٣. فايد حماد عاشور ، الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين فى العصر الايوبى ، القاهرة ١٩٨٣م.

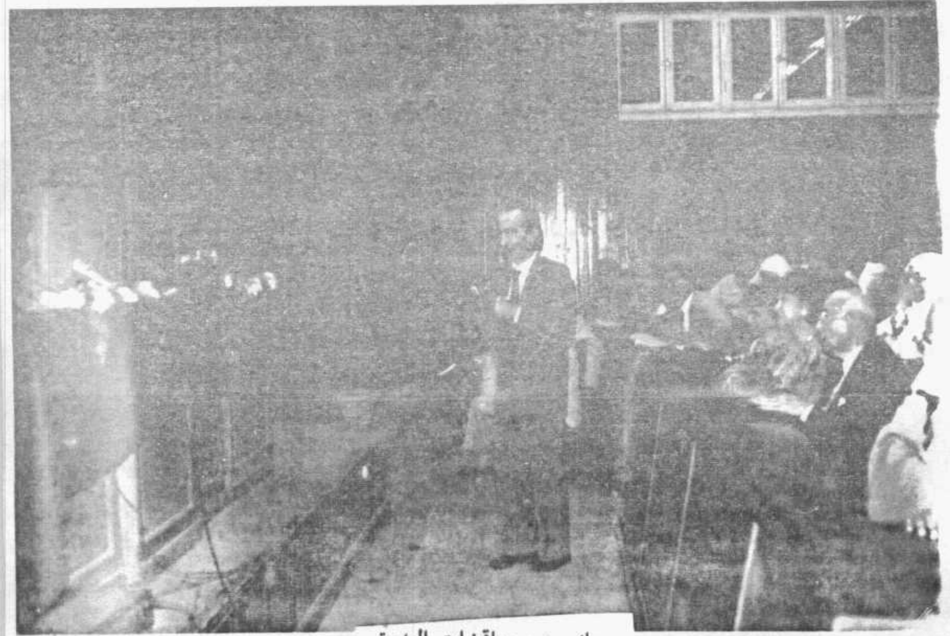
١٤. ميخائيل زابوروف ، الصليبيون فى الشرق ، ترجمة الياس شاهين، الاتحاد السوفيتى ١٩٨٦ م .

١٥. نبيلة ابراهيم مقامى ، فرق الرهبان الفرسان فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر و الثالث عشر ، القاهرة ١٩٩٤م

١٦. وفاء محمد على ، دراسات فى تاريخ الدولة الايوبية ، القاهرة ،١٩٧٧م .



جانب من جلسات الندرة



جانب من مناقشات الندوة

موقف عرب فلسطين

من الهجرة والاستيطان اليهودي ١٨٨٠ - ١٩١٤ م

د / اسماعيل أحمد ياغي

كلية الآداب للبنات

الرياض - المملكة العربية السعودية

لايعرف التاريخ الحديث حالات جرى فيها استبدال كامل بالفعل للسكان الأصليين في بلد مابأجناس من الدخلاء ، ومن ثم انجاز عملية الاستبدال هذه فى غضون مدة قصيرة لاتتجاوز جيلين من الناس غير أن هذا الواقع هو ماجرت محاولته فى فلسطين منذ بداية القرن العشرين .ان هذا الإستبدال الجذرى والمستمر حتى الأن للسكان ، رغم معارضة ومقاومة أهالى البلاد الأصليين ،أوجد ظلامة لامثيل لها ، إذا أن الحلول المقترحةلاتحقق للشعب الفلسطينى حق تقرير المصير وعودة الحق المغتصب إلى أهله الشرعيين (١) .

يهدف هذا البحث إلى عرض الحقائق حول عروبة فلسطين ، وأهمية فلسطين الدينيةوالتاريخية ،وكذلك بداية الهجرةاليهودية والإستيطان اليهودى والموقف الفلسطينى منها خلال هذه الحقبة التاريخية .

---

(١) ابراهيم أبو الفدا ، تهويد فلسطين ، بيروت ١٩٧٢ م ، ص ١٥٥ - ١٥٦ .

أهمية فلسطين :

فلسطين قلب العالم الإسلامي ، ففيها مدينةالقدس وهي أحد مراكز الأسلام الثلاثة الرئيسية ، إذ تأتي في الأهمية الدينية بعد كل من مكة المكرمةوالمدينة المنورة ، ففيها المسجد الأقصى قبلة الإسلام الأولى ومسرى النبي الكريم (ﷺ) ، وقد كرم اللـه سبحانه وتعالى القدس وما حولها بقوله "سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هوالسميع البصير"(١) وإلى جانب القدس توجد فى فلسطين الكثير من المدن التى تضم العديد من الآثار والمقدسات الأسلامية كمدينة الخليل التى اتخذها أبو الأنبياء ابراهيم عليه الصلاة والسلام محلاً لإقامته ، إلى أن اختاره الله إلى جواره ، فدفن فيها هو وزوجته ساره وأبناؤه من بعده ، وعلى هذا المكان أقام مسجداً سمى بالحرم الإبراهيمى (٢) كما توجد مدينة غزة وبها قبرهاشم جد الرسول محمد (ﷺ)

وليس هذا فحسب ، فإن فلسطين أرض الأنبياء والصحابة والعلماء ، فهذه الأرض المقدسة التى سار على تربتها الأنبياء والرسل ابراهيم واسحق ويعقوب ويوسف وكذلك موسى عليهم السلام وفيها دفنوا ، وعيسى عليه السلام حيث رفعه الله ومحمد (ﷺ)حيث عرج إلى السماء هذه الأرض التى شهد فيها الصحابة فتوحات الأسلام . فكان منهم الخليفة عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد وسعيد بن زيد ، وأبو ذر الغفارى ، وسلمان الفارسى وسعد بن أبى وقاص ، ومعاوية بن أبى سفيان وغيرهم (٣) .

كما ظهر فى فلسطين علماء وفقهاء أمثال الامام الشافعى ، والعسقلانى والأوزاعى وغيرهم ،كما دفن عدد كبير من شهداء الصحابة فى أرض فلسطين أمثال أبو عبيدة عامر بن الجراح ، ومعاذ بن جبل والفضل بن عباس وغيرهم وقدر عدد شهداء المسلمين بخمسة وعشرين ألف شهيد فى معارك اليرموك وأجنادين بالأضافة إلى شهداء الحروب الصليبية وغيرها حتى يومنا هذا . (٤)

---

(١) سورة الإسراء ، الآية(١) .
(٢) اسماعيل ياغى ،الجذور التاريخية لقضية فلسطين ، الرياض ١٩٨١ م ، ص ٣ .
(٣) رفيق شاكر النتشة ، الإسلام وفلسطين ، الرياض ١٩٨٠ م ، ص ١٠ - ١١ .
(٤) مصطفى الدباغ ، بلادنا فلسطين ، قسم ثانى ، جـ ٩ ، ص ١٥٠ - ٢٠٠.

وفى ظل الإسلام أنتعشت الحضارة فى فلسطين . فأنتجت كثيراً من العلماء والمفكرين والقادةوالشعراء فإلى فلسطين ينتسب القائد موسى بن نصير ، والعالم الكيميائى خالد بن يزيد الأيوبى وعبد الحميد الكاتب وزير الخليفةالأموى مروان بن محمد وغيرهم . وقدتميز كثير من العلماء بتسميتهم نسبةإلى البلدان التى نشأوا فيها كصفد وعسقلان والقدس فمنهم الصفدى والعسقلانى والمقدسى . (١)

وإلى جانب الأهمية الدينيةلفلسطين ، فإنها ذات موقع إستراتيجى هام فعلى أرضها جرت المعارك الإسلاميةالحاسمةكموقعة حطين ، حيث التقت القارات الثلاث على أرض فلسطين ، وكذلك معركة عين جالوت وغيرها من المعارك الحاسمة في التاريخ الإسلامى (٢) .

إن موقع فلسطين الآنف الذكر ،جعل منها جسراً يربط بين قارات العالم القديم وممراً عالمياً، ومرتكزاً لعدد كبير من الحضارات ، وهو الطريق الوحيد الذى يربط وادى النيل بوادى دجلة والفرات وبلاد الشام . ولذلك كانت على مر العصور مكاناً ومسرحاً للأقتتال ، وممراً للجيوش والغزوات التى احتلت مصر أمثال الهكسوس والأشورين والبابليين والفرس واليونان والرومان وغيرهم ولم يأتى الفتح الأسلامى لمصر إلاعن طريق فلسطين أيضاً ، كما قام المصريون القدماء بأحتلالها لفترات طويلة تأميناً لحدودهم الشرقية خوفاً من الغزو الآسيوى المتكرر . (٣)

عروبة فلسطين فى التاريخ :

يدعى اليهود زوراً وبهتاناً بأنهم أسبق فى الوجود من العرب ، ولكن الحقائق التاريخية وأقوال توراتهم تدحض إدعاءتهم . فقد أجمع معظم المؤرخين الثقاة بأن سكان فلسطين القدماء ينحدرون من القبائل الكنعانية التى استوطنت فلسطين منذ فجر التاريخ (٤ - ٣)

(١) أحمد سامح الخالدى ، أهل العلم بين مصر وفلسطين ،القدس ١٩٤٦ م .
(٢) الحكم دروزه ، ملف القضية الفلسطينية والصراع العربى الإسرائيلى ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ٥ .
(٣) محمد أديب العامرى ،عروبة فلسطين فى التاريخ ، بيروت ١٩٧٢ ، ص ١٨ - ١٩ .

آلاف سنة ق . م . وكانت تسمى أرض كنعان . وسميت بأسمها الحالى منذ القرن الثانى الميلادى نسبة إلى قبيلة فيلستيا التى غزت فلسطين من جزيرة كريت واستوطنت الساحل واسست لها مدنا محصنة (غزة،عسقلان ، اسدود ، عاقر) وقد أندمجت هذه القبيلة مع الكنعانين وتأثرت بعاداتهم وتقاليدهم السامية وان صلة هؤلاء العرب بفلسطين لم تنقطع بعد ذلك ، وإن إشارة القرآن الكريم إلى رحلة الشتاء والصيف فى عصر ما قبل الإسلام ، تعتبر دليلاً قوياً على إستمرار الصلة بين الشام ومنها فلسطين وبين الجزيرة العربية .

وظل العرب يشكلون الكثرة العددية الغالبية فى البلاد وتعضد وجودهم بمن جاء إليها من عرب الجزيرة مع الفتح العربى الإسلامى الذى صبغ البلاد بطابعها العربى لغة وثقافة وتاريخاً ومصيراً . [١] وكان للكنعانيين حضارة مميزة خاصة بهم ، وكذلك اليبوسيون وهم فرع من الكنعانين ، وكان أحد ملوكهم ملكى صادق هو من المعتقدين بالتوحيد وهو صديق خليل الله ابراهيم ، وقد إتخذ بقعة الحرم الشريف معبداً له ، وبذلك قبل أن يقوم سليمان ببناء هيكله بما يقرب من ألف عام [٢] .

أما العبرانيون فقد طرأوا على مسرح الأحداث فى فلسطين فى وقت متأخر جداً على وجود الكنعانين هناك ، ففى الوقت الذى يرى فيه العبرانيون أن علاقتهم بفلسطين ترجع إلى إبراهيم [٣] ، نجده عليه السلام يؤكد بأنه كان غريباً عن أرض كنعان ، لايملك فيها شبراً واحداً ، وحينما توفيت زوجته فى قرية" أربع " الكنعانية ، نجده يخاطب أهل القرية قائلاً : إنى غريب ونزيل عندكم ، أعطونى ملك قبر معكم لأدفن ميتى من أمامى " [٤]

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢١ ، ص ٧٤ .

(٢) مجير الدين الحنبلى ، الأنس الجليل فى تاريخ القدس والخليل ، ط ١ ، القاهرة ، ص ٥ .

(٣) هاجر إبراهيم وعشيرته من أور جنوب العراق إلى فلسطين (بلاد كنعان) سنة ١٨٥٠ ق . م ، حيث إستقر فى مدينة الخليل حالياً والتى بها الحرم الإبراهيمى المشهور ، وهاجر إلى مصر أثناء حدوث مجاعة فى فلسطين، كما هاجر أحفاده إلى مصر حيث إستقروا فيها فترة إلى أن اضطدهم فرعون مصر ، فأرسل الله نبيه موسى لإنقاذهم وخرج بهم من مصر فى طريقهم إلى بلاد كنعان ، فعارض بنو اسرائيل موسى وضرب الله عليهم الذلة والمسكنة والتيه فى صحراء سيناء إلى أن بعث الله لهم يوشع بن نون فدخلوا أريحا فى فلسطين .

(٤) العهد القديم ، سفر التكوين ، الأصحاح ٢٣ / ٤ .

وقد حدث تحالف بين الكنعانيين وفراعنة مصر لصد الغزوات العبرية (١٦٠٠ ، ١٢٠٠ ، ١٠٠٠ ق . م) . وقد خضعت بلاد كنعان للحكم المصرى لفترة تزيد على مائتى عام .وقد تمكن العبرانيون من تحقيق نصرعلى الكنعانيين بسبب إنشغال المصريين وضعف الكنعانيين نتيجة نشؤ خلافات بينهم ، ولكن الهزيمة التى لحقت بالكنعانيين قد قضت عليهم سياسياً إلا أنها لم تقض عليهم اجتماعياً ، فقد تفرقت قبائلهم فى البلاد . ومن هنا يتبين أن فلسطين لم تكن خالية من السكان عندما قدم إليها بنو اسرائيل من مصر بقيادة سيدنا موسى ، ورفضوا التوجه معه إلى أرض كنعان بحجة أن فيها أقواما جبابرة عمالقة ، وذلك كما ورد فى القرآن الكريم حيث يقول سبحانه وتعالى : (قالوا ياموسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون) . (١) وهذا كاف لدحض ادعاءاتهم ومفترياتهم .

ومهما يكن من أمر ، فقد نجح العبرانيون بغزو فلسطين بقيادة يوشع بن نون سنة ١٢٠٠ ق .م ،فدمر أريحا وقتل سكانها ، وقد قاوم سكان فلسطين تلك الغزوة البربرية، كما أن مدينة يبوس (القدس) استعصت على اليهود نحو مائتى عام وتم الإستيلاء عليها عام ٩٩٧ ق . م . ولم يتمكن العبرانيون الإستيلاء على الجزء الداخلى من فلسطين وأسس سليمان وداود مملكتدامت نحو سبعين عاماً ، ثم أنقسمت الدولة إلى دولتين اسرائيل في الشمال ويهودا فى الجنوب ، وأستمر الصراع بين الدولتين حتى قضت أشور على إسرائيل عام ٧٢٢ ق . م ، وكذلك قضى البابليون على يهودا عام ٥٨٠ ق . م وسبى نبوخذ نصر الملك البابلى اليهود من القدس إلى بابل (٢) ويقول المؤرخ بريستيد بهذا الصدد : " وحين دخل العبرانيون فلسطين ،وجدوا فيها الكنعانيين ، يقيمون فى مدن زاهرة ،تطوقها الأسوار الضخمة،فلم يستطيعوا أن يفتحوا منها إلا المدن الضعيفة ، حتى أورشليم (القدس) هزمت حملات مهاجميها العبرانين بضعة قرون " . (٣)

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٢٢ .

(٢) وليم فهمي ، الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ١٢ - ١٣ .

(٣) محمد أديب العامرى ، المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

وسمح قورش الفارسى بالعودة من السبى البابلى فى عام ٥٣٨ ق . م ، وعاد بعض اليهود تدريجياً ،ولكن الغالبية منهم فضلت البقاء فى بابل ، وتعرضت فلسطين بعد ذلك لغزوات اليونان والرومان ، فقضى الرومان على فتنة اليهود ، وهدموا هيكلهم ثم قتلوا الكثير من اليهود ، وأرسلوا أسرى إلى روما ، وهرب من تبقى من اليهود إلى مصر والعراق وغيرها من الأقطار الأوربية وعاشوا فى هذه المجتمعات أحقاباً طويلة لاتربطهم بفلسطين أية صلة من قريب أو من بعيد . (١)

وهكذا أنقطعت صلة اليهود بفلسطين مدة ١٨ ثمانية عشر قرناً متواصلة ، وتشتتوا فى بقاع الأرض ، ولم يسكن فلسطين أحد من اليهود ، وبقيت القدس متمتعة بسلام طويل منذ طرد اليهود منها عام ١٣٥ م . وخضعت فلسطين للدولة الرومانية " ثم أحتلتها الدولة الفارسية فى عام ٦١٤ ، ولكن لم يدم حكمها طويلاً ، ثم أنتصر الرومان بقيادة هرقل على الفرس سنة ٦٢٨م وأخيراً خضعت فلسطين للحكم الأسلامى بعد أن فتحها المسلمون عام ١٥هـ/ ٦٣٦ م ، واعتنق سكانها الأسلام . (٢)

أهتم المسلمون ببيت المقدس (القدس) ، وتدفق إليها المسلمون من شتى بقاع الأرض للعبادة والأقامة فيها . وأقام الخليفة عمر بن الخطاب جامعاً لتقام فيه الصلاة سمى بجامع عمر . وظلت القدس العربية اسلامية تعاقب عليها الحكام العرب المسلمون من الخلفاء الراشدين إلى الأمويين فالعباسيين فالطولونيين فالاخشديين فالفاطميين والأيوبيين والمماليك وأخيراً الأتراك العثمانيين المسلمين . وبقيت فلسطين بما فيها القدس عربية إسلامية منذ الفتح العمرى سنة ١٥ هـ / ٦٣٦ م حتى عام ٧٦٣١ هـ / ١٩٤٨م بإستثناء فترة الحروب الصليبية من ١٠٩٩ - ١١٨٧ م (٣) .

وعمت فلسطين عامة والفرس خاصة موجة من التحضر منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب والعهود الإسلامية المتعاقبة . وقدبدأت موجة التحضر بنشر الأسلام وتعميم العربية وإقامة

---

(١) هنرى كتن ، فلسطين فى ضوء الحق والعدل ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ٤ .
(٢) مصطفى الدباغ ، المرجع السابق ، ص ٧٧ .
(٣) رفيق النتشة، د . إسماعيل ياغى ، د. عبد الفتاح أبو علبة ، تاريخ القدس ، عمان ١٩٨٤ ، ص ٤٦ .

الدواوين وتنظيم البلاد تنظيماً إدارياً وترتيب البريد وإنشاء الحسبة والإهتمام بالتعليم وإنتشار المدارس فى القدس لتقوم بنشر التعليم الدينى واللغوى .[(١)]

وعامل المسلمون أبناء الديانات الأخرى فى بيت المقدس وغيرها أفضل معاملة عرفها التاريخ ، حتى أعتبر المؤرخ الإنجليزى ارنولد توينبى ظاهرة التسامح الدينى الإسلامى ظاهرة في تاريخ الديانات ، وكان المسلمون يعاملون أهل الذمة ، معاملة أهل البلاد الأصليين لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . كما عامل المسلمون زوار القدس من النصارى معاملة حسنة كمعاملة بقية أهل الكتاب .[(٢)]

وهكذا تبين لنا أن الفتح الإسلامى للقدس سبقه فتح عربى بنحو ٤٤ قرن وأن الوجود العربى فى فلسطين لم ينقطع فى فلسطين ، كما أن الحياة العربية لم تحتجب إبان غزوات العبرانيين أو الفرس أو الأغريق (اليونان) أو الرومان . فقد أستمر الشعب العربى فى فلسطين مقيماً فى بلاده رغم تعرضها للغزاةوالفاتحين ، وتأثيرها علي حياة المجتمع الفلسطينى ، إلا أن حياة الشعب بكل خصائصها ومقوماتها لم تصطبغ بصبغة الفاتحين .[(٣)]

وقد دلت أقوال المؤرخين والتوارة بما لايدع مجالاً للشك فى أن فلسطين منذ عشرة آلاف سنة قبل الميلاد وحتى اليوم هى أرض عربية ، سكنها العرب منذ خروجهم من الجزيرة العربية وأنهم أقاموا فيها بصورة ثابتة ومتصلة ومستمرة حتى اليوم . وأن العرب المسلمين الذين فتحوها وحرروها إنما كانوا أصولاً لفروع أو فروعاً للعرب الذين سكنوها منذ فجر التاريخ . وهذا يدحض مزاعم اليهود القائلة بأن فلسطين تاريخياً ليست أرض العرب وإنما أغتصبها المسلمون من أصحابها ، وإنها كانت يوما ما للعبرانيين أو اليهود [(٤)]

ويؤكد أعلام المؤرخين أمثال كروينسون باتو وبريستيد بأن سكان فلسطين القدماء هم الكنعانيين والفلسطينيون والحيثيون وغيرهم من العرب .[(٥)] أما المؤرخ الإنجليزى ارنولد

---

(١) محمود العابدى ، قدسنا ، القاهرة ،١٩٧٢ م ، ص ٦٥ .

(٢) نقولا زيادة،رواد الشرق العربى فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٤٣ م ص ٥٥ .

(٣) د .اسماعيل ياغى ، نظام بركات ، دراسات فلسطينية ، الرياض ١٩٨٨ ، ص ٤٠ .

(٤) رفيق النتشة، الأسلام وفلسطين ، الرياض ١٩٨٠ ،ص ٢١ - ٢٣ .

(٥) Breasted Jonson M. , A history of Ancient Egyptions, London 1950 , p. 170

توينبى ، فقد أثبت بالوثائق أن فلسطين هى أرض عربية وأن اليهود دخولها معتدين قديماً وحديثاً . وقال فى بعض كتاباته عن فلسطين " قبل أن يبدأ هرتزل حركته الصهيونية كان قد انقضى على وجود السكان فى فلسطين فترة تزيد على سبعة عشر قرناً ونصف على الأقل " (١)

وأيا ما كان الأمر ، فإن هناك العشرات من آيات التوراه المكتوبة تؤكد أن فلسطين هى ملك لساكنيها من القبائل العربيةوأن العبرانيين هم غرباء عن الأرض ، فقد ورد فى سفر التكوين (١٥ - ٢٣) " إن نسلك سيكون غريباً فى أرض ليست لهم ، وجاء فى سفر حزقيال قال السيد الرب لأورشليم : " مخرجك ومولدك أرض كنعان " معنى أرض الكنعانيين العرب .(٢) وقد جاء فى القرأن الكريم فى سورة البقرة عندما أمرهم موسى بدخول بيت المقدس أو أريحا فرفضوا لأن فيها قوماً جبارين وهم الكنعانيين حيث يقول سبحانه وتعالى : » إنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فأن يخرجوا منها فان داخلون " وإلى غير ذلك من الآيات (٣) .

كماأن زعماء إسرائيل يعترفون بصراحةعن عدم أحقيتهم بأرض فلسطين فيقول هرتزل : " نحن لاتربطنا بهذه التربة أية حقوق ... » لقد مرت أجيال عديدة منذ كانت الأرض يهودية " ويقول بن غوريون " لسنا عمياناً إننا علي علم أكيد بأن فلسطين ليست بلداً خاوياً ، بل إننا نعرف أن ملايين من العرب يسكنون على ضفتى نهر الأردن الشرقية - والغربية ، كما أن هناك ملايين من العرب يقطنون فلسطين " (٤) وقد أكد ارنولد توينبى كما أشرنا إلى ذلك حينما ذكر أن حق ملكية العرب بفلسطين أقوى من حق ملكية أى شعب فى وطنه . وسنستعرض تطور وجود الطائفة اليهودية فى فلسطين فى العصر الإسلامى وحتى الإحتلال الإنجليزى عام ١٩١٧ م .

---

(١)رفيق النتشة، الأسلام وفلسطين ، الرياض ١٩٨٠ ،ص ٢١ - ٢٣ .
(٢) العهد القديم ،سفر التكوين ، الأصحاح ١٥ / ٢٣ ، وكذلك سفر حزقيال .
(٣) سورة المائدة ، الآية ٢٢ .
(٤) رفيق النتشة، الأسلام وفلسطين ، ص ٢٥ .

الطائفة اليهودية فى فلسطين :

من المعروف أن الوجود اليهودى فى فلسطين قد انقطع منذ عام ١٣٥ م حينما أحرق الامبراطور الرومانى هدريان هيكلهم ومسح مدينة اورشليم وشتت أهلها ،ومنذ ذلك الوقت انقطعت صلة اليهود بفلسطين مدة ثمانيةعشر قرناً متواصلة ، وتشتتوافى بقاع الأرض ، وانتشروا فى شمال أفريقيا وفى آسيا وفى أوربا . وعاشوا فى هذه المجتمعات أحقاباً طويلة لاتربطهم بفلسطين أيتصلة من قريب أو من بعيد .ولم يسكن فلسطين منذ عام ١٣٥ م ولمدة ألف سنة يهودى واحد .كما لم يكن فيها فى القرون الخمسة التى تلت المدةالمذكورة أكثر من خمسين يهودياً ، إذ لم تقم لليهود قائمة بعد حروب هدريان . (١)

ومما يجدر ذكره أن المسيحين قد اشترطوا على الخليفه عمر بن الخطاب أثناء تسليمهم مدينة القدس له ، عدم مساكنه اليهود لهم فوافق على ذلك ، ونصت الوثيقة العمرية على ذلك ، لذلك نجد أن اليهود قد انقطع وجودهم فى فلسطين تماماً ، ففى عام ١١٧٠م لم يكن فى فلسطين إلا ثمانية يهود ، اثنان فى حيفا وأربعة فى القدس وأخران فى بيت لحم ، (٢) وفى عام ١٧٧١ أصبح عددهم ١٤٤٠ يهودياً .

وفى عام ١٢٦٧ م لم يوجد إلاعائلتين يهوديتين فى القدس ، وفى عام ١٤٨٩ أتى الطاعون علي القلة القليلة من اليهود فى القدس حتى أصبحت خالية من اليهود . (٣) وفى عام ١٨٤٥ أصبح عددهم ١١ ألفا ، وقفز هذا العدد فى عام ١٨٨٠ إلى عشرين ألفاً ، وكان عدد العرب قدبلغ ٩٨٪ من مجموع السكان فى حين نسبة اليهود لم تتجاوز ٢٪ من عدد السكان . (٤)

ويرجع وجود اليهود فى فلسطين إلى تسامح المسلمين معهم والسماح لهم بالمجىء إلى القدس للعبادة ، اعتقاداً من اليهود بأن المسيح سينزل إلى الأرض وسيقيم هيكلهم فى

---

(١) مصطفى الدباغ ،بلاد فلسطين ، ق ٢ ، ص ٩ ، ١٠ ، ٧٢ .
(٢) ناجى علوش ، الحركة الوطنية الفلسطينية ، بيروت ١٩٧٤ ، ص ٨٥ .
(٣) هنرى كتن ، فلسطين فى ضوء الحق والعدل ، ص ٦ ، ص ٧ .
(٤) الحكم دردوزه ، ملف القضية الفلسطينية ، بيروت ١٩٧٤م ، ص ٧٤ .

القدس ، ولذا فقد عاش اليهود فى أمان فى ظل الدولة الاسلامية التى فرضت حمايتها عليهم ، فى حين كانت أوروبا تضطهدهم ، الامر الذى دفعهم للهجرة إلى بلاد العرب والاسلام حيث كانوا ينعمون بالطمأنينة وراحة البال والاستقرار ، ولولا ذلك لابيد اليهود كما أبيد غيرهم من بقايا الأمم القديمة . (١)

ومهما يكن من أمر ، لم يجد اليهود تسامحاً وعيشاً كريماً إلافى ظل الحكم الاسلامى ، فمنذ استعاد صلاح الدين مدينة القدس من الصليبيين ، إزداد عدد اليهود فى فلسطين نتيجة لتسامح الاسلام وحسن معاملة المسلمين فاليهود فاعتنق الكثيرمنهم الاسلام ، وذلك لأن اليهودلم يسلموا من الحملات الصليبية فقد تعرضوا لاضطهاد الصليبين وبيعهم فى أسواق الرقيق، ونجم عن ذلك قلة اليهود فى فلسطين أثناء الحملات الصليبية إذ بلغ عددهم ١٤٤٠ فقط بينما ذكر البعض وجود عائلتين فقط . (٢)

ولقد اتخذ اليهود العالم الاسلامى وخاصة الدولة العثمانية حمى ومأوى لهم من الاضطهاد الذى لاقوه فى أوروبا ، فقد هرب إلى حمى الدولة العثمانية كثيرمن يهود أسبانيا (السفارديم) بعد طردهم منها عام ١٤٩٢م (٣) وكان أغلب المهاجرين اليهود من المتقدمين فى السن ، والذين جاءوا إلى فلسطين للتعبد والتبرك والدفن فى الأماكن المقدسة ، ولذا تركزت أقامتهم فى المدن الاربع المقدسة - فى نظراليهود -وهى القدس ، والخليل ، وطبريا ، وصفد . (٤)

وكان استيطانهم بدون جذور اقتصادية واجتماعية ، فكانوا يعتمدون على نظام الصدقات على اعتبار أن مساعدتهم واجب دينى ، ولم يشارك اليهود بأى نوع من أنواع الانتاج ، ولم يكونوا فى فلسطين مجموعات متجانسة ، وانما اختلفت أجناسهم ولغاتهم وثقافتهم ، وانقسموا إلى مجموعات متمايزة لكل مجموعة عالمها الخاص بها إذ حافظت

---

(١) هنرى كتن ، المرجع السابق .

(٢) اسرائيل كوهين ، هذه هى الصهيونية ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٢٦ .

(٣) Bentwich, Norman, Palestine, London 1946, P.P. 42-43.

(٤) Bullard Reader, The Middle East, London 1958, P.285.

على ماضيها واستبقت موطنها الأصلى ، وحملت هذه المجموعات جنسيات بلادها ، وكانت هذه الجماعات اليهودية تتلقى حماية الدول الاوربية باعتبارهم رعايا أوروبيين عن طريق قناصلها لدى الدولة العثمانية . (١)

مماتقدم يتضح أن المزاعم الصهيونية فى وجود حق تاريخى لليهود فى فلسطين لاتستند إلى أساس فالحقائق التاريخية تنفى عن اليهود استمرار بقائهم فى فلسطين وتؤكد فى نفس الوقت استمرارية الشعب العربى فى فلسطين منذ فجر التاريخ وليس كما يدعى اليهود بأن عرب فلسطين كانوا غزاة لهافى أثناء الفتح الاسلامى وهو قول خاطىء ، لأن الوجود العربى فى فلسطين (أرض كنعان) أسبق من الفتح الاسلامى ، فالعرب قوم سابقون على الاسلام بأربعة وأربعين قرناً ، ولكن الفتح الاسلامى صبغ البلاد بطابع اسلامى لغة وثقافة وتاريخاً ومصيراً ، وسادت فى البلاد مظاهر الحضارة العربية الاسلامية والتى استمرت حتى منتصف القرن العشرين ، وذلك أثر قيام الكيان الصهيونى فى فلسطين عام ١٩٤٨م بعد أن شردت قسماً كبيراً من العرب . (٢)

وخلاصة القول فان الحق التاريخى للعرب فى فلسطين يستندإلى مايلى:

١ - أسبقية الوجود العربى فى فلسطين بدءا بالكنعانيين العرب ٢٥٠٠ ق . م .

٢ - استمرارية الوجود العربى فى فلسطين على مدى ٤٤ قرناً ولم ينقطع هذا الوجود حتى اليوم .

٣ -عدم وجود حضارة يهودية فى فلسطين فى ظل الدولة اليهودية القديمة -مملكة داود وسليمان -حيث اقتبست هذه الدول الحضارة الكنعانية والحضارات العربية المجاورة ، كما أنهم لم يتركوا أي أثار حضاية ، وكانوا فى الواقع تابعين حضارياً لاحدى الدول العظمى المجاورة .

---

(١) وليم فهمى ، الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، القاهرة ١٩٧٥ ، ص ١٧ - ٢٠ .
(٢) محمد أديب العامرى ، عروبة فلسطين فى التاريخ ، ص ١٥٦ .

٤ - يهود اليوم ليسوا امتداداً ليهود الامس العبرانيين والاسرائيلين من نسل يعقوب وغيرهم ، فاليهود اليوم عبارة عن طائفة دينية اجتماعية انضم اليها أجناس مختلفة من البشر فى عصور مختلفة بحيث يصعب وصفهم بالقومية ، فمنهم الفلاشا الاثيوبية (السوداء) والخزر التركى والأوربيين والهنود واليهود السود وغيرهم .

وسنتناول توضيح الظروف التى تمت فيها فكرة الهجرة اليهودية والاستيطان الصهيونى فى فلسطين ابان الحكم العثمانى ، وماهى الخلفيات وراء ذلك .

الهجرة اليهودية والاستيطان الصهيونى :

تعتبر ظاهرة الاستيطان قديمة قدم التاريخ ، فقد مارستها شعوب مختلفة عبر التايخ ، كالهجرات السامية من جزيرة العرب واستيطانها فى بلاد مابين النهرين والنيل والشام وغيرها ، وتقوم هذه الظاهرة الاستيطانية على وجود أماكن جذب تهاجر اليها جماعات بشرية لتتعايش مع المجتمعات الموجودة بالطرق السليمة . (١)

أما الظاهرة الاستيطانية الحديثة ، فقد جاءت عقب الكشوف الجغرافية وماتبعها من عمليات استعمارية ، وارتبطت هذه الظاهرة بالاضطهادات الدينية التى تعرضت لها الاقليات الدينية فى أوروبا ، ممادفع جماعات أوروبية كثيرة وعلى رأسهم اليهود للهجرة إلى المناطق المكتشفة ، ولزرع كيانات غريبة فى هذه المناطق وسط محيط معاد من سكان البلاد الأصليين كما حدث فى عمليات الاستيطان الاوروبى فى الجزائروليبيا وجنوب أفريقياوكذلك عمليات الاستيطان الاوروبى فى قارتى أمريكا واستراليا (٢).

ولكن ظاهرة الاستيطان الصهيونى الاوروبى فى فلسطين ، تميزت عن غيرها من التجارب الاستيطانية القديمة والحديثة من خلال ارتباط هذه الظاهرة بالعنف والاستيلاء على

---

(١) أنظر مجدى حامد ، النظام السياسى الاستيطانى ، بيروت ١٩٨١م ، ص ٥ ، ٨٢ .

(٢) د . نظام بركات ، الاستيطان الاسرائيلى فى فلسطين ، الرياض ١٩٨٥ ، ص ٦ .

أراضى مملوكة لأصحابها الشرعيين بالقوة مع التخطيط المسبق لطرد هؤلاء السكان واستئصال حضارتهم من هذه الارض بهدف اقامة دولة استعمارية استيطانية توسعية جديدة ، بحيث تشكل هذه الدولة الجديدة مستوطنة كبيرة وسط محيط غربى غير مقبولة فيه حضارياً ويتناقض فى طبيعتها ومؤسساتها الغربية ودعوتها العنصرية ورؤيتها لمستقبل البلاد المحيطة ، مع تطلعات هذا الوسط الذى يسعى لبناء مستقبله وحضاراته بعيداً عن الرؤيا الاسرائيلية الاستعمارية التى تقوم على أفكار حق تقريرالمصير والحقوق المتساوية لكل الشعوب (١)

ويشترك الاستيطان الصهيونى مع الاستيطان الاستعمارى فى الهجرة والاستيطان والغزو والسيطرة على السلطة ، غيرأن الاستيطان الصهيونى يتسم بسمات منها :

١ - انه استعمار احلالى فبينما يسعى الاستعمار الاستيطانى الى استثمار ثروات البلاد المستعمرة وتحويل السكان الى طبقة عاملة فى خدمة المؤسسات الاستعمارية الا أن الاستيطان اليهودى لم يكتف باستغلال الارض ، وإنما كان يسعى لمصادرة الارض واستئصال شأفة المجتمع الاصلى لاحلال مجتمع يهودى جديد محله .

٢ - ان الاستيطان اليهودى كان يهدف لبناء دولة مستقلة ، كما هو الحال فى جنوب افريقيا .

٣ - انه استيطان عميل أذ أنه يرتبط بالمشروعات الاستعمارية فى المنطقة العربية لخدمة أهداف الدولة الكبرى الاستعمارية وقد خططت الصهيونية لدعم مشروعاتها بتأييد ومباركة الدول الاستعمارية .

٤ - انه استيطان توسعى حيث ظل يسعى دائما إلى توسيع هذه الحدود ، حسب الامكانيات المتوفرة لاحتلال مزيد من الاراضى المجاورة .

٥ -ان الاستيطان الصهيونى يحاول تبرير شرعيته بالاستناد إلى أسس أيديولوجية وادعاء دينى باطل بحق اليهود فى فلسطين . (٢)

---

(١) نفس المرجع ، ص ٧ .

(٢) د . نظام بركات ، المرجع السابق ، ص ٧ .

وترجع الدعوات الاولى للاستيطان اليهودى فى فلسطين ، إلى بداية التفكير الاستعمارى بالمنطقة العربية ونتيجة لذلك فقد تبنت مجموعة من الزعماء الاوروبيين الدعوة لتوطين اليهود فى فلسطين لاقامة كيان يهودى فى المنطقة يعمل لحسابها ، وقد تزامنت هذه الدعوة مع ظهور بعض القيادات البورجوازية والفكرية اليهودية التى تدعو لتوطين اليهود فى فلسطين ، واقترحت لتحقيق ذلك مجموعة من المشروعات ، وأنشأت فى الوقت نفسه عدداً كبيراً من المؤسسات لتقوم بتنفيذ هذه المشروعات .(١)

ولعل أول دعوة فى التاريخ الحديث صدرت عن نابليون عام ١٧٩٩ حيث غزا مدينة عكا بفلسطين ، وعجز عن فتحها فلوح لليهود فى دعوته باقامة وطن لهم فى فلسطين ، بهدف مساعدته فى فتح عكا أولاً ، وكذلك رغبته فى استقطاب الجاليات اليهودية فى الشرق لدعم نفوذه ثانياً ، ولكسب ثقة يهود فرنسا ثالثاً ، ولايجاد حاجز بشرى يفصل مابين سوريا ومصر رابعاً ، وتهدف كذلك إلى ضرب مصالح بريطانيا باغلاق طرق مواصلاتها الى الهند خامساً ، وعوامل أخرى (٢) وفشلت دعوته .

وتوالت بعد ذلك الدعوات لتشجيع الهجرة والاستيطان اليهودى ، فنادى بعض اليهود أمثال يهود الكالى ١٨٣٤ ، وزفى كاليشر ١٨٣٦م ، ١٨٦٢ ويهوذا القلعى ١٨٣٩ ، وموزس هس ١٨٦٢ ، ليوبنسكر ١٨٨١ وكلها ركزت على الهجرة والاستيطان اليهودى فى فلسطين للتخلص من اضطهاد الاوروبيين لليهود ، وقدنادى اللورد شافتسبرى فى مؤتمرلندن عام ١٨٤٠م بأن تتبنى بريطانيا اعادة اليهود وتوطينهم فى فلسطين لخدمة المصالح الاستعمارية البريطانية فى المنطقة (٣) .

وعلى العموم ، فقد ارتبطت الدعوات الاستيطانية فى فلسطين بمجموعة من الزعماء الاستعماريين الذين رأوا فى الاستيطان خدمة لأهدافهم التوسعيــة والاستعماية فى فرنسا وبريطانيا للسيطرة على الوطن العربى . (٤)

---

(١) نفس المرجع ، ص ٩ .

(٢) Mahler Raphel, A History of Modern Jewery, London, 1971, P. 677.

(٣) أمين عبدالله محمود ، مشاريع الاستيطان اليهودى منذ قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الاولى ، الكويت ١٩٨٤م ، ص ١٥-١٦ .

(٤) Stein Leonard, Zionism, London, 1932, P.P. 26 - 35 .

وعمل اليهود على انشاء مستوطنات زراعية فى فلسطين منذ عام ١٨٣٩ كما حدث مع موسى مونتفيورى ، واستطاع بعض اليهود شراء بعض القطع من الاراضى لتأسيس مستوطنات زراعية ، ففى عام ١٨٦٠ استطاع الاتحاد الاسرائيلى العالمى استئجار ٢٦٠٠ دونم من قرية يازور قرب يافا لاقامة مدرسة ميكفا الزراعية ، وتوالت محاولات اليهود بانشاء الجمعيات الزراعية والاستيطانية من أجل تحقيق أهدافهم ، ودعم البارون روتشيلد هذه الجهود بانشاء الجمعية اليهودية فى فلسطين عام ١٨٨٣م [١] .

ويلاحظ أن مشروعات الاستيطان اليهودى خلال هذه المرحلة قد اتسمت بالعشوائية وعدم التنظيم ، كما افتقرت للدعم المالى والبشرى اللازم لعمليات الاستيطان ، ومن هنا فان عدد المستوطنين اليهود خلال هذه الفترة لم تبلغ خمسة عشر الف نسمة ، كما أن عدد المستوطنات لم يزد عن خمس مستوطنات ، أهمها مستوطنة بتاح تكفا (الأمل) بالقرب من ملبس القريبة من يافا ، وقد تركزالاستيطان اليهودى خلال هذه الفترة فى السهل الساحلى بالاضافة الى المدن المقدسة مثل القدس والخليل وطبريا وصفد [٢] وتشكل هذه المرحلة بداية الاستيطان الزراعى اليهودى فى فلسطين .

وتعد الهجرة اليهودية الي فلسطين أحد المتغيرات الاساسية التى لعبت دوراً أساسياً فى عمليات الاستيطان الصهيونى فى فلسطين ، فقد ساهمت الهجرة اليهودية الاولى عام ١٨٨٢م فى توفيرالعنصرالبشرى اللازم لعملية الاستيطان ، كماشكلت العناصر البشرية التى جاءت ضمن موجات الهجرة بخلفياتها الحضارية أسس ومعالم المجتمع الاسرائيلى فيمابعد ، وعملت على تحديد أنماط الحياة داخل هذا المجتمع ، كماساهمت هذه الجماعات فى تحديد الديموغرافية للكيان الاستيطانى فى الفترات اللاحقة . [٣]

ففى الهجرة الاولى (١٨٨٢-١٩٠٣م) قدم إلى فلسطين عدد من اليهود يتراوح عددهم مابين ٢٠-٣٠ الفاً ، جاءوا من روسيا وفرنسا بعد احداث عام ١٨٨١م ، وأقاموا

---

(١) فايز صايغ ، الاقتصاد الاسرائيلى ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٢١ - ٢٣ .
(٢) نظام بركات ، المرجع السابق ، ص ١٨ .
(٣) نظام بركات ، المرجع السابق ، ص ٢٩ - ٣٠ .

١٧مستوطنة ، وفى الهجرة الثانية (١٩٠٤-١٩١٤م) وفد إلى فلسطين من يهود شرق أوروبا عدد يتراوح مابين ٣٥-٤٠ الفاً ، وأقاموا ١٥ مستوطنة ، أما الهجرة الثالثة (١٩١٦ ـ ١٩٢٢) فقد جاء إلي فلسطين ما بين ٣٥ ـ ٤٠ ألف من شرق أوروبا بسبب الاضطهادات التى تعرض لها اليهود . (١)

ويلاحظ أن هذه الفترة تمثلت بنهوض بعض القوميات الاوروبية ، ممادفع اليهود للتفكير فى قومية خاصة والهجرة الى فلسطين كما ارتبطت عملية الهجرة الى فلسطين بعمليات الاضطهاد التى تعرض لها اليهود فى المجتمعات الاوروبية وخاصة شرق أوروبا كما ارتبطت عملية الهجرة والاستيطان بالحركة الصهيونية وبداية التفكيربانشاءدولة يهودية ويلاحظ أن هجرة اليهود الى فلسطين تعتبر متدنية للبلدان الاخرى ، وهذا يعكس عدم رغبة اليهود بالهجرة الى فلسطين ، وعدم ايمانهم بالحركة الصهيونية ، كماتأثرت الهجرة اليهودية الى فلسطين بالقيود التى فرضت على هجرة اليهود اليها ممادفعهم للتوجه الى فلسطين ، وأن عمليات الهجرة والاستيطان قد ارتبطتا بالمخططات الاستعمارية فى المنطقة العربية وهى التى عبر عنها قادة الفكر الصهيونى فى هذه المرحلة بتأييد ومشاركة من بريطانيا بتنفيذها (٢) .

وعلى العموم ، فقد سارت الهجرة والاستيطان جنباً إلى جنب يدعم بعضها البعض ، فكلما زادت الهجرة اليهودية إلى فلسطين كلما ازدادت الدوافع لبناء مزيد من المستوطنات ، وقد أسفرت الجهود الصهيونية عن خلق نواة بشرية للكيان الاسرائيلى الذى نشأ عقب ذلك ، إذ استطاعت هذه الجهود مضاعفة هذه الاعداد بنسب كبيرة ، فبينما لم يكن عدد اليهود فى فلسطين يتجاوز ٢٤ الفاً سنة ١٨٨٢م يملكون حوالى ٢٥ الف دونم أي أقل من ١٪ من مساحة فلسطين ، نجد أن هذا العدد ارتفع ليصل الى ٨٧٫٧٩ سنة ١٩٢١ أى حوالى ٨٪ من سكان فلسطين ، ويملكون ٦٥٫٠٠٠ دونم تمثل ٢٫٥٪ من الأراضى الفلسطينية ، وقد ارتفع هذا العدد وبمساعدة بريطانيا ابان فترة الانتداب فوصل فى عام

---

(١) فهرس المستوطنات ، المركز الجغرافى الاردنتى ، عمان ١٩٨٤ .

(٢) Eisen Stach, S.N. Israel Society, London, 1967 P.P. 11 - 31 .

١٩٤٨م الى ٦٥٠٠٠ نسمة يمثلون حوالى ثلث سكان فلسطين ، ويملكون حوالى ٢ مليون دونم تحتل ٨ ٪ من الاراضى الفلسطينية . [١]

وقد أثارت هذه الهجرة ردود فعل متباينة فى فلسطين والعالم العربى والدولةالعثمانية، وكان هناك موقف عرب فلسطين من هذه الاجراءات موقف عرب فلسطين من اليهود .

موقف عرب فلسطين من اليهود

انطلاقا من تعاليم ديننا عاش العرب واليهود أجيالاً فى فلسطين فى سلام ووئام ، ولم تكن للحوادث النادرة التى تحدث بينهم فى بعض الاحيان إلا مظهراً من مظاهر أى مجتمع متعدد الطوائف والاجناس ، ولذلك كانت المنازعات القليلة التى حصلت قبل أن تتكشف أهداف الغزو الصهيونى حالات فردية وعادية [٢] فلم يشعر عرب فلسطين تجاه اليهود بأى احساس يضر بالمصالح القومية للشعب الفلسطينى ، فقد كانت صلة اليهود بفلسطين مجرد صلة دينية عاطفية ، ورغبة لدى بعض الفئات اليهودية المتدينة فى الاقامة قرب الاماكن المقدسة للتعبد ، وممارسة الطقوس الدينية ، لقضاء أيامهم الاخيرة فى المدن الاربعة المقدسة (القدس ، صفد ، طبريا ، الخليل) ناهيك عن أن اليهود المتدينين كانوا يؤمنون بفكرة بعث الدولة اليهودية فى فلسطين بحدوث معجزة الهية ، يظهر معها المسيح المنتظرالذى سيعيد بناء "هيكل سليمان" ويقود العالم نحوالخير والسلام[٣] .

تمتع اليهود فى فلسطين ابان الحكم العثمانى بقسط كاف من الحرية الدينية لم تكن من نصيبهم فى أى بلد أوربى ، فخلال الحكم العثمانى لم تتخذ أية اجراءات رسمية ، تستحق الذكر تناهض اليهود ، أو تميز بينهم وبين باقى السكان كما كانت الحال فى معظم الدول الأوروبية . ان لم يكن فيها كلها ، واذا كانت اوضاعهم فى الدول العثمانية عامة غير مرضية ، فانها لم تكن تختلف كثيرا عن اوضاع باقى السكان ، كذلك تعزز مركز باقى

---

(١) نظام بركات ، المرجع السابق ، ص ١٩ - ٢٠ .

(٢) أنيس الصايغ، الهاشميون وقضية فلسطين ، بيروت ١٩٦٦ ، ص ٤٣ .

(٣) أمين محمود عبدالله ، نشأة النزعة الاستيطانية فى الفكر اليهودى الغربى خلال القرن التاسع عشر، مجلة العلوم الاجتماعية جامعة الكويت ، العدد الثانى ،يوليو ١٩٧٩م ص٩.

الطوائف الاخرى غير الاسلامية بمنحهم امتيازات كثيرة تتعلق بالمحافظة على حقوقهم الدينية ومنحهم حكما ذاتيا فى هذا المجال ، وتوسع نظام الحماية كذلك بحيث أصبح الكثيرون من اليهود والمسيحيين بمثابة مواطنين للدول الاجنبية التى تتولى حمايتهم بواسطة قناصله (١) .

وكان اليهود فى فلسطين فى القرن التاسع عشرأقلية ضئيلة بين السكان العرب ٢٪لاتلفت النظر ولاتثيرالشبهات حولهم لقلة عددهم وضألة شأنهم (٢) وعاش الجميع فى ظل الحكم العثمانى لايفكرون بغير أرزاقهم اليومية فالسلام كان سائداً بين العرب واليهود ، لكنه سلام من النوع الذى يسود بين فريقين ليس لأى منهما علاقة بالاخر أو يربطهما علاقات محدودة (٣) وحقيقة الامر أن الجاليات اليهودية كانت مفعمة بروح الانغلاق والتعصب والتعالى مماجعلها غير قادرة على الاندماج مع العرب وغيرهم ،هذا فضلاً عن عدم قدرتها علي قبول نظرية التعايش مع العرب وغيرهم وربما كانت هذه الروح لدى اليهود هى السبب فى كراهية الاخرين لهم ، إلى غير ذلك من الاسباب الاخرى كالاستغلال والتجسس والربا وغير ذلك .

وفى الوقت الذى كانت فيه مذابح اليهود كثيرة الوقوع فى روسيا وبولونيا ، كانت هناك حركات فى فرنساوغيرها من أعرق أمم أوروبا حضارة ترمى إلى مايشبه القضاء على اليهود ، كان اليهود يجدون فى البلاد الاسلامية أطيب معاملة ، ويعتبرونها الملجأ الأمن

---

(١) صبرى جريس ، تاريخ الصهيونية ، الجزء الاول ، بيروت ١٩٧٧م ، ص ٦٠ - ٦٢ .

(٢) اختلفت التقديرات حول عدد اليهود قبيل وصول طلائع المهاجرين الجدد اليها ، ويستفاد من احصاء جرى للسكان اليهود عام ١٨٣٩ يذكر ان عددهم ٦٥٠٠ نسمة نصفهم فى القدس وراتفع هذا الرقم فى السنة التى تليها ليصل ١٠ر٥٠٠ نسمة ثم ارتقع ليصل الى ١٤ر٥٠٠ نسمة فى عام ١٨٥٦م ووصل فى نهاية عام ١٨٨١م إلى ٢٢ر٣٥٠ نسمة وكان أكثر من نصف أولئك السكان يعيشون في القدس بينما يعيش الباقون فى صفد وطبريا وعكا وحيفا ونابلس والخليل وفى قريتى شفا عمرو والبقيعة ، انظر صبرى جريس ، المصدرالسابق ص ٥٦ - ٦٠بينما يذكر التقريرالاحصائى لحكومة فلسطين١٩٤١م بأن عدد اليهود فى عام ١٨٣٩م لم يتجاوز ٦٠٠٠ نسمة في حين بلغ عدد العرب ٣٠٠ر٠٠٠ نسمة أى أن نسبة اليهود لم تتعد ٢٪ ولم يتجاوز عدد الهيود فى عام ١٨٨٠م عشرين الف انظر .
Statistices Abstract of Palestine 1914, P. 12 .

(٣) تقرير اللجنة التي عينها المندوب السامى لفلسطين للتحقيق فى الاضطرابات التى وقت فى يافا عام ١٩٢٩م .

لهم وكانت هذه البلاد الاسلامية ترى واجباً عليها حماية اللاجئين إليها منهم والمساواة بينهم وبين المسلمين فى المعاملة .

وقد عبرت جريدة الشمس اليهودية فى عددها الصادربتاريخ ٢٥ يوليو ١٩٣٥ عن هذه العلاقة فى مقال لها ، فقالت : ان هذا الحماس الذى يبدو على المهاجرين القادمين ، يرتد الي شعورهم بخلاصهم من بلاد تضطهد الساميين وعودتهم الى حضن الاوطان السامية العربية وهم يعلمون أن فلسطين الصغيرة محوطة بملايين من العرب الذين ينظرون اليها نظرة تقديس واحترام ، ولايعقل أن يخطر ببال المهاجرين الاساءة الى العرب فى قطر وهم الذين رحبوا بهم وأفسحوا لهم صدرهم الان وعلى مدى عصور التاريخ (١) .

وقبيل بدء الهجرة الاولى عام ١٨٨٢ حدثت عدة حوادث فردية وعادية منها قيام مظاهرات ضد اليهود فى فلسطين ومصر ، وقيام بعض اعتداءات من القبائل العربية ضد اليهود علاوة على انتشار القحط والجوع والمرض (الطاعون) وغيرها مماأدى إلى هجرة اليهود من منطقة الجليل الى مصر وبيروت ودمشق (٢) فى مطلع القرن السابع عشر .

وتذكر بعض المراجع الى أن يهودا حاسيدا الذى قاد أول حركة اشكنازية الى فلسطين فى عام ١٧٠٠م واقترض أموالاً من عرب القدس على أمل سدادها من المساعدات التى ستصله ، ولما لم تصل المساعدات وطال الزمن بالدائنين دون أن يتسلموا ديونهم من اليهود الاشكناز ، هجموا عليهم وحرقوا كنيستهم ، وهدموا مؤسساتهم ، فعاد من الاشكناز من عاد الى أوروبا واعتنق الباقى الدين الاسلامى أو المسيحى ، ولم يجرؤ اليهود على الظهور فى فلسطين حتى عام ١٨١٦م حين أظهر السلطان إرادة سامية باعفائهم من ديونهم (٣) وليس هناك مايشيرالى وقوع حوادث أو اصطدامات تذكر بين العرب واليهود خلال الثلاثة ارباع

---

(١) عادل غنيم "موقف عرب فلسطين من اليهود والصهيونية من الحرب العالمية الاولى حتى اضطرابات البراق١٩٢٩م"

"مجلة الشرق الاوسط" العدد الاول القاهرة١٩٧٤م،ص٢١٤

(٢) Ben Curion, David, The Jews in Their Land (London 1966) P.P. 223- 237.

(١) ناجى علوش ، الحركة الوطنية الفلسطينية ١٨٨٢ - ١٩٤٨ ، بيروت ١٩٧٤ م ، انظر ص ٨٦

وانظر كذلك Ben Curion, D., op. cit., P.309

الاولى من القرن التاسع عشر فيما عدا بعض الشكاوى اليهودية من الحكومة العثمانية ومن الباشاوات المسئولين والتى وردت فى تقارير قناصل بريطانيا ، كما ذكرت نفس التقارير سوء تصرفات اليهود تجاه سكان البلاد ووجهت اللوم اليهم . (١)

وفى عام ١٨٧٥ بدأت موجات الهجرة تتدفق ، وكان معدل عدد المهاجرين يصل إلى ألفين فى العام ، مماجعل قنصل الولايات المتحدة يكتب إلى وزارة خارجيته محذرا من أن تدفق اليهود على فلسطين من روسيا يمثل هذه الكثرة سوف يقلب الحالة فى البلاد ، فلاتمضى سنوات حتى يصبح اليهود هم سكان البلاد لاسكانها الاصليون (٢) ونتيجة لهذه الهجرة ازداد عدد اليهود فبلغ فى نهاية القرن التاسع عشر خمسين الف يهودى نصفهم تقريباً فى القدس ، كمابلغ عدد مستعمراتهم تسع عشرة مستعمرة عدد سكانها ٤٣٥٠ شخصاً (٣) فى حين ذكرت مصادر أخرى بأن عدد اليهود فى نهاية القرن التاسع عشر بلغ ٣٥ الف يهودى وعدد العرب ٤٥٠ الف شخص (٤) .

موقف عرب فلسطين من الهجرة اليهودية والاستيطان الصهيوني :

أثارت هجرة اليهود الى فلسطين تخوف عرب فلسطين من الاستيطان اليهودى ، فقد وردت أول أشارة مبكرة لذلك من القدس فى رسالة نشرتها مجلة الجوائب اللبنانية فى عددها٨/٣٥٦ عام ١٨٦٨م ، ذكر فيها الكاتب عن قدوم أحد أعضاء الجمعية الاسرائيلية فى باريس (الاليانس) الى القدس وقال فيها " إن مراد الجمعية أن تشترى حقولاً ومزارع فى الاراضى المقدسة ليتعلم اولاد اليهود الزراعة والحراسة " ويلفت الكاتب نظر الدولة العلية " ان تنظر فى أمرنا وتتدارك أحوالنا ، والا فإن اليهود لايلبثون أن يجلونا من هذه الاراضى كما أجليناهم من جزيرة العرب" (٥) ويتضح من ذلك أن عرب فلسطين أحسوا بالخطر

---

(١) مانويل فرانك ، أ : بين أمريكا وفلسطين ، ترجمة يوسف حنا ، منشورات دائرة الثقافة ، عمان ١٩٦٧ ، ص ١٢ - ١٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٠ .

(٣) أنيس صايغ ، الهاشميون وقضية فلسطين ، ص ٤٣ - ٤٤ .

(٤) مازن البندق وخيرية قاسمية،أطلس الصراع العربى الصهيونى ،بيروت ١٩٧٨م، ص٤ .

(٥)خيرية قاسمية ، النشاط الصهيونى فى الشرق العربى وصداه ١٩٠٨ - ١٩١٨ م بيروت ١٩٧٣ ، ص ٣٢ .

الحقيقى الذى يتهددهم من وراء الهجرة اليهودية ، وأنه ينبغى تركيز جهودهم نحو مقاومتها ، ومنذ أن تأسست مستعمرة " بتاح تكفا " والتى تعنى الامل فى عام ١٨٧٨م ، احتج رؤوف باشا حاكم القدس التركى الى القنصلين الالمانى والروسى لانتشار فكرة احلام العودة الى فلسطين بين اليهود ، وأوضح الحاكم أن مايفعله ضد هذه المستوطنات إنما هو لإزالة هذا الحلم ، وتشجع عرب فلسطين فقاموا باحتلال الاراضى التى استولى عليها اليهود ، وتكرر الهجوم من العرب مع زيادة الهجرة الى فلسطين (١) .

ومع بداية عام ١٨٨٠م ، بدأ التحرك الفلسطينى يسجل نضاله الوطنى المتصل ضد موجات ومشروعات الاستيطان للهجرة الصهيونية ، وطالبت الحركة الوطنية الفلسطينية فى كل مذكرة او احتجاج قدم للسلطنة العثمانية بطلب واحد متكرر هو وقف انتقال ملكية الاراضى واستملاكها للصهاينة ، كما اتخذت الحركة الوطنية الفلسطينية مجموعة من الاجراءات لوقف انتقال الارض ، إذ أنها حرمت البيع بفتاوى شرعية وشجعت عملية وقف الارض ، واتخذت جميع الاجراءات السلبية والايجابية لمنع انتقال الارض الى الايدى الصهيونية . (٢)

وأيا ما كان الأمر فلم يرافق الشعور القومى عند عرب فلسطين فى القرن التاسع عشر أى شكل من أشكال العداء لليهود قبل بداية الغزو الصهيونى والهجرة الصهيونية الواسعة عام ١٩٨٢م . فقد بدأت الاصطدامات المسلحة بين الفلاحين العرب والغزاة الصهاينة والمستوطنين الجدد عام ١٨٨٦م عندما هاجم الفلاحون العرب المطرودون من الخضيرة وبتاح تكفا (ملبس) التى أجلوا عنها رغما عن ارادتهم ، هاجموا اليهود ووقعت اصطدامات بينهم ودفعت هذه الاصطدامات المسلحة الحكومة العثمانية عام ١٨٨٧م إلى فرض قيود على هجرة المستوطنين الصهاينة الذين كانوا يدخلون البلاد كسياح . بحيث لم يسمح لهم

---

(١) خيرية قاسمية ، النشاط الصهيونى فى الشرق العربى وصداه ١٩٠٨ - ١٩١٨ م بيوت ١٩٧٣ ، ص ٣٢ .
(٢) الارض الفلسطينية بين الشرعية والاغتصاب ، منشورات اتحاد الحقوقيين الفلسطينيين ، الكويت ١٩٧٥ ، ص ٢٣ .

بالاقامة لمدة لاتزيد على ثلاثة أشهرفى البلاد ، وذلك بموجب جوازات سفرحمراء عوضاً عن جوازاتهم الاصلية عند دخول البلاد (١)

وبالرغم من ذلك فان الهدوء ساد العلاقات بين العرب واليهود خلال السنوات العشر الأولى من الهجرة الكثيفة (١٨٨١ - ١٨٩١م) ولكنه سرعان ماانقلب إلى شعوربالشك والاستنكارللهجرة ، وبدأ العرب يفيقون وينتبهون للخطر الصهيونى ، وأصبح مألوفاً أن تحصل اعتداءات من السكان العرب على المستعمرات اليهودية ، وسقطت الصداقة القديمة أمام عداء العرب للهجرة ، فقد كان احساس العرب بابتعاد المستعمرات الصهيونية عنهم يزداد ، حيث حرص اليهود على أن تكون مستعمراتهم عبرانية خالصة ، وقاوموا كل مايخل بالشكل العبرانى . (٢)

واتضحت الرؤيا أمام عرب فلسطين بأن القصد من الهجرة الصهيونية هو تهويد فلسطين ، وزالت الاقنعة وأزيح الستار عنها ، ووجد عرب فلسطين أن لامناص لهم من الكفاح ومقاومة مخططات الصهيونية بعد أن تأكد لهم أن الهجرة اليهودية هدفها استيطان فلسطين وبالتالى طرد اهلها منها على المدى البعيد ومن هنا كان الصراع فى فلسطين صراعاً بين استعمار سياسى عسكرى استيطانى صهيونى وبين شعب يدافع عن حريته ووجوده وكيانه ضمن ظروف الصراع بين القوى الإستعمارية الكبرى على السيادة والأسواق فى العالم .وقد حدد هذا كله طبيعة الصراع بين الطرفين كما بين التناقض بين الحركة الوطنيةالعربية والحركة الصهيونية . فلم تكن الجاليات اليهودية المفعمة بروح الأنغلاق والتعصب المستسلمة للأحلام الصهيونية قادرة على قبول نظريةالتعايش مع العب واندماجهم مع المجتمع العربى الفلسطينى .

وكانت الصحف العربية قد عبرت عن اهتمامها بالحركة الصهيونية ومدى أخطارها ، وقد وردت اشارات عابرة فى بعض الصحف والمجلات العربية فى مصر (وأصحابها سوريون) ،

---

(٢) كامل محمود خلة ، فلسطين والانتداب البريطانى ١٩٢٢ - ١٩٣٩م ، بيروت ١٩٧٤ م ، ص٧

(١) عبد العزيز محمد عوض ، " الحركة العربية فى متصرفة القدس " مجلة الشرق الاوسط ، القاهرة ، العدد الاول يناير ١٩٧٤م ، ص ١٩٤٥

حيث ظهر أول رد فعل للمؤتمر الصهيوني الأول في جريدة المقطم بتاريخ ٢٣ اكتوبر ١٨٩٧م في مقال بعنوان " مملكة صهيون" نبه فيه إلى خطورة الصهيونية وأهدافها الرامية إلى إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين وان كان يستبعد امكانية تحقيق ذلك (١) .

وفي إبريل ١٨٩٨ م نشرت المقتطف مقالاً خاصاً تحت عنوان " عودة اليهود " إلى فلسطين رداً على سؤال قارىء من فرانكفورت عن مدى اهتمام الصحف العربية في مصر وسوريا بالحركة الصهيونية ، فأجاب المقتطف بأن مانشر في الصحف العربية حول الحركة الصهيونية لم يكن اهتماماً خاصاً ، واستبعد المقتطف امكانيةاستعمار فلسطين لأن اليهود المهاجرين إلى فلسطين حتى عام ١٨٩٨ م كانوا أهل صناعة وتجارة ، ولانظن أنهم سيعكفون على الفلاحة (٢) .

والواقع ان مقال المقتطف قد قلل من شأن الأطماع الصهيونية في ذلك الوقت ، كما أخطأ في تقدير قيمتها هذا فضلاً عن عدم معرفة نوعية المهاجرين إلى فلسطين ، فقد أدعى المقتطف خطأ أن المهاجرين كانوا من أرباب الصناعة والتجارة وغاب عن باله أن البلاد تشهد نوعاً جديدا من المهاجرين اعتباراً من عام ١٨٨١ م ،تمكنوا من تأسيس المستعمرات الزراعية واشتغلوا بالزراعة . وساهمت مجلة المنار على لسان صحابها محمد رشيد رضا في التنديد بالصهيونية وفضح مخططاتها وأطماعها ، فعقب محمد رشيد رضا على مقال المقتطف السابق وخاطب فيه العرب منبهاً ومحذراً من هجرة اليهود إلى فلسطين . (٣) كما كتب مقالاً آخر بعنوان " حياة أمة بعد موتها - جمعية اليهود الصهيونية " فضح فيها أطماع الصهيونية وأوضح كيف أنها تتظاهر بنقل الفقراء اليهود إلى فلسطين للعيش في ظل السلطان بينما هي في واقع الأمر تطلب تملك البلا د ، ثم حمل على الحكام المسلمين والعرب وطلب من الأمة عدم الأعتماد عليهم . وفي مقال آخر اتهم رشيد رضا اليهود

---

(١) خيرية قاسمية ، النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ١٩٠٨ - ١٩١٨ م بيروت ١٩٧٣ ، ص ٣٤

(٢) المقتطف ، أبريل ١٨٩٨ م ،مجلد ٢٢ ، ص ٣١ . اقتباساً من عبد العزيز عوض مصدر سابق ، ص ١٤٦ .

(٣) المنار ، مجلد ١ ،جـ ٦ ، ص ١٠٨ .

بالعمل على إستغلال فلسطين وأحداث ملك لهم فيها [١]. وبذلك تكون مجلة المنار قد حذرت من الخطر الصهيونى الذى يحاول التسلل إلى فلسطين بهدف قيام وطن قومى يهودى فيها وطرد سكانها الأصليين العرب ،كما أنه يدل على الفهم والإدراك العميق لحقيقةالصهيونية وأبعادها وحذركذلك المفكر العربى نجيب عازورى -الذى أقام فى فلسطين- من المخططات وتناقضها مع أمانى الأمة العربية وفى عام١٩٠٤م أصدر نجيب عازورى بيانه التاريخى"بلاد العرب للعرب"وصدر في العام التالى (١٩٠٥م) فى باريس كتابه "يقظة الأمة العربية " LE REVEIL DE LA NATION ARABE نبه فيه إلى خطورة التوسع الصهيونى فى فلسطين وأثره على الأمة العربية . وكانت تصوراته وتوقعاته تنبىء ببعد نظر فريد ورؤية ثاقبة لأبعاد الخطر الصهيونى ، وقد عبر عن مطامع القوميين اليهود فى مقدمة كتابه : الصراع بين اليقظة العربية القومية والحركة الصهيونية وقال فى هذا الصدد : " ... تبرز فى هذا الوقت وبشكل لم يثر الإهتمام سابقاً ، ظاهرتان خطيرتان متعارضتان ، رغم طبيعتهما هما يقظة الأمة العربية وجهود اليهود لإعادة تأسيس مملكةإسرائيل القديمة على نطاق واسع للغاية . أنه مقدر لهاتين الحركتين أن تتصارعا بإستمرار حتي تتغلب إحداهما علي الأخرى . ومصير العالم كله يعتمد علي نتائج هذا الصراع بين الشعبين اللذين يمثلان مبدئين متناقضين . " وفى مكان آخر من الكتاب يدرك عازورى مخطط العمل الصهيونى الذى يرسم لإعادة تأسيس ما يسمونه وطنهم القديم ، بأحتلال الحدود الطبيعية لهذا الوطن فيقول : " هذه الحدود الطبيعية هى بالنسبة إليهم جبل الشيخ الذى يضم نهر الأردن ووادى بردى من الشمال مع الأراضى المحصورة بين راشيا وصيدا كمقدمة، وقناة السويس وشبه جزيرة سيناء من الجنوب والجزيرة العربية فى الشرق ، والبحر المتوسط فى الغرب .وبتكوينها هذا تصبح فلسطين بين يدى شعب يعرف كيف يدافع عنها " [٢]

---

(١) مجلة المنار، مجلد ٤ ،جـ ١٢، ص ٨٠١ - ٨٠٩،نقلاً عن حيرية قاسمية المصدرالسابق ص٣٥

(٢) أسعد زروق : اسرائيل الكبرى . دراسة فى الفكر التوسعى الصهيونى ، بيروت ١٩٦٨ م . ص ١٤٩ - ١٥٠ .

وخشيت السلطات العثمانية من إنتشار أفكاره بين العرب ، خاصة بعد أن طبع بيانه (بلاد العرب للعرب) بكميات كبيرة ، ووزع فى فلسطين . فقامت الحكومة العثمانية بحركةاعتقالات فى يافا وغيرها من المدن ، ولكنها أضطرت تحت الضغط العربى فى عام ١٩٠٦ م إلى تعيين متصرف جديد للقدس ، بدلاً من سلفه "رشيد بيك " الذى كان قد ساند الهجرة اليهودية إلى فلسطين وخالف القوانين العثمانية التى فرضت الحظر عليها (١)

ومما يجدر ذكره أن كتابات نجيب عازورى (٢) كانت تعبيراً عن ظهور الحركة العربية والتى تجلت فيها أول ظاهرة سياسية لمعارضة الحكم العثمانى . فقد كانت يقظة القومية العربية التى ظهرت منذ مطلع القرن العشرين ،قد تطورت من حركة أحياء ثقافى إلى وعى سياسى ومطالبة بالحقوق القومية فى ظل الحكم العثمانى . وكان لها بالتالي تأثير على حالة العرب فى فلسطين مما كان له آثر كبير علي العلاقات الصهيونية فحدث تغيير جوهرى واصبح الصراع بين قوميتين متناقضتين (٣) .

ويبدو أن مشاعر الفلسطينيين العرب كانت ذات تأثير فى مواقف السلطان عبد الحميد الرافضة من محاولات هرتزل لإغراءه ببيع فلسطين لليهود ، على الرغم من حاجة الأمبراطورية العثمانية الماسة حينذاك للدعم المالى . فقد رفض السلطان عبد الحميد العثمانى محاولات هرتزل بمنح حقوق غير محدودة للهجرة اليهودية إلى فلسطين نظير قيام اليهودية العالمية لتسديد الديون العامة للدولة العثمانية ، وأرسل السلطان إلى هرتزل " ... أنى لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من الأرض لأنها ليست ملك يمينى بل ملك المسلمين ، لقد ناضل المسلمون فى سبيل هذه الأرض ورووها بدمائهم .. فليحتفظ اليهود بملايينهم لأنه لو قدر لامبراطوريتى أن تتمزق فقد يحصلون على فلسطين دون مقابل ولن يتم إلا إذا مزقت أوصالنا ، ولن أوافق على أن تمزق وأنا حى (٤)

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) كان نجيب عازورى يعمل فى الإدارة التركية فى القدس قبل أن يلجأ لى باريس ليؤسس عصبة الوطن العربى ، والتى ينص برنامجها علي تكوين امبراطورية عربية تمتد من دجلة والفرات إلى قناة السويس ومن البحر المتوسط إلى البحر العربى ويكون أسلوب الحكم فيها دستورياً مبنياً على المساواة لكل المواطنين أمام القانون . انظر خيرية قاسمية ، المصدر السابق ، ص ٣٧ .

(٣) خيرية قاسمية ، النشاط الصهيونى فى الشرق العربى وصداه ١٩٠٨ - ١٩١٨ م بيروت ١٩٧٣ ، ص ٣٧.

(٤) حسان حلاق : " موقف الدولة العثمانية من النشاط الصهيونى الدولى " ١٨٩٧ - ١٩٠٤ م ، مجلةشئون فلسطينية ، العدد ٧٤ يناير ١٩٧٨ ، ص ١٦٢ .

وقد آثار توافد يهود الهجرة الثانية (١٩٠٤ - ١٩١٤) إستياء الفلاحين الفلسطينيين الذين عبروا فى أكثر من مناسبة عن معارضتهم منذ اللحظة الأولى لوصول المستعمرين الصهيونيين . ورافق الإستياء من قدوم المستعمرين اليهود موجة من الغضب على الملاكين الإقطاعيين (آل سرسق ، مصطفي باشا ، فؤاد سعد) الذين كانوا يجنون الأرباح من بيع الأراضى للصهيونيين (١) .كما أشتد العداء بين العرب واليهود فى أعقاب الموجة الثانية من الهجرة اليهودية والتى أدت إلى طرد الفلاحين والعمال العرب من المستعمرات الصهيونية ، بالإضافة إلي المقاطعة الصهيونية المنطقية للمنتجات العربية ، ونتج عن ذلك أن ساد التذمر أوساط العرب الذين تأثروا مباشرة لتصرفات العنصرية ، فوقعت مصادمات في يافا بين العرب واليهود فى مارس ١٩٠٨ م إستدعت على أثرها الحكومة المركزية قائمقام يافا للتحقيق معه في أسباب الاضطرابات (٢)

وبعد أن قامت الجمعيات اليهودية بشراء مساحة واسعة من الأرض من عائلة سرسق اللبنانية بالقرب من طبريا ، هاجم فلاحو القرى المجاورة الفنيين الذين جاءوا لمسح الأرض تمهيداً لنقل ملكيتها ، وذلك بقصد محاولة منع أتمام الصفقة، ونجح العرب بالفعل في إستصدار أحكام من الباب العالى بإلغاء بعض الصفقات التى عقدها الصهاينةفى مطلع القرن العشرين (٣) ويلاحظ أن الفلاحين والعمال المتضررين مباشرة من الهجرة هم الذين قاموا بمهاجمة اليهود وكرهوا الملاك الذين باعوا أراضيهم وذلك بتأثير من الحملات الصحفية التى وصلت إلى الفلاحين والبدو فى أكواخهم فألهبت مشاعرهم ، وزادت حماستهم الوطنية ودفعتهم للهجمات المسلحة على المستعمرات اليهودية والأفراد (٤) .

لكن الأوضاع أخذت شكلاً جديداً بعد ثورة ١٩٠٨ م (٥) فقد شارك اليهود الطوائف الاخري ابتهاجا بأعلان الدستور ، بل فاق يهود القدس جميع الطوائف فى إظهار عواطفهم ، فنشط الخطباء منهم وبالغت جرائدهم المحلية فى الترحيب بالعهد الجديد .

---

(١) Mandel , Neville , Turks , Arabs and Jewish Immigration into Palestine (London 1969) P. 300

(٢) فايز صايغ : الاستعمار اليهودى في فلسطين ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ٩ ، ١٠ .

(٣) ناجى علوش : المصدر السابق ، ص ٩٥ .

(٤) عبد الوهاب الكيالى : تاريخ فلسطين الحديث ، ص ٩٦ .

(٥) فى عام ١٩٠٨ م أجبرت (ثورت تركيا الفتاة) السلطان عبد الحميد على اعلان الدستور واجراء انتخابات للهيئة التشريعية (المبعوثان ، وقد نص الدستور العثمانى على إطلاق الحريات وحق إصدار الصحف ووجوب اجراء انتخابات للمجلس التشريعى . انظر الكيالى ص ٥٢

ورفعت الحركة الصهيونية فى يافابرقيات التهانى إلى الحكام الجدد وصرح الصهيونيون بوجوب تمثيلهم في مجلس المبعوثان (البرلمان العثمانى) ليتمكنوا من عرض قضيتهم والمطالبة بالحكم الذاتى فى فلسطين [(١)] كماأنشأوا مكتباً لشراء الأراضى فى يافاوباشروا ببناء الأحياء اليهودية قرب يافا وأنشأوا شركات أخرى فى نفس العام لعبت دوراً هاما في توسيع الإستيطان الصهيونى وتوطيده فيما بعد [(٢)] .

وكانت مشاعر الود التى أبداها اليهود تجاه الحكم الجديد على أمل أن يحقق لهم ما عجزوا عن تحقيقه في العهد السابق ، وخاصة إلغاء الإجراءات القانونيةالسابقة المقيدة للهجرة والتملك . ومع ذلك فقد دخل صهيونيون فى فرع حزب الاتحاد والترقى بصفتهم عثمانيين ، وسعوا لضمان مقعد واحد في مجلس المبعوثان يمثل الحركة الصهيونية ولكنهم فشلوا فى ذلك . وقد نجح ثلاثة مرشحين عن القدس يمثلون الأسرالإسلاميةالبارزة فيها هم: روحى الخالدى حافظ السعيد وسعيد الحسينى أمافى ولاية بيروت فقد فاز عن لواء نابلس الشيخ أحمد الخماش وعن لواءعكا الشيخ أسعد الشقيرى[(٣)] .

ومما لاشك فيه ان مشاعر الود والفرح والإبتهاج التى أبداها اليهود للحكم الجديد لم تكن عفوية بقدر ما كانت مدروسة ومعروفة تماماً بالنسبة لهم ، ذلك أنه كان لهم يد فى الإنقلاب الذى أطاح بالسلطان عبد الحميد الذى رفض محاولاتهم المستمرة ببيعهم أراضى فلسطين وقيد هجرتهم وتملكهم الأرض بقوانين وإجراءات قانونية . وفى هذا المجال اتهمت جريدة نهضة العرب التى كان يصدرها نجيب عازورى فى باريس الاتحاديين بالتحالف مع اليهود والماسونيين الأحرار ، وأن اليهود تسلطوا على جمعيةالأتحاد والترقى ودبروا وخططوا ثورتهم علي السلطان عبد الحميد بهدف إيجاد الفوارق بين الأتراك والعرب من أجل هدم الإمبراطورية ، وإقامة مملكة يهودية على أنقاضها .

---

(١) Mandel , Neville , Op . cit., P . 92 .

(٢) ناجى علوش : المصدر السابق ، ص ٦٥ .

(٢) خيرية قاسمية : المرجع السابق ، ص ٦٥ .

ومثل هذه الأفكار لم تكن بين العرب فقط بل كانت بين قسم من الأوروبيين أيضاً ، كما وجدت طريقها إلى وزاة الخارجية البريطانية .(١)

ولعبت الصحافة العربية التي واكبت ثورة ١٩٠٨ م ، دوراً هاماً فى زيادة الوعى واليقظة العربية فظهرت بعض الصحف فى فلسطين فى أعقاب الثورة واعلان الدستور ، ومن الصحف التى صدرت فى فلسطين عام ١٩٠٨ م (الأصمعى) فى يافا لصاحبها حنا عبد الله عيسى ، والقدس لصاحبها جورجى حنانيا ، وتبعهما جريدة الكرمل فى حيفا لصاحبها ورئيس تحريرها نجيب نصار . وأخذت هذه الصحف على عاتقها كشف المطامع الصهيونية وأخطار الهجرة وبيع الأرض لليهود ، وكانت في طليعة تلك الصحف جريدة الكرمل ، والتى توقعت مراراً بسبب مقالاتها العنيفة التى كشفت الخطر الصهيونى ، ومع ذلك استمر نجيب نصار فى حمل لواء مناهضة الحركة الصهيونية فاضحاً أطماعها وسعيها لامتلاك الأرض وإقامة الدولة اليهودية ، وكاشفاً زيف إدعاء اليهود العثمانيين ومهيباً بالعرب أن يهبوا جميعاً لمقاومة الغزو الصهيونى العنصرى لفلسطين بجمع الكلمة ووحدة الصف .(٢)

وبعد ان جرت انتخابات مجلس المبعوثان فى السلطنة العثمانية ، انتقل الصراع ضد الصهيونية داخل المجلس ايضاً ، ففى عام ١٩٠٩ اجبر النواب العرب فى مجلس المبعوثان رئيس الوزراء على أن يعلن « أنه لن يسمح لليهود باستيطان فلسطين » . كما أنهم أجبروا كذلك وزير الداخلية على أن يعلن معارضته للأهداف الصهيونية .(٣)

وظهرت فى هذه الفترة وبالتحديد فى (٧ / ١٠ / ١٩٠٩م) أول وثيقة هامة عن موقف الفلسطينيين من اليهود والحركة الصهيونية ، وهى دراسة نشرها المثقف الفسطينى يوسف الخالدى بين فيها أن هدف الحركة الصهيونية هو إنشاء دولة صهيونية فى فلسطين . وقد حذر من قيام الدولة لأن قيامها لا يمكن أن يتم دون اصطدامات وصراع دموى بسبب

---

(١) Mandel , Neville, op. cit ., P. 95 .

(٢) خيرية قاسمية : المرجع السابق ، ص ٦٧ .

(٣) أنيس صايغ : الهاشميون وقضية فلسطين ، ص ٤٧ .

المعارضة العربية لقيام مثل هذه الدولة . ويطرح الخالدى فى دراسته قضيتين هامتين : أولاهما : أنه يلمس أن فى اوروبا مشكلة يهودية ولذلك فقد اقترح إقامة وطن قومى لليهود خارج فلسطين . وثانيهما : أنه يفرق بين الصهيونيين وغير الصهيونيين من اليهود . (١)

وكان النضال داخل مجلس المبعوثان وخارجه يتفاعلان ، ففى عام ١٩٠٩ أنشئت منظمة محلية مهمتها الحيلولة دون بيع الأراضى لليهود . ، كما واصلت الصحف العربية وفى طليعتها الكرمل حملاتها على الذين يبيعون أراضيهم للمهاجرين الصهيونيين . وتقدم نائب مدينة يافا باستجواب فى مجلس المبعوثان تساءل فيه عما تقصده الصهيونية ، وعما إذا كانت الحركة الوطنية لليهود تنسجم مع مصلحة الامبراطورية العثمانية ، وطالب باغلاق ميناء يافا فى وجه المهاجرين الجدد من اليهود . (٢)

وفى النصف الثانى من عام ١٩٠٩ م وجهت جريدة الأهرام هجوماً مباشراً للحركة الصيهونية لأطماعها السياسية فى فلسطين ، وتحدثت فى المقالات التى نشرتها عن مؤامراتهم الصهيونية ، وعن بحث الاسرائيليين عن وطن لهم فى فلسطين ، وأشارت الجريدة إلى طمع الصهيونيين بالاستقلال فى فلسطين وكيف أن المستعمرات الصهيونية اشبه بولايات مستقلة بولايات مستقلة لا تخضع لقوانين الدولة وأنظمتها بدعوى أنها أجنبية ، وطالبت الحكومة العثمانية بوضع حد لأطماع الصهيونية فى فلسطين . (٣)

وكانت جريدة الأهرام قد أوفدت مراسلاً إلى فلسطين فدرس الوضع عن كثب واتصل بالفلسطينيين وشعر بمخاوفهم وعرف منهم حقيقة أطماع الصهيونية ، فكتب يقول « إن الفلسطينيين قلقون من الحركة الصهيونية فالهجرة اليهودية المستمرة تخلق لديهم المخاوف والقلق ، فالبلاد تكاد تكون فى أيدى الأجانب . وأشار المراسل إلى أن الفلسطينيين يتهمون الحركة الصهيونية فى فلسطين بأنها تهدف إلى إقامة دولة صهيونية مستقلة ،

---

(١) الأهرام ، ٧ / ١٠ / ١٩٠٩ . وانظر كذلك الأرض الفلسطينية بين الشرعية والاغتصاب ص ٢٨ .
(٢) ناجى علوش : الحركة الوطنية الفلسطينية ، ص ٩٨ .
(٣) عبد العزيز عوض : المرجع السابق ، ص ١٤٩ - ١٥٠ .

ويؤكدون أن بعض اليهود قد بدأوا يدفعون الرشوة للحكومة العثمانية فى فلسطين لإعفاء اليهود من الخدمة العسكرية ويكرسوا كل جهودهم للنشاط الاستعمارى فى وقت لم يكن للمسلمين والمسيحيين خيار فى تحمل أعباء تلك الخدمة العسكرية البغيضة . [١]

وازاء الشعور بالخطر الصهيونى ، استمرت الفئات الوطنية والحملات الصحفية فى المطالبة من السلطات باتخاذ موقف حاسم لمنع الخطر قبل وقوعه ، فطلب مبعوث القدس فى مجلس المبعوثان العثمانى فى التشديد على فعالية اجراءات منع الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، فأعادت الحكومة العثمانية بالقيود التى فرضت فى نوفمبر ١٩٠٠ م [٢]

وقام بعض الوطنيين بإنشاء معهدين هما معهد الدستورية والروضة لخلق وعى قومى عن طريق نشرالثقافة القومية لمحاربة الصهيونية . [٣]،كما استمرت البرقيات الاجتماعية وعرائض الاحتجاج والاستنكار وارسال الوفود وكلها تطالب بوقف الهجرة ومنع بيع الاراضى لليهود ، وتتهم الصهيونية بالفعل على حرمان السكان الاصليين من أراضيهم . وحثت البرقيات المبعوثين العرب الحصول على تأكيد من وزير الداخلية العثمانى بوضع قيود مشددة لمنع دخول اليهود إلى فلسطين وتمليك الأرض لهم . [٤]

وواصلت الصحف العربية حملاتها على الذين يبيعون أراضيهم للمهاجرين الصهاينة ، ففى شهر أيار (مايو) ١٩١٠ م هاجمت الصحف العالمية آل سرسق لاعتزامهم بيع الأراضى فى قريتى فولة وعفولة لليهود . وفى صيف عام ١٩١٠ م كانت عدة صحف عربية نافذة قد بدأت تتبنى الحملة المناوئة لبيع الأراضى العربية للمستوطنين الصهانية بينها صحيفة المقتبس الدمشقية وصحف المفيد والحقيقة والرأى العام البيروتية . كما كونت جميع الصحف جبهة واحدة ضد الصهيونية فكتبت مقالات كثيرة ضد الصهيونية ، كما كشفت أيضاً أساليب ووسائل اليهود ، كرشوة الحكام العثمانيين وكبار موظفى الباب العالى بقصد تسهيل نقل مليكة الأراضى العربية فى فلسطين إلى اليهود . (٥)

---

(١) عبد الوهاب الكيالى : تاريخ فلسطين الحديث ، ص ٦٠ .

(٢) Mandel , Neville , op. cit . , P. 94 .

(٣) أنيس صايغ : الهاشميون وقضية فلسطين ، ص ٤٧ .

(٤) Mandel , Neville , op. cit . , P. 95 .

(٥) خيرية قاسمية : النشاط الصهيونى فى الشرق العربى وصداه ، ص ٧٢ .

وكانت جريدة المقتبس قد حثت مجلس المبعوثان ليقف بحزم فى وجه الهجرة اليهودية الى فلسطين والتى نشطت بعد اعلان الدستور ، وأنحت بالملائمة على الأمة التى تسهل للحركة الصهيونية الوصول إلى أهدافها ثم دعت المبعوثين العرب لاستيضاح الحكومة عن أسباب توسع حركة الاستيطان اليهودى ومطالبتها باتخاذ كافة الاجراءات لايقافها . وعزت نجاح الحركة الصهيونية إلى جهل الوطنيين وغفلتهم وفقرهم ، وإلى خيانة بعض الموظفين والسماسرة ، وشرعت فى نشر سلسلة من المقالات بعنوان الاستعمار الصهيونى نبهت فيها إلى الأضرار التى لحقت بالبلاد من جراء النشاط الصهيونى فى فلسطين . وذهبت الجريدة إلى أبعد من ذلك فاتهمت الحكومة العثمانية بازالة العقبات التى كانت قائمة فى طريق الاستطيان اليهودى فى عهد السلطان عبد الحميد . (١)

كما نشرت جريدة المقتبس خطاباً مفتوحاً من شكرى العسلى قائمقام الناصرة إلى سامى باشا الفارقى قائد الحملة الحورانية فى أواخر عام ١٩١٠ م ، أوضحت فيه استيلاء الحركة الصهيونية على أجزاء كبيرة من أقضية طبريا وصفد ويافا والقدس وحيفا بأسماء الرعايا العثمانيين وبواسطة السماسرة الذين يعدون أنفسهم من الأعيان . ولفتت الانتباه إلى أن الحركة الصهيونية لها علمها وبريدها الخاص وتعمل على شروعها فى مخططاتها السياسية وأهابت بالنواب والحكومة أن تضع حداً للأطماع الصهيونية قبل أن تصبح فلسطين ملكاً لليهود . ومما جاء فى هذه الرسالة ما يلى : « وعليه فان اليهود قد سعوا ومازالوا يسعون إلى شراء القرى والأراضى والدساكر فى امبراطوريتنا البهية . إن اليهود لا يختلطون مع العثمانيين اطلاقاً كما أنهم لا يشترون منهم ، ولليهود بنك خاص هو بنك الأنجلو بالستاين الذى يقرضهم النقود بفائدة ١ ٪ سنوياً . لقد أسسوا فى كل قرية مستعمرة لجنة مركزية ومدرسة ، ويقف على رأس كل مدينة ومستوطنة مدير ومدير منتدب ، ولليهود علم أزرق فى وسطة نجمة داود ، تحتها كلمة عبرية تعنى « صهيون » كناية عن القدس التى تصفها التوراة « ابنة صهيون » وهم يرفعون هذا العلم بدلاً من العلم العثمانى . وفى مهرجاناتهم واجتماعاتهم ينشدون النشيد الوطنى الصهيونى ، وعندما يأتى اليهود

---

(١) انظر جريدة المقتبس مارس ١٩١٠ م . ١٥ مايو ١٩١٠ م ، ٤ ، ٦ ، ٨ سبتمبر ١٩١٠ م ، ٢٠ نوفمبر ١٩١٠ م نقلاً عن عبد العزيز عوض ص ١٥٠ .

إلى دوائر الحكومة يقولون أنهم مسجلون فى السجلات العثمانية وهذا كذب وخداع . ولكن عندما يجلبون أمام محكمة عثمانية ينكشف مكرهم لأنهم يرجعون بسرعة إلى ممثليهم الأجانب (أى القناصل) لحمايتهم من جريمتهم ولانهاء أعمالهم وشؤونهم دون معرفة الحكومة اطلاقاً . . وعندما تدخل بيوتهم ترى كيف يملأونها بالأسلحة وبنادق المرتين . ولهم خدمات بريدية خاصة وما شابه » (١)

ولعل رسالة شكرى العسلى خير ما يدل على النظرة آنذاك للحركة الصهيونية فقد وضعت النقاط على الحروف وأزاحت الستار عن خفايا الصهيونية وكانت خير عون للوطنيين للمضى قدماً فى مكافحة الصهيونية . ومن الجدير بالذكر أن شكرى العسلى قائمقام الناصرة بذل أفضل مساعيه لمنع اتمام بيع أراضى مرج بن عامر التى تملكها أسرة سرسق اللبنانية ، ولكن تم بيعها نهائياً فى مطلع عام ١٩١١ م . وعندئذ أثارت الصحف العربية ضجة حول بيع هذه الصفقة والتى تبلغ مساحتها ٢٤٠٠ فدان من أجود أراضى فلسطين . (٢)

ومن الظواهر المثيرة للانتباه أن منشورات وزعت باليد فى يافا تدعو إلى مناهضة الصهيونية ، كما بدأت تظهر فى الصحف الأسبوعية الهزلية رسوم كريكاتيرية لليهود هذا فضلاً عما ساهم به نجيب نصار فى الكتابة بالصحف العربية منددا ًبالصهيونية ، وداعياً الزعماء العرب للكتابة فى الموضوع نفسه . (٣)

وسجل عام ١٩١١ م تصاعداً فى الموقف المعادى للصهيونية ، فقد قام نجيب نصار بجمع مقالاته التى كان ينشرها فى أعداد جريدة الكرمل نشرها فى كتاب بعنوان « الصهيونية – تاريخها – غرضها أهميتها » وتعرض نصار فى مجموعة مقالاته بالبحث والتعليق لمراحل الحركة الصهيونية ، وفضح الأسس العنصرية التى قامت عليها كما سخر من أسلوبها فى التمويه والتضليل وحمل أيضاً على الذين كانوا يمنون أنفسهم بالانتفاع من الصهيونيين فى تعميد البلاد واتهمهم بالجهل والسطحية ، وأن الصهيونية قد غررت بهم ،

---

(١) Mandel, Neville, op. cit ., P. 94.

(٢) Mandel , Neville , op. cit ., P. 95

(٣) ناجى علوش : الحركة الوطنية الفلسطينية ، ص ٩٩ – ١٠٠ .

كم هاجم الحكومة أيضاً لعدم اهتمامها بمنع الهجرة اليهودية ، وأشار إلى رفع اليهود لعلمهم أثناء احتفالاتهم وبيعهم الطوابع اليهودية تحت سمع الحكومة وبصرها . (١)

وعلى صعيد العمل السياسى فى مجلس المبعوثان فقد عرض النواب العرب مناقشة قضية الصهيونية وقاد شكرى العسلى نائب دمشق وروحى الخالدى نائب القدس حملة مركزة ضد الحركة الصهيونية خلال جلسة مناقشة الميزانية فقوطعت كلمة الخالدى من أحد المبعوثين ، واحتج بأن الجلسة يفترض أن تكون لدراسة الموازنة وليس لدراسة التوراة . وعلى ذلك فإن المبعوثين العرب قد تلقوا من الحكومة تعهداً أدبياً يفيد بأن الحكومة ستنظر بعناية بتنفيذ القيود المفروضة على الهجرة . (٢)

وكان لخطابات العسلى والخالدى أثر فى اثارة المشاعر المناوئة لليهود بين الفلاحين فى القرى ولما شعر العرب بأن موقف السلطة متذبذب وقراراتها لا تنفذ تماما ، بدأوا يفكرون فى حل آخر وأسلوب أمثل يدافعون به عن أنفسهم فقرروا انشاء الحزب الوطنى فى يافا وكان من أبرز مؤسسيه الشيخ سلمان التاجى الفاروقى ، وكان هدف الحزب هو الحيلولة دون تقدم الحركة الصهيونية فى فلسطين بمنع التعامل مع المؤسسات الصهيونية وحظر بيع الأراضى لها . وأهاب بالأمة أن تستيقظ من غفلتها ، وطالب الحكومة بما يلى :

أولاً : منع الهجرة واستخدام قانون الجواز الأحمر .

ثانياً : منع بيع الأراضى .

ثالثاً : اجراء احصاء لليهود واعطاء العثمانيين منهم بطاقات هوية واضحة .

رابعاً : فرض رقابة حكومية وبرنامج الدراسة الرسمى على مدارسهم .

خامساً : حظر الاجتماعات الخاصة باليهود إلا بعد الحصول على ترخيص رسمى من الحكومة

سادساً : احصاء أملاك وأراضى المستعمرات الأموال الأميرية منهم . (٣)

---

(١) عبد العزيز عوض : المصدر السابق ، ص ١٥٣ - ١٥٤ .

(٢) Mandel , Neville , op. cit ., P. 95

(٣) ناجى علوش : الحركة الوطنية الفلسطينية ، ص ٩٩ - ١٠٠ .

ان هذا البرنامج السياسى يستهدف ولأول مرة ، لا منع الهجرة وبيع الأراضى فحسب بل يستهدف اخضاع المهاجرين الصهيونيين أفراداً وأملاكاً لأنظمة الدولة وفرز اليهود العثمانيين من غيرهم . كما طالب بمقاطعة جميع المؤسسات الصهيونية واعتبر التعامل مع الصهيونيين جريمة . (١)

وأثر عودة روحى الخالدى نائب القدس إلى مدينته فى صيف عام ١٩١١ م حث الموظفين فى المتصرفية على العمل بمنع انتقال الأراضى لليهود ، وفى ديسمبر ١٩١١ م شرعت شورى الدولة فى البحث لسن قانون يمنع اليهود الأجانب إلى بلاد الشام بما فيها فلسطين تنفيذاً للوعد الذى قطعته الحكومة على نفسها للمبعوثين العرب . (٢)

وفى عام ١٩١٢ م تفجرت فى فلسطين حملة معارضة وانتقاد ضد السلطات المحلية والحكومة المركزية الائتلافية ، وفقد الفليسطينيون ثقتهم بأى حكومة مهما كان لونها ، وذلك أثر قدوم المتصرف الجديد مهدى بيك إلى القدس الذى أرسل من قبل الاتحاديين والذى أبدى تعاطفاً كبيراً من اليهود فى فلسطين ، وزار بعض المستعمرات والجمعيات الاسرائيلية ، وخطب في اليهود وطمأنهم حول موقف الحكومة منهم . كما أبدى اعجابه بما حققه الصهيونيون واعتبرهم كنموذج مثالى وقدوة للقرى العربية وأساتذة لأهاليها ، وطلب اليهم أن ينشئوا دائرة بلدية منظمة وسمح لهم باختيار حراس منهم ووعدهم بمدهم بالسلاح ، وربط مستعمراتهم بالتليفونات مع مراكز الحكومة حتى تخف قوات الحكومة لنجدتهم فى حالة وقوع أى حادث . . . وأشارالمتصرف فى نهاية خطابة بأن يبذل كل ما فى وسعه لمنحهم جميع التلال الرملية حتى شاطىء البحر ليقوموا بغرسها بأشجار الكالبيتوس على حساب البلدية الجديدة . (٣)

أثار الخطاب موجة انتقاد فى صحف فلسطين ، فتناولت صحف فلسطين والكرمل الخطاب بالتفنيد ودخص أفكاره وآرائه ، وطالبت الصحف الحكومية أن تعيد النظر فى موظفيها وتهتم باسناد الوظائف إلى موظفين أكفياء معتدلين وليسوا مروجى آمال جمعيات سياسية أجنبية . ولعل هذا الموقف دفع الرأى العام فى فلسطين إلى اليأس من أى حكومة

(١) أنيس صايغ : الهاشميون وقضية فلسطين ، ص ٤٧ - ٤٨ .
(٢) عبد العزيز عوض : المصدر السابق ، ص ١٥٠ .
(٣) خيرية قاسمية : المصدر السابق ، ص ١١٩ .

عثمانية مهما كان لونها [١] ولا شك أن موقف الاتحاديين هذا المؤيد للصهيونيين نابع مع الروابط القوية بينهم من خلال الحركة الماسونية التى جمعت بينهما قبل استلام الاتحاديين الحكم ، ولقد هاجم الرأى العام فى الآستانة علنا فى المساجد والصحافة ودوائر الحكومة الاتحاديين والصهيونيين والماسونيين . [٢]

ولم تقتصر حملة الصحافة فى فلسطين [٣] على التنبيه بالخطر الصهيونى أو مقاومة البيع ، بل عملت على توعية أهل البلاد وذلك في محاربة الصهيونية بنفس السلاح الذى تحاربنا هى به عن طريق نشر التعليم وحث الأهالى على تأليف الجميعات والشركات الزراعية والاقتصادية التى تنهض بأحوال الزراعة وتحسين أساليب الفلاحة ، واستثمار امكانيات البلد والمحافظة على الصناعات التقليدية والعمل على تطويرها . [٤]

وواصلت الصحف العربية حملتها على الصهيونية دون لين أو هوادة فنشر محمد صلاح الصمادى الحسينى فى القدس مقالاً فى صحيفة الرأى العام عن أخطار الصهيونية العشرة ، أوضح فيه أن الصهيونية ترمى فى النهاية إلى السيطرة على البلاد سياسياً واقتصادياً واجتماعياً [٥] . كما حث بعض الصحف الفلسطينية إلى الاعتماد على أنفسهم لمواجهة الخطر الصهيونى ، خاصة بعد أن أدرك العرب حقيقة تواطؤ الحكومات العثمانية سواء الاتحادية منها أم الائتلافية بسبب افلاس خزينتها وأمل المسئولين في سد العجز من أموال الحركة الصهيونية ، وهاجمت جريدة فلسطين الحكومة الائتلافية ووضعت الأوامر العديدة التى صدرت بمنع الهجرة اليهودية بأنها كلها حبر على ورق ، وأنها لم تحقق الأغراض التى سنت من أجلها بل استعملها الموظفون لكسب الأموال . [٦]

---

(١) نفس المصدر : ١٢٠ - ١٢١ .

(٢) المصدر السابق : ، ص ١٢٤ - ١٢٥ .

(٣) انضمت صحيفة أخرى جديدة هى المنادى أنشئت فى فبراير ١٩١٢ م لصاحبها سعيد جار الله واتبعت خطا سياسياً واضحاً هو مكافحة الصهيونية ، كما تركت معارضة الصهيونية أثارها على المؤلفات والآثار الأدبية مثل كتاب اسعاف النشاشيبى « الساحرة واليهودى » وكتاب معروف الأرناؤوط « فتاة صهيون » انظر خيرية قاسمية ، ص ١٣٩ .

(٤) الكرمل ٧ / ١/ ١٩١٣ م نقلاً عن خيرية قاسمية ، ص ١٣٩ .

(٥) عبد الوهاب الكيالى : تاريخ فلسطين الحديث ، ص ٦٦ ، وانظر :
Mandel , Neville , op. cit ., P. 94 .

(٦) جريدة فلسطين ، العدد ١٨٥ ، ٢ /١١ / ١٩١٢ م .

واحتجت جريدة فلسطين ثانية على القدس عندما بيعت أراضى كفر وربة وقرية أبو شوشة لليهود ، وحذرت بأنه اذا استمر هذا الحال فان الصهيونيين سيستولون على فلسطين قرية قرية . ثم ترحيل الدولة عنها كما لفتت انتباه المتصرف إلى أن اليهود يتعاملون فيما بينهم بالنقود الصهيونية والأوراق المطبوعة ولهم أعلام تخفق على أبنيتهم ويتعلمون الفنون العسكرية تحت ستار الألعاب الرياضية وأنه لا فرق بينهم وبين أى حكومة رسمية مستقلة . (١)

واهتمت الصحف المعادية للحركة الصهيونية (الكرامل ، فلسطين ، المقتبس) بمسألة الأراضى المدورة التى لعبت دورها فى العهد الدستورى ، فقاومت والمبعوثون العرب مشروع الأصفر مما جعل الحكومة المركزية تتردد بين الأخذ به وصرف النظر عنه ، فاستمر المشروع معلقاً فترة طويلة ونشئت الحرب العالمية الأولى ولما يبت فيه ويمكن القول أن مشروع الأصفر كان عاملاً فى توحيد الجهد الفلسطينى فى مواجهة الخطرالصهيونى فعندما لمحت الحكومة فى صيف عام ١٩١٣ م الى نيتها بالأخذ بالمشروع تنادى السكان العرب فى لواء نابلس ، فعقدوا اجتماعاً كبيراً فى نابلس فى صيف العام التالى للمطالبة بصرف النظر نهائياً عن مشروع بيع الأراضى بالمزاد العلنى - مشروع الأصفر - واعطائها ببدل المثل بالتقسيط للمزارعين العرب الذين نزعت ملكية الأراضي من أيديهم بوسائل استبدادية وغير مشروعة . واستجابت الحكومة للمعارضة وتراجعت عن خطوتها (٢) .

وشهدت البلاد طيلة صيف عام ١٩١٣ م حملة عامة من الاجتماعات الاحتجاجية ضد محاولات بيع أراضي الدولة الحكومية (الميري) في بيان لليهود ، واشتدت النقمة الجماهيرية حتى أن مظاهرات قامت في نابلس سنة ١٩١٣ م ، احتجاجاً على اعتزام السلطة بيع اراضي بيسان للمنظمات الصهيونية (٣) ، وحرق الشعب الفلسطيني وخاصة الشباب حرشاً من الأشجار التذكارية التي غرسها بعض رجالات الصهيونية عند زيارتهم لفلسطين ذلك العام (٤) كما قام الفلاحون بمهاجمة المستعمرات اليهودية في منطقة طبريا

---

(١) عبد العزيز عوض : المصدر السابق ، ص ١٥٤ .

(٢) خيرية قاسمية : المصدر السابق ، ص ١٧٩ - ١٨٨ .

(٣) ناجي علوش : الحركة الوطنية الفلسطينية ، ص ١٠٤ .

(٤) عادل غنيم : « موقف عرب فلسطين من اليهود والصهيونية من الحرب العالمية الأولى حتى اضطرابات البراق . مجلة الشرق الأوسط ، القاهرة ، العدد الأول يناير ١٩٧٤ م ، ص ٢١٥ .

والخليل ويافا وقد ربط الصهيونيون ذلك بحسد الفلاحين لهم إلا أنها كانت اعترافا بأن حياة المستوطنات لم تكن آمنة وتعددت شكاوي اليهود لدى الباب العالي لحماية سكان المستوطنات ، وكانت أشهر هذه الحوادث هي حادثة الاشتباكات بين أهالي قرية زرنوقا ومستعمرة ديران (رحبوت) في أواخر تموز (يوليو) ١٩١٣ م ، والتي بدأت بحادث صغير بين أهالي القرية وحراس المستوطنة اليهودية حول قطف بعض العنب من كروم المستوطنة واتسع الاشتباك ليشمل أهالي القريتين ، واستخدم السلاح ووقع بعض القتلى والجرحى من الطرفين وبدأت القضية تأخذ دوراً مهماً فاستغل الصهيونيون الحادث لتصوير أهالي البلاد بمظهر المتوحشين المتعصبين [١] .

وتأسست في نفس العام « جمعية مكافحة الصهيونية » وأقامت لها فروعاً أخرى في بعض المدن الفلسطينية ودعت هذه الجمعية إلى اقامة المظاهرات ضد بيع الحكومة للأراضي بالمزاد العلني ، كما أرسلت برقيات احتجاج واقترحت أن تحفظ حقوق الفلاحين في أراضيهم التي اغتصبتها الحكومة وذلك بأن يدفع الفلاح الديون المترتبة عليه بأقساط سنوية [٢] . وهكذا قادت جمعية مكافحة الصهيونية الصراع ضد الصهيونية وعملت على نشر الوحدة بين العناصر العربية وتقديم مساعدات في الشئون الاقتصادية والتجارية والزراعية وارسال ممثلين عنها للمتهمين بالمسألة [٣] .

واستمرت الصحافة العربية (الكرمل وفلسطين) في التنديد بالصهيونية وكشف نواياها وأخطارها وآثار ذلك استياء الحكومة العثمانية وعدم رضاها عن المعارضة العربية للصهيونية ، فكانت الحكومة كثيراً ما تعطل هذه الصحف بسبب هذه المقالات غير أن تعطيل الصحف العربية أثار شبهات العرب حول تحالف وتعاون الحركة الطورانية التركية والحركة الصهيونية ضد الحركة العربية المنادية بالاستقلال [٤] .

---

(١) عبد الوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث ، ص ٧١ .
(٢) عبد الوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث . ص ٧١
(٣) Mandel , Neville , Op . Cit , P . 94
(٤) المصدر السابق ، ص ٧٢ .

وجرت محاولات التفاهم والاتفاق بين العرب والحركة الصهيونية ، فقد جرت اتصالات بين حزب اللامركزية وجمعية بيروت الاصلاحية والحركة الصهيونية سبقها مناظرات هامة جرت على صفحات جريدة الأهرام بهدف عقد تحالف عربي صهيوني بايعاز من حزب والترقي كي يرفع القيود عن اليهود في فلسطين ولكن هذه الاتصالات التي دامت أكثر من عام لم تسفر عن نتيجة تذكر وتوقفت بنشوب الحرب العالمية الأولي . ولم تعلق الصحف الفلسطينية على هذا الموقف ، فلم تعر المناظرات المشار اليها أي اهتمام وسكتت عنها هذا فضلاً عن وجود أعضاء فلسطينين في قائمة العشرين عضوا الذين اجتمع بهم ممثل الحركة الصهيونية هوتشبرغ (١) .

كما انعقد المؤتمر العربي الأول في باريس في يونيو ١٩١٣ م ، وخرج بمجموعة قرارات ولم يشر فيها إلى منع الهجرة اليهودية بالصهيونية بالرغم من مطالبة عرب فلسطين ببحث هذه المسألة الصهيونية فأعربت صحف فلسطين عن استيائها من المؤتمر العربي في باريس واستنكرت تقصيره في اتخاذ موقف حازم من الصهيونية كما اتهمت المؤتمر بعدم شرعية تمثيله للعرب لأنه لم يتم انتخابه من قبل المجالس المحلية (٢) .

وانتقدت الصحف الفلسطينية كذلك موقف الحكومة العثمانية الذي ألغى القيود المفروضة على الهجرة اليهودية طمعاً في الحصول على الرأسمال اليهودي في أوروبا وظل عرب فلسطين يرفضون محاولات التفاهم مع الحركة الصهيونية فقد كانوا يعتقدون أنها تريد ابتلاع فلسطين والاستقلال الاداري التام بها ، بل أنها قامت بتنفيذ مخططها واستولت على قسم من البلاد ، ولذلك طالبوا الحكومة العثمانية بتلبية دعوة السكان لايقاف الخطر الصهيوني قبل ضياع فلسطين (٣) .

وفى غضون الأشهرالتى سبقت الحرب العالمية الأولى كانت الحركة المناهضة للصهيونية فى فلسطين قد بلغت ذروتها ، وظهرت دلائل جديدة على وجود معارضة منظمة للصهيونية

---

(١) عبد العزيز عوض : المصدر السابق ص ١٦٠ - ١٧٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٢ .

(٣) خيرية قاسمية :النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه، ص ١٨٨ ـ ١٩٠ . .

وكان جميع أولئك العرب الذين يتعاونون مع الصهيونيين يتعرضون للنقد الشديد والشجب الأكيد كما أن الصحافة وقفت ضد الصهيونية بشكل لالبس فيه ولعبت مكافحة الصهيونيةدوراً بازراً فى الحملة الإنتخابية لمعظم المرشحين الفلسطينين للبرلمان العثمانى ، وآدرك اليهود أن عرب فلسطين على إستعداد تام لمحاربتهم بمختلف الوسائل فى جميع أنحاء فلسطين (١) .

وفى منتصف عام ١٩١٤م تأسست فى فلسطين مؤسسات وطنية وخيرية فى القدس بقصد " الوقوف فى وجه الأخطار الوشيكة التى تهدد أرض الوطن وإنقاذ البلاد من الدمار" والمؤسسات هى الجمعيه الخيرية الاسلامية جمعية الاخاء والعفاف ، وشركة الاقتصاد الفلسطينى العربى وشركة التجارة الوطنية الاقتصادية وكانت جميع الجمعيات المذكورة تنادى بالتوعيه ونشر التعليم ومساندة الصناعات الوطنية . كما أسس الطلبة الفلسطينيون بالأزهر الشريف " جمعية مقاومة الصهيونية " وأسس طلبة نابلس فى بيروت جمعية " الشبيبة النابلسية" وتأسست جمعيه " المنتدى الأدبى " فى حيفا وشاركت النساء العربيات الفلسطينيات فى هذا المجال فأسست جمعية " الاحسان العام " وجمعية "يقظة الفتاة العبية" وكانت كلتا الجمعيتين وطنية تتولى برعايتها الصناعات المحلية (٢) .

ولعبت الصحافة العربية المعادية للصهيونية فى الأشهر السبعة الأولى من عام ١٩١٤م دوراً حساساً وبارزاً فى توعية الرأى العام ، والتمهيد للقيام بأعمال منظمة منسقة ضد الصهيونية وقد هاجمت الصحافة دون هوادة " موقف أولئك الأثرياء الذين تعميهم مصالحهم الشخصية فلا يرون الخطر الصهيونى المحدق بهم ويؤثرون حاضراً ذهبياً على حساب مستقبل مظلم لأبنائهم" (٣)ووجهت جريد الكرمل نداداً عاماً إلى الفلسطينين حذرتهم فيه من خطر الصهيونية المتمثل فى إحتلال فلسطين وطرد شعبها منها ، وحثتهم على القيام بأعمال كثيرة منها : توجيه ضغط على الحكومة للعمل على حظر بيع الأراضى

(١) عبد الوهاب الكيالى : تاريخ فلسطين الحديث ، ص ٧٢ -٧٣ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٧٤ - ٧٥ .
(٣) ناجى علوش : الحركة الوطنية ألفلسطينية ، ص ١٠٤ .

الأميرية للأجانب وتطوير الصناعات والمهن الوطنية وعدم التعامل مع الصهيونيين ومنع البيع إلى اليهود بالقوة ، ومحاولة منع الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، والمطالبه بفتح مدارس عربية وجعل اللغه العربية لغة التعليم وأخيراً حث الشباب على ممارسة الأعمال الزراعية والتجارية والصناعية (١) .

وكشف هذا النداء النقاب عن أن الفلسطينين قد فقدوا الأمل فى أن تتخذ الحكومة أى إجراء ضد العدوان الصهيونى ، ومن ثم تحركوا نحو تنظيم أنفسهم والاعتماد عليها وحدها . وعشية الحرب العالمية الأولى كان الفلسطينيون يفكرون بالانقضاض على الحكم التركى فانضم الكثيرون منهم إلى جمعيتى " العهد" و" الفتاة " اللتين كانتا تناضلان فى سبيل إستقلال العرب ووحدتهم ، وذلك إيمانا من الفلسطينيين بأن الصهيونيين حلفاء الأتراك فى وجه النهضة العربية . ولم يكن مما يثير الدهشة بالطبع أن يكون شباب فلسطين قد بدأوا التفكير باللجوء إلى العنف آخر الوراء ضد الصهيونية ، وذلك فى وقت كانوا فيه يعملون أيضاً على القيام بثورة الأتراك استقلال العرب (٢) .

وازاء هذا الشعور المعادى للصهيونية تصاعدت النقمة الشعبية نتيجة إتضاح المخاطر الصهيونية من جهة ، واقدام السلطة المركزية على تقديم تنازلات من جهة أخرى ، فأدى ذلك إلى تحول فى الموقف الشعبى وذلك باللجوء إلى العنف ، فأصبح قتل المستوطنين اليهود أكثر تواتراً ولم يكن محصوراً بشمال فلسطين كما كانت الحالة فيما مضى تقريباً (٣) . وقامت مظاهرات فى مدينة القدس تعبر عن غضبتها على الصهيونية ، ورجموا بالحجارة مؤسسات الصهيونية ومتاجرها (٤) .

وتعود نقمة الشعب الفلسطينى على اليهود بسبب إعتداءات الآخرين على العرب هذا فضلاً عن عمليات الشراء وطرد الأهالى من الأراضى وتجاوز الصهيونيون حدودهم فى

---

(١) الكرمل ١٩١٤/٧/٧ م نقلاً عن الكيالى ص ٧٥- ٧٦ .

(٢) عبد الوهاب الكيالى : تايخ فلسطين الحديث ، ص ٧٦ - ٧٧ .

(٣) Mandel, Neville. op., cit., P. 103.

(٤) عادل غنيم "موقف عرب فلسطين من اليهود والصهيونية من الحرب العالمية الاولى حتى اضطرابات البراق ١٩٢٩" مجلة الشرق الاوسط ، ص ٢١٥ .

القرى والتى أشتروها ، وتعدوا على سكان القرى المجاورة وحاولوا اكراههم على الخروج وبيعها لهم . من ذلك ماحدث فى قرية (لوبيه) فى قضاء طبريا وما حدث فى أحدى القرى القريبة من القدس . يضاف إلى ذلك حوادث التعديات المختلفة التى يشنها سكان المستعمرات على أبناء القرى المجاورة مستغلين تساهل السلطات معهم وسماحهم لهم بالتسلح (١) .

وجرت إشتباكات بين أهالى قرية غابة الجركس وبين أهالى الخضيرة من اليهود بسبب إعتداد اليهود على أرض تخص العرب فوصفت جريدة مرآة الغرب هذا الاعتداء بقولها " هذا ماتوصل إليه المستعمرون الاسرائيليون الذين كانوا قبلاً يوصفون بالمسالمة أو الجبانه ، أصبحو الآن وقد أشتد ساعدهم فأخذوا يعتدون على أهالى القرية موصفوفين بالشدة والبأس . فماذا يكون نصيب سائر البلاد معهم بعد أن يزداد عددهم ويملكون مواردها الإقتصادية ويقضوا على أعنة الثروة (٢) كما لمس الأهالى العرب بأن اليهود الأجانب الذين حلوا من بفلسطين لهم كل مقومات الحكم الذاتى فى مستعمراتهم وأحيائهم فلهم نقودهم وبريدهم وعملهم ونشيدهم ولغتهم العبرية وإحتفالاتهم القومية .. الخ (٣) .

ولما أشتدت وطأة الحركة الصهيونية على عرب فلسطين ، إستغاث الاعيان فى القدس ويافا وغزة فى إبريل ١٩١٤ م بالمنتدى الإدبى فى الاستانه وناشده العمل بحزم ضد التيار الصهيونى الجارف الذى هدد المواردالإقتصادية للفلاح والتاجر ، ولفتوا الإنتباه إلى نفوذ الحركة الصهيونية فى دوائر الحكم فى المتصرفيه ، وأن حكومة إسرائيلية قد تأسست بينهم ، تقاصص وتجازى وأوضحوا أنه إذا كانت الحاجة إلى الاصلاح شديدة فأن الحاجة إلى دفع الخطر الصهيونية أشد ، ثم ناشدوا المنتدى بأسم الوطنية أن يستعمل كل مالديه من الوسائل المشروعة لينبة الحكومة إلى الخطر الصهيونى (٤) .

---

(١) خيرية قاسمية ، النشاط الصهيونى فى الشرق العربى وصداه ، ص ٢٥٤ .
(٢) مرآة الغرب ١٩١٤/٤/٤م نقلاً عن خيرية قاسمية ، ص ٢٥٤ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) عبد العزيز عوض " الحركة العربية فى متصرفية القدس " مجلة الشرق الاوسط ، القاهرة ، يناير ١٩٧٤م ، ص ١٥٦ .

كما أتخذ المجلس الإدارى فى نابلس قراراًيقضى بعدم البيع للصهيونيين فى اللواء ، فحاولت الحركة الصهيونية السعى بفصل إرتباط القرى اللواء وإلحاقها بقضا ءيافا بدعوى قربها ليسهل عليهم شراء الأرض فيها ، وأشتدت مناوئة الصهيونيين فوزعت منشورات فى القدس تحذر من الخطر الصهيونى ، وتضمنت نداءً حاراً إلى أبناء البلاد ثم طلبت منهم مايلى :

١ - مطالبة الحكومة بالحاح بصد تيار الهجرة الجارف .

٢- السعى لتقوية التجارة الوطنية والصناعية .

٣- السعى لتقوية التجارة الوطنية والصناعية .

٤ ـ عدم بيع الأراضي لليهود .

٥- عدم النظر فى كل الوسائل التى تدعو إلى عدم هجرة العرب من فلسطين (١) .

وهكذا واصلت الصحف حملتها على الصهيونية بالرغم من تعطيل بعضها دون لين أو هوادة ، حتى بداية الحرب العالمية الأولى فى آب (أغسطس) ١٩١٤م . ومع ذلك فإن نشوب الحرب لم يمنع العرب من التفكير فى إتخاذ إجراء ماضد الصهيونيين .إذ يستفاد مما قاله بيرلمان أن الأوراق والمستندات التى وضع الأتراك أيديهم عليها عام ١٩١٥م تكشف عن وجود خطة للتخلص من الصهيونية تقضى باضرام النار فى المستعمرات اليهودية وطرد السكان اليهود . وجاد فى تلك الأوراق أن الصهيونيين هم ألد أعداء العرب وهذا هو السبب الذى من أجله كان الأتراك على إستعدادتام لمساعدتهم (٢) .

وبنشوب الحرب العالمية الأولى ، توقف النشاط ضد الحركة الصهيونية لانتقال مركز نشاطها إلى مجالات عالمية أوسع من جهة ، ولأن الشرق العربى نفسه قد شغلته أحداث الحرب بعد أن أصبح أحد ميادينها العسكرية من جهة أخرى ، ولتغير موقف تركيا نفسه من اليهود ابان الحرب أيضاً ، فقد ألغت تركيا إمتيازات نظام الحماية التى كان المواطنون

---

(٢) المصدر السابق .
(١) عبد الوهاب الكيالى : تايخ فلسطين الحديث ، ص ٨٢ .

الأجانب ومن ضمنهم المهاجرون اليهود يتمتعون بها [1] . واعتبرت تركيا يهود روسيا مواطني دولة معادية كانت في حالة حرب مع تركيا ، فاضطر حوالى ٣٠ ألف يهودى إلى النزوح من فلسطين وبذلك وصل عدد السكان اليهود فيها في نهاية الحرب إلى نحو ٥٦ ألف نسمة بدلاً من ٨٥ ألف عند بدايتها . ونال اليهود أيضاً في فلسطين نصيبهم من سياسة الإضطهاد [2] والتى إنتهجها جمال باشا في سوريا الكبرى ، فقامت السلطات العثمانية بحظر النشاط الصهيونى فى البلد ، وأمرت بحل كل المنظمات الصهيونية العاملة فيه ، وقام جمال باشا بنفى عدد من الزعماء الصهيونية البارزين من فلسطين وكان من بينهم دافيد بن غوريون واسحق بن زفى وغيرهم . كما أشتدت الاجراءات القمعيه ضد اليهود فى أواخر عام ١٩١٧م عندما أكتشفت السلطات العثمانية شبكة تجسس (نيلى) وتعمل بين يهود فلسطين لصالح بريطانيا ونتيجة لذلك فرض الأتراك حصاراً حول بعض المستوطنات اليهودية، ونكلت بسكانها وأعتقلت أعداداً كبيرة منهم ، وأعدمت بعض قادة التجسس (نيلى) وزاد من حدة الاجراءات التى إتخذت ضد سكان المستوطنات اليهود الاضطراب الذى ساد فى صفوف القوات التركية مع بدء الهجوم البريطانى من سيناء إلى جنوب فلسطين [3] .

أدى الغاء تلك الامتيازات إلى خروج تظاهرات تأييد عربية فى يافا والقدس وقام المتظاهرون فى إحداها بوضع قبعة من ذلك النوع الذى يستعمله المستوطنون اليهود على رأس كلب ورجموه بالحجارة وهم ينشدون " الحماية مثل الصوماية " (الحذاء) [4] .

---

(١) صبرى جريس : تاريخ الصهيونية الجزء الاول بيروت مركز الابحاث ١٩٧٧م ، ص ٢٩٠ .

(٢) فى عام ١٩١٥م اقتحم الرائد حسن الجابى اجتماعاً سرياً لفرع الجمعية الصهيونية فى مدينة يافا وضبط أوراقاً سرية هامة وخطيرة ، ونفى بعض رجالات الصهيونية خارج المدينة ،وأبرق أهل يافا إلى السلطان العثمانى فى ذلك الوقت مظهرين خطر الصهيونية ، انظر : عادل غنيم " موقف عرب فلسطين من اليهود والصهيونية ومن الحرب العالمية الاولى حتى اضطرابات الباق ١٩٢٩م ، ٢١٥ .

(٣) صبرى جرجس : تاريخ الصهيونية ، جـ ١ ، ص ٢٩٤ - ٢٩٥ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٩١ .

كما أبدى عرب فلسطين تأييدهم وترحيبهم بالاجراءات القمعية ضد اليهود ، ولكنهم مع ذلك كانوا غير راضين عن موقف السلطات لمنعهم من تنفيذ مخططاتهم السرية ضد اليهود . وربما كانت السلطات العثمانية آنذاك معذورة لأنها مشغولة فى ميادين الحرب وتخشى قيام حرب أهليه فى منطقة الحرب قد تؤثر عليها ولربما كان بعض الساسة العثمانيين متعاطفين معهم .

وهكذا كانت نظرة عرب فلسطين للحركة الصهيونية نظرة واقعية ، فقد أحسوا بخطر الغزو الصهيونى الذى يتهددهم ، وكانوا يخشون من قيام دولة صهيونية فى فلسطين من خلال تحركات الصهيونية فأدركوا أن المعركة مع الصهيونية هى معركة بقاء أو فناء وأن نجاح الحركة الصهيونية يعنى أن الصهيونيين سيتملكون البلاد ونصبح نحن فيها غرباء وكان التخوف الشعبى يذهب أبعد من ذلك وكأنه يتنبأ بالمستقبل ، ويخشى من المصير الأسود الذى سيلاقية الفلسطينيون إذا لم ينهض المخلصون ويخفوا لانقاذهم .

ولاشك أن الحملات والنشاطات التى قام بها الفلسطنييون كانت تستهدف تعبئة البلاد ضد الحركة الصهيونية (جمعيات ، برقيات ، مظاهرات ، شركات) وممارسة ضغط على السلطات من أجل إتخاذ إجراءات تحول دون تمكن الحركة الصهيونية من التوسع والتغلغل وتعبئة الرأى العام فلسطينياًوعربيا ضد السماسرة وبائعى الأراضى وكبار الملاك . وعلى ذلك فإن مقاومة عرب فلسطين للصهيونية كانت سابقة على وعد بلفور. وهذا يدل على وعى وادراك عظيمين لأبعاد الخطر الصهيونى الذى ظهر مع تبلور الصهيونية السياسية عام ١٨٩٧م بدأ الصراع العربى الصهيونى منذ ذلك الوقت ، ولكنه ظل ضيقاً ومحدوداً حتى أعلان وعد بلفور ، ثم زاد تأججاً بعد وضع سياسة الوطن القومى موضع التطبيق خلال الانتداب البريطانى على فلسطين ، وقد حدد هذا كله طبيعه الصراع بين الطرفين ، وأوضح التناقض بين الحركة الوطنية العربية والحركة الصهيونية . ولاشك أن خلفية الصراع وجذوره تعود إلى عوامل سياسية وإجتماعية وإقتصادية فمن الناحية السياسية تسعى الحركة الصهيونية إلى السيطرة والاستعمار والاحتلال شأنها فى ذلك شأن الدول الاستعمارية

الكبرى لما بينهما من ترابط فى المصير والوجود والمصالح المشتركة ومن الناحية الإجتماعية فإن المجتمع الفلسطينى يعتبر مجتمعاً زراعياً فى الدرجة الأولى ومجتمع كهذا لابد أن يكون محافظاً ، وأن يكون أهلة ملتصقين بالأرض كما أن مثل هذا المجتمع ينظر بريبة إلى الغربي دائماً لما بينهما من تفاوت وإختلاف فى العادات والتقاليد .

أما من الناحية الاقتصادية فقد شعرت فئة الفلاحين والعمال والحرفيين بأن الصهيونية قد قدمت تحديا لكل هؤلاء بما فى صفوفها من حرفيين وخريجى جامعات وعمال مهنيين ورؤوس أموال وخبرة يهودية عالميه فى كل المجالات وأنه بالتالى ستسيطر الصناعة اليهودية على الصناعة العربية وتعمل على عرقلتها ، ولذا كانت المعارضة العربية للصهيونية معارضة عنيفة وشرسة ، وتطورت إلى معركة بقاء أو فناء استمرت حتى بعد قيام الحرب العالمية الأولى خلال فترة الانتداب البريطانى على فلسطين إلا أن الظروف الدولية والعربية والمحلية كانت أقوى من طاقات الفلسطينيين وإمكاناتهم للحيلولة دون تحقيق نصر حاسم للصهيونية بتحقيق حلمهم وإنشاء دولتهم عام ١٩٤٨م.

فلسطين ومراسلات الشريف الحسين -مكماهون ١٩١٥ - ١٩١٦

د . محمد حسن العيدروس
كلية الآداب ـ قسم التاريخ
جامعة الكويت

مقدمة :

نجد فى التاريخ بعض المغالاطات وبعض البس والغموض او عدم الفهم لكثير من الشخصيات والثورات فى العالم ، فقد وجدنا ان شخصية الشريف الحسين لم يتم دراستها كما يجب وكذلك الثورة العربية ، فلو كان الشريف الحسين نجح فى موقفه امام بريطانيا او لو لم تغدر به الأخيرة والحلفاء لكان وضع الشريف الحسين اليوم مختلف تماما وكنا نجد الكثير من الدراسات عنه كما يحدث لمعظم الحكام من العرب ، وعلينا ان لا نظلم هذه الشخصية السياسية التى كانت من رموز الثورة العربية كما ظلمتها بريطانيا وغدرت به منذ بداية الحرب العالمية الأولى .

فقد غدرت الدول الأستعمارية ولا سيما بريطانيا وفرنسا بالثورة العربية وقائدها منذ الأيام الأولى للثورة وقامت بتنفيذ مخططاتها السرية التى كانت بالطبع متناقضة كلية مع مصلحة الأمة العربية ، الجحود الذى لقيت هذه الثورة منذ قيامها وحتى الوقت الحاضر ، وما من حركة ثورية فى التاريخ العربى لقيت تجنيا وظلما وتباينا وتناقضا فى الأراء والأحكام مثل ما لقيته هذه الثورة فمن كتب عنها من غير العرب انما كتب متأثرا بمواقف بلده ومصالحه وفى ضوء ما عثر عليه مما يسمى " وثائق" وللوثائق

عامة ووثائق الثورة العربية خاصة حديث ذو شجون ، اما موقف الكتاب العرب فهو اثر غرابة وايلاما فبدلا من ان يفهموا وهم الاكثر قدرة على ذلك من غيرهم واقربهم الى الواقع ، الظروف الموضوعية التى عايشتها الثورة العربية وعاشها زعماؤها وهى ظروف ندر مثيلها فى التعقيد والصعوبة وبدلا من أن يأخذوا مصادرهم من أقوال رجالاتهم وبعضهم كان ما يزال حيا الى وقت قريب ودماء ابطالها وشهدائها لم تجف بعد بدلا من هذا كله تأثروا بغباء أو عن قصد بوثائق كتبها من كان يتأمر على الثورة . (١)

اسقط كثير من الكتاب العرب ظروف عصرهم وإنتماءاتهم الفكرية والسياسية على هذه الثورة وقادتها فحكموا عليها وعليهم من خلال مقاييس ومنطلقات لو طبقت على غيرها من الثورات الكبرى التى عرفها عصرنا والعصر الذى سبقه لهزمت هذه الثورات ونبشت قبور زعمائها وحطمت تما ثيلهم التى تمجدها شعوبهم فلو طبقنا على سبيل المثال مقاييس الماركسيين فى حكمهم على الشريف الحسين ورفاقه على لينين لخرجنا بنتيجة ان لينين ليس سوى عميل للالمان متأمر على الشعب الروسى وذلك حين وقع على معاهدة " برست ليتوفسك " التى وصفت انها اذلال لا مثيل له فى التاريخ الحديث حيث تنازل عن مساحات تبلغ فى سعتها " النمسا و " المجر " و " تركيا " معا فى حين ان الشريف الحسين لم يتنازل عن شبر واحد واكتفى بارجاء البحث فى وضع بعض المناطق فى شمال غرب سوريا والتى كانت ماتزال خاضعة تحت سيطرة الأتراك تاركا بذلك للثوار العرب حسم الموضوع . (٢)

لذا يجب اعادة النظر فى تاريخ هذه الشخصية وموقفها من القضية الفلسطينية التى كانت السبب فى تخلص بريطانيا منها لانها كانت عقبة رئيسية فى طريق السياسة البريطانية تجاة المنطقة العربية عامة والقضية الفلسطينية خاصة ، كما يجب اعادة الكتابة عن الثورة العربية كأول وأكبر ثورة قومية رفعت شعار الوحدة العربية والدولة العربية القومية .

سوف نتناول فى هذه الدراسة عن الشريف الحسين والثورة العربية الكبرى وعلاقته بالاتراك وعن مراسلات مكماهون وقضية فلسطين ، تلك المراسلات التى تعتبر جوهر

العلاقات العربية البريطانية وما نتج عنها من انعكاسات لازالت اثارها باقية على القضية العربية عامة والفلسطينية خاصة وتدور حولها عدة تفسيرات وهذا ما نحاول توضيحها فى هذه الدراسة .

الشريف الحسين وعلاقته بالاتراك

ارتبط الشريف الحسين بعلاقة قوية مع السلطان عبد الحميد الثانى الذى عينه عضوا فى مجلس الشورى للدولة العثمانية وعندما شغل منصب اميرمكة بوفاة الشريف عبدالاله عم الشريف حسين الذى طلب من السلطان عبد الحميد الثانى العودة الى مكة واستجيب الى طلبه وعين اميراً لمكة ، وقد اغضب هذا التعيين حزب الاتحاد والترقى لما عرف من الشريف الحسين من حرص على القيم الأسلامية ولما له من مكانه متميزة فى العالمين العرب والأسلامى وكان حزب الأتحاد والترقى يحاول الاستحواذ على الحكم بعد ان ظفر بما اراد من انقلاب دستوري بتولية المناصب لكل من ينتمى الى هذا الحزب ، وعندما قابل الشريف الحسين السلطان عبد الحميد الثانى قبل سفره الى مكة قال له :-

" أسال الله ان يجازي من حال بينى وبين الأستفادة من مواهبك الهاشمية واني لست بالامين على الدولة والملك من هذه الفئة المتغلبة " ويقصد بجماعة الاتحاد والترقى ، وبعد ان وصل الشريف الحسين الى " جدة " زاره وفد من حزب الاتحاد والترقى وتكلم رئيسة قائلا :-

" جئنا نرحب بالشريف الدستورى الذي يؤمل من سيادته ان يضرب صفحا عن الأصول الأدارية القديمة وعن الظلم الذي ارتكبه الشريف عون والشريف علي تبعاً للادارة المستبدة السابقة وارضاء السلطان وان البلاد اذ تحي سيادة الامير الذي عرف روح العصر والتجديد المطلوب للعمل تحت الدستور الذي هو نبراس السلامة " .

وقد اجاب الشريف الحسين بقوله :-

" لقد حظيت بمقام اسرتي وآبائى على الشريعة التي بايع بها الشريف "ابو نمى " السلطان سليم الأول وان هذه البلاد لا تقوم فيها غير شريعة الله المتمثلة على الامر

بالمعروف والنهي عن المنكر وهى حريصة على الإحتفاظ بحقها ، فليذهب كل منكم ليشتغل بما يخصه وان السلطان الآمر بالدستور الذي نذكره والذي امر بأن يعمل في بلاده يفتخر هو واسلافه أنه من خدام الحرمين الشريفين ودستور كتاب الله وسنة نبيه. (٣) شعر جماعة الاتحاد والترقي بان الشريف الحسين لا يسير في ركابهم لذا بدأت الحرب بينه وبينهم من تلك اللحظة ، وفى عام ١٩٠٨ نجح جماعة الاتحاد والترقى فى انقلاب عسكري ضد السلطان عبد الحميد وخلعوه في عام ١٩٠٩ ، وبدأ الاتحاديون يخرجون علي القيم الاسلامية ويعدمون من العرب كما يرسلونهم فى حروب خاسرة مع المانيا فيما وراء الحدود رغم تحذيرات الشريف الحسين بعدم دخول الحرب العالمية الاولى بسبب ضعفهم وفقرهم الأقتصادي وكونهم تحت رحمة اساطيل الحلفاء فى البحر ، فلم يقبل الأتحاديون بنصيحة الشريف الحسين بل انهم كلفوه باعلان الجهاد وجمع المتطوعين ، وتخلص الحسين بصعوبة ومهارة من اعلان الجهاد بحجة ان ذلك قد يثير البريطانيين فى البحر الأحمر ويجعلهم يحاصرون شواطىء الحجاز ، اما بالنسبة لدعوة الجهاد فقال ان ذلك مشروط باعطاء الاتراك استقلالا ذاتيا للمشرق العربى الذي يقع شرق البحر المتوسط وتضم العراق وبلاد الشام والجزيرة العربية ، فرفضوا شروطه واصروا على اعلان الجهاد كما اهملوا الدفاع عن المشرق العربي بان ركزوا معظم قواتهم في جبهة " القفقاس " والجبهة الغربية وقد شجع تقلص الوجود العسكري التركي العربي على الثورة . (٤)

بداية العلاقة بين الشريف الحسين وبريطانيا

يعتبر الامير عبد الله الابن الثاني لشريف مكة وكان فى مقدمة النواب العرب في البرلمان العثماني وشخصاً بارزا فى الدوائر السياسية وكان ميله الطبيعي لمزاولة الشؤون السياسية القبلية وحماسته لاعلاء شأن اسرته سببا فى ان اختاره والده للامور التى تحتاج الى الثقة كالنيابة والوساطة وكان على علاقة مع " كتشنر " الذي اصبح وزيرا

للحربية مع قيام الحرب العالمية الاولى والذى طلب من " ستورز " الذي خلفه في المعتمد البريطاني في القاهرة بأن يتأكد من عبد الله عن الاتجاه الذي سيسير فيه العرب اذا دخلت تركيا الحرب اذ ان من الواضح ان انحيازهم اى جانبنا فضلا عن الاعتبارات الأخرى سيقوى من موقفنا العسكري وزوده بتعليمات اكثر تحديدا ودقة اذ طلب منه ان يستفهم من الامير عبد الله عن موقف شريف مكة اذا ما استطاعت المانيا ان تحمل تركيا على دخول الحرب فى صفها وهل سيناصر الشريف فى هذه المسألة قضية تركيا او يناصر بريطانيا عليها .

وضعت رسالة كتشنر " الشريف الحسين فى موقف حرج ، وكان أمام العرب طريقان لا ثالث لهما ، فأما ان يقفوا بجانب تركيا فى ساعة محنتها برغم خروجها عن الاسلام واتباعها " سياسة التتريك " المعادية للقومية العربية فيكسبون بذلك عرفانها بالجميل دون تحقيق اهدافهم القومية ، واما ان يثوروا عليها ويطلبوا حريتهم بحد السيف ، فاى هذين الطريقين يسلكون وكان لابنى الشريف الحسين اللذين استشارهما رأيان متناقضان ، فكان الامير فيصل يميل الى سلوك الطريق الاول لانه كان مقتنعا بان لفرنسا مطامع فى بلاد الشام ولبريطانيا مطامع فى العراق وفلسطين والاردن وان ماعرضه " كتشنر " لم يشتمل على أية ضمانة ازاء هذين الخطرين وكان يري فضلا عن ذلك بان العرب لم يكونوا مستعدين الاستعداد الكافى فكان يخشى ان تخفق الثورة فى اولها فى حين كان الامير عبد الله يري غير ذلك نظرا لأنتمائه الى احدى الجمعيات السريةالعربية فى بلاد الشام جعله يدرك قوة الشعور الثوري ، ولما كان ذا طبيعه متفائلة فقد كان واثقا ان " دمشق " و " بغداد " ستتجاوبان مع الدعوة الى الثورة وكان يرى ان الطريق السليم ليس فى رفض ما عرض " كتشنر " بحجة انه عرض غير كاف بل فى الوصول عن طريق المفاوضات الى معرفة المقصود بهذا العرض وهل يعتبر ضمانا كاملا لاستقلال العرب ، وقد تشبث كل واحد من الأخوين برايه واصر عليه خلال الإجتماعات التى واصل والدهما عقدها معهما ولم يزحزح اي واحد منهما عن موقفه وكان الشريف الحسين يميل بصورة

عامة إلى راى فيصل فى عدم استعداد العرب فى الولايات الأخرى ومع ذلك فقد دعاه اصرار عبد الله والحاحة الى التريث ، وأخيراً انتهى الى قرار وسط وهو ان يوفد مبعوثين الى بلاد الشام والى كبار زعماء العرب ليطلعوا على حقيقة الشعور القومى وما مدى استعدادهم للثورة وليسبروا اغوار الزعماء كما قرر من جهة أخرى ان يمد الجسور مع "كتشنر " بالقدر الذى يكفى دون زيادة لابقاء الصلة بينهما ولذلك كتب رسالة الى "ستورز " وقعها عبد الله اظهر فيها انه راغب فى الوصول الى تفاهم مع بريطانيا ولكنه مع ذلك غير قادر على أن يغير موقف الحياد الذي يفرض عليه مركزه الدينى فى الاسلام وقصر اشاراته فى الرسالة على الحجاز وحدها وتجنب بحذر ان يربط البلاد العربية الأخرى بشىء ، ولمح انه قد يستطيع ان يقود اتباعه القريبين الى الثورة اذا ما اضطره الاتراك الى ذلك على شرط ان تتعهد له بريطانيا بتقديم مساعدة فعالة ، وأن مجرد انضمام الاتراك الى جانب الدول المركزية المانيا والنمسا معناه ان قضية وامال العرب القومية لابد لهامن ان تفحم فى فلك السياسة الاوربية واصبح موقف العرب منذ ذلك الوقت موضع اهتمام مباشر من قبل الحلفاء وخاصة بريطانيا ولعل " كتشنر " كان اكثر ساسة بريطانيا ادراكا للأخطار الناجمة عن الموقف فى المشرق العربى وسيبقى له و " لرونالد ستورز " الفضل فى انهما اول من فكر فى مواجهة هذه الأخطار بخطواتهما الجريئة بعقد حلف مع الشريف الحسين اذان العون الكبير الذى قدمه شريف الحجاز لقضية الحلفاء فى موقفه من الدعوة الى الجهاد كان عونا لا يستطيع احد سواه تقديمه وكانت خطوة كتشنر " لضمان تأييد الشريف الحسين قبل فوات الفرصة ، ضربة معلم تدل على الذكاء وبعد النظر وكان موقف الشريف الحسين موقفا فريداً لا نظيرله سواء من الناحية المعنوية او المادية اى من ناحية القيمة السياسية لاشتراكه وتداخله او من ناحية المساعدة العسكرية التى استطاع ان يقدمها فى الوقت الذي كان هناك فى الجزيرة العربية زعماء أخرون من العرب يتمتعون بسلطة مطلقة على اتباعهم ولهم من القوات العسكرية ما يساوي على الأقل قوات الشريف الحسين غير ان الاخير كان يتمتع من وجهة نظر الحلفاء بميزتين كبيرتين لم يكن يتمتع بهما احد من جيرانه وهما : - (٥)

الميزة الاولى: - قيمة موقعه الحربي فى وسط القوات التركية فى الجزيرة العربية وكان اكثر ما يستطيع ان يقوم به " الادريسي " فى عسير " والامام الزيدى فى اليمن هو ان يشل حركة الحاميات العسكرية المحلية ويجعلاها عاجزة عن العمل ، اما ابن سعود فلم يكن على صلة بالقوات التركية ، بينما كان الشريف الحسين قادراً بجيشه القبلى الذي يستطيع حشده فى الحجاز على ان يضرب قلب القوات التركية فى بلاد العرب ويقطع خطوط مواصلاتها مع الشمال فيعزل بذلك الحاميات المعسكرة فى " عسير " واليمن .

الميزة الثانية: - فهى مكانته الفريدة التى لا تعادلها مكانة شخص آخر فى العالم الاسلامى تلك المكانة التى تستمد قوتها من نسبه الى " آل البيت " والى الرسول (ص)، ومن منصبه في شرافة مكة المكرمة بينما كانت سلطة جيرانه محصورة فى نطاق اراضيهم ، فان سلطته كانت تتجاوز حدود بلاده ويمتد صوته الى الجموع الغفيرة من سكان العالم الاسلامى فهو حفيد النبى (ﷺ) والقيم على الاماكن المقدسة وهذان الامران اللذان يتوجبان التبجيل وضعه فى منزلة ينفرد بها ولا يطاوله فيها أحد بلغت من الرفعة بحيث كان لا يستطيع ان ينازع السلطان العثمانى نفسه في الشؤون التي تتصل بسلامة المدينتين المقدستين فقد كان امير مكة حاضرة الاسلام ، ولايستطيع مسلم مؤمن ان يصم اذنيه عن ندائه وخاصة اذا كان عربيا ، وكان يقع عليه وحده دون غيره عبء تأييد السلطان العثمانى حينما يعلن للناس ان الأماكن المقدسة فى " مكة " و " المدينة " معرضه للخطر ، وهكذا فإن مؤازرته فى امر كالدعوة للجهاد كانت عاملا مهما بل عاملا حاسما ، ولذلك كان الاتراك يسعون بلهفة الى الحصول على هذه المؤازرة للاسباب نفسها التى كان الحلفاء يخشون مؤازرته للاتراك ولم يكن ثمة شخص غيره يستطيع ان يجرد الدعوة الى الجهاد التي اطلقها جماعة الاتحاد والترقي من قوتها الاساسية حينما يمتنع عن تاييدها .

ولهذا يمكن القول بان توجه القوميون العرب في سوريا كان في مكانه الصحيح عندما اتجهوا الى الشريف الحسين وبايعوه بالزعامة والقوا على كاهلة مسئولية قيادة

العرب نحو الوحدة والاستقلال هذان الهدفان اللذان ما كان ليستطيع العرب ان يحققوها دون معاضدة خارجية ، وان هذا كله اثقل حمل الشريف الحسين وحمله ليس فقط هم الحجاز بل هم الاقاليم العربية كلها الى الشرق من الحدود المصرية ، وهذه المتاعب والهموم جعلت رأى الشريف الحسين يستقر الى جانب رأى ابنائه ورأى زعماء القوميين العرب في سوريا على التفاوض مع بريطانيا للحصول على الدعم الدولي والمعونة المادية التى لم يكن للعرب غنى عنها .(٦)

اما سبب الاختيار على بريطانيا فكان امرا طبيعيا لانها الدولة الاكثر حضوراً في المنطقة فهي موجودة في مصر والسودان وعدن وشرق الجزيرة العربية وسمعتها عند العرب طيبة مقارنة لفرنسا التى كانت لحكمها في الجزائر والمغرب وتونس سمعة سيئة وكذلك لروسيا التى عرفت بعدائها للاسلام ، كان هذا التفكير لايبرح ذهن الشريف الحسين على الاقل لسبرغور بريطانيا ومعرفة نواياها الحقيقية نحو العرب معرفة الثقة، وسبب آخر دفع الشريف الحسين الى ارسال مذكرته الاولى وجعل صبره ينفذ في الانتظار وهي حملة الاعتقالات والارهاب الى قام بها جمال باشا في سوريا منذ شهر ابريل ١٩١٥، وكذلك اقتناع السوريين بان جماعة الاتحاد والتركي يضمرون الشر كل الشر للعرب وبأنهم قادرون على القيام بثورة ناجحة في سوريا بالتعاون مع امير الحجاز . (٧)

بعث الشريف الحسين بأبنه فيصل الي سوريا التى وصل إليها فى ٢٦ / ٣ / ١٩١٤ ومكث في دمشق اربعة اسابيع قبل ان يتوجه الى اسطنبول وقد استقبله جمال باشا بمظاهر الترحيب ودعاه الى الاقامة في مقر القيادة العامة ولكن الامير فيصل اعتذر عن ذلك لانه كان قد وعد "آل البكري " ان ينزل عندهم ، وفي اثناء هذه المدة التي قضاها الامير فيصل في دمشق اطلع على اسرار الحركة القومية العربية وبدأت المباحثات السياسية الدقيقة وكانت اولى هذه المباحثات مع الاعضاء البارزين فى جمعية العربية للفتاة " وقد ترددوا في البداية في ان يصرحوا بما يدور في نفوسهم اذ كان

فيصل غريبا عنهم في هذا الوقت الذي كان اخوه عبد الله أحد الاعضاء البارزين فيهم ، كما كان معروفا عن فيصل بميله للتعاون مع الاتراك وكان الجميع يتحدثون بحذر وتحفظ الى ان كشف فيصل بعض الشيء عن دخيلة نفسه وصرح بان تفضيله للاتراك ناجم عن مخاوفه من الاطماع الاوربية في بلاد الشام والعراق وقد غير هذا التصريح مجرى الحديث تغيرا جوهريا اذ دل على ان وحدة المشاعر بين فيصل ومحدثيه وحدة لاريبه فيها وبدأو على الفور يشرحون له الاسباب التي دفعتهم في طريقهم فقد وافقت اللجنة العلياً لجمعية العربية الفتاة " في اجتماعها الذي عقد قبل مجيء فيصل ببضعة شهور على القرار التالى :-

" نتيجة لإشتراك تركيا في الحرب اصبح مصير الولايات العربية في الدولة العثمانية معرضا لمخاطر شديدة ويجب بذل جميع الجهود لضمان حريتها واستقلالها كما تقرر انه اذا تحقق للدول الأوربية مطامع في هذه البلاد فان الجمعية ملزمة بان تعمل الى جانب تركيا لكي تقاوم التدخل الأجنبي مهما تكن صورته " واصبح فيصل اقرب الى نفوس اعضاء " جمعية " العربية الفتاة " بعد اكتشاف هذا الاساس المشترك بين اتجاهيهما المختلفين وبذلك سادت مباحثاتهم روح المودة والتفاهم وكشفت الجمعية اسرارها ففيصل أصبح عضوا فيها بعد ان حلف اليمين ، ثم اجتمع ببعض اعضاء جمعية العهد وهى المنظمة السرية التي تضم ضباط الجيش وقد وجد ان موقف هذه المنظمة مطابق لموقف الجمعية السابقة فكانت كلتاهما ترغبان في الانفصال عن الاتراك ولكن الرغبة كان يكبحها الخوف من المطامع الاستعمارية الفرنسية والبريطانية والايطالية والروسية ، وعندما عاد فيصل الى دمشق من اسطنبول في ٢٣ / ٣ / ١٩١٤ وجد ان زملاءه في جمعيتي الفتاة والعهد قد اتفقوا على خطة العمل اثناء غيابه ووضعوا ميثاقا يتضمن الشروط التي يطالب الزعماء العرب بتحقيقها لكي يؤازروا بريطانيا على تركيا واتفقوا على ان يحمل فيصل هذا الميثاق الى مكة ويطلب من والده ان يعرف من الحكومة

البريطانية هل تقبل هذه الشروط اساساً للعمل المشترك واهمية هذا الميثاق يجعلنا نورده كاملا :-[٨]

" اعتراف بريطانيا باستقلال البلاد العربية الواقعة ضمن الحدودالتالية :-

شمالا : - خط مرسين - اخنة الى ما يوازي خط العرض ٣٧ شمالا ثم على امتداد خط بيريجيك - اورفة - ماردين - مديات - جزيرة ابن عمرو - العمادية الى حدود ايران .

شرقا : - على امتداد حدود ايران اى جبال زاجروس الى الخليج العربى .

جنوباً :- المحيط الهندي "باستثناء " عدن " التى يبقى وضعها الحالي كما هو .

غرباً : على امتداد البحر الأحمر ثم البحر المتوسط الى مرسين .

الغاء جميع الامتيازات الاستثنائية التي منحت للأجانب بمقتضى الامتيازات الاجنبية وعقد معاهدة دفاعية بين بريطانيا وهذه الدولة العربية المستقلة تقديم بريطانيا وتفضيلها على غيرها من الدول في المشروعات الاقتصادية"

تلك هي الشروط التى كان يتمسك بتحقيقها الزعماء العرب لكي يقوموا بثورة عربية قومية يعلنها الشريف الحسين ويبذلوا اقصى جهدهم لمؤازرة قضية الحلفاء ويعتبر " ميثاق دمشق " ذو قيمة كبيرة ولا تقتصر قيمته على اهمية ما تضمنه من شروط فحسب وانما تتمثل ايضا فى ان الشريف الحسين قد استخدم نصوصه بعد ذلك في شهر يوليو حينما استأنف مباحثاته مع بريطانيا في " مراسلات مكماهون " ، وكما كانت هذه الوثيقة يجب ان تظل سرية فقد صيغت في الفاظ قليلة بالقدر الذي يؤدي المعنى المقصود وجاءت في صورة تعبير موجز عن المبادىء العامة ولكن معناها بلغ من الوضوح بحيث يدل على نفسه في نقطتين اساسيتين هما :- استقلال العرب والتحالف مع بريطانيا وربما كانت قيمتها الكبرى بأنها اول وثيقة تاريخية تعبر عن مشاعر العرب

القوميـة بالاستقلال والوحدة العربية وتتمثل في انها توضح موقف العرب تجاه الدول العربية الكبرى وكان الهدف الاول هو الاستقلال التام بعيدا عن اي تدخل حتى ما كان يعرف باسم الامتيـازات الاجنبيـة ، وإذا ما وافقت بريطانيا على ذلك فـانهم يرحبون بالتحالف معها ولقد اعرب فيصل اثناء المحادثات التي اجراها بعد عودته الي دمشق عن شكوكه في ان يقبل الحلفاء هذه الشروط اذا كان يرتاب في نواياهم الاستعمارية ارتيابا عميقا ومع ذلك فقد كان يرى ان هذه الشروط اقل ما يمكن المطالبة به في سبيل قيام العرب بالثورة ووعد بان يسارع الى مكة ليعرضها على والده ويطلب موافقته عليها ثم حلف ستة من الزعماء الرئيسين يمين الولاء وتعاهدوا على ان يعتبروا الشريف الحسين هو ممثل الشعب العربي وعلى ان تهب الفرق العربية المرابطة في بلاد الشام هبة رجل واحد اذا ما اتفقت بريطانيا مع الشريف الحسين على تحقيق الشروط الواردة في " ميثاق دمشق " وتأكيد لهذا الدور اعطى بدر الدين الحسين اكبر علماء دمشق خاتمة الى فيصل ليسلمه الى الشريف الحسين رمز ثقة سكان سوريا به ، وحينما استأنف الشريف الحسين مباحثاته مع بريطانيا فأنه تمسك" بميثاق دمشق " كشرط من الشروط التى يشترطها العرب لاشتراكهم في الامر وتدخلهم وعلى هذا الاساس جرت المباحثات كما كما اكد الشريف الحسين تصميم الامة العربية على نيل استقلالها السياسى في المذكرة التي بعث بها الى البريطانيين . (٩)

أخذت المذكرة تعدد الشروط التي يتمسك بها الشريف الحسين لكي يستطيع ان يشترك باسم الامة العربية في حلف مع بريطانيا تلك الغاية ونصت المذكرة على ان العرض الذي تضمنته سيظل قائما مدة ثلاثين يوما وطالبت ان يرسل رد صريح بالقبول او الرفض خلال تلك المدة وكانت الشروط التي عرضتها المذكرة واعتبرتها اساسا للتحالف الذي يقبله العرب هي الشروط التي تضمنها " ميثاق دمشق " مع اضافة شرط خاص بالخلافة ينص على انه اذا بويع عربى بالخلافة فان على بريطانيا ان تعترف به كما ذيلت بملحق ينص على ان البنود الخاصة بالمساعدة المتبادلة تظل سارية مدة خمسة عشر

عاما وقد تمدد باتفاق الطرفين واستمرت المذكرات على هذا الاساس حتى ٢٤ / ١٠ / ١٩١٥ عندما انتهت المفاوضات واعتبر الفريقان ان الصفقة قد تمت ولقد تبودلت بعد ذلك مذكرات الشريف الحسين - مكماهون ولكنها كانت تدور حول الاعداد للثورة ولم تضف شيئا سوى تصريحات متكررة عن اخلاص الطرفين لشروط الاتفاق البريطاني - العربي وبلغ عدد المذكرات ثماني مذكرات هي الوحيدة التى توضح نصوص الاتفاق ويتألف منها جميع ما يعرف باسم " مراسلات مكماهون " ومن الممكن تلخيص شروط الاتفاق في مواده الاساسية تخليصاً موجزاً للإلتزامات التى تعهد بها الطرفان في الاعمال الحربية التي لم ينص عليها بصراحة اذ انه تم بحثها شفهيا مع رسول الشريف الحسين ولكن من المفهوم طوال الوقت بحيث لا يشك الشريف وان عليه ان يستخدم جميع قواته ونفوذه مع حشد جميع الموارد المادية التي يستطيع انجازها لتحقيق المهمة بهزيمة القوات التركية كما كان من المفهوم كذلك ان على بريطانيا ان تساعده باكمال النقص في موارده المادية من السلاح والعتاد والمال .

ادركت بريطانيا من خلال هذه المفاوضات اهمية القوة الفتية الصاعدة للعرب وكذلك المفاوض العربي العنيد الشريف الحسين فقد كان " هنري مكماهون " كثير التحفظ شديد المخادعة والمراوغة ولا يخطو خطوة او يتفوه بكلمة قبل ان يرجع الى الحكومة البريطانية يعرض عليها ما تلقاه من رسائل ومقترحات فتضع الجواب بنفسها وتبعث به اليه فيرسله بدوره الى الشريف الحسين الذي لم يكن بأقل منه تحفظا ودهاءً وكما كان مكماهون يرجع الى حكومته كان الشريف الحسين يرجع الى ميثاق دمشق ولا يخطو خطوة او يتفوه بكلمة الا اذا كانت متفقة مع الميثاق روحا ونصا ، وقد تجلى في هذه الرسائل التي استغرق تبادلها ثمانية اشهر النضال بين قوتين كل منهما بحاجة الى الأخرى ففي الوقت الذي تحاول بريطانيا ان تظفر بعون العرب بلاثمن او وعود مبهمة يمكن تأويلها عند الاقتضاء التأويل الذي تريده فقد كان العرب يريدون عهدا واضحا بتأبيد استقلالهم ، وكان لمكما هون " وحكومته البريطانية يتخيلون فى بدء المراسلات

انهم يفاوضون أمير طامحا يمكن اغراؤه بالالقاب وترضيته بالتملق والاطناب في الاطراء والمديح فاجابه الشريف الحسين :-

" اما هدفنا يافخامة الوزير فهو ان نطمئن الى ان الشروط الاساسية لتأمين مستقبلنا ستبنى على اساس الحق والواقع لا على الاسراف في تنميق العبارات والالقاب " واراد مكماهون ان يلهيه عن القضايا الاساسيه التي تتعلق بتحديد الدولة العربية والاعتراف باستقلالها موحدة كاملة بالتلويح له بالخلافة معتقدا ان مطامعه الشخصية قد تلهيه عن مطامعه القومية فأجابة الشريف الحسين في شيء من التهكم " ما الخلافة فالله يرحمها ويحسن عزاء المسلمين فيها " . وقد حاول مكماهون مع تأكيده على حسن نوايا بريطانيا تجاه العرب وموافقتها على قيام دولة عربية التهرب من بحث مسألة حدود هذه الدولة بحجة ان ظروف الحرب لاتسمح بمعالجة هذا الموضوع لاسيما ان بعض هذه الحدود ما تزال تحت سيطرة الاتراك متجاهلاً ان العرب انما بريدون الثورة لا نتزاع هذه الأراضي من السيطرة التركية ولو لم تكن في قبضتهم لما كان هناك مبرر للثورة ، وكان الجواب الذي تلقاه مكماهون من الشريف الحسين غاية في الوطنية والقومية والزهد في المطامع الشخصية فقد قال :- (١١)

" ان هذه الحدود المطلوبة ليست لرجل واحد تتمكن من ارضائه ومفاوضته بعد الحرب بل هي مطالب شعب يعتقد ان حياته في هذه الحدود وهو متفق بأجمعه على هذا الاعتقاد " ثم يكرر هذا المعني في الرسالة نفسها فيقول :- وانا على ثقة ياصاحب الفخامة انكم لا تشكون فقط بأني لست انا شخصيا الذي يطلب تلك الحدود التي يقطنها عرب مثلنا ، بل هي مقترحات شعب بأسره . "

ايقن مكماهون وكذلك حكومته بأنهما لا يفاوضان في شخص الشريف الحسين اميراً طامحا لمجده يمكن الهاؤه او ارضائه بالمناصب او خداعه بالالقاب بل انهما يواجهان شعبا متمسكا بحقه مؤمنا بقضيته يعرف ماذايريد ولماذا يناضل ولا يمكن ان يتراجع عن مطالبه او ينثني عن اهدافه ولن هذا الشعب المؤمن المناضل قد تجسد في شخص الشريف

الحسين فهو انما يتكلم باسمه ويستمد قوته من قوة ذلك الشعب بأسره، وان المتأمل يلاحظ صلابة الشريف الحسين ورباطة جأشه وقوة إيمانه حين يراه في ذلك الموقف القوي وهو يوجه الرسائل وينتظر الأجوبة من أجل تحديد كلمة غامضة او توضيح امر مبهم ويصر على هذه الناحية ويأبي التنازل عن تلك في الوقت الذي يعاني ضغط الوضع السياسى الملتهب في بلاد الشام وكذلك الوضع الاقتصادي المتأزم في الحجاز ويرى تزايد القوات التركية في المدينة المنورة " ويعرف ان هذه القوات ليست موجهة الى اليمن كما تزعم القيادة بل أنه موجه ضده ويدرك بان بريطانيا التى يقف منها ذلك الموقف قادرة في ظروف الحرب على فرض حصارا مميتا لشعبه في الحجاز وتمنع سفن الحجاج من الوصول الى الحرمين الشريفين وفي هذه المفاوضات التاريخية يتخذ الاسد البريطاني صفات الثعلب الماكر فيفر مراوغا ويكر مخادعا بينما تتجلي في المفاوض العربي الذي لا يملك سوي الايمان بعدالة قضية الواثق بان كل كلمة تصدر عنه او عن الفريق الذي يفاوضه هي كلمة شرف من المفروض في كل منهما ان يبذل دمه في سبيلها، وامام هذا الموقف الصلب رأت الحكومة البريطانية ان تحسم الموضوع فأكدت للشريف الحسين انها تعترف بقيام دولة عربية في جميع المناطق الواقعة داخل الحدود التي ذكرها :- حيث بريطانيا مطلقة التصرف بدون ان تمس مصالح حليفتها فرنسا " . وراى الشريف الحسين وقد ضمن تعهدات ايجابية عن المسألة الاساسية الخاصة بالدولة العربية المستقلة ان يرجيء البت في تحفظات بريطانيا بشأن المناطق التى تقول ان لفرنسا مصالح فيها ولا تستطيع ان تنفرد في تقرير مصيرها على ان يعاد النظر في ذلك بعد الحرب على ان لا يفهم من ذلك امكان اي تساهل يكسب فرنسا وسواها شبرا من تلك الجهات . (١٢)

تعهد الشريف الحسين من الناحية السياسية باعلان الثورة العربية وبالتنديد بالاتراك علنا كما تعهدت بريطانيا صراحة بتعهدين واضحين الاول الاعتراف بالخلافة العربية في حالة قيامها والتالي في الاعتراف باستقلال العرب ضمن منطقة معينة وحماية هذا الاستقلال ويمكن تلخيص الامور التى تم الاتفاق عليها بين الفريقين بالبنود التالية :- (١٣)

(١) تعترف بريطانيا بقيام دولة عربية موحدة مستقلة بكل معاني الاستقلال ، يحدها شرقا حدود ايران والخليج العربي وجنوبا المحيط الهندي باستثناء عدن وغربا البحر الاحمر والحدود المصرية والبحر المتوسط وشمالا الحدود الشمالية لولايتي حلب والموصل .

(٢) تحفظت بريطانيا بشأن المناطق التي تقع غربي مناطق دمشق وحمص وحماة وحلب ، مثل الاسكندرونة ولبنان باعتبار ان لفرنسا مصالح فيها وقبل الشريف هذا التحفظ على ان ينظر بشأن هذه المناطق فيما بعد والا يعتبر قبوله هذا تنازلا عن شبر واحد منها لانها عربية صرفة وليس من فرق بين المسلم العربي والمسيحي العربي كلاهما من نسل واحد وكانت اشارته الى المواطنين المسيحيين دليلا واضحا على ان المقصود هو لبنان وليس اية منطقة عربية اخرى كما أكد ان العرب سيطاليون بعودة هذه المنطقة الى حظيرة المنطقة العربية المستقلة عند اول فرصة تضع فيها هذه الحرب اوزارها ويلاحظ ان مكماهون لم يعترض على شيء من ذلك وانه أكد في رسائله التالية ان الحلفاء انما يخوضون الحرب لأجل الحق والحرية وان العرب وهم في حلف واحد وشركاء في هذه الحرب .

(٣) وافق الشريف على التحفظات الخاصة بالامراء العرب الذين تربطهم ببريطانيا علاقات تحالف فى بعض اجزاء جزيرة العرب كابن سعود والبحرين وساحل عمان .

(٤) احتفظت بريطانيا لنفسها بحق اقامة نظام ادارى خاص في ولايتي البصرة وبغداد يكفل تحقيق التعاون البريطاني - العربي في ذلك الجزء من الدولة العربية المستقلة ، ووافق الشريف الحسين على اقامة ذلك النظام الاداري الخاص في تلك المنطقة التى كانت قد دخلت أنئذ في السيطرة البريطانية على ان يكون هذا النظام وقتيا والا يؤدي الى التدخل في الشؤون الداخلية والايعني سلخ اية بقعة عربية وان تدفع الحكومة البريطانية مقابل ذلك تعويضا مالية .

(٥) - لم تبد بريطانيا اي تحفظ فيما يتعلق بفلسطين وشرقي الاردن لان تحفظها كان مقتصراً على المناطق التى تقول ان لفرنسا مصالح فيها والتي حددتها بقولها انها المناطق التي تقع غربي مناطق دمشق وحمص وحماه وحلب .

(٦) تعهد مكماهون بالنص التالي :- ان حكومة بريطانيا قد فوضت إلى ان تبلغ دولتكم ان بريطانيا لا تنوي إبرام اي صلح الا اذ كان من ضمن شروطه الاساسية حرية الشعوب العربية " تلك هي خلاصة الاتفاقيات التي انطوت عليها مراسلات الشريف الحسين - ممثل القومية العربية " ومكماهون " ممثل بريطانيا واعلنت الثورة العربية بموجبها وعلى اساسها وهي تعترف بوضوح باستقلال العرب وسيادتهم في منطقة معينة محددة .

أصبح امتداد الحدود العربية التى تدخل ضمن منطقة الاستقلال موضوع جدل خلال السنوات التي اعقبت الحرب العالمية الاولى وازداد حدة هذا الجدل فيما يتصل بذلك الجزء من بلاد الشام الذي يعرف اليوم فيما يسمى بفلسطين والذي وضع تحت الانتداب البريطاني فالشريف الحسين يؤكد ان فلسطين واقعة من ضمن منطقة الاستقلال العربية كما يؤكد ذلك القيادات العربية بان فلسطين داخلة حتما ضمن المنطقة المستقلة التى وعدت بها بريطانيا في حين تري الأخيرة غير ذلك مدعية ان تحفظاتها بشأن المناطق التي تقع غربي دمشق وحمص وحماة وحلب تشمل فلسطين ايضا .

اعتبر الشريف الحسين فلسطين من ضمن منطقة الاستقلال العربي وكان ذلك امراً طبيعيا ومنطقيا على اساس ان فلسطين كانت داخلة ضمن منطقة الدولة المستقلة الموحدة التي طالب ان تعترف بريطانيا بها بموجب مذكرته الاولى التي بعث بها الى مكماهون وعلى اساس ان مكماهون حصر استثناءاته بمنطقتين هما الاولى ولاية البصرة وولاية بغداد لمصلحة بريطانيا والثاني الساحل السوري الشمالي اي جبل لبنان لمصلحة فرنسا

وقول الشريف الحسين في احدى رسائله انه يستحيل امكان اي تساهل يكسب فرنسا او سواها شبرا من اراضي تلك الجهات " . وهو قول واضح وصريح يدل على تمسك الشريف الحسين بمطالبه الاولى ولو كانت بريطانيا تريد استثناء فلسطين من منطقة الاستقلال العربي لذكرت ذلك بوضوح مثلما ذكرت بغداد والبصرة والساحل السوري الشمالي . (١٤)

لا يوجد هناك خلاف على أن فلسطين جزء من المنطقة العربية التى طالب الشريف الحسين باستقلالها فحدود المنطقة الى طالب بوحدتها وإستقلالها طبقاً لرسالته الاولى إلى مكماهون بتاريخ ١٩١٥/٧/١٤ كانت شمالاً :- خط "مرسين " - " أخنة " حتى خط عرض ٣٧° شمالا إلى نقطة الحدود التركية وغرباً البحر الاحمر والبحر المتوسط حتى مرسين وشرقاً حدود إيران والخليج العربى وجنوبا المحيط الهندى مما يتضح من هذه الحدود أنها تشمل أقاليم أسيا العربية جميعها بما فيها منطقة فلسطين الحالية ولم يستثن منها الامحمية " عدن" البريطانية . (١٥)

تؤكد الحقيقة بأن نصوص رسائل حسين - مكماهون تقول بأن تحفظات مكماهون على مناطق أو أجزاء من سوريا لاتشمل فلسطين لعدة إعتبارات أهمها :-

أولاً :- ما يجب ملاحظته أن مكماهون لم يحدد بالفاظ قط منطقة الدولة العربية المستقلة ولكن مافعله هو أنه كان يقبل الحدود التى أقترحها الشريف الحسين بإستثناء بعض التحفظات على المنطقة الشمالية فى " ماردين" "واخنة" "ومرسين" وينتج عن هذا أنه مالم ينفى نصا صريحا فى تلك التحفظات على فلسطين أو أى جزء آخر من المنطقة التى حددها الشريف الحسين فأنه لابد من إعتبارها جميعها جزء آخر من المنطقة التى وافقت بريطانيا على أن تكون دولة عربية مستقلة .

ثانياً :- أضطر مكماهون أمام أصرار الشريف على حدود منطقة الاستقلال العربى

بالنظر لأهميتها بالنسبة لحياة ومستقبل العرب أضطر إلى بيان موقف حكومته إزاء حدود منطقة الاستقلال العربى فبعد أن أهمل قضية الحدود فى رسالته الأولى للشريف ١٩١٥/٨/٣٠ ذكر فى رسالته الثانية وبعد مشاورات بينه وبين قائد القوات البريطانية فى مصر الجنرال "ماكويل" ووزارة الخارجية والهند والحرب فى لندن فى الفترة مابين ١٢- ١٩١٥/١٠/١٨ ، أن حكومته تعترف وتؤيد الاستقلال للمنطقة التى طالب بها الشريف حسين مع بعض التحفظات على مناطق الساحل السورى وأخرى فى ولا ية "البصرة" وبغداد" وثالثة فى بعض مناطق الجزيرة العربية وهل كانت تحفظات "مكماهون " على منطقة الاستقلال العربى بالساحل السورى تشمل فلسطين وبعبارة أخرى هل كانت فلسطين ضمن المناطق السورية التى تحفظ مكماهون باسم حكومته على الاستقلال . (١٦)

ثالثاً :- واول ما يلفت أنتباه المرء، أنه لايوجد فى أى نص من نصوص المراسلات الشريف الحسين - مكماهون ادنى ذكر لفلسطين حيث لم يرد أسم فلسطين صراحه كما ورد أسم "مرسين " أو " أخنة" أو "ماردين " ولا ضمنا تحت أى أسم من أسمائها التاريخية أو الدينية أو الجغرافية ، لافى تحفظات مكماهون ولا حتى فى المراسلات نفسها . (١٧)

رابعاً :- ميزت من المنطقة العربية أجزاء معينة وان كانت غير محددة تحديداً وقتياً ولكنها في الشمال مع تركيا ، حيث أقترنت المناطق المستثناة أو المتحفظ عليها بالساحل السورى الشمالى ووضعها مكماهون فى رسالته ١٩١٦/١٠/٣٠ بالجهات الشمالية ، وفلسطين كما هو واضح من خارطة بلاد الشام ليست جزء من ذلك الساحل .

خامساً :- لا يوجد فى أى موضع ذكر لذلك الجزء من بلاد الشام الذى كان يعرف فى الاصطلاح الادارى العثمانى "سنجق القدس"، لقد تألفت فلسطين التى أوجدتها بريطانيابحدودها الحالية من سنجق القدس السابق واضيف اليه الجزء الملاصق له من

«ولاية بيروت » السابقة ولما كان «مكماهون » لم يشر الي «سنجق القدس» ولو اشارة غير صريحة وهو الحريص في جميع مراسلاته علي ان يحدد بالاسم كل مقاطعة من المقاطعات التي تشملها تحفظاته فإن ذلك كفيل بالقضاء علي الاسطورة أو الاكذوبة التي تزعم ان منطقة فلسطين الحالية كانت قد استثنيت علي وجه التخصيص لأنها اصلا لم تكن لها وجود ولا لكلمة فلسطين ولا لحدود فلسطين الحالية وإنما جاءت ذلك بعد صدور «وعد بلفور» عام ١٩١٧ ولذلك لم تستثني فلسطين من المنطقة التي تعهدت بريطانيا بالاعتراف بها دولة عربية مستقلة وبحماية استقلالها .

__سادساً :__ لجأت الحكومة البريطانية الي اسلوب المراوغة والكذب عندما اعتبرت بأن فلسطين الحالية قد استثنيت استثناء ضمنيا حينما ابلغ «مكماهون»الشريف الحسين أن الأجزاء من سوريا الواقعة فى الجهة الغربية لمناطق " دمشق " وحمص " و " حماة " وحلب يجب أن تستثنى من منطقة الدولة لعربية المستقلة لاعطاها لفرنسا ووضعها تحت انتدابها وقد تبنى هذه الاكذوبة علنا ونستون تشرشل في عام ١٩٢٢ حينما تحدث بوصفه وزيرا مسئولا عن وزارة التاج فحاول مناقشة كلمة " مناطق Districts الواردة فى تلك العبار ة وذهب إلى وجوب فهمها على أنها مرادفة لكلمة ولايات States ولما كانت ولاية دمشق تضم جزء من بلاد الشام يعرف الآن باسم شرق الاردن ويقع إلى شرق من نهر الاردن فإنه ينتج عن ذلك أن الجزء الآخر من الشام الذى يعرف حاليا باسم فلسطين والذى يقع إلى الغرب من النهر كان جزءا من المنطقة التى شملها تحفظ مكماهون في عبارته السابقة وأن تمحيص النص يثبت أن حجة الحكومة البريطانية باطلة وأول دليل على ذلك أن كلمة مناطق فى عبارة مكماهون لا يمكن أن يقصد فيها أن تكون مرادفة لكلمة ولايات ، لأنه لم يكن ثمة شئ اسمه ولاية دمشق وولاية حمص وولاية حماة بل كانت هناك ولاية واحدة هى ولاية سوريا وعاصمتها "دمشق " وتقسيمان اداريان اصغر من الولاية كانت حمص وحماة المدينتين الرئيسبين

فيهما ولاتدل عبارة مكماهون على أى معنى إلا إذا فهمنا أن كلمة مناطق تعنى مناطق بالمعنى الذى يدل عليه الاستعمال المألوف للكلمة أى البلاد المجاورة لهذه المدن الاربع ، وإلا إذا فهمنا كذلك أن تحفظه انما يقصد منه ذلك الجزء من الشام الذى يمتد بصورة تقديرية من صيدا إلى الاسكندرية والذى يقع إلى الغرب من الخط الممتد بين هذه المدن الاربع والمناطق المتصلة به اتصالا مباشرا .

حاولت الحكومة البريطانية بتلك الأساليب وما تدعيه فى محاولاتها غير المقنعة لتجد عذرا لاستثناء فلسطين من الدولة العربية المستقلة وكان كل من الشريف الحسين ومكماهون أوردكلاهما فى جميع المراسلات كلمة ولاية بمعناها العام كما أوردها أيضا بمعناها الاصطلاحى الذى يدل على الوحدة الادارية التركية ودليل آخر على هذه الاكذوبة البريطانية وهو أن مكماهون يشير فى مذكرته الثالثة المؤرخة فى ١٣ ديسمبر إلى المناطق التي أراد استثناءها على أنها واقعة فى ولايتى حلب وبيروت ولو قصد فلسطين لاضاف يقينا كلمة "سنجق القدس "، وأغفاله هذه الأضافة يؤكد بأن الاجزاء الوحيدة من الشام التى طلب حينئذ إستثناؤها لمصلحة فرنسا إنما كانت المناطق الساحلية من سوريا الشمالية إضافة إلى ذلك فإن مكماهون حينما قدم التعهد فى مذكرته الثانية ذكر أن بريطانيا تعترف بقيام دولة عربية مستقلة فى جميع المناطق الواقعة داخل الحدود التى أقترحها الشريف الحسين "حيث بريطانيا مطلقة التصرف بدون أن تمس مصالح حليفتها فرنسا " فى تلك المذكرة وفى مذكرته التالية المؤرخة فى ١٣ ديسمبر يتذرع مكماهون فى إستثنائة مناطق معينه من الشام بحجة تقدير بريطانيا للمصالح الفرنسية . (١٩)

سابعاً :- تعرض "لويد جورج " رئيس وزارة بريطانيا يوم ١٩١٩/٩/١٨ إلى تعهدات بريطانيا للشريف الحسين وفقا لرسالة مكماهون بتاريخ ١٩١٥/١٠/٢٤ قال :-

" إشترطت الاتفاقية التى عقدناها مع فرنسا عام ١٩١٦ ويعنى بها إتفاق سايكس - بيكو أن تكون دمشق وحمص وحماة وحلب للعرب على أن تكون المنطقة الواقعة إلى الغرب من هذه المدن خاضعة للادارة الفرنسية المباشرة وغير المباشرة ".

أقترنت تحفظات مكماهون فى الساحل السورى بالمصالح الفرنسية التى ليست بريطانيا حرة التصرف فيها دون الحاق الضرر بحليفتها فرنسا ، فهل كانت فلسطين ضمن المناطق التى كانت تطمع فيها فرنسا على الأقل فى تلك الفترة التى جرت فيها المراسلات وبالتالى كانت ضمن المناطق التى شملتها تحفظات مكماهون ، حدد مكماهون فى رسالته إلى وزارة الخارجية البريطانية والتى أرسلها يوم ١٩١٥/١٠/٢٦ بعد يومين من رسالته إلى الشريف الحسين ١٩١٥/١٠/٢٤ مناطق المصالح الفرنسية بقوله :-

" كنت واضحا فى إقصاء "مرسين " " واخنة " وتلك المراكز فى الساحل الشمالى لسوريا والتى لايمكن أن يقال عنها عربية والتى علمت أن لفرنسا مصالح معترف فيها ".

فمكماهون كما وهو واضح حدد منطقة المصالح الفرنسية التى ليست بريطانيا حرة التصرف بها كمرسين واخنة والساحل الشمالى لسوريا ، وفى المذكرة التى أرسلها "لورد كيرزون" وزير الخارجية البريطانية إلى الامير فيصل فى ١٩١٩/١٠/٩ قال :-

" أن الحكومة البريطانية قد أوضحت لجلالة والدكم قبل دخول العرب الحرب أنها تعتبر أن لفرنسا حقوقا خاصة فى البقاع الواقعة إلى الغرب من هذه المدن الاربعة ".

ومرة ثالثة حدد "لويد جورج" منطقة المصالح الفرنسية بذلك الجزء من سوريا الواقع إلى الغرب من مدن دمشق وحمص وحلب وحماة ولذا إستثنتها حكومته من منطقة الاستقلال العربى طبقاً لرسالة حكومة جلالته فى ١٩١٥,١٠/٢٤ ".

إعترف "ستورس" الذى كان سكرتيرا شرقيا فى القاهرة ومسؤول عن الترجمة أثناء تبادل المراسلات حسين - مكماهون أعترف بأن الهدف من التحفظات كان حماية المصالح الفرنسية فى داخل سوريا والمناطق الساحلية ، فمنطقة المصالح الفرنسية فى نظر بريطانيا والتى تحفظ عليها مكماهون فى رسالته بتاريخ ١٩١٥/١٠/٢٤ كانت محصورة فى الساحل السورى الشمالى إلى الغرب من مدن دمشق وحلب وحمص وحماة وهذه المنطقة لاعلاقة لها بفلسطين ، وتتفق قرارات لجنة "موريس بونس " التى شكلتها الحكومة البريطانية فى إبريل ١٩١٥ لتحديد مناطق نفوذ الحلفاء فى أملاك الدولة العثمانية وقد بقيت فلسطين خارج نفوذ الدولة الاستعمارية الثلاثة وهى بريطانيا وفرنسا وروسيا ، والواقع أن موقف بريطانيا من الأطماع الفرنسية في الشام كان واضحا منذ عام ١٩١٢ فقد ذكر السفير الفرنسي في بريطانيا فى رسالته إلى رئيس وزراء فرنسا "بوانكارية " ١٩١٣/١/٧ تعليقا على محادثاته مع وزير الخارجية البريطانى "ادوار جراى " أنه إذا صح أن بريطانيا ليس لها مطمع فى سوريا فأنها مع ذلك لن تطلق يدنا فى هذا الجزء من الامبراطورية العثمانية . (٢٠)

كذلك فإن الشريف الحسين فهم بأن المصالح الفرنسية كانت مرتبطة بولايتى حلب وبيروت وقد أشار إلى ذلك فى رسالته ١٩١٥/١١/٥ ردا على رسالة مكماهون بتاريخ ١٩١٥/١٠/٢٤ بقوله :- " أننا سنطلب اليكم فى أول فرصة بعد أنتهاء الحرب ماندعه الآن لفرنسا فى بيروت وسواحلها " ، ورد مكماهون على ذلك بتاريخ ١٩١٥/١٢/١٣ قائلاً :- أما بشأن ولايتى حلب وبيروت فحكومة بريطانيا قد فهمت كل ما ذكرتم ولكن لما كانت مصالح فرنسا داخله فيها فالمسأله تحتاج إلى النظر الدقيق " فسارع الشريف الحسين إلى التأكيد فى رسالته بتاريخ ١٩١٦/١/١ على أنه وأن كان حريصا علي إجتناب ماقد يمس حلف بريطانيا لفرنسا ألا أنه سيطالب عند أول فرصة بعد الحرب مايغض الطرف عنه اليوم لفرنسا فى بيروت وسواحلها " وأضاف " أنه يستحيل عليه أمكان أى تساهل

يكسبه فرنسا أو سواها شبرا من اراض تلك الجهات "، واضح مما سبق أن تحفظات مكماهون المتعلقة بمناطق "مرسين" "واخنة" وإجزاء من الشام إلى الغرب من مقاطعات خط "دمشق" ، "حمص" ، "حماه" ، "حلب" والتى ليست بريطانيا حرة التصرف بها دون الحاق الضرر بحيلفتها فرنسا لا تشمل فلسطين فكل مالم تشمله التحفظات كان عربيا أما فلسطين فلم تشملها التحفظات أذن فلسطين كانت عربية ". (٢١)

فلو أن بريطانيا نتيجة لذلك قد التزمت بإستثناء أى جزء من بلاد الشام لمصلحة فرنسا ثم رات بعد نهاية الحرب أنها مطلقة التصرف فى ذلك الجزء فأن هذا الاستثناء حينئذ ينهار أساسه الذى قام عليه ويفقد كل قوته التى كانت له فى البداية ويتبع هذا أن ذلك الجزء من الشام الذى لم يعد مخصصا ليكون ضمن دائرة المصالح الفرنسية كما أصبح الحال أخيراً فى فلسطين يجب بالضرورة نتيجة لعدم وجود إتفاق صريح ينص على غير ذلك أن يظل فى نطاق الرقعة العربية المستقلة التى أقترحها الشريف الحسين ووافقت عليها بريطانيا ، ويسلم الدبلوماسي البريطانى "السير ريتشادر الن" بقوة وجهة نظر العرب فى دحض حجة حكومته التى كانت تدعى أن فلسطين إستثنيت على أساس أنها داخلة فى عبارة إجزاء من الشام الواقعة فى الجهة الغربية من المدن الاربعة دمشق حمص حلب حماة . (٢٢) إذ يقول ذلك الدبلوماسى البريطانى :- " أن فلسطين لاتقع إلى الغرب بل إلى الجنوب من دمشق والمدن الأخرى المذكورة فى التحفظ وعلينا أن نذكر أن رسائل مكماهون نصت فى موضع آخر أن المناطق المتحفظ عليها تقع ضمن ولايتى "حلب "و "بيروت" هذا مع العلم أن ولاية بيروت لم تكن تشمل أهم أجزاء من فلسطين إلا وهو "سنجق القدس " المستقل ولو كان هنا إستثناء لتوجب أن يذكر أسم ذلك السنجق بالذات (٢٣) كما أن بيروت كانت من نصيب الاستعمار الفرنسى وليست من نصيب الإستعمار البريطاني ، وفى

ذلك يقول " أثونتى نيوتنج " "Athonty Nutting" :- أن أى تلميذ يعرف أن فلسطين تقع إلى الجنوب وليس إلى الغرب من المناطق المستثناه " . (٢٤)

ثامناً:- وصفت المناطق المستثناه والتى تحفظ مكماهون على إستقلالها بالمناطق غير العربية المحضة وهذا الوصف لا يمكن أن ينطبق على فلسطين "فلويد جورج" رئيس وزراء بريطانيا فى إجتماع المجلس الاعلى للحلفاء يوم ١٥ ستمبر ١٩١٩ قال :-

" أن الحكومة البريطانية أوضحت دائما أنها كانت تعتبر البلاد الواقعة إلى الغرب من مدن دمشق وحمص وحماة وحلب ليست عربية الصبغة " . وفلسطين لا تقع إلى الغرب من هذه المدن هذا من ناحية ومن ناحية ثانية فقد طلبت وزارة الخارجية البريطانية من دار اعتمادها بالقاهرة فى أكتوبر ١٩١٤ ضرورة إقناع مشايخ بدو فلسطين بأن بريطانيا كانت دائما مع العرب وستمستمر فى المستقبل للسير فى هذا الطريق "، كذلك فقد الحت الدوائر البريطانية فى القاهرة على الشريف الحسين وابنه الامير فيصل على إحتمالة عرب فلسطين للترحيب بالقوات البريطانية بإعتبار أن بريطانيا حلفاء العرب وأنهم يحاربون لغاية وغرض واحد وهو إنشاء دولة عربية متحده ومستقلة تشمل فلسطين، فهل (٢٥) يمكن أن تطلب بريطانيا من الشريف الحسين إستمالة عرب فلسطين اذا كانت فلسطين غير عربية .

تاسعاً:- ذكرت المناطق المتحفظ عليها بإجزاء من الشام تقع إلى الغرب من مقاطعات :-

دمشق - حمص - حماة - حلب وهذا ماجاء ، ذكره لا ينطبق على فلسطين ولا يشملها إلا إذا كانت كلمة مقاطعة تعنى كلمة ولاية الامر الذى لا يمكن قبولة فخارطة التقسيمات الادارية العثمانية لسوريا عام ١٩١٤ تشير إلى أنه لم تكن هناك ولاية بإسم "دمشق" أو "حمص " أو "حماه" ولكن كانت هنا ولاية بإسم سوريا عاصمتها

"دمشق " وإذا جاز إطلاق كلمة دمشق على ولاية سوريا من باب تسمية الكل بإسم الجزء فأن هذه التسميه يجب أن تنطبق بالمثل على "حمص" "وحماه" اللتان كانتا سنجقا أو لواء واحد باسم سنجق "حماه" تابعاً لولاية سوريا ، ومع أنه كانت هناك ولاية باسم حلب - يحدها من الغرب البحر المتوسط فلو إستخدمنا هذه التسمية بالنسبة لولاية حلب تكون المنطقة المستثناه إلى الغرب من ولاية حلب هى البحر المتوسط من خليج الاسكندرونة شمالاً حتى اللاذقية جنوباً وهل طالب الشريف الحسين فى رسالته الاولى باستقلال هذه المنطقة حتى يتحفظ عليها مكماهون بأن الاسكندرونه ومرسين الواقعة إلى الغرب من ولاية حلب كانت مستثناه بالاسم . فكلمات دمشق وحمص وحماه وحلب الواردة فى هذه العبارة لا يمكن أن تعنى سوى مدينة دمشق ومدينة حمص ومدينه حماه ومدينة حلب وفى هذه الحالة تكون الاجزاء من سوريا الواقعة إلى الغرب من مقاطعات دمشق وحمص وحلب وحماه تعنى (٢٦) الاجزاء التى تقع إلى الغرب من هذه المدن مباشرة وفلسطين بالطبع لا تقع إلى الغرب من هذه المدن . كما ذكرنا سابقا دائما إلى الجنوب .

يستطيع أى شخص يطلع على نصوص مراسلات مكماهون أن يحكم بنفسه بصحة ماجاء ولاريب ان الحكم الفاصل فى هذا الخلاف والمغالطات والاكاذيب البريطانية وتفسيراتها المختلفة لا يمكن عليه إلا بالرجوع إلى نصوص المراسلات نفسها .

هذه المراسلات التى يسميها الشريف الحسين "مقررات النهضة" أى الاسس التى قامت عليها الثورة العربية . (٢٧)

قد يرجع السبب فى هذا الجدل إلى أن النصوص الكاملة لهذه المراسلات لم تتوفر حتى الأن أية لغة ماعدا اللغة العربية ومع أنه طلب بالحاح عدة مرات من الحكومات البريطانية المتعاقبة أن تنشر نسخة رسمية معتمدة للنصوص الكاملة باللغة الانجليزية غير أن تلك الحكومات رفضت هذه المطالب بحجة أن نشر هذه المراسلات يضر بالسياسة

والمصلحة البريطانية العليا ولقد كان من الجائز أن يكون لهذه الحجة سند لو أن المذكرات المتبادلة بين الشريف الحسين ومكماهون لا يمكن الحصول عليها بأيه صورة ولو أن ما تضمنته ظل سرا مطوياً فى الواقع مثلما ظل سرا رسميا ، أما الحقيقة الواقعة فهى أن مواد مراسلات مكماهون معروفة فى جميع إرجاء الوطن العربى ومعظم المؤرخين والكتاب العربى قاموا بنشر نصوصها الحرفيه كامله بإعتبارها من أهم الوثائق الدولية فى تاريخ حركة العرب القومية وقد نشر نصوص تلك الرسائل كما أذاعها الشريف الحسين (٢٨). والذى كان نفسه ينشر رسميا فى "مكة المكرمة" من حين لآخر إجزاء منها. نشرت عدة مذكرات منها بنصها الحرفى الكامل فى الكتب والصحف العربية والمجال مفتوح أمام أى إنسان يعرف اللغة العربية ويستطيع الوصول إلى ملفات الصحف العربية التى توقفت عن الصدور لكى يستخرج جميع مذكرات مكماهون ويجمعها ، ومما يتضح أنه لم يكن هناك ثمة شىء لا يعرفه الرأى العام عن تلك المراسلات فى جميع إنحاء الوطن العربى كما تبين أن تفسير الحكومة البريطانية لمعنى مواثيقها وللغاية منها كان تفسير لايتلاءم مع حرفية النصوص ولا مع روحها وكان نشر النصوص العربية أمر يفرضه الواجب القومى للسبب التالى أن لم يكن لغيره من الأسباب وهو أن الخلاف بين الحكومة البريطانية والعرب فى تفسير هذه المواثيق هو العامل الاساسى فى حدوث ماكان يمكن تجنبه من خسائر وألآم وسفك للدماء ومذابح جماعية ضد الفلسطينيين وسيظل عاملا فى الصراع العربى - الإسرائيلى فى المستقبل وأن تم السلام الذى يعتبر فرض الاستسلام من قبل إسرائيل على الدول العربية وسيتم الصراع أن لم يكن عسكريا فسياسيا وفكريا مادامت الدولة العبرية قائما فى وسط الكيان العربى الاسلامى . وأن نشر هذه النصوص فضلاً عن أنه بعيد كل كل البعد عن مجافاة المصلحة البريطانية والامر تتطلبه حثيثا مصلحة جميع المضطهدين الذين يعنيهم الموضوع ولهذا يجب على الحكومة البريطانية أن تتحلى بالشجاعة والصدق لنشرها ،

فقد كان عمل اللجنة الملكية الخاصة بفلسطين قدوة تحتذى حينما نشرت النص الكامل لمذكرات الشريف الحسين - مكماهون فى الفصل الثانى من تقريرها . (٢٩)

لم يكن هذا مجرد رأى فردى فكثير ما كان من رجال مشهورون ومسؤلون فى بريطانيا وفى الوطن العربى مطالبين بإذاعة هذه النصوص كاملة وتناولت أعمدة الصحف البريطانية خلال السنوات الثمانية عشرة بعد الحرب العالمية الاولى سيل من الرسائل حول هذا الموضوع بعث بها طلبة ومؤرخون وسياسيون ولكن الحكومة البريطانية رفضت نشر هذه النصوص بالرغم من مطالبة الصحافة البريطانية وإعضاء مجلس العموم ومجلس اللوردات بذلك غير مرة وزعمت الحكومة أن نشر الرسائل يضر بالمصلحة العامة ولم تستجب الوزارة حتى لطلب بعض القواد الذين شغلوا منصب الوزارة خلال الحرب العالمية الاولى . (٣٠) وقد نشرت المحاضر الرسمية لمداولات مجلس اللوردات ومجلس العموم وهى تتضمن الخطب التى إلقاها بعض الأعضاء البارزين يطالبون فيها تحقيقا لأجل الدوافع الخلقية والسياسية بوجوب نشر هذه النصوص رسميا ، وقد دفع بعض المسؤلين الكبار فى الحكومة البريطانية إلى هذا الطلب ما يتمتعون به من بصيرة نافذة وكان أحدهم هو "حوالير ادوارد غراى" الذى أصبح فيما بعد "الفيكونت اوف فالودون" وربما كان لرأيه من القيمة أكبر مما لرأى غيره من رجال الحكم وهو الوزير المسؤول الذى صدرت مذكرات مكماهون بناء على تعليماته ، فقد خطب فى مجلس اللوردات فى ٢٧ /٣/١٩٢٣ قائلا :-

" أن عددا كبير من هذه المواثيق ، أو بعضها على الأقل ، مما لم تعلنه الحكومة رسميا ، أصبح معروفاً ذائعا عن طرق أخرى ، ولست ادرى هل ذاعت كلها أو بعضها . ولكنى أطالب الحكومة بالحاح بأن تنشر رسميا جميع المواثيق الخاصة بهذا الموضوع والتى التزمنا بها خلال الحرب ، إذ أن تلك هى خير وسيلة لتبرئة شرفنا فى هذه المسألة

وأنى وأثق من أننا لا نستطيع إنقاذ شرفنا بإخفاء تعهداتنا ، والأدعاء بعدم وجود تناقض إذا كان هناك تناقض حقاً . وأنى لواثق أيضاً من أن أشرف سبيل هو أن نكشف عن حقيقة هذه التعهدات . وأن نعترف صراحة بوجود التناقض إذا كان موجودا فإذا ما أعترفنا بذلك وأتحنا الفرص للناس لكى يحكموا حكما دقيقا على مبلغ التناقض ، فيجب أن نفكر فى إعدل السبل وأشرفها للخروج من المأزق الذى قد تكون هذه العهود ادخلتنا فيه". (٣١)

تلك هى كلمات السياسى نفسه الذى كان وزيراً للخارجية والذى يعتبر كذلك المسؤول عن المواثيق التى تضمنتها مراسلات الشريف الحسين - مكماهون وقد اعرب عن أراء مشابهة كل من "ايرل اوف اكسفورد" "ولويد جوج" فى مداولات مجلس العموم التى دارت يوم ٢٠ مارس ١٩٢٣ حينما تنافس هذان السياسيان المحنكان فى الالحاح على رئيس الوزارة القائمة آنئذ بوجوب نشر تلك الوثائق وكان بعض الرجال المشهورين الذين يمثلون مختلف الاحزاب السياسية يؤيدون من حين لآخر اراء "واسكويت" ولويد جورج" . ويقول جورج انطونيوس حول هذا الموضوع (٣٢) :-

" أن فكرة القيام بالبحث الضرورى لتجميع نصوص مراسلات مكماهون هى فكرة أقترحها على عام ١٩٣١ المغفور له الشريف الحسين فى عمان قبل وفاته بأشهر قليلة وكان قد أصبح حينئذ بالقياس إلى ما كان معروفاً فى السابق من صمته كثير الكلام فى الاعراب عن تلهفه إلى أعلام الحقيقة كاملة ولقد أطلعنى على المسودات الاصلية لمذكراته التى بعث بها إلى " مكماهون " وسمح لى بفصحها ونسخها وهو يراقب ما أفعل فى صمت لا يخرج عنه إلا ليجيب عن أسئلتى ولن أنسى أبداً صورته وهو جالس هناك مستكينا إلى المرض فى مقعد ذى مسندين اوسع جداً من بيته النحيفة وقد قلصه الفالج وأبيض وجهه الوسيم من شحوب الموت وعيناه تومضان فجأة بعد أن كانتا غارقتين فى فراغ الاستسلام

فتتوهجان من أثر الإنفعال الذى كان - يحاول كبحه وكان متيقظا متنبها كأول عهدى به قبل سبع سنين حينما كان فى زروة نشاطه ولكن تفكيره هذه المرة كان يبدو أقل مرونه وكان التأنق فى التعبير من مميزات حديثه فى السابق ولكن الآن أصبح يغالى فيه جداً حتى طغى عليه فكأن العادة قد غلبت حكم التفكير وكان من صفاته فى السابق أن يلتمس الاعذار لنفسه فتحكمت فيه هذه الصفة الآن وصارت هوساً وحينما كان يلح على لأكتب قصة الثورة العربية كان يشير إلى الاوراق الموضوعه أمامى ويقول :- "هاهى مستندات ثورتنا وتلك هى "بواعثى" أجل التى أقول "بواعثى" ولعله كرر هذه العبارة بين ثمانى مرات وعشر مرات خلال الساعه الاولى من إجتماعنا ، حدث هذا فى ربيع عام ١٩٣١ وكان الشريف الحسين قد قضى ست سنوات منفياً وكان قد فقد حكمة فى شرافة الحجاز أثر إحتلاله من قبل أبن سعود وأرغم على الخروج من ديار إجداده وأصبح الآن شيخا مسنا مريضا لا يقلقه شيء إلا لهفته على توضيح ظروفه وفى هذه المرارة التى يتجرعها وكان يعزو جميع مصائبه إلى نقض العهود التى قطعها له "هنرى مكماهون" وحكومته البريطانية وكان يشكومن ذلك ويراه السبب الوحيد لمحنته الحاضره وكان لا ينقطع عن ذكر "كتشنر" ولم يكن قد قابله قط ويترحم عليه ويتحدث عن "لويد جورج" بحدة كأنما كان "لويد جورج " هو بطل الشر فى القصة مالم يقلل من حدة فقده أنه صاغه بالاسلوب الحميدى المهذب الموشى بالزخارف المضحكة ".

قد أجمع المؤرخون على أن هذا المسلك البريطانى لا مثيل له فى الحنث بالوعود لان بريطانيا عقدت معاهدات أو الإتفاقيات التى تتعلق بمصير الوطن العربى مثل "سايكس - بيكو" "وسان ديمو" و "وعد بلفور " دون أن تطلع عليها الشريف الحسين الذى كان يمثل الأمة العربية والذى أتفقت معه على شروط تختلف عن

بنودها كل الاختلاف وتناقض العهود التى قطعت للعرب (٣٣) ، تلك العهود الكاذبه التى كانت بمثابة القفاز الابيض والاشار الحرير تتوارى فيه اليد الملطخة بالدم بعد خنق القضية العربية بالإشار الحريرى .

الخلاصة :

يتضح من تلك الدراسة الدور القيادى الذى قام به الشريف الحسين ويدعمه فى ذلك مختلف القيادات العربية وخاصة الزعامات الفكرية والسياسية والدينية فى كل من العراق والحجاز وبلاد الشام والذين قاموا بصياغة ووضع "ميثاق دمشق" والتى تبناها والتزم بها الشريف الحسين بعد أن بايعوه زعيما وقائداً للأمة العربية فكان نعم القائد والزعيم وكانت مواقفه الصلبة للحق العربى واضحا من خلال مراسلاته مع بريطانيا المتمثلة بـ " السير هنرى مكماهون " وكيف أنه لم يتنازل عن شبر واحد من الاراض العربية وكيف أنه كان يصر على إستقلال جميع المناطق والاقاليم العربية فى الوقت الذى كانت بريطانيا تعد لجريمتها البشعه ضد الامة العربية بالاشتراك مع حلفائها من المستعمرين الاوربيين حتى إخرجت إتفاقيات ومعاهدات الاحتلال الوطن العربى وتقطيع إجزاءه .

ولم تكتف بهذا بل سلبت جزء عزيز من وطننا وسلمته لعصابات الصهيانه فى فلسطين ثم حاولت أعطاء الشرعيه لتلك التصرفات ولكنها لم تجد أية وسيلة لذلك فحاولت التنكر بوعودها ثم حاولت تفسير رسائل الشريف الحسين مكماهون بأسلوبها وطريقها لعلها تجد فيها ما يمكن أن تدعيه بأنها أستثنت فلسطين من استقلال الاقاليم العربية فى الوقت الذى لم تجد هناك بطريقة مباشرة أو غير مباشرة لامن قريب ولامن بعيد أسم أو مايدل على فلسطين من خلال مذكرات الشريف الحسين - مكماهون .

كما نجد هذه الدولة التى تطلق على نفسها بريطانيا العظمى وتستعمر شعوب العالم وتفرض حكام على شعوب العالم وتفرض حكام على شعوب دون ارادتهم بقوتها وجبروتها الاستعمارى ، إلا أنها لم تجد فى نفسها الشجاعة الكافية لنشر نصوص مذكرات الشريف الحسين - مكماهون رسميا ، وتعترف بتلك المذكرات برغم أنها منشورة باللغة العربية ومعروفة نصوصها ومحفوظة ، كما طالبة الصحافة البريطانية وكبار رجال الدولة والوزراء ونواب مجلس العموم واللوردات والكتاب والمؤرخين الحكومة البريطانية بنشر تلك المذكرات . وهذا ما يدل على إعتراف الحكومة البريطانية بجريمتها تجاه الامة العربية وخلفها المأسى والجرائم بعد سلبها لأغلى جزء من الوطن العربى إلا وهى فلسطين .

وأتمنى أن يكون هذه الدراسة أضافة بسيطة إلى تلك الدراسات التى قام بها أولئك الكتاب والمؤرخين العرب الذين يحملون أمانة هذه الامة لتحقيق أهدافها القومية فى الوحدة العربية .

الهوامش :

(١) – العماد مصطفي طلاس – الثورة العربية الكبري . ص ١٢ .

(٢) – العماد مصطفي طلاس – نفس المرجع . ص ١٢ .

(٣) – د. غازي ربابعة – الهاشميون والقضية الفلسطينية . ص ٦ .

(٤) – د. غازي ربابعة – نفس المرجع . ص ٨ .

(٥) – جورج انطونيوس – يقظة العرب . ص ٢٢١ .

(٦) – العماد مصطفي طلاس – نفس المرجع . ص ٢٠٨ .

(٧) – العماد مصطفي طلاس – نفس المرجع . ص ٢٠٨ .

(٨) – جورج انطونيوس – نفس المرجع . ص ٢٤٣ .

(٩) – جورج انطونيوس – نفس المرجع . ص ٢٤٣ .

(١٠) – جورج انطونيوس – نفس المرجع . ص ٢٤٥ .

(١١) – قدري قلعجي – الثورة العربية الكبري – ص ١٩٤ .

(١٢) – قدري قلعجي – نفس المرجع – ص ١٩٥ .

(١٣) – قدري قلعجي – نفس المرجع – ص ١٩٦ .

(١٤) سليمان موسي – صفحات مطوية – مقاوضات المعاهدة بين الشريف الحسين وبريطانيا – ص ٢٢ .

(١٥) د . ممدوح عارف الروسان – فلسطين في مراسلات حسين – مكماهون . ص ١٥ .

(١٦) د . ممدوح عارف الروسان – نفس المرجع . ص ١٦ .

(١٧) د . ممدوح عارف الروسان - نفس المرجع . ص ١٥ .

(١٨) - جورج انطونيوس - المرجع السابق . ص ٢٦٩ .

(١٩) - جورج انطونيوس - نفس المرجع . ص ٢٦٩ .

(٢٠) د . ممدوح عارف - نفس المرجع . ص ١٩ .

(٢١) د . ممدوح عارف - نفس المرجع . ص ٢١ .

(٢٢) - د. غازي ربابعة -المرجع السابق . ص ٢٢.

(٢٣) - د. غازي ربابعة - نفس المرجع . ص ٢٢.

(٢٤) (24) Athonty Nutting - The Arabs - P 322.

(٢٥) د . ممدوح عارف -المرجع السابق . ص ١٦ .

(٢٦) د . ممدوح عارف - نفس المرجع . ص ١٧ .

(٢٧) - قدري قلعجي - المرجع السابق - ص ١٩٨ .

(٢٨) - قدري قلعجي - نفس المرجع - ص ١٩٨ .

(٢٩) - جورج انطونيوس - المرجع السابق . ص ٢٧٣.

(٣٠) - قدري قلعجي - المرجع السابق - ص ١٩٨ .

(٣١) - قدري قلعجي - نفس المرجع - ص ١٩٩ .

(٣٢) - جورج انطونيوس - المرجع السابق . ص ٢٧٥.

(٣٣) - قدري قلعجي -المرجع السابق - ص٢٧١ .

المراجـع :-

(١) - العماد مصطفي طلاس - الثورة العربية الكبري - نشرات مجلة الفكر العسكرى - دمشق ١٩٧٨ .

(٢) جورج انطونيوس - يقظة العب - دار العلم للملايين - بيروت .

(٣) سليمان موسي - صفحات مطوية - مفاوضات المعاهدة بين الشريف حسين وبريطانيا . ١٩٢٠ - ١٩٢٤ - وزاة الثقافة - عمان ١٩٧٧ .

(٤) غازي ربابعة (دكتور) - الهاشميون والقضية الفلسطينية - وزارة الشباب - عمان ١٩٨٨ .

(٥) قدري قلعجي - الثورة العربية الكبري ١٩١٦ - ١٩٢٥ - شركة المطبوعات للتوزيع والنشر - بيروت ١٩٩٣ .

(٦) ممدوح عارف الروسان - (دكتور) - فلسطين في مراسلات حسين - مكماهون ١٩١٥ - ١٩٣٩ - عمان ١٩٩٠ .

(٧) (7) Athonty Nutting - the Arabs - london - 1964.

اوضاع عرب فلسطين
تحت حكم الإنتداب البريطانى
١٩٣٦ - ١٩٤٨

د . عبدالله فؤاد ربيعي
كلية آداب - سوهاج

بدأت مأساة فلسطين مع صدور تصريح «جيمس آرثر بالفور » وزير الخارجية البريطانى فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ تدخل مرحلة التنفيذ العملى ، وإن كان ذلك لايعنى أن جذور المشكلة لم تبدأ منذ فترة طويلة سبقت إنعقاد مؤتمر بال ١٨٩٧ . . . وإن أردنا الدقة فإنه يمكن أن يقال ان البداية الحقيقية لهذه المأساة تبدأ مع التفكير فى حل المشكلة اليهودية على حساب العرب الفلسطينيين . . . ووجدت الحركة الصهيونية فى الحرب الإستيطانية لأرض فلسطين المقدمة الطبيعية لتحقيق أحلامها وبناء دولتها .

وإذا كنا على يقين أن إلتقاء مصالح الإمبريالية مع الصهيونية قد بدأ منذ ١٩٠٧ وذلك بعد أن تم إنعقاد مؤتمر " كامبل باترمان " المنسوب الى رئيس وزراء بريطانيا اندئذ وكانت نتيجته أن إستقر الرأى على زرع حاجز بشرى بين مشرق الأمة العربية ومغربها حتى لا تتوحد فى دولة واحدة وحتى يظل الإنقسام طابعها والفرقة سمة من سمات وجودها . . . فلقد جاء الإنتداب البريطانى على فلسطين عن قصد لتحقيق هذه التوصية

والتى وجد فيها الصهاينة فرصتهم لتحقيق مآربهم فى ظل الحماية والحرب البريطانية .

ودخلت فلسطين فى ظل السيطرة البريطانية نحو التهويد وفتحت أبوابها للهجرة اليهودية ومكن الإنتداب البريطانى للحركة الصهيونية زرع المستوطنات ليستقر فيها المهاجرون الجدد . . . ومنذ تعيين السير صموئيل بيكر أول مندوب سامى بريطانى ، وهو يهودى العقيدة ، والفلسطينيون يعانون وتدريجياً يفقدون جزءاً من أراضيهم والكثير من كرامتهم .

وإذا كانت كتب التاريخ مليئة بتفصيلات عن أوضاع الفلسطينيين فى الفترة مابين ١٩١٧ حتى سنة ١٩٣٦ ، لذا رأينا أن نعرض أوضاع عرب فلسطين منذ نشوب ثورة فلسطين الكبرى حتى إعلان الكيان الصهيونى سنة ١٩٤٨ .

ولعل أسباب الثورة الفلسطينية المذكورة يعود الى سوء الأوضاع السياسية والإجتماعية والإقتصادية بينما كان القطاع اليهودى قد شهد إزدهاراً فى هذه الميادين الثلاثة . فمع نهاية سنة ١٩٢٨ تحققت طفرات هائلة فى مجال الإستيطان والإسكان ونمو المشروعات الإقتصادية المختلفة . وتم ذلك بفضل ظروف موضوعية ساهمت فى خلقها مؤسسات الإستيطان الصهيونية الرسمية ، كما ركز المستثمرون اليهود فى مجالات التجارة والصناعات الأساسية الخفيفة كالمواد الغذائية ولوازم البناء والنسيج والطباعة ، وشهد القطاع اليهودى نمو المستوطنات اليهودية سواء فى مجال المزارع الجماعية (الكيبوتز) أو فى مجال المزارع التعاونية (الموشاف) وقد حملت هذه المزارع الكثير من الروح العدوانية ضد العرب ، وظهرت تنظيمات عمالية إستطاعت أن تنظم وتستوعب معظم فئات المجتمع اليهودى كما نشط الصهيونيين فى وضع الأسس لعدد من مؤسساتهم الثقافية وتقويتها ، وقد ساهمت تلك المؤسسات فى تأييد الخدمات الضرورية للمجتمع اليهودى فى مجال العقيدة .

وقد شهد القطاع اليهودى نمو ونشوء عدد من الأحزاب الصهيونية ، والتى كانت طلائع التنظيمات السياسية التى شاركت فى إقامة دولة إسرائيل (١) .

وقد دفع الواقع الجديد الذى نشأ فى فلسطين على يد الحركة الصهيونية ، وما شهده هذا الواقع من توطيد لسياسة إنشاء وطن قومى يهودى وإنشاء أحزاب ومؤسسات وتنظيمات صهيونية على طريق بلورة هذا الوطن فى كيان مستقل الى تصاعد العداء بين العرب واليهود والى دفع الحركة الوطنية الى الدخول فى طور جديد قوامه عودة التماسك بين العناصر الوطنية وبدء الكفاح من جديد ضد الإستعمار البريطانى والصهيونية .

وكان القلق السياسى والإضطراب الإقتصادى قد إشتد بالمجتمع العربى فى فلسطين بسبب فشل العرب فى تحقيق أى تقدم لقضيتهم الوطنية نتيجة لموقف السلطات البريطانية المؤيد للحركة الصهيونية وقد وضعت اللجنة التنفيذية العربية فى مذكرة رفعتها الى المندوب السامى : روبرت تشانسلور J. R . Chanceller " الذى خلف اللورد " بلومر Plumer " فى نهاية يولية ١٩٢٨ ، وقد تم إرسال هذه المذكرة فى ١٧ يونيو ١٩٢٩ ووصفت الحالة فى فلسطين بقولها : (٢)

" . . . وفى الحق إن هذه الإدراة (حكومة الإنتداب " أوقعت البلاد فى أزمات إقتصادية هائلة ، وأن هذه البلاد لا تزرح اليوم تحت أثقال الحكم الأجنبى فحسب لكنها مهددة أيضاً بإضاعة كيان وإضمحلال قوميتها " .

---

1 - Eisentadt S. N.,
Israel Society . London, 1965,
P.P 33 - 35.

(٢) أكرم زعيتر :
وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية . الوثيقة رقم ١٥٤ . بيروت ١٩٧٠ . ص ٣١٨ .

وكانت هذه المذكرة قد أرسلت فى أعقاب المؤتمر الوطنى العربى الفلسطينى السابع الذى إنعقد فى أوائل يونيو ١٩٢٨ ، ولم يثرالمؤتمر أى زوبعة من حوله ولم تتعرض له سلطات الإنتداب برئاسة " بلومر " الذى كان قد خلف هربرت صموئيل فى ٢٠ مايو سنة ١٩٢٥ ، كما أن المؤتمر قد إكتفى بهذه المذكرة ولم يرسل أية قرارات موجهة ضد سلطات الإنتداب ، وقد وصف هذا المؤتمر بأنه آخر المؤتمرات عن الحركة الوطنية قبل نهضتها القوية مع بداية الثلاثينات .

وفى منتصف أغسطس سنة ١٩٢٩ وقعت إضطرابات عنيفة بين العرب واليهود فيما عرف بإسم " ثورة البراق لسنة ١٩٢٩ " ولم تتوان سلطات الإنتداب فى إتباع أقسى الإجراءات والوسائل كإستخدام القوة المسلحة وأساليب الإعتقال المختلفة والمحاكمات العسكرية السريعة وتدمير القرى العربية وإحياء من المدن لإخماء الثورة وحماية المحتمع اليهودى من إنتقام الثائرين العرب . (٣)

ومن الجدير بالذكر ، أنه فى أعقاب تلك الأحداث بدأ اليهود يعزلون أنفسم تماماً عن العرب فى مناطق منفصلة ، كما قل التعامل بين الجانبين بشكل أكثر بروزاً مما مضى ، مما أثر على أشكال التعاون الزائفة التى كانت قائمة بين الجانبين ووضع نهاية لها ، وبدأ وكأن كل منهما بدأ يختط الطريق الذى إختاره لنفسه . ودفعت التطورات التى نجمت عن أحداث ثورة البراق معظم التنظيمات السياسية الصهيونية للبحث عن السبل التى تكفل لليهود الدفاع عن أنفسهم فى حالة إذا مادعتهم الظروف فى

---

(٣) عن الأساب المباشرة لثورة البراق والنزاع بين العرب واليهودعلى ملكية الحائط الغربى للمسجد الأقصى :
راجع تقرير اللجنة الدولية المقدم الى عصبة الأمم ١٩٣٠فى :
:" منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية - سلسلة الوثائق الأساسية - بيروت ١٩٦٨ ، ط١ ، العدد ١٤ ، ص ص ١٠٥ - ١١١ .
، اكرم زعيتر . المرجع السابق ، الوثيقة رقم ١٥٩ ص ٣٢٢ .

المستقبل الى مواجهة المد الثورى العربى دون أن ينتظروا حماية الدول المنتدبة (٤) لهم .

وفى مذكرة إحتجاج رفعتها اللجنة التنفيذية العربية الى الحكومة البريطانية فى أعقاب أحداث أغسطس سنة ١٩٢٩ جاء بها :-

". . . ان المندوب السامى طبق قانون العقوبات المشتركة على أكثر مدن وقرى فلسطين هذا القانون الذى من شأنه أن يأخذ أهالى قرية برمتها بجريمة شخص واحد ليس له مثيل فى العالم حتى أنه قدطبق بأثر رجعى الأمر الذى يخالف مبادىء التشريع كلها لأنه من القوانين الجزائية التى لا يجوز أن تطبق بأثر رجعى " .

وفى الواقع أنه فى مطلع سنة ١٩٣٠ أصدر " تشانسلور " الذى عرف بعدائه للعرب ، تعليماته بإعتقال عدد من رجال الجمعيات الإسلامية - المسيحية ، والزج بهم فى السجن بتهمة تحريض الشعب على الإضطرابات ، كما إقتحمت قوات الشرطة أبواب مقار هذه الجمعيات لمراقبة إجتماعاتها ، وإغلاق الجمعيات التى تمارس أنشطة سياسية معادية للسلطات ، وطبق عليهم قانون جرائم الفساد وهو أحد القوانين التعسفية العديدة التى أصدرتها حكومة الإنتداب بهدف إخماد الثورة العربية ،وقبض علي عدد كبير من شباب العرب وعذبوا بشكل لا مثيل له ، ومنعت عنهم زيارة الأطباء وحددت إقالة العديد منهم خاصة فى " يافا " و " الناصرة " .

وفى الواقع أيضاً أن فلسطين كلها فى سنة ١٩٣٠ تستعد لثورة عارمة ضد أعدائها ، مهدت لها الصحافة الوطنية بعدة مقالات هاجمت فيها بريطانيا وسياستها ضد فلسطين ، وقد ذكرت جريدة " إسرائيل " التى كانت تصدر فى القاهرة فى معرض حديثها عن دورة تلك الصحافة بقولها :- (٥)

---

(٤) سامى هداوى :
الحصاد المر (فلسطين من عام ١٩١٤ / ١٩٦٧) .
الهيئة العامة للإستعلامات المصرية - وزارة الإعلام والإرشاد القومى ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ١٦ .
(٥) جريدة اسرائيل . القاهرة ١٣ يناير ١٩٣٣ . العدد ٢ ص ١ .

" . . . لا يخلو التحريض الذى تضرم أداره من دور الصحف العربية فى فلسطين وهو الدور الذى كان له أثره فى تكاثر حوادث الإغتيال رتتابعها ومن شر ما إبتليت به فلسطين فئه ممن ينتسبون زورا الى الصحافة وهو أحق بالإنتساب الى الثوريين " .

ولم تقف السلطات البريطانية ساكنه تجاه هذا الموقف الوطنى ، وكان أول رد فعل صدور البلاغ رقم ٢٦ وقد جاء فيه :-

" إن الحكومة تطلب وقوف هذا الهياج فوراً وسوف تتخذ الإجراءات القانونية ضد أى جريدة أو أى خطيب يتعرض لليهود " .

وفى شهر أغسطس سنة ١٩٣١ توجهت مظاهرة فى القدس الى مقر المندوب السامى إحتجاجاً على تسليح اليهود ، فقامت السلطات بعد أن فرغت من قمع المظاهرة بالقوة بإعتقال بعض العناصر الوطنية ثم عمدت الى تطبيق قانون منع الجرائم على أصحاب الصحف العربية ومحرريها ، وفى ١٨ سبتمبر ١٩٣١ إحتجت الجمعية العربية الوطنية التى أنشئت فى نابلس فى أبريل سنة ١٩٣١ على سياسة الحكومة البريطانية وجاء فى مذكرة الإحتجاج "إن إتباع تلك السياسة . . . إنما هو إعتراف من الحكومة الإنتدابية بإفلاس سياستها ولجوئها الى وسائل شاذة إستثنائية لخنق حرية الفكر المقدسة " . (٦)

وكان قد واكب هذا النشاط الفكرى والسياسى تأسيس حزب الإستقلال العربى الذى ظهر من خلاله الوطنيون على إستمرار معركتهم الفكرية والتركيز على توعية الجماهير بالخطر المحدق بهم رغم مواقف السلطات من هذا النشاط .

---

(٦) عبد الوهاب الكيالى :-
وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ضد الإحتلال البريطانى والصهيونية ١٩١٨ / ١٩٣٩ . بيروت ١٩٧٠ . ص ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ .
ومما هو جدير بالذكر أن ثورة سنة ١٩٣٦ كانت قد بدأت تختمر بلورها فى الفترة السابقة بنحو ست سنوات وكانت أحداثها تتصاعد تدريجياً ، وسنة بعد أخرى هذه الثورة بالإضراب العام الكبير الذى بدأه الشعب الفلسطينى .

وظهرت على الساحة العربية فى فلسطين فيما بين عامى ١٩٣٠ ، ١٩٣٣ عدة مؤتمرات عقدت لأهداف مختلفة ولكنها ساهمت فى تنمية حركة الجماهير ، كان أهمها مؤتمر العمال العرب الأول عقد فى " حيفا " فى ١١ يناير ١٩٣٠ ، ومؤتمر المناضلين العرب فى " نابلس ؛ فى ١٨ سبتمبر سنة ١٩٣١ ، و " المؤتمر الإسلامى " الذى عقد فى " بالقدس " فى الفترة مابين ٧ ، ١٧ ديسمبر ١٩٣١ ومؤتمر الشباب العربى الفلسطينى الأول الذى عقد " بالقدس " أيضاً " فى ٤ يناير ١٩٣٢ والمؤتمر النسائى العربى الذى عقد " بالقدس " فى ٢٨ يناير م نفس العام ومؤتمر اللجنة التنفيذية العربية وعقد " بالقدس " فى ٢٤ فبراير سنة ١٩٣٣ برئاسة الشيخ موسى كاظم الحسينى ، ثم المؤتمر الوطنى الكبير الذى عقد فى " يافا " فى ٢٦ مارس ١٩٣٣ برئاسته أيضاً والذى حضره وفود من جميع أنحاد فلسطين وقد بحث هذا المؤتمر ثلاث مسائل على جانب كبير من الأهمية : - (٧)

أ - عدم التعاون مع حكومة الإنتداب .

ب- الهجرة اليهودية .

جـ- مسألة بيوع الأراضى .

كما أصدر قرارات على جانب كبير من الأهمية تتعلق بهذه المسائل ومنذ يوليو ١٩٣٣ إزداد الهجوم من جانب العناصر الوطنية علي الحكومة نتيجة لتجاهل المطالب الوطنية الرئيسية والتمادى فى تسهيل بناء الوطن القومى ضد رغبات الشعب وعلى حساب حقوقه القومية فى بلاده ، وقررت اللجنة التنفيذية العربية التخلى عن سياسة

---

(٧) محمد عرابى محمد نخله :-
تطور المجتمع فى فلسطين ١٩٢٠ - ١٩٤٨
رسالة دكتوراه ، غير منشورة ، جامعة القاهرة ، كلية الآداب - قسم التاريخ عام ١٩٧٨ ، ص ص ١٠١ - ١٠٤ .

مهادنة السلطات ، والقيام بمظاهرات دورية فى جميع مدن فلسطين بدون طلب إذن من السلطات ، ثم قررت فى ٨ أكتوبر ١٩٣٣ ، الدعوة الى إضراب عام لمدة يوم واحد والإستعداد لمظاهرات إحتجاج إعتباراً من ١٣ من نفس الشهر إحتجاجاً على إجراءات القمع التي تمارسها الحكومة ضد العرب ، وقد قامت حكومة الانتداب في الثالث من اكتوبر بنشر بلاغ رسمى بموجب المادة ٣٢ من قانون البوليس لسنة ١٩٢٦ وطلبت العمل بها لمدة خمسة أسابيع وذلك تمهيداً لضرب المظاهرات المزمع القيام بها ، كما أصدرت البلاغ الرسمى رقم ٣٨ لسنة ١٩٣٣ بعدم السماح بأى تجمعات أو مواكب تعرض البلاد للفوضى والخطر ، كما تلا ذلك توجيه إنذار رسمى الى الصحف بتطبيق نص المادة ١٩ من قانون المطبوعات والتى تقضى بغلق الصحف سحب تراخيصها إذا استمرت على التحريض للقيام بمظاهرات . (٨)

وغنى عن البيان بأن تصميم الحكومة هذه المرة على منع المظاهرات بالقوة كان زليلاً على إدراكها العام أن هذه المظاهرات موجهة ضدها بالدرجة الأولى ثم ضد الصهيونية واليهود فى المرتبة الثانية . وكان قرار اللجنة التنفيذية فى ٢٥ سبتمبر ١٩٣٣ القيام بمظاهرات قد صدر تحت ضغط الجماهير التى شعرت بأن عدوها الحقيقى هو الإنتداب البريطانى الذى يعمل على تهويد فلسطين ، ولدى إلتقاء أعضائها بالمندوب السامى أسر بعض قادة الحركة الوطنية اليه بأنهم دفعوا الى هذا القرارتحت ضغط الشعب وأنهم كانوا يأملون أن تنقذهم الحكومة من هذا المأزق وتساعدهم وهرع بعض قادة الحركة الوطنية الى حاكم " يافا " مبدين له مخاوفهم من إنفجار إضطرابات جديدة سببها سياسة الحكومة ويكشف هذا الموقفان مدى فزع القيادة من حركة الجماهير وحرصها على إبقائها حبيسة المشروعية ، وأوهام التسوية ، ولولا أن هذه القيادة خشيت أن تفقد

---

(٨) يوسف الخورى :-
الصحافة العربية فى فلسطين - مؤسسة الدراسات الفلسطينية ١٩٦٧ ، ص ١٨٣ ، العدد ٣٤٠ من جريدة الوقائع الفلسطينية بالقدس فى ١٩ / ١ / ١٩٣٣ ، قانون المطبوعات رقم ٣ لسنة ١٩٣٣ المادة (١٩) .

قيادتها للحركة الوطنية ما كانت قد إستجابت لضغوط الجماهير وقررت التضحية بدور الوساطة التى كانت تمارسه بين الشعب والسلطات وإعلان تنظيم المظاهرات دون إذن السلطات ودعوة الى الإضراب . (٩)

وشهد شهر أكتوبر ١٩٣٣ عدة مصادمات عنيفة من جموع المتظاهرين من العرب وبين قوات سلطات الإنتداب فى عدة مدن فلسطينية هامة كالقدس ويافا وحيفا أسفرت عن سقوط عدد من الضحايا من الجانبين وقد إستخدمت خلالها قوات الإنتداب الذخيرة الحية لمواجهة المتظاهرين الذين لم تخرج طلباتهم عن وقف الهجرة اليهودية وبيوع الأراضى وإلغاء تصريح " بلفور " وإقامة حكومة فلسطينية وطنية ، كما أنه من الملاحظ إشتراك بعض قيادات اللجنة التنفيذية فى هذه المظاهرات وإشتراكها فى التصدى لقوات الإحتلال البريطانى لدرجة أن الشيخ كاظم الحسينى رئيس اللجنة التنفيذية قد أصيب فى إحداها ، وهى إصابة أدت الى وفاته فيما بعد (١٠)

وليس من شك أن نتائج تلك المظاهرات الدامية قد أوضحت لحكومة الرنتداب أن حركة الجماهير منصرفة من الآن فصاعداً الى مقاومة السلطة الإنتدابية فأصدرت الحكومة قانوناً للطوارىء فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٣٣ ، كما أعدت تعديلاً لقانون منع الجرائم صدر فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٣٣ ، تضمنت المادة (٥) فقرة (ب) صلاحية تخول حاكم اللواء إصدار قرارات إعتقال لمجرد الإشتباه فى إرتكاب شخص ما فعلاً معيناً . (١١)

وعلى صعيد أخر إستدعت حكومة الإنتداب أعضاء الجنة التنفيذية فى مطلع سنة ١٩٣٤ فى محاولة يائسة لوقف المد الثورى المتصاعد ، وأسفر الحوار بين الطرفين إلى

---

(٩) عبد القادر ياسين :
كفاح الشعب الفلسطينى قبل العام ١٩٤٨ - مركز الابحاث منظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ١٩٦٩ ، صص ١٤٠ / ١٤١

(١٠) المرجع السابق . ص ص ١٤١ / ١٤٣ .

(١١)جريدة فلسطين ١ يناير ١٩٣٤ العدد ٥٧٠ القدس .

إتفاق ضمنى بألا تتجاوز المظاهرات التى قد تحدث مستقبلاً إطارها العام وهو أنها ليست سوى وسيلة للتعبير عن الشعور وبالتالى لا تتطور الى أداة ضغط على السلطات لإجبارها على مواجهة اليهود .[(١٢)]

وعلى هذا الأساس إرتأت الحكومة السماح للجنة بتنظيم مظاهرة سلمية فى ١٧ يناير سنة ١٩٣٤ وقد أقر وزير المستعمرات موافقته على إجراء الحكومة مما جعل مدير الأمن البريطانى فى فلسطين المستر " سبايسر Spicer " الى الإستقالة إحتجاجاً على هذه الخطوة .[(١٣)]

وفى خريف ١٩٣٥ نشطت الحركة الوطنية الفلسطينية لمواجهة ظاهرة تسليح اليهود التى تفاقمت حدتها بسبب ضبط كمية من الأسلحة مهربة لليهود فى ميناء يافا فى شهر أغسطس سنة ١٩٣٥ ثم تصاعدت المواجهة بين حكومة الإنتداب وبعض العناصر الثورية التى إتخذت من القوة طريقاً لتحقيق الأهداف القومية والوطنية وكان ذلك نذيراً بنشوب ثورة عربية عارمة إستهدفت تخليص البلاد من البريطانيين واليهود فى آن واحد .

لم تفلح فى مواجهة المد الثورى الذى إستشرى فى كل بقعة من أرض فلسطين ، ولقد إندلعت الثورة الفلسطينية العربية الكبرى بين منتصف أبريل سنة ١٩٣٦ وحتى سبتمبر ١٩٣٩ أى زهاء ثلاث سنوات قدم لها الفلسطينيون العرب تضحيات هائلة دفاعاً عن وطنهم وعن وجودهم .[(١٤)]

---

(١٢) جريد ةفلسطين ٢١ مارس ١٩٣٤ العدد ٥٥١ القدس .

(١٣) عواطف عبد الرحمن :-
مصر وفلسطين
سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب . الكويت ، فبراير ١٩٨٠ ، العدد ٢٥ ص ٢٥٣ .

(١٤) محمد خالدالأزهرى :-
ثورة ١٩٣٦ وإنتفاضة ١٩٨٧ (رؤية نقدية) - مجلة شئون فلسطينية - مركز الأبحاث - منظمة التحرير الفلسطينية - نيقوسيا - أكتوبر ١٩٨٩ ، العدد ١٩٩ . ص ٦ ومابعدها .

أما على صعيد التنظيمات الشعبية والسياسية ، فقد شهدت الثورة قيام اللجنة القومية فى مختلف مدن فلسطين ، كان أهمها لجنتا نابلس ويافا ، وهذه اللجان تشكلت من العناصر الوطنية التى كانت تتمتع بثقة الجماهير ولديها القدرة على تنظيمهم وقيادتهم فى كل مدينة وضمت مختلف طبقات الشعب من الذين أرادوا بصدق أن يتخلصوا من اليهود والبريطانيين، وكانت هذه اللجان تختار رئيساً من بين أعضائها ممن هم أكبر سناً وأكثرهم ثقافة أو نضالاً ، وكانت مهمة اللجنة الاشراف على قيادة الحركة الثورية فى منطقتها والتنسيق فيما بينها وبين اللجان الأخرى فيما يتصل بحركة النضال الوطنى والثورى ، وقد نجحت هذه اللجان إلى حد بعيد فى اثبات وجودها واسطاعت أن تعبر بصدق عن مصالح الفئات التى تمثلها ، وقد سعت سلطات الانتداب جهد إستطاعتها لنتخلص من هذه اللجان التى لم تنشأ ضمن الاطار السياسى للتنظيمات السياسية العربية ، واتخذت فى سبيل ذلك كافة الاجراءات القمعية والتعسفية وصور الاضطهاد المتنوعة إلى أن تمكنت فى النهاية من اضعاف شأنها . (١٥)

وقد تمثلت الأحداث الثورية التى نشئت فى فلسطين خلال عام ١٩٣٥ فى ثورة الشيخ عز الدين القسام ، وكانت هى الحافز الأول للثورة العربية الكبرى فى العالم التالى . (١٦)

---

(١٥) غسان كنفانى :

ثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩ (خلقية تحليلية) - مجلة شئون فلسطينية - بيروت يناير ١٩٧٢ ، العدد ٦ ص ٦٠ وما بعدها .

(١٦) ولد الشيخ القاسم فى مدينة اللاذقية السورية عام ١٨٧١ ونشأت فى بيئة عربية إسلامية وهاجر إلى حيفا سنة ١٩٢١ حيث عمل مدرساً بمدرستها الاسلامية ، وابتداءاً بعمل جبار ألا وهو نشر الوعى لتحرير فلسطين فشرع فى تأسيس حلقات سرية من المخلصين للإعداد النفسى للثورة وقد بلغت قوة الخلية الايمان بالتضحية بشكل لا مثيل له ضمنت الخلايا التى كونها الشيخ القاسم سنة ١٩٣٥ نحو ٢٠٠ مجاهد ، وعندما اشتد خطر الهجرة اليهودية وانكشف أمر تسلح اليهود سراً بمساعدة السلطات البيرطانية ، تقرر الإبتداء بالثورة فى الأراضى الجبلية ، ووقعت عدة حوادث بين جماعة القاسم ورجال الأمن الانجليز في مواقع متفرقة في أرض فلسطين مثل معركة " خربة الشيخ زايد " فى صباح يوم ١٩ / ١١ / ١٩٣٥ التى أسفرت عن إستشهاد الشيخ القاسم وآخرين والقاء القبض على عدد من أتباعه ومؤيديه .

انظر الثورة العربية الكبرى فى فلسطين ١٩٣٦ / ١٩٣٩. دار الهنا للطباعة - القاهرة يوليو ١٩٦٧ ، ط٢ ، ص ٤٢ .

وقد إتجهت حكومة الانتداب إلى الحد من المد الثورى العنيف فقامت فى شهر مارس سنة ١٩٣٦ بتعديل قانون المطبوعات لسنة ١٩٣٣ بهدف تقييد أكثر لحرية الصحافة ، فمنح المندوب السامى سلطات أوسع لتعطيل الصحف واغلاقها نهائياً إذا لزم الأمر بسحب الترخيص منها دون ابداء الأسباب .(١٦)

ويمكن القول أن السلطات البريطانية رغم كل دهائهاوبأسها كما أنشئت خلال الثورة أيضاً اللجنة العربية العليا من ممثلى الأحزاب العربية الفلسطينية الستة الرئيسية وبرئاسة الحاج أمين الحسينى وكانت فى جهودها تمثل امتداداً طبيعياً للجنة التنفيذية العربية التى حلت سنة ١٩٣٤ وقامت علاقاتها مع سلطات الانتداب على أسس لا تختلف عن تلك التى إتبعتها سابقتها ورغم ذلك فقد أعلنت السلطات فى ٣٠ سبتمبر ١٩٣٧ حل اللجنة العربية العليا ، وكذلك جميع اللجان القومية وعزلت المفتى من رئاسة المجلس الأعلى الاسلامى ومن رئاسة الأوقاف .

ولقد إتخذت السلطات عدة إجراءات قمعية وتعسفية لمواجهة الثورة نحصرها فيما يلى :-

١ - التوسع فى حملة الاعتقالات وإنشاء المعتقلات السياسية :

أنشأت السلطات بالاضافة إلى معتقل عوجه الحفير معتقلا فى صرفند بمنطقة النقب وقد قدر متوسط عدد المعتقلين خلال الشهور الأولى للثورة بنحو ألف ومائتى شخص يومياً من مختلف الفئات والطبقات ولم تمانع السلطات فى إخراج أحد عناصر الوطنية من المعتقل لمدة يوم أو أكثر بهدف إخماد الثورة ثم تعيده إلى المعتقل بعد ذلك وقد حدث هذا مع محمد عزة دروزة مرتين الأولى يوم ٣ سبتمبر ١٩٣٦ والثانية يوم ٢٩ من نفس الشهر وكان ذلك بشأن التفاوض مع الملوك والرؤساء العرب لفض الاضراب .(١٨)

---

(١٧) انظر نص مواد قانون المطبوعات المعدل رقم ١٤ لسنة ١٩٣٦ صادر فى ٨ / ٣ / ١٩٣٦ .

(١٨) عادل حسن غيم :

محمد عزة دوروزة وحركة النضال الفلسطينى . القاهرة سنة ١٩٨٧ . دار النهضة العربية - ص ٣٩ .

ومع إتساع الثورة ارتفع عدد المعتقلات إلى أربعة عشر معتقلا ، وبلغ عدد الذين إعتقلوا بصرف النظر عن طول المدة أو قصرها ما يقرب من خمسين ألف ، كما بلغ عدد الذين حوكموا بعقوبات مقيدة للحرية لمدد طويلة ألفين من بينهم شيوخ وفتيان ونساء ، أما عدد الذين أعدموا شنقاً فقد بلغ ١٤٦ ثائراً.

٢ - تعديل أنظمة الطوارىء نحو مزيد من الشدة والارهاب :

عدلت بعض العقوبات المنصوص عليها فى أنظمة الطوارىء لسنة ١٩٣٦ ومن بعض الأمثلة على ذلك السجن ستة سنوات لحيازة مسدس ، ١٢ سنة بتهمة حيازة قنبله ، خمس سنوات لحيازة ١٢ رصاصة ، وسنتان لحمل مدية . وواضح الاتجاه نحو التشدد فى هذه العقوبات غير المعقولة على جرائم تبدو عادية ، وذلك كوسيلة من الوسائل الردعية .

ففى ١٠ نوفمبر سنة ١٩٣٧ صدر البلاغ الرسمى رقم ٢٠ بنشر أنظمة الدفاع " الطوارىء " المعدلة ووفقاً لذلك شكلت محاكم عسكرية فى كل أنحاء فلسطين ، وحوكم وفقاً لذلك الشيخ " فرحان السعدى " الزعيم الأول فى خلية القسام الثورية ، ثم نفذت فيه حكم الاعدام فى الثانى والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٩٣٧ .

٣ - القيام بعمليات نسف جماعية والتوسع فى تطبيق المادتين ٤ ، ٥ من قانون العقوبات المشتركة :

قامت السلطات بعمليات نسف لعدد من المنازل فى بعض الأحيان داخل المدن والتى تصدر منها تحركات الثوار ، من ذلك ما حدث للحى القديم الذى يقطنه العرب فى يافا خلال يونيو سنة ١٩٣٦ ، كما توسع فى تطبيق المادة ٤ من قانون العقوبات المشتركة التى يتم من خلالها الزام سكان المناطق التى تحدث فيها اضطرابات لتحمل نفقات الزيادة فى قوات البوليس الموجهة إليها وفى تطبيق المادة (٥) التى تقضى بفرض غرامات جماعية على سكان القرية أو المدنية التى يشترك أحد أبنائها فى احداث الثورة .

٤ - تعطيل الصحافة العربية والوطنية :

إستعملت السلطات الصلاحيات المخولة إليها طبقا لقانون الطوارىء والمطبوعات وعطلت بعض الجرائد المؤيدة لموقف الثوار والمحفزة على الثورة عن الظهور فلقد عطلت جريدة اللواء أربع مرات متتالية خلال عام ١٩٣٧ وبلغت مدة إيقافها نحو ١٠١ يوم خلال ذلك العام ، كما عطلت جريدة الدفاع أربعة مرات أيضاً بمدة إيقاف جملتها ٤٦ يوما وعطلت الجامعة الاسلامية مرتين بمدة إيقاف ٤٥ يوما ، أما جريدة فلسطين فانها لم تعطل سوى مرتين بمدة إيقاف قصيرة للغاية بلغت ثمانية أيام (أربعة فى كل إيقاف) ، ولعل ذلك يعود إلى أن هذه الصحيفة كانت تتحدث كلسان حزب الدفاع الوطنى المعروف بولائه للسلطة الانتدابية فلم تخرج كثيراً عن الحدود التى رسمت لها عند الحديث عن الثورة ومجرى أحداثها . (١٩)

٥ - إستدعاء قوات عسكرية إضافية لضرب مواقع الثوار :

كانت السلطات قد استدعت فى ١١ مايو سنة ١٩٣٦ أول دفعة من القوات العسكرية البريطانية من خارج فلسطين لمساعدتها فى قمع الثورة ثم عززت بقوات أخرى برئاسة " الجنرال جون يدل Field Marshal , sir John Dill " رئيس أركان القوات العسكرية البريطانية فى الشرق الأوسط وكان من المع العسكريين البريطانيين ، وأطلقت يده فى إتخاذ الاجراءات والتدابير اللازمة للقضاء على الثورة واجهاضها وقد بلغت جملة القوات البريطانية الموجودة فى فلسطين فى بداية شهر أغسطس سنة ١٩٣٦

---

(١٩) عادل حسن غنيم :
الحركة الوطنية الفلسطينية من ثورة ١٩٣٦ حتى الحرب العالمية الثانية - القاهرة ١٩٨٠ ، مكتبة الخانجى ، ص ٢٩٣ .

نحو ٢٠ ألف جندى بكامل معداتهم العسكرية . وقد فرض الجنرال " ديل " بناء على الصلاحيات التى خُولت له الحكم العسكرى على أرجاء البلاد وفرض حظر التجول فى عدة مناطق .

٦ - التحريض على اغتيال رجال الثورة :

عمدت السلطات البريطانية على الاستفادة من الفوضى التى عمت البلاد فى أوائل سنة ١٩٣٩ ، فأوعزت لأعوانها اغتيال العديد من رجال الثورة البارزين بهدف التخلص منهم من ناحية وللايقاع بين الجماعات الثروة بعضها ضد بعض وقد ورد ذكر لاحدى الحوادث التى تشير إلى تورط السلطات البريطانية فى حوادث الاغتيالات السياسية التى إجتاحت فلسطين بين عامى ٣٨ / ١٩٣٩ وذلك فيما ذكره فخرى البارودى رئيس المكتب العربى القومى فى دمشق بأنه التقى بأحد الأشخاص الذى أخبره بأن القنصلية البريطانية فى دمشق قد كلفته بواسطة أحد رجالاتها بإغتيال " دروزة " و " اكرم زعيتر " وقد تبين فيما بعد أن هذا الشخص جاسوس للقنصلية البريطانية ومكلف بمراقبة بعض المجاهدين .

٧ - تدعيم عناصر الثورة المضادة :

استطاعت حكومة الانتداب أن تقنع فخرى النشاشيبى ، وهو من عناصر المعارضة فى الحركة الوطنية ، وأحد أقطاب حزب الدفاع ، بتشكيل ما يسمى بفضائل السلام وكانت عبارة عن مجموعات مسلحة أمدتها سلطات الانتداب عن طريق قيادات حزب الدفاع بالأسلحة والمؤن واتخذت شكل الثورة المضادة وكان الهدف منها إضعاف الثورة وتشويه سمعتها فى الداخل والخارج وذلك من خلال اعتراض

رجال الثورة الحقيقيون ومنعهم من ممارسة أعمالهم الثورية ضد الاحتلال البريطانى والصهيونى ومما ساهم فى خلق الحافز لفضائل السلام لأداء هذا الدور هو إنتشار موجة الاغتيالات السياسية التى وقع ضحيتها عدد من رجال حزب الدفاع الذين اشتهروا بتعاونهم مع سلطات الاحتلال وتورطهم فى عمليات بيع الأراضى لليهود وأنهم رجال الثورة باغتيالهم وكذلك إلى أن مصالح التجار وكبار الملاك وأصحاب الأعمال العرب الذين ينتمون إلى حزب الدفاع ، قد أضيرت بشدة من الثورة واستمرارها ورغبوا فى إيقاف المد الثورى بأى وسيلة حتى تعود طبيعتها وهدوئها .

وما من شك أن تلك الاجراءات التى إتخذت لاجهاض ثورة الثلاث سنوات (١٩٣٦ - ١٩٣٩) كان لها تأثيرها الفعال على مسيرتها ووضع نهاية لها ، وقد جاء فى تقرير مرسل من القنصلية المصرية بالقدس فى ١٠ يونيو سنة ١٩٣٩ تلخيصاً لموقف الثورة فى فلسطين واصرار حكومة الانتداب على مقاومتها وتمسكها بما اتخذته من اجراءات سابقة لقمع الثورة قمعاً نهائياً " . . وقد نشطت حركة الثوار فى الأيام الأخيرة ، كما وقعت بعض الاعتداءات من جانب اليهود بشكل يهدد السلام ويقضى على الأمل بعودة الطمأنينة إلى البلاد . وتمضى الحكومة فى اجراءات القمع بكل شدة وتوقيع العقوبات الصارمة على المعتدين " .

وبالرغم من صدور الكتاب الأبيض سنة ١٩٣٩ فى شهر مايو ، والذى تضمن عدة اجراءات تهدف إلى حماية حقوق العرب فى فلسطين ، فإن حكومة الانتداب لم تحاول أن تترجم الاتجاه العام من وراء الكتاب الأبيض لاسترضاء العرب وتهدئه الموقف فى فلسطين إلى خنوات فعالة ، فلم تطلق سلاح المتعقلين ولم تعف عن الضرائب المتراكمة ولم تسمح للذين هم فى السلطات أنظمة الدفاع (الطوارئ) لسنة ١٩٣٩ فى ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٩ بهدف فرض الرقابة على مختلف

الأنشطة السياسية وعلى تحركات الأفراد وغير ذلك من الأمور التى تعد من قدرة القوة الوطنية على متابعة النضال . (٢٠)

أما عن واقع الحياة السياسية للعرب فيما بين عامى ١٩٣٩ / ١٩٤٨ فوق أرض فلسطين فعلينا أن نتذكر أن السياسة البريطانية أفضت خلال ثورة ١٩٣٦ / ١٩٣٩ إلى تشتيت القيادات السياسية وتدمير المؤسسات السياسية التى تمثل العرب ، وكان زعماء الثورة مشردين ، فالمعنى كان لاجئاً فى لبنان ، ويشرف على بعض أعمال الثورة من قصره بالقرب من بيروت ولكن بسريه تاخذ وتحت قيود شديدة وضمن حدود ضيقة حتى لا يتعرض للاعتقال أو المحاكمة خاطئة وأن لبنان كانت خاضعة للنفوذ الفرنسى الذى أظهر تنسيقاً مع الوجود البريطانى فى فلسطين عشية الحرب العالمية الثانية ، كما كان العديد من الزعماء موزعين بين لبنان وسوريا وكانت وسيلة الاتصال بينهم وبين الثوار تتم عن طريق التسرب سرا من فلسطين إلى هذين البلدين .

أما عن المؤسسات السياسية فلم توجد فى فلسطين أية مؤسسة سياسية تمثل الحركة الوطنية على المستوى العام وكانت آخر هيئة هى اللجنة العربية العليا وقد حلت بقرار من حكومة الانتداب فى نهاية سبتمبر سنة ١٩٣٧ ، أما عن الأحزاب السياسية فمعظمها أنهكته أحداث الثورة ولم يعد له وجود يذكر على الساحة السياسية بإستثناء حزبى الدفاع الوطنى والعربى ، والأول كان يترأسه راغب التشاشيبى وكان لا يزال موجوداً في فلسطين عند اندلاع الحرب وفى الواقع فإنه نتيجة لسياسة هذا الحزب الموالى لسلطات الانتداب قد خرج من ثورة ١٩٣٦ / ١٩٣٩ أقوى من الحزب العربى على الصعيدين التنظيمى والعلمى وليس على الصعيد الشعبى ، فأفرعه كانت لا تزال موجودة وكذلك معظم قياداته وعند نشوب الحرب أعلن الحزب وقوفه إلى جانب بريطانيا

(٢٠) ج . م . ب جفريز : فلسطين إليكم الحقيقة .
ترجمة : أحمد خليل الحاج - مراجعة محمد أنيس .
القاهرة ١٩٧٣ - الهيئة المصرية العامة للكتاب - جـ ٤ ص ١٥٠ .

فى الحرب وطالب الشعب بالتزام الهدوء حرصا على الصالح العام ، وأيد الدعوة للتطوع فى صفوت القوات البريطانية حتى يكتب لها النصر وفى ٢٠ سبتمبر دعا الحزب إلى اجتماع كبير عقد بالقدس حضره بعض الوجهاء والأعيان هدفه الدعوة إلى تطوع العرب وتمخض الاجتماع عن تأليف لجان في جميع أنحاء فلسطين تشرف على شئون المتطوعين وقد اشترك فى هذه اللجان أعضاء من مختلف أقضية فلسطين منهم مصطفى الخالدى (القدس) وعمر البيطار (حيفا) وتحسين عبد الهادى (جنين) وأحمد القلى (عكا) وآخرون . ولكن عرب فلسطين وقفوا موقفاً سلبياً من مسألة التطوع فى القوات البريطانية بسبب ما عانوه منظلم وبطش وتنكيل على أيدى القوات البريطانية . (٢١)

أما الحزب العربى فقد أعيد تنظيم صفوفه من جديد سنة ١٩٤٤ ، وانتخب توفيق صالح الحسينى وكيلاً لرئيس الحزب ، واعتبر الحزب هذه العملية كلها إجراءا مؤقتا حتى يعود السيد جمال الحسينى الرئيس الشرعى للحزب من المنفى . ولقد لاقت إعادة تنظيم الحزب تجاوبا شعبياً كبيراً ، ولذلك استطاع بسهولة أن يعيد النشاط إلى فروعه المنتشرة في المدن ولكنه اقتصر على تقديم المذكرات السياسية إلى سلطات الانتداب والزعماء العرب ، أما مضمونها السياسى فكان استمرارها للمنهج السياسى السابق للحزب ، فعلى سبيل المثال رفع الحزب فى ٢٨ يوليو ١٩٤٤ مذكرة مطولة إلى الحكومة البريطانية وبعض الشخصيات البريطانية والدولية العامة فى فلسطين وخارجها تضمنت المطالب الأساسية الثلاثة للحركة الوطنية الفلسطينية هى : الاستقلال واقامة دولة عربية فى :

١ - الاستقلال وإقامة دولة عربية فى فلسطين تُسيطر على شئون البلاد كلها .

٢ - الوحدة العربية .

٣ - بالاضافة إلى المطالبة باطلاق سراح المعتقلين والسماح بعودة المنفيين لاسيما

---

(٢١) جريدة فلسطين - القدس - العدد ٣٨٩٢ ، الصادر فى ٢٠ / ١٢ / ١٩٤١ .

رئيس الحزب السيد جمال الحسينى المنفى فى روديسيا والسيد أمين التميمى عضو الحزب المنفى بنفس البلد .

وخلال السنوات التالية للحرب ولدت بعض الأحزاب السياسية العلنية لم تختلف فى نهجها وأسلوبها عن الأحزاب القديمة ، كما أنها لم تنتشر ، لكنها دليل على المحاولات الجديدة لدعم الحركة الوطنية ، كما انتشرت تنظيمات عقائدية متعدية الاتجاهات بعضها سرى محلى وبعضها فروع لأحزاب قومية أو دينية منتشرة فى البلدان العربية كما وجدت منظمات للشباب لعبت دوراً هاماً فى تهيئة الأجواء النفسية والعسكرية لمعركة التحريرية المصيرية ضد الصهيونية ، وأهم هذه الأحزاب والتنظيمات ما يلى :

١ - عصبة التحرر الوطنى :

أنشئت فى سنة ١٩٤٣ ، وجاءت امتداداً للنشاط العربى الشيوعى فى فلسطين الذى كان قد بدأ مبكراً منذ عام ١٩٢٠ ، ولقد ظهرت العصبة كحزب شيوعى عربى مستقل اثر الانقسام القومى الذى وقع فى صفوف الحزب الشيوعى الفلسطينى فى ربيع سنة ١٩٤٣ والذى أدى إلى خروج الأعضاء العرب من صفوف الحزب وبقائه مقتصراً على الشيوعيين اليهود . وقد أكدت العصبة فى ميثاقها أنها جزء لا يتجزأ من الحركة الوطنية العربية الفلسطينية وأن عضويتها تقتصر على المواطنين العرب فقط ومن الجدير بالذكر أن الحزب الشيوعى الفلسطينى فى سنة ١٩٢٢ ولكن فى تلك الفترة كان معظم أعضائه من اليهود ولم يبدأ الاتجاه الحقيقى إلى تعريب الحزب إلا فى عام حين أسندت وظيفة السكرتير العام إلى " رضوان الحلو " أحد الأعضاء العرب إلا أن هذا الحزب أ ينتج جماهيريا فهو من

ناحية لم يحدد موقفه بوضوح من حقوق العرب القومية فى فلسطين ، علاوة على أن أوضاع العرب الدينية والاقتصادية لم تسمح بإنتشار الفكر الشيوعى ، بالاضافة إلى دور الفكر القومى الذى أعاق نموه أما الأشباب المباشرة للإنقسام الذى فى سنة ١٩٤٣ فتعود إلى الخلاف الذى نشب داخل الحزب بين جناحيه العربى واليهودى حول الحقوق القومية لكل من العرب واليهود فى فلسطين وعما إذا كانت فلسطين هى دولة عربية تضم أقلية يهودية أم دولة ثنائية القومية كما أراد لها اليهود الشيوعيون أن تكون . ولقد كان من أبرز زعماء العصبة حين نشوءها " فؤاد ناصر " ، و " أميل طلحه " وتعتبر العصبة والحزب الشيوعى هما نواة الحزب الشيوعى الاسرائيلى الذى سيتولى الدفاع عن حقوق الاقلية العربية فى اسرائيل . (٢٢)

وقد باشرت العصبة إصدار نشرات أسبوعية مطبوعة على ورق باللون الأخضر تتضمن مقالات وتعليقات تبين موقفها من الأحداث السياسية الجارية فى فلسطين وفى العالم ، تركز نشاطها الرئيسى فى محاولات دفع جماهير العمال والفلاحين للنخراط فى العمل الوطنى والانتظام فى نقابات العمال والفلاحين والمهنيين التى إنتشرت فى أنحاء فلسطين خلال الحرب كاحدى السبل التى تكفل الدفاع عن حقوق الطبقة العاملة . (٢٣)

وليس من شك أن وقوف الاتحاد السوفيتى إلى جانب الحلفاء ساعد فى سماح السلطات بنشوء العصبة واستثمار نشاطها حتى سنة ١٩٤٨ دون توقف . (٢٤)

---

(٢٢) على الدين هلال :

تكوين اسرائيل (دراسة فى أصول المجتمع الاسرائيلى) - القاهرة ، دار الهلال ١٩٧٧ ص ٤٩ ، ٥٠ .

(٢٣) ماهر الشريف :

الشيوعية والمسألة القومية العربية فى فلسطين ١٩١٩ / ١٩٤٨ . مركز الابحاث ـ منظمة التحرير الفلسطينية ـ بيروت ١٩٨١ ، ص ٣١٩ ـ ٣٢٢ .

(٢٤) موسى خليل :

الحزب الشيوعى الفلسطينى : مجلة شئون فلسطين - بيروت نوفمبر ١٩٧٤ ، العدد ٣٩ ، ص ١١٢ .

٢ - حزب التقدم العربى الفلسطينى :-

فى سنة ١٩٤٤ أنشىء حزب التقدم العربى الفسطينى ، وكانت أهدافه هى : " السعى للحصول على جميع حقوق ومطالب الشعب العربى فى فلسطين مع المحافظة على أراضى وأملاك وكيان ذلك الشعب " وقد ظل هذا الحزب محدود النطاق ويم يحقق أى انتشار على المستوى الشعبى ، ولذا فإنه لم يترك أثراً يذكر على الساحة السياسية وخفت صوته عقب ظهور الهيئة العربية العليا التى ضمنت رؤساء مختلف الأحزاب الفلسطينية فى سنة ١٩٤٦ .

٣ - حزب الشعب :-

وهو حزب تألف فى سنة ١٩٤٤ على يد مجموعة من قادة الحركة النقابية الاصلاحية ومن أصحاب المهمن الحرة ، وقد تبنى هذا الحزب برنامجاً ديموقراطياً ملائمة لمواجهة التحديات والمشكلات التى نتجت عن سنوات الحرب وقد تغاضت السلطات البريطانية عن نشاطه ، لأنه لم يكن نشاطاً ثورياً يؤثر على الأمن وسيادة الحكومة ، وقد توارى هذا الحزب عن الانظار خلال الفترة التى أعقبت نهاية الحرب العالمية الثانية .

ومن الملاحظ أن هذه الأحزاب لم تصل إلى حد المشاركة فى القيادة السياسية العليا فى البلاد ، التى ظلت مكانتها شاغرة حتى قيام الهيئة العربية العليا فى يونيو ١٩٤٦ ، بل أن الحركة الوطنية كانت تعانى من جمود واضح خلال سنوات الحرب كان له انعكاسه على الحياة السياسية بجوانبها المختلفة ولقد عمدت السياسة البريطانية خلال تلك المرحلة إلى حرمان عرب فلسطين من قيام مؤسسة

فلسطينية سياسية مستقلة يمكنها قيادة الحركة الوطنية والدفاع عن المصالح القومية لهذا الشعب دون أدنى وصاية خاجية عليه . (٢٥)

وهكذا عندما تألف الهيئة العربية العليا فى ١٢ يونيو سنة ١٩٤٦ بقرار من الجامعة العربية كان من الطبيعى أن يكون ثقلها الحقيقى خارج فلسطين ، فلقد اقتصر نشاط الهيئة فى الداخل على كونها مجرد مكتب لتلقى عرائض المواطنين واحالتها إلى الدوائر الحكومية المختصة ، ثم التوسط لدى هذه الدوائر لتسهيل مصالح المواطنين فى كافة المجالات .

ومما لا شك فيه أن هذه الانشطة التى مارسها مكتب الهيئة بالقدس لا تنتمى إلى العمل السياسى أو الوطنى بصفة ، هى أقرب إلى أنشطة الجمعيات الاجتماعية منها إلى هذا العمل . وما من شك أن نتائج هذه الصورة التى ولدت عليها الهيئة العربية العليا جاءت فى المقام الأول لخدمة مصالح حكومة الانتداب بعد أن رفعت عن كاهلها عبء مواجهة إرادة فلسطينية مستقلة ممثلة فى المفتى وأتباعه أو غيرهم ممن كان فى إستطاعتهم التصدى للمخطط البريطانى الذى إتجهت اليه السياسة البريطانية خلال عامى ١٩٤٦ / ١٩٤٧ على أساس تقسيم فلسطين بين العرب واليهود .

---

(٢٥) انظر :-
أميل توما :
جذور القضية الفلسطينية . مركز الأبحاث ، منظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ١٩٧٣، ص ٢٦٨ - ٢٧٠ .
، سيد نوفل :
العمل العربى المشترك ماضيه ومستقله .
المطبعة الفنية الحديثة - القاهرة ١٩٦٨ ، ص ١١١ .

ويصور لنا أحمد فراج طايع قنصل مصر لدي فلسطين الحياة داخل مكتب الهيئة العربية بالقدس بقوله : - (٢٦)

" . . . لقد تركت الزيارة (لمكتب الهيئة) فى نفسى ألما وحسرة ، لأنى لم أجد حياة فى مكتب الهيئة الذى كان يشغل شقة متواضعة فى بناء من طابقين ، خال من الموظفين إلا ثلاثة أو أربعة ، يظهر أن عملهم قليل ، ولعل أهم عمل لهم كان إصدار التوصيات للراغبين فى السفر إلى البلاد العربية . . . . " .

ولقد إلتف عرب فلسطين تحت راية الهيئة العربية العليا ، نظراً لرئاسة المفتى (الحاج أمين الحسينى) لها الذى كان يحظى بشعبية جارفة ويتمتع بثقة الجماهير لكنهم خدعوا بالتضليل السياسى الذى كان يأتيهم من خارج فلسطين وشاركت فيه الجامعة العربية ، وفحواه أن يرتكن عرب فلسطين إلى الدول العربية والهيئة العربية وينتظرون فى هدوء قرب انفراج الأزمة وعودة الحق إلى أهله واستسلمت الجماهير لهذه الأقاويل ، ولم يكن لعرب فلسطين أى نشاط يذكر فى الداخل خلال عامى ١٩٤٦ / ١٩٤٧ سواء على الصعيد السياسى أو الثورة اللهم إلا رد فعلهم إزاء لجنة التحقيق الانجلو - أمريكية التى مارست تحقيقاتها فى فلسطين فى النصف الأول من عام ١٩٤٦ ولم تجد سلطات الانتداب ثمة ما يدعو إلى التصدى لهذا النشاط خاصة فى تلك الآونة حيث كان تركزها منصب على ايقاف النشاط

---

(٢٦) أحمد فراج طايع .
صفحات مطوية عن فلسطين .
دار مطابع الشعب - القاهرة ، د . ت . ، ص ٥٦ .

الصهيونى المعادى لها فى البلاد ، بل وكانت على استعداد للسماح بأى بادرة من عرب فلسطين تساعد فى التصدى للاعتداءات الصهيونية . (٢٧)

ولقد وافقت السلطات بالفعل على تأسيس منظمتين شابيتين هما النجادة والفتوة فى أواخر سنة ١٩٤٥ ، وبالرغم مما أعلنه مؤسسو المظمتين من أن أهدافهما رياضية عامة ، إلا أن السلطات وقفت على حقيقة أهدافهما العسكرية التى ترمى إلى تدريب الشباب تدريباً عسكرياً استعداداً للمعركة المقبلة مع الصهيونية . وكانت هاتان المنظمتان قد أتخذتا بقرار من الهيئة العربية العليا فى منظمة واحدة فى مطلع سنة ١٩٤٧ ، كما سمحت السلطات من ناحية أخرى بقيام جمعية " الكشاف العربى " الفلسطينى فى سنة ١٩٤٦ بعد أن كانت ترفض الاعتراف بها خلال الحرب العالمية الثانية .

و إذا ما تركنا الأوضاع السياسية وحاولنا تتبع الأوضاع الاجماعية والاقتصادية سنجد أن السلطات البريطانية صادرت الكثير من أراضى الفلسطينيين واحتكرت أراضى الوقف وكل أراضى الدوميه التى كانت من قبل تخص الدولة العثمانية والباب العالى .

ولقد حددت السلطات البريطانية الكثير من تحركات الفلسطينيين الاقتصادية ومنحت الامتيازات لليهود على حساب العرب ، وتركت للشركات اليهودية شراء الأرض وفوق ذلك أتاحت الفرصة للمهاجرين اليهود ليأتوا إلى أرض فلسطين ويبنوا

---

(٢٧) ناجى علوس .
المقاومة العربية فى فلسطين ١٩١٧ - ١٩٤٨ .
مركز الأبحاث - منظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ، مايو ١٩٦٧ ، ص ١٣٩.

المستعمرات وساهم الانجليز بصفتهم المنتدبين على أرض فلسطين فى تخلى بعض الفلسطينيين عن أراضيهم لصالح اليهود .

وفى كل صراع خاصة العرب الفلسطينيون ضد اليهود أو الانجليز كانت تفرض عليهم العقوبات بشكل لا مثيل له ، كما أن الانجليز أتاح للوكالة اليهودية أن تمارس كافة سلطاتها على اليهود بحيث شكلت حكومة داخل بينما حرمت الفلسطينيين من أى سلطة قومية تحميهم وتدافع عنهم وتتكلم بأسمائهم .

أما عن أوضاع الفلسطينيين الاجتماعية فقد وضح تماما حرص المستعمر البريطانى على تغيير الخريطة الديموغرافية لصالح اليهود وبعد أن كانوا يشكلون فقط نحو ١٧ ٪ من تعداد السكان فى سنة ١٩٢٠ أصبحوا فى سنة ١٩٤٨ يشكلون أكثر من ٤٠ ٪ من مجموع السكان .

كما عانى الفلسطينيون فى مناطق إقامتهم من تمييز عنصرى من حيث توافر الخدمات الصحية والتعليمية بين القطاعين العربى واليهودى ، فقد حرص الانتداب على اهمال شئون الصحة والتعليم بالنسبة للعرب .

بقى أن نعرف أن المسئول الأول عما حدث للفلسطينيين يتركز فى مجموعة من العوامل :-

أولاً : الانتداب البريطانى الذى تم فى شكل مؤامره دولية لكى تسلب أرض فلسطين لصالح اليهود .

ثانياً: إهمال العرب للقضية الفلسطينية وعدم تقديرهم للخطر الصهيونى .

ثالثاً : القصور الذى شاب المجتمع الفلسطينى والصراعات التى دارت بين زعاماته ونقص الوعى بحقيقة التآمر الصهيونى الاستعمارى حولهم .

رابعاً : موت الضمير الدولى وسلبية الرأى العام العالمى تجاه ما كان يحدث وذلك تحت تأثير التخطيط والدعاية للحركة الصهيونية وموسساتها داخل فلسطين وخارجها .

ومن هنا لا نستغرب أن النضال من أجل أن تعود فلسطين عربية كان يحتاج لمواجهة تلك القوى التى عاقت الفلسطينيين عن تحرير أراضيهم وتحقيق ارادتهم السياسية لبناء دولتهم المستقلة . . . وذلك كله فى حاجة إلى سنوات ليمكن استعادة الحق واسترجاع الأرض .

(١) Eisenstadt . N . -1

Israel Society . London, P . P . 33 - 350 .

(٢) أكرم زعيتر :

وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية . الوثيقة رقم ١٥٤ . بيروت سنة ١٩٧٠ ، ص ٣١٨ .

(٣) عن الأسباب المباشرة لثورة البراق والنزاع بين العرب واليهود على ملكية الحائط الغربى للمسجد الأقصى :

راجع تقرير اللجنة الدولية المقدم إلى عصبة الأمم سنة ١٩٣٠ فى :

، منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية سلسلة الوثائق الأساسية ـ بيروت ١٩٦٨ ـ ط ١ ـ العدد ١٤ ، ص ١٠٥ ـ ١١١ .

، أكرم زعيتر . المرجع السابق . الوثيقة رقم ١٥٩ ، ص ٣٢٢ .

(٤) سامى هداوى :

الحصاد المر (فلسطين من عام ١٩١٤ / ١٩٦٧) .

الهيئة العامة للاستعلامات المصرية ـ وزارة الاعلام والارشاد القومى ، القاهرة ١٣ يناير ١٩٦٨ ، ص ١٦ .

(٥) جريدة إسرائيل ـ القاهرة ١٣ يناير ١٩٣٣ ، العدد ٢ ص ١ .

(٦) عبد الوهاب الكيالى :

وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ضد الاحتلال البريطانى والصهيونية ١٩١٨ ـ ١٩٣٦ ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦ .

ومما هو جدير بالذكر أن ثورة سنة ١٩٣٦ كانت قد بدأت تختمر بذورها فى الفترة السابقة بنحو ست سنوات وكنت أحداثها تتصاعد تدريجيا ، وسنة بعد أخرى حتى بلغت ذروتها فى عام ١٩٣٦ حيث بدأت أحداث هذه الثورة بالاضراب العام الكبير الذى بدأة الشعب الفلسطينى .

(٧) محمد عرابى محمد نخلة :

تطور المجتمع فى فلسطين ١٩٢٠ ـ ١٩٤٨ .

رسالة دكتوراة ، غير منشورة ، جامعة القاهرة ـ كلية الآداب ـ قسم التاريخ عام ١٩٧٨ ، ص ١٠١ ـ ١٠٤ .

(٨) يوسف الخورى :

الصحافة العربية فى فلسطين ـ مؤسسة الدراسات الفلسطينية ١٩٦٧ ، ص ١٨٣ ، العدد ٣٤٠ من جريدة الوقائع الفلسطينية بالقدس فى ١٩ / ١ / ١٩٣٣ قانون المطبوعات رقم ٣ لسنة ١٩٣٣ المادة (١٩) .

(٩) عبد القادر ياسين :

كفاح الشعب الفلسطينى قبل العام ١٩٨ ـ مركز الابحاث منظمة التحرير الفلسطينية ـ بيروت ١٩٦٩ ، ص ١٤٠ ـ ١٤١ .

(١٠) المرجع السابق . ص ص ١٤١ ـ ١٤٣ .

(١١) جريدة فلسطين ، ١٠ يناير ١٩٣٣ . العدد ٥٧٠ القدس .

(١٢) جريدة فلسطين ، ٢١ مارس ١٩٣٤ . العدد ٥٥١ القدس .

(١٣) عواطف عبد الرحمن :

مصر وفلسطين

سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت فبراير ١٩٨٠ ، العدد ٢٥ ، ص ٢٥٣ .

(١٤) ولد الشيخ القسام فى مدينة اللاذقية السورية عام ١٨٧١ ونشأ فى بيئة عربية إسلامية وهاجر الى حيفا سنة ١٩٢١ حيث عمل مدرس بمدرستها الإسلامية، وابتدأ بعمل جبار ألا وهو نشر الوعى لتحرير فلسطين ، فشرع فى تأسيسى حلقات سرية من المخلصين للاعداد النفسى للثورة وقد بلغت قوة الخلية الإيمان بالتضحية بشكل لا مثيل له وضمت الخلايا التى كونها الشيخ القسام سنة ١٩٣٥ نحو ٢٠٠ مجاهد ، وعندما اشتد خطر الهجرة اليهودية وانكشف أمر تسليح ليهود سرا بمساعدة السلطات البريطانية ، تقرر الإبتداء بالثورة فى الأراضى الجبلية ، ووقعت عدة حوادث بين جماعة لقسام ورجال الأمن الإنجليز فى مواقع متفرقة فى أرض فلسطين مثل حركة « خربة الشيخ زايد » فى صباح يوم ١٩ / ١١ / ١٩٣٥ التى أسفرت عن استشهاد الشيخ القسام وأخرين والقاء القبض على عدد من أتباعه ومؤيديه .

انظر الثورة العربية لكبرى فى فلسطين ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ .

دار الهنا للطباعة ـ القاهرة يوليو ١٩٦٧، ط ٢، ص ٤٢ .

(١٥) انظر نص مواد قانون المطبوعات المعدل رقم ١٤ لسنة ١٩٣٦ صادر فى ٨ / ٣ / ١٩٣٦ .

(١٦) محمد خالد الأزهرى :

ثورة ١٩٣٦ وانتفاضة ١٩٨٧ (رؤية نقدية) ـ مجلة شئون فلسطينية ، مركز الأبحاث منظمة التحرير الفلسطينية ـ نيقوسيا ـ أكتوبر ١٩٨٩ ، العدد ١٩٩ ، ص ٦ وما بعدها .

(١٧) غسان كنفانى :

ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ (خلفية تحليلية) ـ مجلة شئون فلسطينية ـ بيروت يناير ١٩٧٢ ، العدد ٦ ، ص ٦٠ وما بعدها .

(١٨) عادل حسن غنيم :

محمد عزة دروزة وحركة النضال الفلسطينى . القاهرة سنة ١٩٨٧ ، دار النهضة العربية ، ص ٣٩ .

(١٩) عادل حسن غنيم :

الحركة الوطنية الفلسطينية من ثورة ١٩٣٦ حتى الحرب العالمية الثانية القاهرة ١٩٨٠، مكتبة الخانجى ، ص ٢٩٢ .

(٢٠) ج . م . ب . جفريز : فلسطين أليكم الحقيقة .

ترجمة : أحمد خليل الحاج ـ مراجعة محمد أنيس .

القاهرة ١٩٧٣ ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، جـ ٣، ص ١٥٠ .

(٢١) جريدة فلسطين . القدس . العدد ٤٨٩٢ الصادر فى ٢٠ / ١٢ / ١٩٤١ .

(٢٢) على الدين هلال :

تكوين إسرائيل (دراسة فى أصول المجتمع الإسرائيلى) القاهرة . دار الهلال ١٩٧٧ ، ص ٤٩ ـ ٥٠ .

(٢٣) ماهر الشريف :

الشيوعية والمسألة القومية العربية فى فلسطين ١٩١٩ / ١٩٤٨ ، مركز الأبحاث ـ منظمة التحرير الفلسطينية ـ بيروت ١٩٨١ ص ٣١٩ ـ ٣٢٢ .

(٢٤) موسى خليل :

الحزب الشيوعى الفلسطينى

مجلة شئون فلسطين ـ بيروت نوفمبر ١٩٧٤ ، العدد ٣٩ ، ص ١١٢ .

(٢٥) انظر :

أميل توما :

جذور القضية الفلسطينية،

مركز الأبحاث ، منظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ٢٦٨ ـ ٢٧٠ .

سيد نوفل : العمل العربى المشترك ماضيه ومستقبله ، المطبعة الفنية الحديثة ـ القاهرة ـ ص،١١ .

(٢٦) أحمـد فـراج طايع :

صفحات مطوية عن فلسطين

دار مطابع الشعب ـ القاهرة د.ت.، ص ٥٦.

(٢٧) ناجى علوس :

المقاومة العربية فى فلسطين ١٩١٧ ـ ١٩٤٨

مركز الأبحاث ، منظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ، مايو ١٩٦٧ ، ص ١٣٩ .



القدس تحت الاحتلال الاسرائيلى جغرافياً وديمغرافياً

الأستاذة ـ مروة أديب جبر
مدير إدارة شئون الشعب الفلسطيني
الأمانة العامة ـ جامعة الدول العربية

مقدمة :

تعود صعوبة الكتابة فى هذا الموضوع الى المصاعب الجمة التى تعترض سبيل هذا النوع من الدراسات التى تعتمد على المعلومات خصوصاً وان المصادر الاساسية فى هذا المجال هى المصادر الاسرائيلية ، وغالباً ماتبقى سلطات الاحتلال قراراتها طى الكتمان والسرية ، الى أن تصبح تلك القرارات واقعاً ملموساً قائماً على الأرض لايمكن ازالته ، واليوم وبعد ثمانية وعشرين عاما من الاحتلال اصبح الواقع المفروض على مدينة القدس واقعاً مؤلما وحزيناً وقائماً .

وهذه الورقة محاولة متواضعة لوصف وضع مدينة القدس تحت الاحتلال الاسرائيلى جغرافياً وديمغرافياً .

هناك عدة اعتبارات دفعت الحكومة الاسرائيلية الى الاسراع فى تهويد المدينة منها ما هو استراتيجى سياسى ومنها ما هو دينى ، فالقدس من حيث موقعها تقسم الضفة الغربية الى قسمين قسم شمالى مركزه نابلس وقسم جنوبى مركزه الخليل مما يتوافق وسياسة الاحتلال فى فصل وعزل مناطق الضفة الغربية بعضها عن بعض ، كما أن احاطة المدينة بطوقين من المستوطنات يساهم فى عزلها وسلخها نهائياً عن الضفة

الغربية ، فالطوق الاول يسيطر على القدس القديمة ومراكزها ، اما الطوق الثانى فقد اقيم ليدعم الطوق الاول ، ويساهم فى ابعاد مركز المدينة عن المناطق العبية المحيطة ، وقد ربطت هذه التجمعات بعضها ببعض وشيدت بطريقة مدروسة امنيا جعلتها اشبه بالقلاع .

اما الأعتبار الاخر أى الدينى ، فهو لتعبئة يهود العالم ودفعهم نحو الهجرة الى اسرائيل فالقدس "مدينة جاذبة " تستقطب المزيد من المهاجرين الجدد .

وهناك عوامل ساعدت السلطات الاسرائيلية فى سرعة تهويد المدينة اهمها :-

١ - وجود تجمع يهودى فى القسم الغربى من المدينة .

٢ - الشروع المبكر فى عملية التهويد اى بعد الاحتلال مباشرة .

٣ - تشكيل مؤسسات حكومية ولجان وزارية مهمتها الأساسية تغيير معالم القدس .

٤ - اصدار قوانين خاصة تتعامل مع القدس بصفتها منطقة اسرائيلية ينطبق عليها ما ينطبق على المدن الاسرائيلية .

تهويد المدينة من الناحية الاستراتيجية والسياسية :

اولا : الاستيطان :

بدأت اسرائيل اجراءاتها لتهويد المدينة ، وتغيير معالمها الدينية والتاريخية وطابعها العربى عقب انتهاء الحرب مباشرة حيث أعلنت فى ١٩٦٧/٦/٢٧ توحيد شطرى المدينة تحت الإدارة الاسرائيلية ، وبدأت بأخلاء الأحياء السكنية العربية من سكانها العرب بشتى الوسائل ، وبناء الحى اليهودى فى البلدة القديمة ، كما بدأت باقامة أول طوق من المستوطنات والأحياء السكنية داخل المدينة وفى محيطها وذلك

لتحقيق عدة أهداف :(١)

١ - التوصل إلى أغلبية داخل المدينة .

٢ - تجميد نمو المناطق العربية المتاخمة للقدس .

٣ - منع أي تواصل جغرافي وسكاني بين تلك المناطق ومدينة القدس .

بعد حرب ١٩٦٧ مباشرة تمت مصادرة/ ١٧٠٠٠/دونم من اراضي القدس العربية لمشاريع الاسكان لوصل القدس الغربية بجبل سكوبس ، تدليلاً على أن إسرائيل تنوي الأحتفاظ بالقدس غير مجزأة وضمان سيطرة الأغلبية اليهودية فيها .

تمخض المخطط عن مد القدس بمساحة اشبه بالحزام وعرضه ثلاثة كيلو مترات شمالاً (٢).

وتمثلت سياسة اسرائيل تجاه مخططها بالتكتم وعدم الاثارة حيث قال مسئول اسرائيلي كبير انه من أجل ان تؤمن القدس موحدة كاملة عاصمة لاسرائيل ذات اكثرية يهودية علينا ان نقلل من النقاش حول مشكلتها ، ولاضرورة لعرض الحلول السياسية المختلفة والمقترحات لحلها وذلك من اجل تخدير العالم لينسى المشكلة . { ٣ }

بهذه السياسة واصلت أسرائيل خطتها لتهويد المدينة ، قبل حرب ١٩٦٧ لم تتعد مساحة القدس الغربية ٣٨ الف دونم × وما ان أنتهى شهر يونية حتى كانت اسرائيل قد أضافت إلى مساحة القدس نحو ٧٢ الف دونم اخرى يوم ١٩٦٧/٦/٢٨، وتضاعفت عمليات الأستيلاء فشملت فى المرحلة الأولى اراضى ثلاث مدن و ٢٨ قرية فى ضواحى القدس .

ويشمل **الطوق الأول** ونقاط التدعيم الواقعة خلفه مجموعة من القطاعات {٤}

القطاع الشمالى :

ويشكل الكتل الاستيطانية التالية :

١ - كتلة الجامعة العبرية على جبل سكوبس .

وتشمل مجموعات ضخمة من المبانى ذات الطابع الأستراتيجى تحيط بها اسوار عالية تنتهى بنوافذ صغيرة للمبانى التى تقع خلف الأسوار على النمط الذى تتميز به الحصون الحربية القديمة بكونها قلاع عالية محاطة بالأسوار الحجرية العالية تعلو سور ترابيا آخر هائل الارتفاع يتميز بميل حاد بشكل يصعب تسلقه .

٢ - رمات اشكوك .

وتشكل حلقة رئيسية فى الحزام الاستيطانى حول مدينة القدس وتمتد على الطريق الرئيسى الذى يربط القدس برام الله .

٣ - التلة الفرنسية .

وهى حلقة الأتصال بين جبل سكوبس ورمات اشكوك .

القطاع الجنوبى :

١ - جيلو .

وهى حلقة من حلقات الطوق الأول وتمتد مبانيها ابتداء من المنفذ الجنوبى للقدس وحتى تلتقى بالقدس الغربية .

٢ - تاليبوت الشرقية .

وهى تنمية طبيعية للطوق الجنوبى .

وفي عام ١٩٧٢ اوكلت بلدية القدس الى فريق عمل من المتخصصين ، وضع مخطط هيكلى تنظيمى جديد للمدينة ، يشتمل على حدودها القديمة والجديدة ويهدف

الى إيجاد اغلبية يهودية، كما يقضى بتوسيع رقعة المدينة لتصبح نحو ٦٠٨ الاف دونم تضم ١٨٠ الف وحدة سكنية جديدة ومناطق صناعية وتجارية وحدائق عامة . { ٥ } .

الجهة الشرقية :

بقيت الجهة الشرقية حتى عام ١٩٧٧ خالية من الإستيطان اليهودى ، وقد يكون سبب عدم اكمال هذا الطوق الإستيطانى يستهدف ابقاء ما يسمى بالخيار الشرقى الذى يعنى ابقاء الطريق مفتوحاً لكيان عربى فى الضفة الغربية يتاح له الوصول إلى المناطق المقدسة عن طريق جبل الزيتون .

ومع تولى الليكود رئاسة الحكومة عام ١٩٧٧ سقط هذا الخيار واقيمت مستوطنة معالية ادوميم ، وأغلاق المنطقة التى تقع شرقى العيزرية ومنع البناء العربى فيها تمهيداً لإنشاء حى يهودى جديد .

يتيح الطوق الأول من المستوطنات السيطرة على مركز القدس العبية ، إلا أنه نتيجة لإمتداء احياء القدس العربية وخاصة من الجهة الشمالية ، ظهرت ضرورة ايجاد وسيلة للسيطرة على هذه الأجزاء وتم ذلك بأنشاء مجمعات إستيطانية ضخمة علي مقربة من المناطق العربية الشمالية ، وتشكل هذه النقاط من : { ٦}

راموت :

تشكل موقعاً متوسطاً بين الخط السكانى العربى ، شعفاط - بيت جنينا شرقاً وبين رامات اشكوك جنوباً بالإضافة الى اشرافها على القرى العربية بيت حنينا القديمة ، وبيت اكسا .

النبى يعقوب :

على بعد خمسة كيلو مترات الى الشمال من خط الطوق التلة الفرنسية - رامات

اشكوك ، وسط منطقة عربية مأهولة .

عطروت :

أقيمت بالقرب من مطار القدس وهى عبارة عن منطقة تضم مجمعات صناعية وتجارية كبرى .

وتقوم سياسة حكومة الليكود إلي حد كبير على أساس أفكارغوش ايمونيم (جماعة المؤمنين) وهى جماعة من المستوطنين تأسست عام ١٩٧٤بهدف إستيطان جميع انحاء (ايرتس اسرائيل) أرض إسرائيل .

وتضمنت خطة غوش ايمونيم عام ١٩٧٨ انشاء سلسلتين من المستوطنات ودعت الى وجوب تسريع الإستيطان بدرجة كبيرة . { ٧ }

وأعطت الأولية فى الإستيطان لمحور القدس - نابلس ، والقدس - الخليل وتفرعت عن غوش ايمونيم مجموعة من الشركات والمنظمات الفعالة مثل عطيرت كهانيم (الكهنة المتوجون) ، التى تكرس نشاطها الاستيطانى على مدينة القدس منذ عام ١٩٧٨ . { ٨ }

عام ١٩٧٤ كشف اباهام رابينوفيش فى صحيفة الجيرو سالم بوست النقاب عن مخططات الحكومة الأسرائيلية لتغيير معالم القدس .

حدود بلدية القدس الحالية وفقاً لموشية عميراف العضو السابق فى بلدية القدس تمتد من رام الله شمالاً ، وبيت لحم جنوباً ، ومعالية ادوميم شرقاً ، وهناك تصريحات اخرى تصل حدود القدس بالخليل فما من حدود مؤكدة وهناك تخمينات بأن مساحة القدس تصل إلى عُشر مساحة الضفة الغربية ومساحة الضفة الغربية / ٥٦٣٦ / كيلو متر مربع . { ٩ } .

كانت مصادرة الاراضى على نطاق واسع اداة متممة حيث تمت مصادرة مساحات

واسعة من الأراضى العربية إضافة إلى فرض قيود على عمليات البناء الخاصة بالفلسطينين وأهمال متعمد للخدمات الأساسية المقدمة لهم .

ففى سنوات ١٩٦٨ ، ١٩٧٠ ، ١٩٨٠ ، ١٩٩٠ تمت عمليات مصادرة الأراضى خاصة يملكها العرب بلغت مساحتها نحو / ٢٦٢٠٠ / دونم . وإجمالا بقى فى حوزة العرب ما مساحته / ٩٥٠٠ / دونم من الأراضى . { ١٠ }

ويقول الخبير الفلسطينى خليل توفكجى مدير المركز الجغرافى الفلسطينى فى القدس ، ان ماتبقى من أراضى القدس بيد العرب هو ٢١ ٪ من مساحتها ، فأذا أخرجنا ١٠ ٪ منها هى مساحة المناطق العربية المأهولة ، و ٧ ٪ مناطق خارج التنظيم أى اراضى معرضة للمصادرة أو مطروحة للبيع بسبب الضرائب فأن ما تبقى للعرب هو٤٪ من مساحة المدينة .{١١}

هذا فيما يتعلق بمدينة القدس القديمة أما حدود القدس الكبرى فتبلغ المساحة الحالية لها/ ٠٠٠ر١١٠/دونم { ١٢} وتتضمن المساحات التى ضمت اليها فى مراحل الأحزمة الإستيطانية الثلاث ، فإذا كانت مساحة الطوق الأول تبلغ حوالى / ٢٧٠٠٠ / هكتار ، والطوق الثانى / ٢٥٠٠٠ / هكتار فأن الطوق الثالث تبلغ مساحته / ٧٠٠٠٠ / هكتار ويعتبر الطوق الأول الحدود الرسمية لمدينة القدس اما الطوقان الآخران فهما مناطق تطوير ، وهما يعينان حدود مناطق تختلف فى ميزات البناء والتطوير ، فبينما الطوق الأول يعين حدود البناء الحضارى والتطوير الكثيف للقدس ، فأن الطوق الثانى تتخلله بعض القرى العربية لذلك جيىء بالطوق الثالث لحكامه على أى توسع عربى فى منطقة القدس ، وأراضيه ريفية مع وجود الزراعة فى الشمال والجنوب ، وصحراء وأراضى مراع فى الشرق ، ومستوطنات مهاجرين جدد فى منطقة القدس الفنيقة فى الغرب . {١٣}

ومن الملاحظ أن نوعية المساكن المقامة فى منطقة القدس تتميز بأهتمام بالغ من حيث ضخامة أو عدد الطبقات ، وتشكل هذه المبانى خاصة فى جهاتها المطلة على المناطق العربية ليس سوراً محصناً فحسب ، بل قلاعاً يمكن إستعمالها فى حالة الحرب لغرض الدفاع والهجوم .

قانون القدس :

سبق للكنيست أن أقرت قانوناًيضم القدس إلى إسرائيل فى٢٧/٦/١٩٦٧ بعد ايام من حرب حزيران/يونية غيرأن القانون الذى أصدره الكنيست فى ٢٩/٧/١٩٨٠ {١٤} هو قانون اساس بمعنى أنه سيشكل جزءا من (الدستور الإسرائيلى) عند تكوين مثل هذا الدستور ومن هنا تكتسب بنوده اهمية دستورية ضمن القوانين الإسرائيلية ، وتشير بنود هذا القانون إلى الأمور التالية :- {١٥}

- القدس الموحدة هى عاصمة إسرائيل .
- القدس هى مقر رئاسة الدولة والكنيست والحكومة والمحكمة العليا .
- يتم حماية الأماكن المقدسة من تدنيس أو الحاق أى أضرار أخرى بها قد تعيق حرية وصول معتنقى جميع الديانات إلى اماكنهم .

أ - ستبذل الحكومة كل جهودها لضمان تطوير وأزدهار القدس وبحبوحة مواطينها وذلك برصيد المخصصات المالية بما فى ذلك منحة سنوية للسلطة المحليةفى المدينة بعد الموافقة عليها من قبل لجنة الكنيست المالية .

ب - ستعطى الأجهزة الحكومية القدس أولوية خاصة للتطوير في الميادين الأقتصادية والمالية وغيرها .

جـ - ستؤسس الحكومة هيئة خاصة أو هيئات لتنفيذ هذا القانون .

ثانيا: تغيير الوضع الديمغرافى فى مدينة القدس:

فى عام ١٩٤٨ كانت مساحة القسم الغربى من المدينة ١٩٣٣١ دونما يملك العرب منها ٤٠ ٪ ويملك المجلس البلدى وعدد من الجاليات الأجنبية ٣٤ ٪ ويملك اليهود ٢٦ ٪ .

اما مساحة البلدة القديمة فقد كانت ٩٢٧ دونما يملك العرب منها ٨٢٥ ، وتشغل الأماكن العامة والمدارس ٦٢ دونما بينما يملك اليهود ٤٠ دونما تشكل نحو ٤ ٪ من مساحة البلدة القديمة . (١٦)

أسفرت حرب ١٩٤٨ عن سقوط الجزء الغربى من القدس مما ترتب عليه فقدان احياء عربية كاملة ، وهاجر نحو ٦٠٫٠٠٠ مواطن فلسطينى نصفهم سكن البلدة القديمة ، وخلال الفترة من ١٩٤٨ - ١٩٦٧ وامام تنامى السكان العرب ، تم إنشاء أحياء جديدة فى القسم الشرقى من المدينة أدى إلى مضاعفة مساحتها عدة مرات .

الإحتلال الإسرائيلى عام ١٩٦٧:

أحدثت الحرب تغييرات حادة علي أوضاع السكان العرب فى مدينة القدس حيث توقف النمو العمرانى نتيجة للظروف الإقتصادية السيئة التى أعقبت ظروف الإحتلال ، ونتيجة للإجراءات والممارسات الإسرائيلية المتمثلة فى مصادرة أراضى المواطنين العرب ، وتعقيد إجراءات البناء . ومع هدم سلطات الإحتلال للمبنى الإدارى للمدينة وبحل مجلسها البلدى ، والحاق المدينة بالجزء الغربى منها ، ورسم حدود بلدية جديدة وضم المدينة لأسرائيل بموجب قرار الكنيست بتاريخ ١٩٦٧/٦/٢٧ وقعت المدينة تحت

التصرف الكامل للسلطات الإسرائيلية وفتح بذلك المجال أمام تلك السلطات لتنفيذ إجراءاتها بتهويد المدينة .

الإستيلاء على البيوت والمبانى فى البلدة القديمة :

المرحلة الأولى :

قامت السلطات بمصادرة وهدم حى المغاربة اللاحق للسور الغربى للحرم الشريف (البراق - المبكى) ورصف ساحة شاسعة مكانه ، تقوم على أطرافها المرافق المعدة لتقديم الخدمات للزائرين والمصلين ، والإستيلاء على جميع بيوت السكن العربية المطلة من جميع الجهات ، وبلغ مجموع ما تم مصادرته لهذا الغرض / ١٦ / دونم تضم / ٥٩٥ / بناية و / ١٠٤ / محلات تجارية وخمسة جوامع وأربعة مدارس (١٧) .

المرحلة الثانية :

إزالة حارة الشرف من الوجود والشروع بإقامة مجمع سكنى مكانها ، أصبح أسمه "حارة اليهود " وقد إمتدت هذه المرحلة من ١٩٦٩ - ١٩٧٧ .

وكانت قوات الاحتلال قد أستولت بعد الحرب مباشرة وبالقوة على مناطق مجاورة للحرم الشريف ، قام الجيش بطرد سكانها العرب من أحد المبانى ، ثم أقيم فيها المدرسة الدينية اليهودية التى عرفت بأسم " توراة حاييم " ودكان لبيع الكتب ، ومبان آخرى فى القرى ، وعقبة الخالدية ، اما المبانى الآخرى فى الجهة الجنوبية من طريق باب السلسلة وأجزاء من مبان مثل الدور العلوى من مكتبة الخالدية ، وجزء من المدرسة الطشتمرية (*) ، فقد بدء بالاستيلاء عليها فى أواخر السبعينات ثم أمتد ذلك إلى عقبة الخالدية وعقبة السرايا والسعدية ، وعقبة التكية وطريق الواد وحوش

(×) مبني أثري يدخل في وقف ذري آل الإمام .

البسطامى ، وعقبة الشيخ ريحان، وحوش الحلو ، وأماكن أخرى . وفى نطاق ذلك تم الإستيلاء على مساكن أحدى عشر عائلة فى عقبة الخالدية فى حوش واحد ، وفى عام ١٩٨٢ دخل الحوش عشرات من الشباب اليهود المتطرفين ، وشكلوا المدرسة الدينية التى أطلق عليها أسم " شوفو بنيم " وأرتبط هذا الأسم بأكثر الممارسات عنفا فى محاولات الإستيلاء على البيوت العربية وصلت إلى درجة القتل (**) هذا فضلا عن ملاحقة المواطنين .

اما الفلسطينيون الذين هدمت منازلهم فى حى المغاربة ، وحارة الشرف فقد أمتنعت السلطات عن إيجاد مساكن بديلة لهم مما دفع البعض إلى الأنتقال إلى مدن وقرى الضفة الغربية ، وفى مراحل لاحقة ، أقامت السلطات الإسرائيلية مشاريع إسكان خارج حدود بلدية المدينة بأسم (ابن بيتك بنفسك) وذلك لتفريغ البلدة القديمة من القدس من السكان العرب .

وقد بلغ مجموع ما تم تهجيره من السكان العرب فى البلدة القديمة وحدها حوالى عشرين الف فلسطينى ، ومجموع من حل مكانهم من اليهود ستة الاف وخمسمائة مستوطن . {١٨}

الميزان الديموغرافى " السكانى ":

عملت السلطات الإسرائيلية منذ البدايات الأولى للإحتلال القدس الشرقية على تغيير معالم المدينة فى كافة المجالات ، غير أن أهم مجال خطت فيه تلك السلطات خطوات واسعة هو المجال الديغرافى السكانى فقد تمكنت من توطين ما مجموعة (١٢٤) الف مستوطن يهودى فى المستعمرات اليهودية التى اقامتها خلال سنوات

(xx) قام طلاب مدرسة شوفو بنيم بقتل الشهيدة فاطمة أبو ميالة في بيتها عام ١٩٨٣ .

١٩٦٧ / ١٩٩٠ وذلك وفق التوزيع التالى كما أوردته صحيفة دافار :

أ - فى رامات اشكول ومعالوت دفنا وتقع ما بين حى الشيخ جراح وقرية شعفاط شمال غربى القدس (١١٦٠٠) مستوطن .

ب - فى التلة الفرنسية ، وتقع شمالى حى الشيخ جراح وشرقى قرية شعفاط (٩٦٠٠) مستوطن .

جـ- فى النبى يعقوب ، وتقع شرقى قرية بيت حنينا وفى منتصف الطريق بين القدس ورام الله (١٧٠٠٠) مستوطن .

د - راموت ، وتقع ما بين قريتى النبى صمويل وبيت اكسا غربى القدس (٢٩٠٠٠) مستوطن .

هـ- انهدريا الموسعة ، غربى حى الشيخ جراح بالقدس (٤٥٠٠)مستوطن .

و - بسنازنيف ، وتقع ما بين قريتى حزما وشعفاط شمال شرقى القدس (٦٥٠٠) مستوطن .

ز - تلبيوت الشرقية ، وتقع ما بين القدس وقرية صور باهر جنوب القدس (١٥٠٠٠) .

ح - جيلو ، وتقع قرب مدينة بيت جالا ، جنوبى غرب القدس (٢٨٠٠٠) مستوطن .

ط - الحى اليهودى فى البلدة القديمة فى القدس (٣٠٠٠) مستوطن .

وجميع هذه المستعمرات مستوطنات استثناء النبى يعقوب أقيمت على أراضى عربية مصادرة ما بين عامى ١٩٦٧و١٩٩٠ (مرفق جدول بالأراضى المصادرة) .

اما بالنسبة للمواطنين العرب فقد ارتفع عددهم من حوالى (٦٩٠٠٠) مواطن عربى فى اعقاب الاحتلال العام ١٩٦٧مباشرة الى حوالى (١٤٠٠٠٠) نسمة عام ١٩٩٠ ، وارتفاع العدد جاء نتيجة توسيع حدود القدس حين اعلنت اسرائيل توحيد شطريها وضم قرى عربية مجاوره اليها ، فى حين ارتفع مجموع السكان اليهود من حوالى (١٩٠٠٠٠) فى القدس الغربية عام ١٩٦٧ الى حوالى (٣٩١٠٠٠) فى شطرى القدس عام ١٩٩٠ {١٩} .

السياسة السكانية :

مع بداية المرحلة الثانية أو الطوق الثانى من المستوطنات الاسرائيلية واعلان ضم القدس سياسيا بالموافقة على القانون الأساسى فى الكنيست بتاريخ ١٩٨٠/٧/٢٩ ، تم تقسيم المدينة (الموحدة) الى ٨ ضواحى تضم ٢٦ حيا ، منها ٨ احياء ذات كثافة عربية عالية ، و٢٨ حيا يهودياً.

وتقوم سياسة اسرائيل السكانية على ثلاثة محاور ئيسية :

أ - القدس القديمة (داخل الاسوار) :

بعد احتلال المدينة مباشرة قامت السلطات المحتلة بتوحيد حى المغاربة المجاور للمسجد الاقصى وحى الشرف واسست شركة سميت (شركة اعمار الحى اليهودى) التى تولت عملية تهجير السكان العرب ، وتم اخلاء نحو / ٥٥٠٠ / مواطن عربى من المدينة .

وقد شكلت السلطات الاسرائيلية لجنة للاشراف على الاستيطان فى الاحياء الاسلامية ، وعمل هذه اللجنة منذ عام ١٩٨٥ على اسكان مستوطنين يهود فى احياء

الواد والسعدية وباب حطة ، كما تعمل بشتى الاساليب للضغط على السكان من اجل اجباهم على بيع منازلهم ومصادرتها فى حال رفضهم كما فعل الوزير الاسرائيلى (ارئيل شارون) الذى سكن يوم ١٩٨٧/٢/١٥ فى منزل فى شارع الواد بعد اجبار سكانه العرب على اخلائه ، وكما فعلت جماعة يهودية متطرفة فى ١٩٩٠/٤/١١ باقتحام مبنى تملكه بطريركية الروم الارثوذكس - فندق ماريوحنا - الذى يقع فى مكان متوسط من حارة النصارى . {٢٠} .

ونتيجة لجملة السياسات الاسرائيلية تجاه سكان المدينة هاجر عدد كبير من المسيحيين خارج البلاد فبعد ان كان عددهم ٢٨ الف ١٩٤٥ انخفض الى ١١ الف عام ١٩٩٤.

وحسب احصاء اجرته بلدية القدس عام ١٩٩٣ بلغ عدد السكان القدس الشرقية فقط من اليهود ١٦٠ الف يهودى مقابل ١٥٥ الف عربى .

٢ - القدس خارج الأسوار :

بوشر بتنفيذ المخطط الاستيطانى خاج اسوار المدينة منذ عام ١٩٦٨ حيث بدأت عمليات انشاء الطوق الاستيطانى الاول الذى يربط الجبل الاسرائيلى على جبل سكوبس (الجامعة العبرية ومستشفى هداسا) بالقدس الغربية . وبناء الطوق الثانى من المستوطنات بلغ عدد سكان القدس (الموحدة) فى نهاية عام ١٩٨٣ حوالى / ٤٢٨ر٧٠٠ / نسمة منهم حوالى / ٣٠٦٣٠٠ / يهودى و / ١٢٢٤٠٠/ عربى يشكلون نسبة ٢٨ر٦ ٪ من مجموع السكان .

٣ - القدس الكبرى (٢١) :

طرحت خطة (القدس الكبرى) فى وقت مبكر بعد الاحتلال الاسرائيلى للضفة الغربية ، حيث نشرت جريدة معاريف الاسرائيلية فى عددها الصادر يوم ١٩٦٩/٣/٢٦ تقريرا تحت عنوان " القدس الكبرى عاصمة لاسرائيل " كشفت فيه لاول مرة تفاصيل هذا المشروع الذى وضعت مخططاته لجنة هندسية اسرائيلية منذ عام ١٩٦٧ لتوسيع حدود القدس وتكريسها عاصمة لاسرائيل ، حيث تحددت الفترة الزمنية مابين عام ١٩٨٢ وعام ٢٠٠٢ اما حدوده الجغرافية فتمتد من قرية سنجل بلواء رام الله شمالا وقرية بيت فجار قرب الخليل جنوبا ، وقريتى كفر عقب والرام شرقا ، ويبلغ طول المشروع حوالى (٤٥) كم من الشمال الى الجنوب و(١٥) كم من الشرق الى الغرب .

وتبلغ المساحة الكاملة له نحو (٢٧٩و٤٤٦) دونما موزعه على النحو التالى :

١ - مساحة المناطق المخصصة للاسكان العربى والمسماه " المناطق الحمراء " حوالى (٥٨ر٩٤) دونما ، أى (١٣٪) من مساحة المشروع .

٢ - مساحة المناطق المخصصة للاسكان اليهودى والمسماه "المناطق الصفراء" حوالى (٧٦ر٦٠٨) دونمات ، أى (١٧٪) من مساحة المشروع .

٣ - مساحة المناطق المخصصة للحدائق العامة ولايسمح البناء فيها والمسماه " المناطق الخضراء " حوالى (٢٨ر٨٢٠) دونم ، أى (٦ر٥٪) .

٤ - مساحة الطرق والتى تشمل منطقة المطار حوالى (١٨ر٣٤٠) دونم ، أى (٤٪).

٥ - مساحة الأراضى الزراعية (٢٦٣ر٥٧٠) دونم ، أى (٥٩ر٥٪) .

لقد نفذت السلطات الاسرائيلية خطوات واسعة على طريق تحقيق هذا المشروع ،

رغم عدم الاعلان رسميا عن ضم المدن والقرى المذكورة اعلاه الى القدس ، غير انه تم الاستيلاء على مساحات واسعة من الاراضى العربية واقامة المستعمرات اليهودية أو معسكرات الجيش الاسرائيلى فوقها .

وتجنباً للخوض فى تفاصيل المشروع ، التى وردت فى دراسات واصدارات عديدة تعالج موضوع القدس ، فاننا نكتفى بالاشارة الى اهدافه وهى :

١ -ضم جزء كبير من اراضى الضفة الغربية الى " اسرائيل" فالقدس فى السياسة الرسمية الاسرائيلية " عاصمة اسرائيل الابدية " والحاق اى مساحة من اراضى الضفة لها يعنى اخضاعها للقانون الاسرائيلى ايضاً ، وتتراوح مساحة الاراضى التى سيتم اخضاعها من الضفة بموجب هذا المشروع مابين ٤٠٠ - ٥٠٠ كم٢ .

٢ - عزل القدس عن الضفة الغربية التى ستصبح قسمين منفصلين : قسم شمالى مركزه نابلس ، وقسم جنوبى مركزه الخليل .

٣ - تجزئة الضفة الغربية جغرافياً ، وتفتيت التجمعات السكانية العربية بواسطة شبكات الطرق الرئيسية بالقدس ، والتى تخدم المستعمرات اليهودية ، والحركة والتحركات العسكرية الامنية ، وبالتالى تحويل المدن العربية الى مجرد احياء صغيرة فى اطار هذا المشروع . (مرفق خريطة للشوارع الالتفافية فى الضفة الغربية) .

٤ - منع المواطنين العرب من البناء على المساحات واسعة من الاراضى ، حيث تم تحديد مساحات (٢٩٠ر٢٩٢) دونما للحدائق العامة والمناطق الزراعية .

اما الاطواق الاستيطانية البشرية اليهودية التى اقيمت فى اطار المشروع ذاته ، فهى بالعناوين كما وردت فى مصادر عديدة .

الطوق الاول : يهدف الى محاصرة التجمع العربى داخل اسوار القدس العربية والعمل على تفتيته وترحيل سكانه ، ويشتمل على " الحى اليهودى " الذى امتدت مساحته لتضمن من احياء "المغاربة" و"الباشورة" و"السلسلة" ، والمركز التجارى والذى يمتد على مساحة (٢٧٠٠) دونم فى الجهتين الشمالية والشمالية الغربية من البلدة القديمة ، والحديقة الوطنية حول سور القدس القديمة من الجهتين الشرقية والجنوبية ، ويطلق عليها ايضاً اسم " الحزام الاخضر " حول سور القدس وقد وضع المشروع بعد احتلال القدس مباشرة حيث شرعت السلطات الاسرائيلية باخلاء السكان العرب من الاحياء الواقعة قرب السور .

الطوق الثانى : يعزل هذا الطوق المدينة الغربية عن التجمعات السكانية العربية الواقعة فى الجهتين الشمالية والجنوبية منها ، ويضم عددا من المستعمرات اليهودية وهى :

أ - رامات اشكول : اقيمت عام ١٩٦٨ فى منطقة الشيخ جراح شمال غرب القدس

ب - معالوت دفنا : اقيمت عام ١٩٧٣ شمال القدس ، وتشكل امتدادا لحى رامات اشكول .

جـ - سانهدريـــا : اقيمت عام ١٩٧٣ الى الشمال الشرقى من القدس .

د - النبى يعقوب : اقيمت عام ١٩٧٣على الجانب الشمــالى الشرقــى من طريق القدس - رام الله .

هـ - التلة الفرنسية : بدء فى اقامتها عام ١٩٦٩ شرقى جبــل المشارف على طريق القدس - رام الله .

و - تلبيوت الطالبية الشرقية : اقيمت عــام ١٩٧٣علــى اراضى جبــل المكبر وصور باهـر والتل الجنوبى .

ز - راموت : اقيمت عام ١٩٧٣ على اراضى قرية بيت اكسا وبيت حنينا .

ح - جيلا - شرفات : اقيمت عام ١٩٧٣ قرب بين صفافا جنوب غرب القدس .

ط - جبعات همفتار :اقيمت عام ١٩٧٣ شمالى شرقى القدس ، على اراضى تل الذخيرة فى منطقة الشيخ جراح .

ى - عطاروت : مستعمرة صناعية اقيمت شمال القدس منذ عام ١٩٧٠ .

الطوق الثالث : اقامت السلطات الاسرائيلية فى اطار هذا الطوق عددا من المستعمرات اليهودية هى :

أ - الكانا : اقيمت على اراضى قرية مسحة عام ١٩٧٧ .

ب - كندابارك : متنزه اقيم عام ١٩٧٦ فى منطقة اللطرون ، وعلى اراضى قرى يالو عمواس - بيت نوابا التى دمرت اثناء عدوان ١٩٦٧ .

جـ - كفار عصيون : اقيمت عام ١٩٦٧ على طريق الخليل - بيت لحم وتوسعت لتمتد الى اراضى الخضر .

د - ايلون شغوت : اقيمت عام ١٩٦٩ فى منطقة بيت لحم وتوسعت على حساب قريتى ارطاس وبيت اسكاريا .

هـ - روش تسوريم : واقيمت عام ١٩٦٩ على اراضى ارطاس ونحالين وبيت اسكاريا .

و - افرات : اقيمت عام ١٩٧٩ على اراضى الخضر ودقماش نيس وقيقامن .

ز - **تكواع** : اقيمت عام ١٩٧٥ جنوبى شرقى بيت لحم .

ح - **جبعات حدشاه** : بدى باقامتها عام ١٩٧٨ على حساب اراضى قرية الجيب وبدو وبيت اجزا .

ط - **غفعون** : اقيمت عام ١٩٧٧ على حساب اراضى الجيب .

ى - **الموغ** : اقيمت عام ١٩٦٨ فى الشمال الشرقى للبحر الميت .

ك - **معالية ادوميم** : اقيمت عام ١٩٧٢ فى منطقة الخان الاحمر ، على اراضى تبلغ مساحتها ٧٠ الف دونم تعود لقرى العيزرية وابو ديس والعيسوية والعبيدية والسواحرة .

ل - **بيت حورون** : اقيمت فى نهاية عام ١٩٧٧على اراضى قريتى بيت عود الفوقا وبيتونيا .

م - **هارغيلو** : اقيمت عام ١٩٧٦ فى منطقة بيت جالا .

ثالثا : التهديدات التى يتعرض لها المسجد الاقصى :

(أ) الحفريات الاسرائيلية :

اما فيما يتعلق بالنواحى الدينية ، فقد كان للاماكن المقدسة المكان الاوفر من الممارسات الاسرائيلية سواء الرسمية أو غير الرسمية فمن الناحية الرسمية بدأت سلطات الاحتلال فى التمهيد للمشروع فى الحفريات حول الحرم القدسى باخبار تسربها على فترات بدأت باغسطس / أ ب ١٩٦٧ .

الهدف من الحفريات :

جاء على لسان زيرح فارهفيك وزير الاديان الاسرائيلى الاسبق فى ٢٨/ ١٠/ ١٩٧٠ " أن وزارة الاديان الاسرائيلية تسعى للكشف عن حائط المبكى بهدف اعادة هده الدرة الثمنية الى سابق عهدها .

وقال موشى دايان الذى كان وزيرا للدفاع فى ١٩٧١/٨/٢ " يجب الكشف والعمل على اعادة ترميم كافة مايتعلق بايام الهيكل الثانى ، وافضل ان أرى السور كما كان فى عهد الهيكل الثانى ، ويمكن تصوير بقية الاثارات وتخليدها ، وازالتها لانها تخفى عنا رؤية الصورة كاملة كما كانت فى حينها . {٢١}.

المراحل التى مرت بها الحفريات الاسرائيلية :

المرحلة الاولى : حفريات جنوبى المسجد الاقصى :

بدأت فى اواخر عام ١٩٦٧ أى بعد عدة أشهرمن الاحتلال ، وجرت على امتداد ٧٠ مترا من اسفل الحائط الجنوبى للحرم القدسى ، خلف قسم من جنوب المسجد الاقصى ، وأبنية جامع النساء ، والمتحف الاسلامى ، والمئذنة الفخرية الملاصقة له ، ووصل عمق هذه الحفريات الى ١٤ مترا وهى تشكل باستمرار ، ومع مرور الوقت عامل خطر يهدد باحداث تصدعات لهذا الحائط ، والأبنية الدينية والحضارية والاثرية الملاصقة له {٢٣} وقد مولت الجامعة العبرية هذه الحفريات ، ونشر اول تقرير عن نتائج التنقيب عام ١٩٦٩ ، اما ما تم اكتشافه فكان اثارا اسلامية اموية واثارا رومانية واخرى بيزنطية . (٢٤)

المرحلة الثانية : حفريات جنوب غرب الاقصى :

تمت عام ١٩٦٩وجرت على امتداد ٨٠ مترا اخر من سور الحرم القدسى مبتدئة حيث انتهت المرحلة الاولى ، ومتجهة شمالا حتى باب المغاربة ، مارة تحت مجموعة من الابنية الاسلامية الدينية التابعة للزاوية الفخرية مركز الامام الشافعى ، وعددها ١٤ صدعتها جميعاً ، وتسببت فى ازالتها بالجرافات الاسرائيلية بتاريخ ١٩٦٩/٦/١٤ وتهجير سكانها .

وقد اكتشفت خلال هذه المرحلة اساسات ثلاثة قصور اموية غير انه لاتوجد اية بينات عن اثار المدينة المقدسة قبل هدم الهيكل الثانى .

المرحلة الثالثة : حفريات النفق الغربى :

بدىء بها عام ١٩٧٠ وتوقفت عام ١٩٧٤ ثم استؤنفت عام ١٩٧٥ واستمرت حتى اواخر عام ١٩٨٨ وامتدت من مكان يقع اسفل عمارة المحكمة الشرعية التى تعتبر من اقدم الابنية التاريخية الاسلامية فى القدس ، ومرت شمالا باسفل خمسة ابواب من الحرم القدسى وعلى امتداد ١٨٠ مترا ، وفوق مجموعة من الابنية الدينية والحضارية والسكنية والتجارية ، وقد وصلت اعماق هذه الحفريات بين ١٠-١٤ مترا وطول حوالى ٤٠٠ متر وتسببت فى تحويل الجزء الاول منها تحت المحكمة الشرعية الى كنيس يهودىء ، كما تسببت فى عام ١٩٧٠ فى تصديع عدد من الابنية منها الجامع العثمانى ورباط الكرد والمدرسة الجوهرية {٢٥} كما حدث انهيار اخر فى المدرسة العثمانية على بعد ستين مترا من المدرسة الجوهرية ورباط الكرد .

وفى اذار / مارس ١٩٨٧ اعلن الاسرائيليون انهم اكتشفوا القناة التى اكتشفها الالمانى كونراد تشيك فى القرن التاسع عشر بطول ٥٠٠ متر ، ولم يكتف الاسرائيليون بايصال النفق بالقناةبل قاموافى ١٩٨٨/٧/٧بحفريات جديدة عند ملتقى طريق باب

الغوائمة مع طريق الالام واستخدموا الات حفر ميكانيكية بهدف حفر فتحة رأسية ليدخلوا منها الى القناة الرومانية والى النفق ، ولكن المواطنين فى القدس تصدوا لهم ومنعوهم من الاستمرار . {٢٦}

المرحلة الرابعة : حفريات جنوب شرق الاقصى :

بدأت هذه المرحلة عام ١٩٧٣ واستمرت عام ١٩٧٤ وتقع خلف الحائط الجنوبى الممتد من اسفل القسم الجنوبى الشرقى للمسجد الاقصى ، وسور الحرم القدسى الشريف ، وممتدة على مسافة تقارب ثمانين مترا الى الشرق ، وقد اخترقت هذه الحفريات فى شهر تموز/ يوليو ١٩٧٤ الحائط الجنوبى للحرم القدسى فى اربعة مواقع : {٢٧}

١ - اسفل محراب المسجد الاقصى وبعمق عشرين مترا الى الداخل .

٢ -اسفل جامع عمر - الجناح الشرقى للمسجد الاقصى .

٣ - تحت الابواب الثلاثة للاروقة الجنوبية الشرقية للمسجد الاقصى .

٤ - تحت الاروقة الجنوبية الشرقية للمسجد الاقصى .

وقد وصلت اعماق هذه الحفريات الي اكثر من ١٣ متراواصبحت تعرض السور والمسجد الاقصى للانهيار .

المرحلة الخامسة : " منتزة اسرائيل " :

بدأت عام ١٩٦٥من مكان قرب منتصف الحائط الشرقى لسور المدينة ولسور الحرم الشريف يقع بين باب السيدة مريم العزراء ، الزاوية الشمالية الشرقية من سور المدينة ، وهدد اعمال الحفر فى هذه المرحلة بازالة القبور الاسلامية التى تضمها اكبر مقبرة اسلامية فى المدينة ، وقد نتج عن هذه الحفريات مصادرة الاراضى الملاصقة لاحدى المقابر وانشاء جانب من " منتزة اسرائيل الوطنى " .

المرحلة السادسة : تعميق ساحل البراق :

مشروع تعميق ساحة البراق الشريف وهى الملاصقة للحائط الغربى للمسجد الاقصى ، وهو مشروع وضع سنة ١٩٧٥ ، وتمت الموافقة عليه من قبل اللجنة الوزارية الاسرائيلية ويقضى المشروع بضم اقسام اخرى من الاراضى المجاورة للمسجد وهدم ماعليها ، وحفرها بعمق ٩ امتار وقد كانت هذه الساحة تضم حتى ١٩٦٧/٦/٧ حوالى (٢٠٠) عقار عربى اسلامى هدمتها الجرافات الاسرائيلية مابين عامى ١٩٦٧ - ١٩٧٧ وطردت اهلها الذين يقدر عددهم بثمانمائه شخص .

وتعرضت الابنية الملاصقة والمجاورة لهذا المشروع لخطر التصديع والانهيار ثم الهدم وتضم هذه الابنية :

أ - عمارة المحكمة الشرعية القديمة المعروفة باسم التنكيزية .

ب- عمارة المكتبة الخالدية وهى من اقدم المكتبات الاسلامية فى القدس .

جـ- زاوية ومسجد ابو مدين الغوث وكلاهما من الاوقاف الاسلامية القديمة .

د - حوالى ٣٥ عقارا سكنيا يسكنها اكثرمن ٢٥٠ شخصا من اهل القدس .

المرحلة السابعة :كشف مدافن ملوك اسرائيل :

وتقع خلف جدران المسجد الاقصى وجنوبها ، وتعتبراستئنافاً للمرحلتين الرابعةوالخامسة ، وقد بدىء بها سنة ١٩٦٧ تحت شعار " كشف مدافن ملوك اسرائيل فى مدينة داوود " .

المرحلة الثامنة : حفريات المطهرة :

اخترقت الحائط الغربى فى بداية عام ١٩٨٣ واعادت فتح نفق قديم يقع مابين باب السلسلة ، وباب القطانين اسفل جانب من الحرم اسمه المطهرة ، وتوغلت اسفل ساحة الحرم من الداخل على امتداد ٢٥ مترا شرقا ويعرض ٦ امتار .

وقد ادت هذه الحفريات فى بدايتها الى تصدع فى الاروقة الغربية الواقعة مابين باب السلسلة وباب القطانين ، قدر لها حينذاك ان تؤدى الى تصديع المسجدين الاقصى والصخرة . {٢٨}

المرحلة التاسعة : حفريات لاكتشافات اثرية :

فى منتصف فبراير/شباط ١٩٩٥ اعلنت سلطة الاثارالاسرائيلية انها شرعت بحملة لاسابق لها تستهدف البحث عما وصفته (اكتشافات اثرية) " لخراب وانقاض الهيكل المقدسى الثانى " التى تعود الى ماقبل الفى عام وذلك فى المنطقة الملاصقة لسورالحرم القدسى الشريف من الجهة الجنوبية .

ويقول مراقبون ان الحملة تأتى فى نطاق تهيئة المنطقة كمنطقة سياحية اثرية يهودية يؤمها الزوار استعدادا للاحتفالات التى ترعاها بلدية القدس حول الزعم باحياء الذكرى الالفية الثالثة لاتخاذ الملك داوود القدس عاصمة له عام ١٠٠٣ قبل الميلاد . {٢٩}

ونتيجة لهذه الحفريات اكتشف نفق اسفل المدرسة العمرية بمحاذاة الرواقين الغربى والشمالى للمسجد الاقصى ،ويقدر مدير دائرة الاوقاف ان العمل بدأ بهذا النفق منذ ثمانى سنوات عندما حاولوا فتح بوابة للنفق عن طريق باب الغوانمة ، أحد مداخل المسجد الاقصى الرئيسية ، وأدت هذه المحاولة الى اندلاع مواجهات اضطرت بها السلطات الاسرائيلية الى العمل فى موقع اخر بديل ، ونجحوا فى عمل فتحتين فى نهاية الدرج الذى يؤدى الى اسفل المدرسة العمرية . {٣٠}

ويخشى ان تودى هذه المرحلة الى تحقيق الاهداف الاسرائيلية فى تصديع المسجدين الاقصى المبارك ، وقبة الصخرة المشرفة ثم هدمها ، ومجابهة العالم الاسلامى والعربى والهيئات الدولية بمثل ماجابهوه عند احراق المسجد الاقصى عام ١٩٦٩ .

(٢) الاعتداءات المتكررة من المستوطنيين :

واذا كانت الحفريات تشكل الجانب الرسمى للانتهاكات والممارسات الاسرائيلية تجاه الاماكن المقدسة ، فهناك الجانب غير الرسمى الذى يأخذ شكلاً متنامياً منذ الاحتلال عام ١٩٦٧ وحتى الان ، ويتزعم هذا الجانب غير الرسمى من المنظمات والحركات اليهودية فى منطقة القدس القديمة تعمل بالارهاب على تفريغ وتهويد القدس الشرقية العربية ، وأهم تلك المنظمات هى :

١ - " امناء جبل البيت " - يتزعم هذه الحركة " غرشون سلمون " الذى قاد مجموعته كما هو معروف لوضع حجر الاساس للهيكل الثالث فى باحة الحرم القدسى الشريف فى الثامن من تشرين اول / ١٩٩٠ وهذه المحاولة هى التى قادت بدورها الى مذبحة الاثنين الى اقترفت ضد المصلين العرب .

٢ - " معهد المقدسات " - يترأسه الحاخامان ارنيل ، حاخام المدرسة الدينية فىياميت سابقا ، وموشيه نيمان ، وهو الرجل الثانى فى حركة كاخ اليمنية المتطرفة .

٣ - حركة " نطرية جبل البيت "- وهى حركة منافسة للمعهد وتعمل بموجب نظرية دينية متزمتة .

٤ - " عطرات كوهنيم " - مدرسة دينية يهودية ، يتم اعداد رجال الدين فيها ، ويرأسها الحاخام شلومو حاييم هاكوهين ابنير ، وهو الراب السابق لمستوطنة "كيشيت" فى هضبة الجولان ، وقد تشكلت هذه المدرسة عام ١٩٧٨، وكرست

نفسها لتدريس اصول الكهنوتية اليهودية المتعلقة بخدمة" قدس الاقداس" "هيكل سليمان" ويمكن وصفها بانها نخبة من مدارس حركة غوش ايمونيم ، وقد تلقت هذه المدرسة دعماً كبيرا من وزارات اسرائيلية مختلفة على شكل مواقع واملاك واموال وصلت الى ملايين الدولارات ، منها اكثر من خمسة دفعت للارمنى مستأجردير مار يوحنا والذى بدوه تنازل عن الايجار لصالح هذه المدرسة كماتلقت وتتلقى مساعدات مالية من مجموعات مسيحية اصولية فى الولايات المتحدة وتعمل هذه الرابطة فى مجال الاستيلاء على البيوت والاراضى العربية فى البلدة القديمة .

٥ -" كوليك هكوهنيم لدراسة المقدسات "- يرأسها الراب دسويسكى ، ويرتدى افرادها القبعات السوداء جدا .

٦ - " الحركة من اجل اقامة الهيكل " - يرأسها يونال لرنز - وهو احد ابرز قادة التنظيم الارهابى اليهودى الذى اعتدى على رؤساء البلديات العرب .

٧ - " دوريات جبل البيت " - حركة متفرغة عن الحركة من اجل اقامة الهيكل ، وتقوم بتنظيم دوريات وجولات فى الحرم القدسى الشريف .

٨ - " المجموعة الدينية المتعصبة " - يقوم افراد هذه المجموعة بجولة اسبوعية فى الحرم القدسى من اجل اقامة الهيكل .

٩ - " رابطة جبل البيت " منظمة قليلة النشاط .

١٠- " الرابطة الى جبل البيت "- تأسست عام ١٩٧١، وضمت فى صفوفها نشطاء رجال الدين فى المدرسة الدينية " مركاز هراب "و"عطرات كوهنيم" ومدرسة "بنى عكيف" و"دوريات صهيون" وغيرها .

١١- " هيئة العمل من اجل جبل البيت " - محاولة منيت بالفشل عام ١٩٨٨

وسعت الى توحيد كل المنظمات اليهودية العاملة فى موضوع " جبل البيت ".

١٢- شركة "هيمنوتا" - شركة سرية تفرعت عن الصندوق القومى الاسرائيلى عام ١٩٣٨وتعمل على الاستيلاء على البيوت والاراضى العربية فى منطقة القدس

١٣- "توارة هنيم"- مجموعة انشقت عن " عطرات طوهنيم " فى مطلع سنوات الثمانين ، وهى ايضاً مدرسة دينية تابعة لحركة غوش ايمونيم ، يقف على رأسها الراب بتروف وهو الراب السابق للقدس القديمة .

١٤- "حركة اسرائيل الشابة " -شكل هذه الحركة الراب نحمان كاهان وزوجته ، بعد ان استوطن فى البلدة القديمة ، وهى المجموعة الثالثة فى ائتلاف " عطرات كوهنيم " .

١٥- " شوفر بنيم " - افرادها متدينون متعصبون من اتباع الحاخام المشهور "نحمان" وقد اظهروا عنفهم وسلوكهم الفظ اكثر من غيرهم من المجموعات الاستيطانية ، ويتكون اعضاؤها من مئات من الطلاب المجرمين التائبين ، ويمول نشاطاتهم الثرى اليهودى الامريكى افراهام ديويك ، وهومن اصل سورى وصديق شخصى لارئيل شارون

١٦- " عطرات ليوشنا "- وهى منظمة تعنى بالعربية "جمعية احياء الاستيطان فى القدس القديمة " وجرى تشكيلهاعام ١٩٧٩، على ايدى اقطاب "توراة كوهنيم " وحركة اسرائيل الشابة ، وهدفها " استرجاع الاملاك اليهودية بالقدس ".

ان هذه الجماعات التى تتمتع بشعبية مخيفة تتسع تنظيماتها شبه العسكرية فى داخل المجالس البلدية وكافة المستوطنات المزروعة فوق الارض العربية ، وترفض أى

تنازل عن شبر واحد من الارض المحتلة ، وهمها الاول اثبات " الحق اليهودى الالهى " المزعوم فوق ساحة الحرم القدسى .

وتوالى هذه الحركات توجيه مقالاتها الصحفية وانذاراتها الى السلطات الاسرائيلية موقعة من الاف المتعصبين اليهود الذين ينذرون حكومتهم بضرورة العمل على "استخلاص" ساحات الحرم الشريف من السيطرة الاسلامية وإلا فإنهم -أى هؤلاء المتعصبين -سيتولون تنفيذ المهمة بانفسهم . {٣١}

واذا اقتصر الحديث عن المسجد الاقصى وقبة الصخة والحرم القدسى فانهما فالى جانب المكانة المقدسة لهذين المسجدين ظلا منذ الاحتلال الهدف الاول والاساسى لانتهاكات سلطات الاحتلال ، والجماعات الارهابية المتطرفة ويمكن ايجاز ابرز الاعتداءات على النحو التالى :

١- ١٩٦٩/٨/٢١ قام احد اليهود ويدعى " دنيس مايكل وليم موهان " وهو استرالى عمره ٢٨ سنه ينتمى الى جماعة الكنيست الالهية ، زعم فى اعترافه ان النبى زكريا تراءى له فى المنام ، وامره باحراق المسجد الاقصى ففعل وهو غيرنادم . {٣٢}

ان تلكوء السلطات المحتلة فى ارسال فرق اطفاء الحريق اكد ان الحادث مدبر ، وان السلطات ضالعة فى هذه الجريمة البشعة .

٢ - فى اول مايو/ايار ١٩٨٠ تم اكتشاف كميات كبيرة من المتفجرات والقنابل والاسلحة على مسطح احد المعابر اليهودية ، ولم تخف سلطات الاحتلال ان الهدف من وجود هذه المتفجرات هى نسف المسجد الاقصى من قبل المتطرفين واقامة الهيكل على انقاضه .

٣ - فى ١٩٨٢/٤/١١ اقتحم جندى اسرائيلى يدعى " الان جودمان " المسجد الاقصى وفتح نار رشاشه على المصلين داخل مسجد قبة الصخرة ، تبعه عدد من الجنود الاسرائيلين المتواجدين علي اسطح المنازل المجاورة فى اطلاق النار على المصلين .

٤ - فى ١٩٧٨/٣/١٠ تسلل ٤٦ صهيونيا من جماعة الحاخام العنصرى مائير كاهانا يحملون صناديق متفجرات تكفى لنسف الاماكن المقدسة ، الا ان اكتشاف حراس المسجد المسلمين لهم قبل تنفيذ جريمتهم حال دون ذلك {٣٣}

٥ - فى ١٩٨٦/١/١٤ حاول اعضاء لجنة الداخلية التابعة للكنيست الاسرائيلى التجول فى المسجد الاقصى والصلاة تحت حراسة مشددة تصدى لهم الاف من الفلسطينيين من ابناء القدس {٣٤}

اما جماعات الشباب اليهودى المتعصب فمحاولاتها لاتنتهى منذ الاحتلال فقد بدأت تلك المحاولات باداء الصلاة عند ابواب ساحة الحرم الشريف ، ومع مرورالوقت ارتفعت الصيحات وتضاعف عدد المتظاهرين والمظاهرات الصهيونية الصاخبة التى تنادى بالاستيلاء والهدم واعادة بناء " قلب الشعب اليهودى " أى الهيكل ، وظهرت فتوى الحاخام الاكبر شلومو جورين بالسماح لليهود بالحج الى" جبل البيت "أى ساحات المسجد الاقصى واقامة الصلوات والشعائر الدينية فيها ، ووجوب اخراج هذه الساحات من نطاق ادارة واشراف الوقف الاسلامى ، وان تتولى السلطات الاسرائيلية وحدها فرض القانون والنظام داخل منطقة جبل البيت . {٣٥} مرفق صورة من الانذارات التى يوجهها المتعصبون لهيئة الاوقاف الاسلامية .

٦- فى ١٩٩٠/١٠/٨ دبرت سلطات الاحتلال وخططت لمجزرة فى الحرم الشريف سقط فيها ٢٢شهيدا ومائتا جريح {٣٦} عندما حاول الحاخام "غرشون سلمون"

ومجموعته وضع حجر الاساس للهيكل الثالث فى باحة الحرم القدسى .

٧ - اقتحمت قوات حرس الحدود الاسرائيلية مبنى المحكمة الشرعية يوم ١٩٩١/١١/١٨ واستولت على سجلات ووثائق ومخطوطات وقضية يعود بعضها الى ٨٠٠ سنة تتعلق بملكيتها لعقارات فى مدينة القدس لشقيها الشرقى والغربى .

٨ - ١٩٩٣/٩/٢٣ اصدرت المحكمة الاسرائيلية العليا حكمايقضى باعلان الملكية اليهودية المقدسة الابدية على منطقة "جبل الهيكل " أى منطقة الحرم القدسى الشريف .

٩ - فى الفترى الاخيرة تصاعدت وتيرة محاولات اقتحام المسجد الاقصى والصلاة فى ساحاته وبدأت تأخذ منحى جديد يشار اليه فى الصحف الاسرائيلية وهو تقسيم الحرم القدسى الشريف اسوة بماحدث بالحرم الابراهيمى فى الخليل وهذا ماكشفت عنه صحيفة الجيروسالم بوست فى عددها الصادر فى ١٩٩٤/٩/٢٤ تحت عنوان "نظرية جديدة لحل مشكلة المسجد الاقصى وقبة الصخرة وجبل البيت" {٣٧} مرفق المخطط المقترح .

فخلال اربعةاشهرمن ابريل/نيسان حتى اغسطس/أ ب ١٩٩٥زاد عدد المحاولات عن سبع محاولات لاقتحام ساحات المسجد من قبل اليهود المتعصبين .

١٠- فى ١٩٩٥/٨/٣ اصدرت المحكمة الاسرائيلية العليا حكما يقضى بالسماح لليهود بالصلاة فى ساحات المسجد الاقصى {٣٨}

بعد هذا العرض المتواضع ، وربما الحزين لاوضاع مدينة القدس جغرافيا وديمغرافيا ، والتى وصلت من الخطورة بحيث تهدد تاريخها الاسلامى والعربى .

لذلك فانى اقترح على الاخ الدكتور / حامد زيان بأن يتبنى الدعوة لندوة خاصة بمدينة القدس تبحث تاريخ المدينة من جميع جوانبه ، وتدحض ادعاءات وافتراءات اسرائيل ، وماتقوم به من احتفالات لما تدعيه ذكرى الالفيـة الثالثة لاتخاذ الملك داوود مدينة القدس عاصمة عام ١٠٠٣ ق . م .

ان مدينة القدس التى استبعدت فى اتفاقات اوسلو من المفاوضات المرحلية ، وتأجل بحثها اى مفاوضات الوضع الدائم التى تبدأ فى العام الثالث على تطبيق الحكم الذاتى لاتزال تعانى من الممارسات الاسرائيلية بتكثيف الاستيطان وتوسيع المستوطنات ، وتغيير الاوضاع الديمغرافية وذلك لخلق امر واقع يجعل المفاوض الفلسطينى لايجد مايفاوض عليه حين تبدأ مفاوضات الوضع الدائم .

وكانت اخر الصرخات الاتية من القدس ماقاله السيد فيصل الحسينى المكلف بملف مدينة القدس يوم ١٩٩٥/٩/٢٠امام اصحاب المعالى وزراء خارجية الدول العربية .ان الفلسطينيين فى القدس صامدون ، سيحافظون على مابأيديهم ، ويدافعون عنه قدر استطاعتهم ، ويطلبون من العالم العربى والاسلامى دعم صمودهم ومساعدتهم فى الحفاظ على مؤسساتهم التى انشأوها لمقاومة التهويد والمحافظة على وجه المدينة عربيا واسلاميا .

ويقول السيد الحسينى : وسواء تلقينا ام لم نتلق الدعم ، فاننا سنصمد وسنحافظ ونتشبث بما فى ايدينا من اراض ومؤسسات ، ولكن لانعد بالنصر " .



المراجـــــع

(١) وليـــــد الجعفري : اعداد وتحقيق المستعمرات الاستيطانية الاسرائيلية في الاراضي المحتلة ١٩٦٧- ١٩٨٠ مؤسسة الدراسات الفلسطينية الطبعة الاولي بيروت ١٩٨١ .

(٢) روحي الخطيب : تقرير حول مواصلة سلطات الاحتلال الاسرائيلي اعتداءاتها لتغيير اوضاع مدينة القدس - امانة القدس - عمان - ١٩٧٦ .

(٣) روحي الخطيب : امين القدس - امانة القدس مذكرة حول مواصلة سلطات الاحتلال الاسرائيلي اعتداءتها لتغيير اوضاع مدينة القدس ، مقدمة الي المؤتمر الخامس لمنظمة المدن العربية -الرباط ،المملكة المغربية ١٩٧٧/٦/٦

(٤) عبد الرحمن ابوعرفه : الاستيطاني :التطبيق العملي للصهيونية المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، دأ الجليل للنشر ، الطبعة الاولي ١٩٨١ .

(٥) وليد الجعفري : مرجع سبق ذكره .

(٦) عبدالرحمن ابو عرفه : مرجع سبق ذكره.

(٧) انطوني كون : التنظيم الهيكلي الاسرائيلي للمدن في الضفة الغربية ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، الطبعة الاولي بيروت ١٩٩٥ .

(٨) اليشع ايفرات : الاستيطان الإسرائيلى جغرافيا وسياسيا : ترجمة دار الجليل للنشر والأبحاث الفلسطينية ـ عمان ـ الطبعة الأولى ، ١٩٩١ .

* الدونم : الف متر مربع .

(٩) بيان نويهض الحوب : عن أي قوس يتحدثون ؟ الحياة ١٩٩٥/١/٤ .

(١٠) ملحق صحيفة هارتس : ١٩٩٤/٦/٣ ، القدس تنتظر قرار الحكم ، ميخال بيلغ .

(١١) دراسة قدمها خليل توفكهي : الي ندوة القدس التي عقدت بالامانة العامة لجامعة الدول العربية خلال الفترة من ١٢-١٩٩٥/٣/١٤ .

(١٢) جيروسالم بوست ١٩٩٤/٦/٢٢ .

(١٣) اليشع ايفرات : مرجع سبق ذكره .

(١٤) اصدر مجلس الامن القرار رقم ٤٧٨ في ١٩٨٠/٨/٢٠ يدين اسرائيل وتعتبر جميع ماتتخذته من اجراءات في القدس باطلا ويطالبها بالغائه .

(١٥) عبد الرحمن ابو عرفه : مرجع سبق ذكره ص ٢٣٦ .

(١٦) عبد الرحمن ابو عرفه : مرجع سبق ذكره ص ٢٢١ .

(١٧) ابراهيم الدقاق : التغييرات الاجتماعية الديمغرافية في القدس - دراسة اصدرتها جمعية الدراسات العربية بالقدس .

(١٨) مذكرة المملكة الاردنية الهاشمية المعروضة علي مؤتمر المشرفين علي شؤون الفلسطينيين في الدول العربية المضيفة يناير / كانون ثان ١٩٩٢ .

(١٩) مذكرة المملكة الاردنية الهاشمية : المرجع السابق .

(٢٠) صلاح الصوباني : الاوضاع الديمغرافية في مدينة القدس تحت الاحتلال الاسرائيلي ، صامد الاقتصادي العدد ٨٥ - ١٩٩١ .

(٢١)الاستيطان الصهيوني في مدينة القدس وضواحيها :دائرة الشؤون الفلسطينية – وزارة خاجية المملكة الاردنية الهاشمية – قسم الدراسات – ١٩٩٠ .
(٢٢) روحي الخطيب : امين القدس – اعداد : الحفريات الاسرائيلية حول المسجد الاقصي المبارك وقبة الصخرة المشرفة . امانة القدس ١٩٨١/٩ ص ٦-٧ .
(٢٣) روحي الخطيب : المرجع السابق .
(٢٤) رانف نجم : حماية الاثار والمقدسات في فلسطين ، ندوة الثقافة بوصفها تراثا قوميا ، عمان ، ٧-١٩٩١/٥/٩-رابطة الكتاب الاردنيين ، اليكسو .
(٢٥) روحي الخطيب : مذكرة مواصلة سلطات الاحتلال اعتداءاتها ، مرجع سبق ذكره .
(٢٦) رانف نجم : مرجع سبق ذكره .
(٢٧) روحي الخطيب : الحفريات الاسرائيلية ، مرجع سبق ذكره .
(٢٨) مجلة البيادور السياسي ١٩٨٣/٤/٢٢ .
(٢٩) دائرة الشؤون الفلسطينية المملكة الاردنية الهاشمية ، مذكرة حول المخططات الاسرائيلية لاستيطان القدس وتهويدها ، يونية / حزيران ١٩٩٥ .
(٣٠) جريدة المنار المقدسة ١٩٩٥/٣/١٣
(٣١) داني روبنشتاين : غوش ايمونيم ، الوجه الحقيقي للصهيونية ترجمة غازي السعدي ، دار الجليل للنشر والطبعة الاولي – عمان ١٩٨٣ .

(٣٢) نجيب الاحمد : اعداد : تهويد القدس ، منظمة التحرير الفلسطينية، دائرة الاعلام والتوجيه القومي بدون تاريخ ومكان نشر .

(٣٣) شؤون فلسطينية : مجلة شهرية يصدرها مركز الابحاث عدد مارس/ آذار - ابريل / نيسان ١٩٨٦ .

(٣٤) وكـــالات الانبـاء فـــــي١٩٨٦/١/١٢ حال الفيتو الامريكي من اتخاذ قرارفي مجلس الامن يمنع مثل هذه الزيارات

(٣٥) صـحـيـفـة الدسـتـورالاردنيـة١٩٨٥/١١/٨ .

(٣٦) دان مـجلس الامـــن المجزرة بقراره رقم ٦٧٢ تاريخ ١٩٩٠/١٠/١٢ .

(٣٧) جـــيـــوســـالـم بـوسـت١٩٩٤/٩/٢٤ .

(٣٨) وكـــــالات الانـبـــــاء ١٩٩٥/٨/٤ .

المرفقـــات

الى مسؤولي الاوقاف الاسلامية في جبل الهيكل

لقد لاحظتم بانه في الاونة الاخرة قد ازداد عدد اليهود الذين يسعون الى الصلاة في جبل الهيكل، المكان الذي نشأ فيه بيت المقدس الذي بناه الملك سليمان عليه السلام ملك اسرائيل بعدما تجلى اله اسرائيل الى ابيه في المحل.

وانتم المسلمون المؤمنون لا تزالوا تحاولون منذ مئات السنين تزوير التاريخ بادعائكم كان ملوك اسرائيل كانوا مسلمين، وقصدكم الحقيقي هو ابراث دين موسى واسرائيل وزحام اليهود واحتلال مكانهم من الجبل ومن الارض.

ان الحقيقة هي واحدة : "الحرم الشريف" حرم وغصب منا، وهذا سبب قدسيته وحرمه عند الاسلام. سوف يأتي اليوم وهذا السلب يعود الى صاحبه وجبل الهيكل يعود الى ايادي اسرائيلية والى سيادة الشعب الاسرائيلي. وهذا سيكون في القريب العاجل باذن الله.

وهذا السلب وتشويه التاريخ كان على ان ينتهي قبل ٧٨ سنة. ولكن [illegible] اسرائيل من قوة الاسلام الخيالة ومن التهجج الاسلامي بالجهاد.

لدينا مشكلة مع حكومات اسرائيل التي تساعدكم وتمنع اليهود من الصلاة في جبل الهيكل وهذة المشكلة هي مشكلة داخلية عندنا فانكم لا تستفيدون الى الدهر من اخطاء الحكومة غير المؤمنة وان نهاية هذه الحالة غيرالمعقولة قريب ان شاء الله.

فاذكروا نصيح اسرائيل : لما نشا الاسلام قد كان الدين اليهودي مشكلا. فان كثيرا من سلاسل [illegible] واما شعب اسرائيل بقي، كلما دامت الجالوت حتى اعادنا ربنا الى بلادنا، لكي نقيم ثالثة بيت مقدسه في جبل البيت الذي سددتم في وجهنا. ففي صميم فؤادكم تعرفون بان الحق معنا. انتم تعرفون بانكم سلابة وعناصر دخلاء. وانتم تعرفون بانكم استوطنتم في اراضينا واساكننا المقدسة وترضعون من منابعنا المقدسة.

حسب الدين اليهودي الاصلي، ممنوع دخولكم، دخول الغرباء والاجانب غير اليهود، الى مكان بيت مقدسنا والاماكن المحيطة به بما في ذلك مركز الحرم وقبة الصخرة. ولكن بإمكاننا السماح لكم الوجود في الهوامش الجنوبية لمسجد الاقصى والركوع باتجاه مكة ولكن هذا الامرمشروط بكم وبتصرفاتكم وبحسن سلوككم.

ايها المسلمون، هذا انذار لكم، ان رب اسرائيل الذي يجدد الان شبابنا لعودتنا اليه سيهتم بكل شخص منكم ويؤدي العقوبة على كل مسلم الذي يتحدى بنا ويمنع من اي يهودي اداء فريضة الصلاة على جبل الهيكل، فان كل من يثور على رجل يهودي مكسو بطاليس يد الله تعاقبه.

عليكم التفكير في هذا الكلام وبصورة جدية قبل فوات الوقت وقبل يوم الخلاص والقيامة وقبل ان يرسي عليكم النصيب.

المصلون الى اله اسرائيل في الجبل المقدس

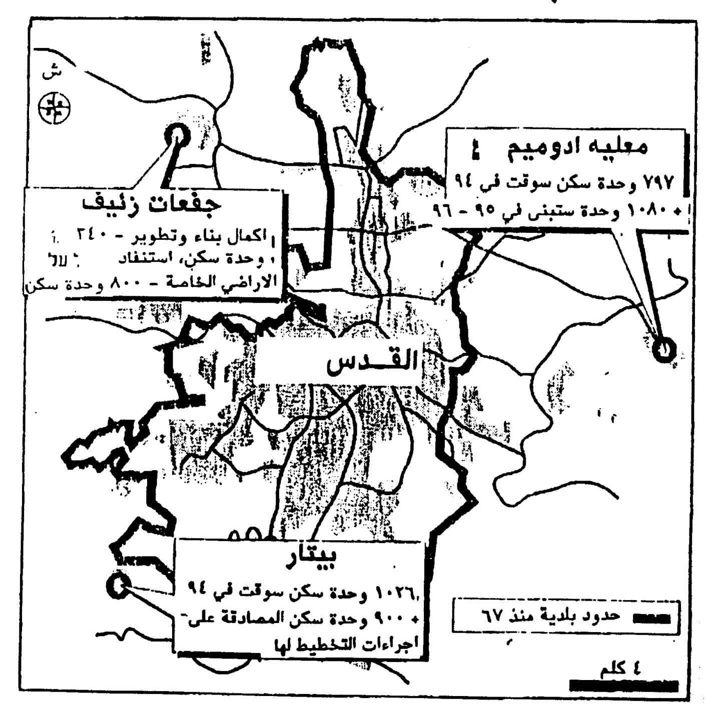
חי וקיים

حركة "حي وقيام" من شان ملكية اسرائيل

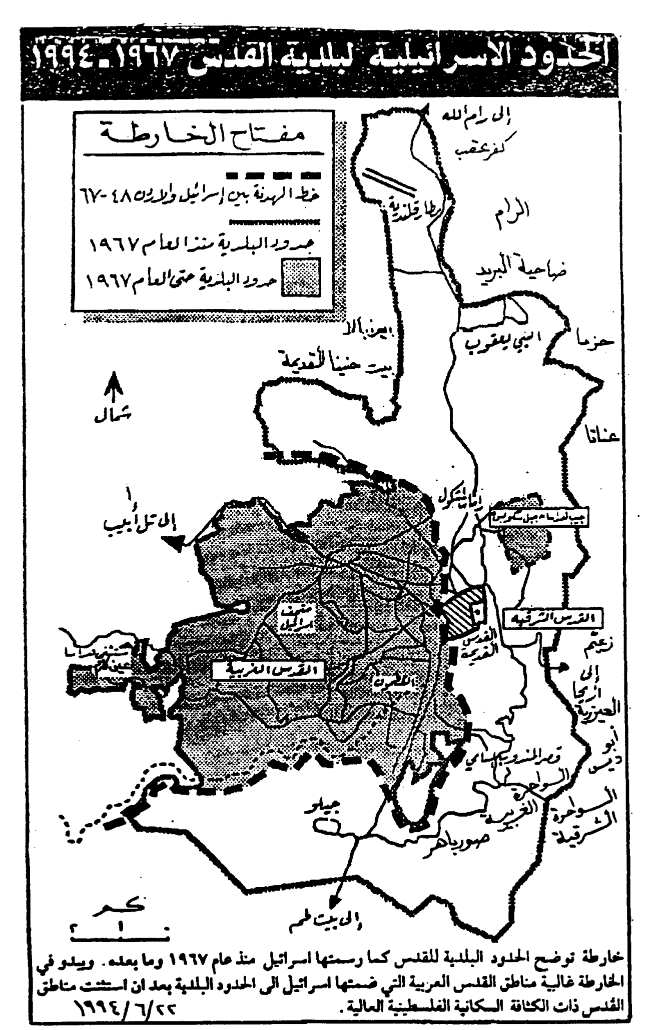
المصادرات في القدس (المواقع والمساحات) ووحدات السكن (البناء) وعدد السكان

المصادرة	الموقع	الوحدة الم٦ هولة	الوحدات المخططة	عدد السكان
١٨ /١/ ٦٨ ـ النشرة الرسمية ١٤٣٥ صفحة ٦٨٨				
٣٣٤٥ دونم	التلة الفرنسية		وحدات سكن	
	جبل المشارف	٢٠٢٤	٤٦٨	نحو ٨٣٠٠ نسمة
	رامات اشكول	٢٣٠٢	----------	نحو ٦٣٠٠ نسمة
٤٨٥ دونم	معلوت تفنة	١٠٠٠	---------	نحو ٤٦٠٠ نسمة
١٤ /٤/ ٦٨ ـ النشرة الرسمية ١٤٤٢ صفحة ١٢٣٨				
٧٦٥ دونم	نحو ١٩٣٠٠ نسمة	نحو ٤٢٠٢ نسمة	١٢٠	نحو ١٩٣٠٠ نسمة
١١٦ دونم	نحو ٢١٠٠ نسمة	٣٤٥	----- -	نحو ٢١٠٠ نسمة
٢٠ /٨/ ٧٠ ـ النشرة الرسمية ١٦٥٦ صفحة ٢٨٠٨				
٤٧٠ دونم	النبي يعقوب	------	-----	
٤٨٤٠ دونم	راموت	٥٨٧٠	٥٦١	نحو ٣٨٠٠٠ نسمة
	سلسلة شعفاط	------	٢٢٠٠	قيد البناء
٢٢٤٠ دونم	شرقي تلبيت	٣٨٩٦	٦٧٠	نحو ١٥٠٠٠ نسمة
٢٧٠٠ دونم	فيلو	٦٥٤٤	١٠٢٠	نحو ٢٠٠٠٠ نسمة
١٢٠٠ دونم	عطروت	صناعة		
٣١٠ دونم	جاى بن هينوم	منطقة عامة	------------	
١٠٠ دونم	شاعر يافو	منطقة عامة	------------	
٦٠٠ دونم	رامات راحيل	------	------------	
× النشرة الرسمية ٢٦١٤ صفحة ١٣٠٥				
٤٤٠٠ دونم	بسغات زئيف	٧١٥٧		
×٨٢/٧/١ ـ النشرة الرسمية ٢٨٣١ صفحة				
١٣٧ دونم	عطروت	صناعة	------------	
٩١/٤/٢١ ـ النشرة الرسمية ٣٨٧٧ صفحة ٢٤٧٩				
١٨٥٠ دونم	هارحوما	٦٥٠٠		
أوامر نشرها وزير المالية فى شهر نيسان ١٩٩٥ ـ المصادرة الأخيرة				
٣٣٥ دونم	بيت حنينا	------	٩٠٠	قيد العخطيط
٢٠٠ دونم	بيت صفافا	------	٤٤٠	قيد التخطيط

البناء المخطط له في القدس الكبرى

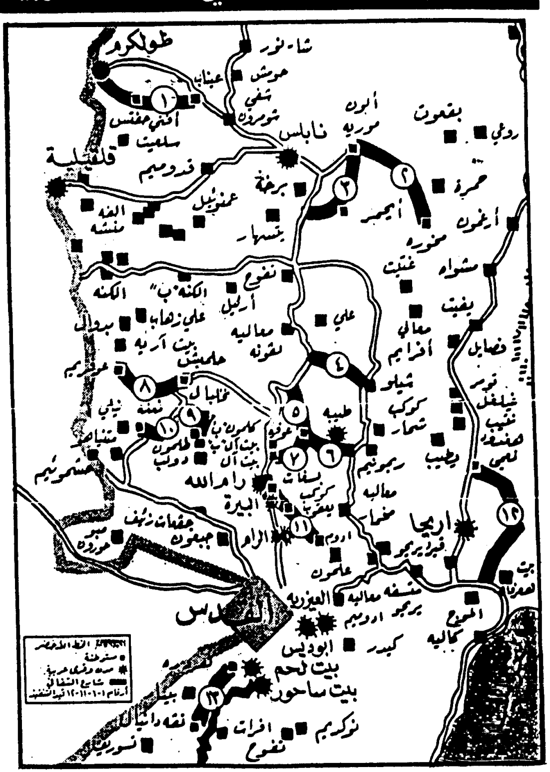


الحدود الاسرائيلية لبلدية القدس ١٩٦٧-١٩٩٤

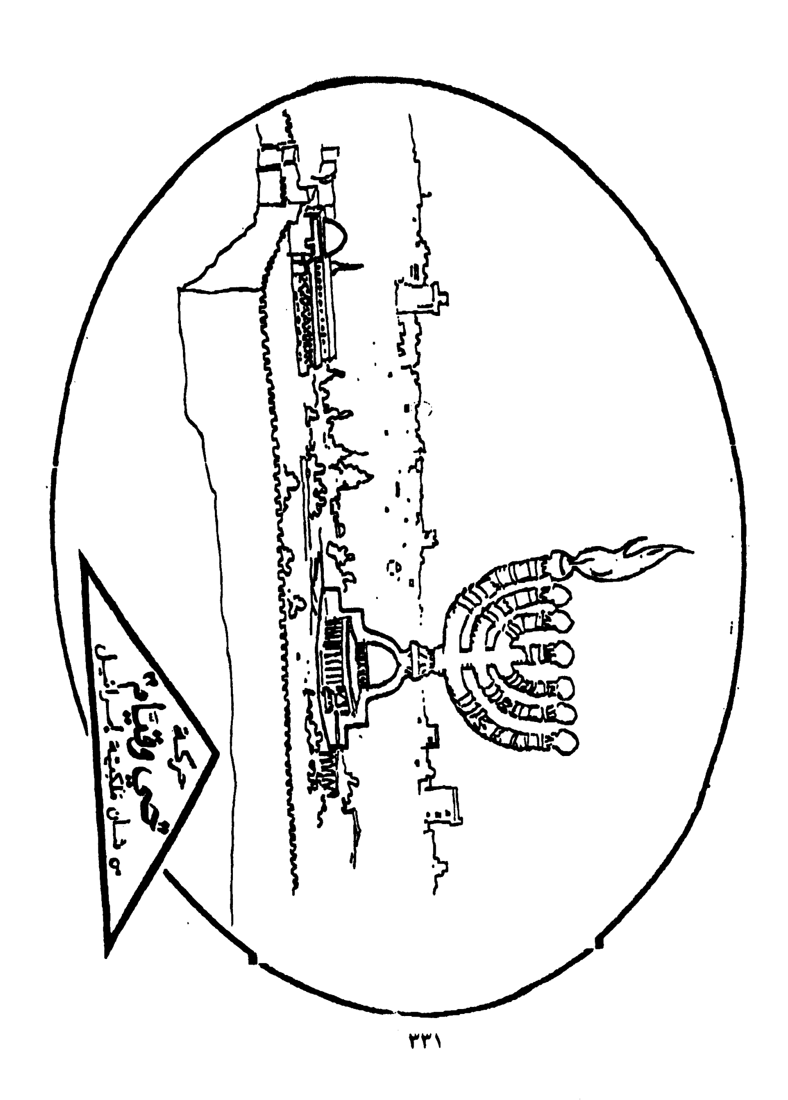


خارطة توضح الحدود البلدية للقدس كما رسمتها اسرائيل منذ عام ١٩٦٧ وما بعده. ويبدو في الخارطة غالبية مناطق القدس العربية التي ضمتها اسرائيل الى الحدود البلدية بعد ان استثنت مناطق القدس ذات الكثافة السكانية الفلسطينية العالية.
٢٢/٦/١٩٩٤

الشوارع الالتفافية في الضفة الغربية

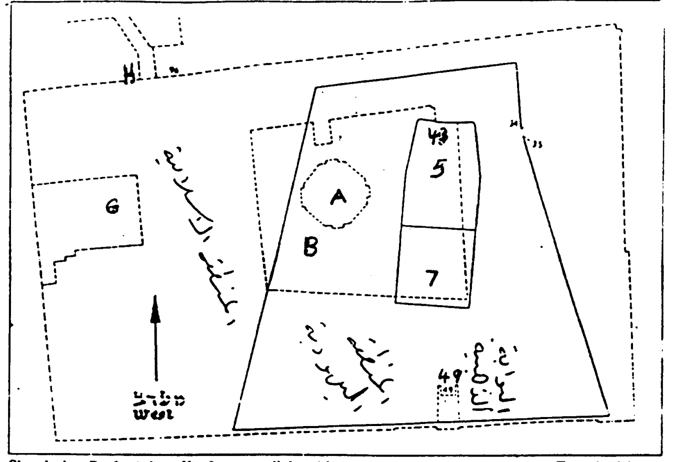


جريدة المنار / القدس العدد رقم ٢٣٤ بتاريخ ٧ / ٧ / ١٩٩٥


حركة
حي وقيام

مخطط تقسيم الحرم القدسي

Jerusalem Post - International ed.
Sep. 24, 1994



Sketch by Prof. Asher Kaufman outlining his proposal for division of the Temple Mount into a Jewish section (delineated by solid, trapezium-shaped line) and a Moslem section. Included are the following elements: (A) Dome of the Rock; (B) Platform of Dome of Rock; (G) Al-Aksa Mosque; (H) Mograbi Gate leading to Western Wall; (5) Inner Temple Court; (7) Court of the Women; (43) Dome of the Spirits, site of Holy of Holies, according to Kaufman; (49) Golden Gate.

(Photo of Temple Mount by David Rubinger)

ملكية الأراضي في فلسطين
« نوذج صفـــد »

(من واقع دفاتر الطابو العثمانية)

٩٣٢هـ - ١٥٤٥م - ١٠٠٥هـ - ١٥٩٧م

أ.د. محمد عيسى صالحية

الاقطاع العسكرى هو القاعدة العامة لادارة الاراضى فى فلسطين فى العهد المملوكى ، ويصدر من السلطان مباشرة بتوقيع أو مثال او براءة بعد تحققه من الارض والضياع ، وذلك بتكليفة للقاضى والعدول ووكيل بيت المال وجماعة من الفقهاء والأئمة، حتى اذا ما استقر الامر اليه ، كتب التوقيع بذلك وأخذ خط الوزير وخط الخزندار وديوان الجيوش المنصورة وخطوط مستوفى للدوادارية الصحبة ، ومن ثم تسلم للدوادارية وتفرق على أصحابها .

والأساس فى الاقطاع العسكري المملوكى انه ليس وراثياً ، فهو ينتهى بموت صاحبه ولكنه يستفاد من المصادر التى اشارت الى القائمة الطويلة من الاقطاعات انها كانت اقطاعات تمليك [١] . ويبدو ان هذا النظام قد توسع فى عهد الملك الظاهر بيبرس

---

(١) انظر ، ابن رشد : الاعلاق الخطيرة ،٢٤٢/٣ ، المقريزى /السلوك / ، ج٣ ق٢ ص ٨٨٩ ، مفضل بن ابى الفضائل (شرف الدين عيسى الهكارى فى النهج السديد ، ج١ ص١٣٩ - ١٤٣ ، شافع بن على عباس : حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الضاهرية تحقيق عبد العزيز الخويط ، الرياض ١٩٧٦ ،٩٤- ٩٦.

البندقداري ، اذا زاد من رقعة الاراضى المقطعة فى فلسطين ، وخاصة بعد فتح ارسوف وطرد الفرنجة منها سنة ٦٦٣ هـ/١٢٦٤م ، فقد أورد ركن الدين بيبرس المنصورى ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م ، وثيقة صادرة عن الملك بيبرس ، عنونها بـ « ذكر البلاد التى ملكها للامراء لما ملكها » وجاء فى تمهيده ولما استولى على هذه الفتوح جعلها لامرائه من انعامه الممنوح فقسمها عليهم بتواقيع بايديهم وكتبت بالتمليك توقيعاً جامعاً نسخته [(١)] وفى ثنايا التوقيع جاء « وتبقى للولد منهم وولد الولد مايدوم الى أخر الدهر ، ويبقى على الابد ويعيش الابناء فى نعمته كما عاش الأباء وخير الاحسان ماشمل واحسنه ماخلد ، فخرج الامر العالى لازال يشمل الاعقاب والذرارى وينير انارة الانجم الدرارى . ان يملك أمراءة وخواصه الذين يذكرون فى هذا المكتوب يسطرون مايعين من البلاد والضياع على مايشرح ويبين من الاوضاع » رحدد التوقيع اسماء الامراء والاراضى المقطعة على الشكل التالى:

الاتابك فارس الدين اقطاعى الصالحى	رعتيل بكاملها
الامير علاء الدين ايداغدى العزيزى	نصف زيتا
الامير بدر الدين بيسرى الشمس	نصف طولوكرم
الامير سيف الدين الدكز الكركى	ربع زيتا
الامير سيف الدين قليج البغدادى	ربع زيتا
الامير ركن الدين بيبرس خاص ترك الترك	افراسين
الامير علاء الدين ايديكن البندقدارى	باقة الشرقية

---

(١) المنصورى ، ركن الدين بيبرس : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ، مخطوط فى المتحف البريطانى رقم ٢٣٣٢٥ ، ورقة ٧٠ .

الامير عز الدين ايدمر الحلبى	نصف قلنسوة
الامير سيف الدين قلاون الالفى	نصف طيبة الاسم
الامير يوغان سم الموت	نصف طيبة الاسم
الامير جمال الدين اقوش النجيبى	ام الفحم بكاملها
الامير علم الدين سنجر الحلبى	تبان بكاملها

وبالرغم من تطبيق نظام [(١)] روك الاراضى ، للحد من نفوذ الاقطاعيين والتقليل من قوتهم ، باعطائهم حصصا او أجزاء متفرقة من قرى مختلفة بدلاً من حصص كبيرة فى قرية واحدة ، [(٢)] فاننا نقرأ فى وثائق الحرم القدسى الشريف ، اقرار بيع تاريخه ٢١ صفر ، سنه ٧٢١ هـ / حيث باع يحيى بن الصدر الشجاع الكبيرى للمشترى رستم بن ناصر الدين الرومى ، القرية آل بنى زيد بما يلحقها من الاراضى المزارع والجبال والتلال والصحارى والبيادر وبيوت الاكرة اى الفلاحين بمبلغ ٨٣٣ ديناراً وثلث دينار واثبت البيع القاضى ابو المعالى محمد بن محمد بن الحسن الشمسى [(٣)] وهذا دليل على استمرار نظام التمليك حتى فى الفترة من المعهد المملوكى .

وشهد العهد المملوكى فى فلسطين الواناً من العسف والظلم الذى لحق بالفلاحين تمثل باساليب الرمى والطرح والعادات والمرتبة واخذ الاقرارات على روساء الفلاحين بدفع الضرائب الفادحة والزامهم بنفقات اضافية [(٤)] وحوادث طرح ورمى الزيت والصابون

---

(١) ظهر الروك لاول مرة فى عهد السلطان لاجين /١٢٩٨ م ، ثم طبق الروك الناصرى /١٣١٥ م ، انظر المقريزى ، خطط ٨٧/٢ - ٨٨ / ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ٩ / ٣٦ ، ٤٢ ،

(٢) Poliak , Feudalism , P,19

(٣) انظر الوثيقة رقم ٣٧ من وثائق الحرم القدسى الشريف ، ميكروفيلم عند الباحث .

(٤) انظر الوثيقة رقم ١٩ تاريخ ٢٦ صفر سنة ٧٠٨ هـ وفيها اقرار من سليمان بن يوسف بن غزاوى وعلى بن احمد بن حماد وموسى بن سعيد بن حمدان وعلى بن مناع بن سلطان رؤساء الفلاحين فى قرية بيت لقية من اعمال رام الله بتحمل نفقات إضافية وضرورة ضبط الفلاحين لمدة ثلاث سنوات اخرى .

على الاهالى فى نابلس والقدس معروفة [١] .

واثر انهيار السلطنة المملوكية ، اعتمدت الدولة العثمانية العمل بنظام الالتزام حتى تضمن الدولة لنفسها حقها فى الضرائب [٢] المترتبة على المكلفين حيث ان نظام الأراضى العثمانى اعتمد على ثلاث ركائز ، الدولة والموظفين من مدنيين وعسكريين والفلاحين ، ومن الجدير بالذكر ان الاقطاع العثماني كان محصوراً فى البداية على العسكريين فقط ثم دخلته عناصر مدنية اخرى واختلفت بحسب المنصب الذى كان الموظف يشغله وكانت على ثلاثة انواع تيمار [٣] ، وزعامت [٤] ، وخاص [٥] ، ولعله من نافلة القول ان الدولة العثمانية اعتبرت الارض ملكية عامة تخصص رقبتها لبيت مال المسلمين وجعلت وقفاً على الامة الاسلامية ، ولعل طبيعة الدولة العثمانية العسكرية كانت وراء ذلك مستندة فى ذلك ما تدعى على الشرع الاسلامى ، وقسمت الاراضى فيما بعد وقف النظام العثمانى الى اراضى مملوكة واخرى غير مملوكة وكلا النوعين يمنح حق التصرف بالارض .

وكانت الاراضي المملوكة يتصرف فيها وفق التصرفات التالية :

- عشرية مفتوحة او ممنوحة للفاتحين المسلمين او الداخلين فى الاسلام .
- خراجية ، وهى المفتوحة دون حرب والمتروكة بيد السكان مع فرض الخراج عليها .
- المقاطعة ، آى التى يمنحها الوالى للمسلمين من غير الفاتحين بشرط دفع متوجبات المقاطعة ، الرسوم او الاعشار .

---

(١) محى الدين العليمى : الانس الجليل ٢ ، انظر محمد صالحية ، ظاهرة الطرح والرمى فى الاقتصاد المملوكى . ، مجلة ابحاث جامعة اليرموك ، م٩٤٤ ، سنة ١٩٩٣ ، ص ٥١ - ١٢٤ .

(٢) كان هناك نوعان من الضرائب ، والرسوم الشرعية مثل الخراج والعشر والزكاة والجزية والرسوم العرفية ، وهى التى تؤدى عرفاً وخارج نطاق الأحكام الشرعية وتسمى تكاليف وعوارض وفيها رسم المجرد (الأعزب) ، الرعية ، الجفت ، التناك، الاسبنجة ، البادهوا ، ، العروسية ، الجرم ،الجناية،الاحتساء ـ الحفبت بوزان ـ لطابور الباغ ـ البانحجة ـ البستان ـ القوران ـ الجفت واغيل، اللياملاق ـ القشلاق ، البلطة ـ اليايا والجمرك ـ وغيرها كثير، وغيرها كثير ، انظر الارشيف العثمانى ، ٣٣٤ .

(٣) تيمار ، ماقل انتاج الاقطاع عن ٢٠ ألف آقجة .

(٤) زعامت : ماتراوح الانتاج بين ٢٠ - ١٠٠ ألف آقجة .

(٥) الخاص : مازاد الانتاج عن ١٠٠ ألف آقجة ، وقد بلغ الخاص فى فلسطين ٥١٧ إقطاعية ، وطلب من متوليه تجهيز فارس لكل ٥ آلاف آقجة علاوة على عمارة الارض بالفلاحة .

- الارض المتممة للسكن ، وهى الارض المحيطة بالسكن ومثلها حدائق المنازل والحواكير وماشابه ذلك [١] .

أما الأرض غير المملوكة فهى تلك الباقية بعد التوزيع علي الفاتحين اوالاراضى الخراجية ، والتى تعود رقبتها لبينت مال المسلمين وتعرف باراضى أو أراضى الدولة وهى ماعرفت فيما بعد بالميرى اوالارض الميرية وعلها الاعشار[٢] اوالخراج [٣] .

لقد كان من احدى الدوائر الرسمية فى التشكيلات المركزية عند العثمانيين الدفترخانة وهى التى تحف فيها الدفاتر التى تحتوى قيود شتى الاراضى وتعيين اجناسها من تيمار وزعامت وخاص وملك ووقف ، وتحدد مصادر ايرادات الدولة [٤] وكان يتم تنظيمها عند تسجيل (تحرير) الاراضى [٥] .

ومن الجدير بالذكر ان العثمانين عند كل فتح جديد بالقيام باعداد سجلات لتسجيل الاراضى ، ويحدد فيها :

- تحديد نظام ملكيتها والتصرف بها

- تحديد النسب الضريبية عليها

وتتم هذه العملية مرة كل ثلاثين سنة على الاغلب ، ويطلق عليها اسم « تحرير » وتكون تحت الاشراف العام للتوقيعى أو النشانجى ، حيث يتم اختيار رجلين ، احدهما

---

(١) دعيبس المر ، أحكام الاراضى المتبعة فى الاراضى المنفصلة من الدولة ، القدس ، مطبعة القدس ، ١٩٢٣ ، ص ٣ .
(٢) الاعشار نسبة تقدر على المحصول الناتج .
(٣) الخراج : نسبة الضرائب على الاراضى التى بحوزة غسر المسلمين ، ومنه خراج المقاسمة وتتراوح بين العشر والنصف من المحصول الناتج ، والخراج الموظف وهوضريبة محدودة تفرض على الارض سواء زرعت او لم تزرع .
(٤) الارشيف العثمانى اعداد نجاتى قطاش وعصمت بينارق ، ترجمة صالح سعداوى ، صالح ٣٢٩ .
(٥) كانت موجودة تح القبة بسراى طوب قابى وانواعها : مفصل ، اجمال ، روزناجة وامرها يسمى امين الدفتر او أمين الدفترخانة .

آمر والاخر مساعد عرفا بالنزاهة والاستقامة والدراية فى معظم الاحيان ، والاول هو الامين ومساعده الكاتب[1] والى جانبهما يكون كادر من الكتبة ، بالاضافة الى المساعدين من المنطقة موضع التحرير وكان يرافقهما اثناء عملية التعداد دفتر دار التيمار ووكيله وقاضى المنطقة .

وتبدأ العملية باقامة التشكيلات الادارية فى المنطقة او الولاية المقصودة بالتسجيل ثم يقسمها الامين الاراضى الى خواص سلطانية او خواص امير الأمراء والزعامات والتيمارات ثم يطوف والهيئة بالقصبات والقرى واحدة واحدة ، ويحدد اسماء المكلفين بدفع الضرائب من سكانها وحرمهم وتحديد المعفيين مع ذكره لنوع الضرائب واسباب الاعفاء وكان كل شخص ملزماً بابراز سند الوقف (وقف نامه) او سند الملكية (ملك نامه) حيث يفحص بدقة وكان يسجل فى الدفتر مالك الارض والمعدم والمتزوج (خانة) والاعزب (مجرد) والشيخ والاعمى والارمل والمعوق والامام والمؤذن والواعظ والخطيب والمأذون والراهب وغيرهم كل على حده .

وفى كل قرية يقوم الامين بتحديد المراعى والمشاتى والمصايف والغابات والمروج وايضاح جنس كل منها ، وتحديد المقدار السنوى لمحاصيل القمح والشعير والحمص والذرة والسمسم والجوز والأرز والعنب والزتون والبرقوق والعسل والخضر والفواكه وانواع الحيوانات من معز وجواميس ونحل وغيرها ، ولهم فى تحديد مقدار الضريبة طريقة تناولتها الدفاتر المالية [2] .

ومن ناحية ثانية فعند الشروع فى التحرير يتوجه اصحاب الزعامات والتيارات وغيرها الى الامين العام ومع الواحد منهم هذه الوثيقة (يافتة) ويطلب اليه تسجيله

---

(١) قد يسمى محرر ، محرر المنطقة ، امين الدفتر ، امين الولاية ، أنظر الارشيف العثمانى ، ٣٣٠ .

(٢) المعيار هو تحديد الضريبة التى دفعها المكلف فى السنوات الثلاث الأخيرة والسؤال عن قدرها وبعد التثبت من محصول هذه السنوات يتم مقارنته بمحصول السنة الجارية ويسجل الفرق نقصاً اوزيادة ، ويقسم مجموع السنوات الثلاث الاخيرة على ثلاثة ويستخرج منها المتوسط ، انظر ، الارشيف العثمانى ، ٣٣١ .

فى الدفتر مع اراضيه ورعاياه وفى نهاية التحرير وعقب توزيع الاراضى يتم باسم الخزينة وضع اليد على الاراضى الزائدة ، اما الاراضى التى تظهر بدون قيد فيطلق عليها « خارجة عن الدفتر » .

هذه الدفاتر ، كانت تشكل القيد الاساسى والمرجع الام لاراضى الدولة وبذلك كانت فى حكم الطابق (اى السند العقارى) حتى عرفت مع مرور الوقت باسم دفاتر الطابو .

ويحتفظ ارشيف رئاسة الوزراء باستنبول والمديرية العامة للطابو والمساحة بانقرة ارشيف القيود القديمة ، بعدد من دفاتر الطابو الخاصة بفلسطين منها المفصل وهو الذى يضم معلومات عن التشكيلات الادارية واراضى السلطان والزعامة والتيمارات والمقاطعات والرعايا والسكان المكلفين وارباب الحرف والقائمين على الوظائف الدنيا والاعفاءات والقلاع والعشائر وغير ذلك ، وبعضها المختصر يذكر فيه التشكيلات الادارية واسماء القرى ومقدار الحاصلات السنوية وهو دفتر الاجمال او المجمل ، وعادة مايثبت قانون الولاية (قانون نامه) موضع التسجيل فيي دفاتر التحرير المفصلة اضافة الى اسم الولاية واسم السلطان الذى تم التحرير فى عهده واسم الامين واسم الكاتب وتاريخ ذلك ومن دفاتر تسجيل تحرير طابو فلسطين نذكر :

سجلات طابو فلسطين المحفوظة فى الاراشيف العثمانية

توجد غالبية سجلات الطابو الخاصة بفلسطين فى ارشيف رئاسة الوزراء باستنبول والبعض الأخر محفوظ فى ارشيف القيود القديمة بالمديرية العامة للطابو والمساحة بانقرة .

السجلات المحفوظة فى ارشيف رئاسة الوزراء

Basbakanlik Arsivi(TApu - TAHRIR DEFTERLERI)

- دفتر ١٣١ تاريخه ٩٣٢هـ / ١٥٢٥ م ، نوعية تيمار - اوقاف وهو دفتر اجمالى يبين املاك واوقاف وتيمار لواء غزة .

- دفتر رقم ١٣٢ تاريخه ٩٣٢ هـ / ١٥٢٥ نوعه تيمار ، وهو دفتر اجمالى يبين املاك اوقاف وتيمار نواحى لواء صفد .

- دفتر رقم ١٩٢ ، تاريخه ٩٤٥ هـ / ١٥٣٨ ، نوعه ، مالية ، وهو دفتر مفصل يبين حاصلات ونفوس نواحى بنى جهمة ، بنى عاتكة، وبنى كنانة من بلاد الشام وغور عجلون وقاقون من لواء نابلس ، وناحية ساحل عثليت وناحية مرج بنى عامر بنى عامر ، والتى هى تحت تصرف طره باى ، وقد نشر محمد عدنان البخيت الدفتر وعقد دراسات جادة ومفيدة عن نواحى بنى كنانة وبنى جهمة وبنى الاعسر وغيرها استناداً على الدفتر المشار اليه وغيره من الدفاتر الاخرى .

- دفتر رقم ٢٥٨ تاريخه ٩٥٥ هـ / ١٥٤٨ م ، نوعه ، مالية ، دفتر مفصل يحتوى على اوقاف وتيمار وحاصلات ونفوس قرى لواء نابلس مع قانون نامه .

- دفتر رقم ٢٦٥ ، تاريخه ٩٥٥ هـ / ١٥٤٨م ، ونوعه مالية واوقاف ، وهو دفتر تحرير مفصل حاوى على اوقاف وحاصلات ونفوس لواء غزة .

- دفتر رقم ٢٨٩ تاريخه ٩٦١ هـ / ١٥٥٣م ، ونوعه مالية ، وهو دفتر تحرير مفصل حاوى على تيمار وحاصلات ونفوس مدن القدس والخليل وقراها .

- دفتر رقم ٢٩٥ تاريخه ٩٦٣ هـ / ١٥٥١م ، نوعه تيمار ، وهو دفتر مجمل يبين الخواص السلطانية في نابلس وحسابات الخاصة للواء نابلس وغزة ، وكذا تيمار نواحي لواد الرها .

- دفتر رقم ٢٩٦ ، تاريخه ٩٦٣ هـ/١٥٥٥ م، ونوعه مالية وهو قيودات اجمالية للواء نابلس .

- دفتر رقم ٣٠٠ تاريخه ٩٦٣هـ / ١٥٥٥ م ، ونوعه مالية ، ويحتوى على تيمار واملاك خاصة واوقاف وحقوق ورسوم ومحصولات ونفوس لواء صفد مع قانون نامه .

- دفتر رقم ٣١٢ تاريخه ٩٦٥ هـ/ ١٥٥٧م ونوعه مالية واوقاف ، ويحتوى على املا واوقاف لقضية صفد ونابلس وغزة والرملة والباحث يقوم بنشره الان .

- دفتر رقم ٣٤٢ تاريخه ، ٩٧٠ هـ / ١٥٦٢ م ، ونوعه اوقاف وهو دفتر مفصل بالاوقاف والاملاك فى القدس .

- دفتر رقم ٣٤٦ تاريخه ٩٧٠ هـ / ١٥٦٢ م ، ونوعه تيمار ، يحتوى على التيمار والزعامت الخاصة فى نواحى القدس والخليل .

- دفتر رقم ٣٠٤ تاريخه ٩٦٤ هـ / ١٥٥٦ م ، ونوعه مالية واوقاف وهو دفتر تحرير طابو يحتوى على اوقاف وحاصلات ونفوس قرى لواء غزة مع قانون نامه - دفتر رقم ٤٢٧ ، وهو بدون تاريخ (٩٣٢هـ / ١٥٢٥ ؟) ونوعه مالية واوقاف ، وهو دفتر مفصل يحتوى على اوقاف وحاصلات لواء صفد ولواء القدس .

- دفتر رقم ٥٢٢ تاريخه ٩٨٠ /١٥٧٢ م نوعه مالية واوقاف ، وهو مفصل يحتوى على اوقاف واملاك الوية ، غزة والقدس وصفد ونابلس وعجلون ، وقد نشره محمد ابشرلى ومحمود ومحمدداود التميمى وصدر عن مركز الابحاث والفنون والثقافة الاسلامية ، باستانبول .

- دفتر رقم ٥٥٩بدون تاريخ ولكنه يختص بعصر سليم الثانى ونوعه مالية واوقاف ، وهو دفتر مفصل حاوى على اوقاف وتيمار وحاصلات ونفوس نواحى تبنين وطبريا وعكا وشقيق وبنى بشارة وجنين من لواء صفد .

- دفتر رقم ٦٠٢ تاريخه ٩٩٠ هـ / ١٥٨٢ م ، نوعه اوقاف ومالية ، وهو دفتر مفصل باوقاف واملاك الشام وصيدا والقدس والخليل وغزة والرملة وصفد ونابلس .

- دفتر رقم ٦٨٦ ، تاريخه ١٠٠٥ هـ / ١٥٩٦ م ، ونوعه مالية واوقاف ، وهو دفتر تحرير مفصل ومجمل يحتوى على اوقاف وتيمار وحاصلات ونفوس لواء صفد مع قانون نامه .

- دفتر ٩٥٠ تاريخه ١٢٢٢ هـ / ١٨٠٧ ونوعه مالية ، وهو دفتر اجمالى بحاصلات سناجق لجون وغزة ونابلس والقدس والشام .

- دفتر رقم ١٠١٥ تاريخه ٩٤٥ هـ / ١٥٣٨ م ونوعه مالية واوقاف ، هو دفتر تحرير مفصل مبين لاوقاف وتيمار وزعامت والخاص وحاصلات ونفوس القرى الواقعة فى نواحى القدس والرملة مع نفس غزة .

- دفتر رقم ١٠٣٨ (٩٤٥ هـ / ١٥٣٨) بدون تاريخ ، ونوعه مالية وهو دفتر مفصل يحتوى على تيمار وحاصلات ونفوس لواء صفد ونابلس .

- دفتر رقم ١٠٣٩ (٩٤٥ هـ /١٥٣٨ م) ، بدون تاريخ ، ونوعه تيمار ، وهو دفتر اجمالى يحتوى على تيمار لواء صفد .

- دفتر رقم ١٧٧٣٨ تاريخ ٩٧٥ هـ/١٥٦٧ م مالية مدور يختص بصفد .

اما المديرية العامة للطابو والمساحة بأنقرة ، ارشيف القيود القديمة

Aankara , Tapu Ye Kedastro mudulugu Archives

فتحتفظ بالدفاتر التالية :

- دفتر رقم ٧٢ د . ت ويختص بلواء صفد

- دفتر رقم ١٠٠ تاريخه ١٠٠٥ هـ / ١٥٩٦ م ويختص بنابلس ، عهد السلطان محمد الثالث (مفصل) .

- دفتر رقم ١١٢ ، تاريخه ١٠٠٥ هـ /١٥٩٦ م ، ويحرر للقدس الشريف (مفصل) .

- دفتر رقم ١٩٢ تاريخه ١٠٠٥ هـ / ١٥٩٦ يحرر منطقة غزة والرملة (مفصل) .

- دفتر رقم ١٧٨ تاريخه ١٠٠٥ / ١٥٩٦م يحرر للقدس الشريف والخليل والمفصل

ان دراسة وتحليل ماورد فى تلك الدفاتر مازال مشروعاً ننشده فيما يتبقى من عمرنا ، وعليه فان التحليل الدراسة ستركز على نموذج اخترناه وهو لواء صفد ، ولعل اختيارى لهذا اللواء ماكان رداً على ما أورد أمنون كوهين وبرناردلويس فى كتابهما .

Population and Revenue the towns of Palestine in the sixteenth Century

حيث ذكر « ان الزيادة فى عدد السكان والتطور الاقتصادى لمدينة صفد ، انما يعود فضله الى اليهود حيث بلغت نسبة الزيادة السكانية حوالى ٣٠٪ إن تطور المدينة انما يعود بصورة مركزية الى توطن اليهود فى المدينة [(١)] واطنب الباحثان فى الاشارة الى صلات اليهود الروحية بالمدينة التى ابتليت بالاحتلال اليهودى منذ سنة ١٩٤٨ م ، ولعل اول ماقدمه بهذا الشأن هو قانون نامه ولاية صفد الذى اثبت فى مدخل الدفتر رقم ٦٨٦ ، تاريخه ١٠٠٥ هـ/ ١٥٩٦ م ومن ثم تحليل املاك والاوقاف ونفوس المدينة .

ومن الجدر بالذكر ان الباحثين اليهوديين الصهيونيين قد تجاهلا هذا الدفتر وقفزا على المعلومات المفصلة التى فيه ، لاسباب سنذكرها عند تحليلنا لاحصائيات نفوس صفد وعلي كل حال فإن التحرير الاجمالي الذي وقع سنة ٩٣٢هـ (١٥٢٥ ـ ٥٢٦م) لسنجقية صفدوعلي كل حال فإن التحرير الاجمالي الذي وقع سنة ٩٣٢هـ (١٥٢٥ ـ ١٥٢٦م) السنجقية صفد يظهر التشكيلات الإدارية للواء صفد ، كانت : ـ

- ناحية الجيزة واشتملت على ولاية برصفد والنصف الشرقى من ولاية الشاغور .

- ناحية تبنين ، واشتملت علي ولاية تبنين وولاية صور .

---

(١) أنظر الكتاب المشار اليه اعلاه ص ص ٢٩-٣٠ ، طبع نيوجرسى ، برنستون ، ١٩٧٨ م .

- ناحية الشقيف ، واشتملت على ولاية الشقيق وولاية الإقليم .

- ناحية عكا وتشمل ولاية عكا ، القسم الغربى من ولاية الشاغور والقسم الشمالى من ولاية عثليت .

- ناحية طبرية ، وتشمل على ولاية طبرية والناصرة والقسم الجنوبى من ولاية عثليت ولاية مرج ابن عامر ، فكانت ناحية من سنجق اللجون ، وهذه التشكيلات انسحبت فى معظم الأحيان على مرات الإحصاء التالية بتغييرات طفيفة حيث تفصل منطقة وتلحق بلواء او ناحية اخرى لاسباب امنية او كنوع من توسيع خواص او تيمار اوزعامت احد الرسميين العثمانيين .

قانون نامه (لواء صفد) (دفتر اجمالى ومفصل) .

دفتر صفد الجديد ، رقم ٦٨٦ .

ايام محمد خان بن مراد

كاتب حسن بن سنان ، امانتى ابله وبنه دفتر خانه

الكاتب للدفتر

احمد بن دروش محمد ، تاريخه ١٠٠٥ هـ / ١٥٩٦ م

يؤخذ ٢ آقجة عن كل حمل يرد سوق صفد من مثل الدبس والليمون .

والنارنج والخيار والبصل واللبن وماشابه ذلك و ٣ اقجة عن الأرز والتفاح والأجاص وماشابه ذلك و١٢ آقجة عن كل قنطار صابون اويؤخذ نصف رطل صابون ، ويأخذ القاضى من اهل السوق قدراً من النقود (الاقجة) ، بعد تقدير السعر ، وتنقسم الضرائب على حاصلات اللواء المذكور الى قسمين ثابتة (ديموس) او مقدرة « قسم » تحصل من القرى على قسطين ، احدهما وقت لحصاد والأخر وقت الدبس ، اما فى لواء صفد فالزيوت اكثر ولذا تؤخذ ظهور الثمار فى اماكن اشجار الزيوت وقد سجلت اعشار

الأوقاف والأملاك فيتم التعشير فى بعض القرى والمزارع وتقسم فيما بعد كما جرت العادة ، وتؤخذ فى بعض الأماكن باسم العشر عن المال الوقف ، وقد حددت ضريبة قسم على كل القرى او المزارع .

ويأخذ الأمين والسباهى نصف محصول اشجار الزيوت من الكفار ويأخذ الرعايا ، (اصحاب التيمار والنصف الاخر) وتؤخذ عشرة اقجات عن كل مائة غرسة عنب (عريشة) ، و١٢اقجة عن كل خمسة اشجار من الفواكه المختلفة وا آقجةواحدة عن كل شجرتى زيتون للمسلمين و٢ آقجة لشجرة الجوز المثمرة الناضجة و١ آقجة واحدة عن كل واحدة من الأشجار الصغيرة حتى تثمر و٢ آقجة عن كل شجرة نخيل او خرنوب .

ويجب اخذ الرسومات على الأ قمشة وسائر البضائع التى تخرج الى موانىء صور وعكا الواقعة فى اللواء المكور ، والبضائع التى تخرج من ميناء بيروت أيا كان نوعها فإنه يعمل بهذا القانون وينفذ فى داخلها (آى الموانىء) ويؤخذ آقجة واحدة عن كل رأسين من المعز والغنم فى اللواء المذكور ، وفى بعض الكهوف والأماكن النائية يؤخذ رسم قشلاق اى عن كل مائة رأس غنم رأس او ثمنها ، ويؤخذ آقجة واحدة عن كل خلية (عسلية) نحل وعن كل جاموس ولود ٣ آقجة الى ٦ آقجة ويؤخذ عن كل معصرة دبس ٦ آقجة سنوياً قابلة للزيادة ، وقد تم رفع رسوم الحماية والحصاد والمباشرة والرجادية وخلافه تماماً فى اللواء المزبور ، ولايؤخذ شىء بعد فوات زمانه .

كما يجب الالتزام بتنفيذ قانون الضرائب فى اللواء المذكور، فقد تم توضيح كلى شىء وفى زمن الجراكسة (المماليك) كانت تحصل فى اللواء المذور بعض الرسوم (الآقجات) كما كانت تحصل عادة اضحية ورسم دجاج ورسم غنم وخمسية وقدوم ومباشرية ، وكانت بعض بدعة وظلم واضح ولذا تم الغاؤه ، ولايجب ان يدفع شىء لمن يصلون القرى بحجة السفر بخلاف الأمراء والصوباشية والأمناء ورجالهم .

وقد تم تسجيل المعفيين من المعشر ومن التكاليف العرفية والعوارض الديوانية فى الدفتر القديم لأوقاف القدس الشريف وخليل الرحمن عليه السلام . وفصل كذلك على

الوجه المشروح فى الدفتر الجديد ، واعفيت قرى الخاصة الهيمايونية ، ولايحصل شيء باسم بدل السياسية ، والمتفرقات الميرية وكذلك لايحصل شيء من تيمار ميرالاى والزعماء ورؤساء العسكر والجاوشية ، وقد ربطت متفرقات ورسوم ارباب التيمار بأمير اللواء ولايجب اخذ شيء زائد عن القانون القديم وكما لايجب الاثقال على الرعايا بأى وجه من الوجه ولايحصل امير اللواء والأمناء ، او بعض التجار اى شيء من ضريبة القسم من القرى حيث كانوا يطلبون شيئاً يسمى « فتوح بيدر » اى فتح بيدر المحصول وعلى هذا لايؤخذ القسم الابعد تصفية المحصول .

ويجب رفع الظلم عن الرعايا فدائماً كان يتجول الصوباشى ونوابه فى النواحى ويأخذون الزاد والزواد والعليفة من الرعايا ، فلايجب ان يتضرر احد ، وقد فرض هؤلاء على كل قرية شيئاً يسمى مشاهرة فكانوا يذهبون مرة فى الشهر يقومون بتحصيلها وهذه بدعة يجب القضاء عليها طبقاً للأمر الشريف الوارد فى هذا الخصوص .

وهذا مسجل فى الدفتر القديم كما تم شرحه وتوضيحه فى الدفتر الجديد . وبالنسبة للجزية المفروضة علي اليهود فى اللواء المذكور فقد تم رفعها من ٤٥ بارة الى ٩٠ عثمانى وللكفرة من ٤٢ر٥ بارة الى ٨٥ عثمانى ، وعلى هذا يتم رفعها بمناسبة الجلوس الهمايونى فتصبح للكفرة ٩٠ آقجة بزيادة ٢ر٥ ولليهودى ١٠٠ آقجة بزيادة ٥ بارة ، وقد تم تقييد الجزية المقررة على الكفرة واليهود فى الدفتر الجديد .

لواء صفد حسب ماورد فى الدفاتر رقم ١٣٢ ، ٥٢٢ ، ٣١٢ (١)

لقد تمت عملية التحرير فى اوائل جمادى الأول سنة ٩٣٢هـ/١٥٢٥ م فى عهد السلطان سليمان بن سليم خان بأمانة نوح جلبى بن احمد باشا وبكتابة حسين بن احمد .

وكان مايخص السلطان من عوائد اللواء (نفس صفد) ٧٩١٩٠ اقجة ، حصلت على الشكل التالى :

---

(١) تلاحظ سنوات الدفاتر ومن ثم السلاطين والأمناء والكتاب .

مقاطعة عمارية فى سنة	٦٠٠٠ اقجة
رسوم جواميس	١١٨٨٠
رسوم محاصيل	٣٠٬٠٠٠
جزية نصارى	٣١٬٣١٠
وخص السلطان من ناحية صفد : اقجة حصلت من :	١٠٨٬٣٨١
قرية عين زيتون	٦٤٣٠
قرية طبطبا	٤٥٠٠
قرية سموعية	٣٣٠٠
قرية قيومية : ماعدا الوقف ٥٣٢٥	حصة
قرية رأس الأحمر ماعدا الوقف ٣٣٠٠	حصة
قرية جدتية	٢٩٥٠
قرية عليبونية	١٥٥٠
قرية قاقلون	٣٣٦١
قرية ميرون	١٢٠٠٠

قرية غباطية التحتا		٦٥٥٠
قرية علما عن العشر		١٤٢٠٠
مزرعة شطر جوز		٣٠٨٠
قرية طبرية		١٥٤٥
قرية ناصرية		١٢٨٩٠
قرية وقية		٣٢٠٠
قرية نجيمية		١٢٠٠
قرية صفورية حصة مع وقف	٢٣٠٠٠	
مال السلطان من نواحى صفد فى سنة	٢٢٧٢٦٩	
عادت حماية لنواحى صفد فى سنة	٢٢٢٧٠	
عادت دورة لنواحى لواء صفد فى سنه	٨٧٦٩٤	
رسوم اغنام والمعزة فى سنة	٧٤٨٤٠	
مجموع مايكون	٤١٠٠٧٣	

فالخاص السلطانى تحصل من حاصلات وحصص فى قرى ومزارع واوقاف وعادات حماية وعادات دورة ورسوم واغنام ومعز .

اما من ناحية بلاد بنى بشارا وصور فكان نصيب الخاص السلطانى ٧١١٣٠ آقجة وحصل من ناحية عكا ٨٨٧٣٧ آقجة .

وبالاجمال فإن ما حصله الخاص السلطاني من لواء صفد فقد كان ١٣٠ر٦٧٩ آقجة وضم لواء صفد (قطاع خاص لأمير لواء صفد ، حيث تصرف بحاصل قرى ومزارع ١٩ قرية هي :

قرية كفر كنه تابع طبرية حاصل	٦٤٥٨٤
قرية جش تابع تبنين حاصل	٣٣٠٠
قرية بنت جبيل تابع تبنين حاصل	٢١٠١٨
قرية عزون تابع تبنين حصل	٢٣٤٣٠
قرية مارون تابع بتين حاصل	٥١١٠
قرية بيت جن تابع عا حاصل	١٧٧٠٠
قرية بقيقة تابع عكا حاصل	٢٢٢٠٠
قرية كفر برعيم تابع جيرة حاصل	٢٢٢٠٠
قرية طرشيحا تابع عكا حاصل	١٧٥٠٠
قرية يركا تابع عكا حاصل	١٢٩٨٠
قرية مغار حزون تابع عكا حاصل	٧٥١٠
قرية حاريص تابع تبنين	٢٤٩٠
قرية سيزور تابع عكا حاصل	١١٩٨٠
قرية ارانود تابع جيزة حاصل	٧٤٤٠
قرية جولس تابع عكا حاصل	١٢٩٨٠

يكون ٥٤٤ر٣١٦ اقجة ويلاحظ بان الاقطاع كان من مناطق متفرقة : تبتين ، عكا وجيرة وطبرية وليس من مكان واحد .

وفي اللواء زعامات عدد ٢ خصص احدهما باسم مرادبك دفتر دار ولاية الشام ، وبلغ مجملة ١٢٦٥١ اقجة واخر خصص لعيسى بك الزعامات ميرالاى لواء صفد وكان مبلغه ٢١٨٨٣ اقجة فكان مجموع الزعامات هو :

١٢٦٥١ + ١٢٨٨٣ = ٤٥٣٤ آقجة ، حصلت على الشكل التالي :

زعامات مرادبك دفتر دار بتيمارهاء ولايت الشام ، زعامات عيسى بك ميرالاى لواء صفد :

قرية تبنين	٣٥٧٠
قرية خالصة	١٦٨٠
مزرعة عيون	٢٠٠
كفر تليل	٣٢٠٠
قرية الحقاب ٦ ط مع العشر :	
١٨٥٠ مزرع مبندقة	٢٠٠
خربة مياوان عن العشر ورسم طاحون وبادهوا	٢٧٠
تليل	٢٠٤٤
مارونيه (العشر)	٦٨
مرج تابع عكا العشر	٢٠٠
برعانه	١٥١٠

غابسية مع مزارعها مع العشر	٤١٠
كفر كولا	٢٤٥٠
ذيب تابع عكا (العشر)	٢٣٠
طرشيما	٨١٠
جميعا	٢١.٨٨٣
قرية كفريا سيف تابع عكا مع العشر ورسم طاحون	٣٢٠
جديرة	١٧٥٥ مضافاً لها ٦٥١ ، ١٢
قرية نول تابع شقيف حاصل	٢٧٠
بلاط	٢٢٩٠
عن مزرعة عين الوحوش عكا حاصل ٢٠ ط مع العشر	١٣٥٢
ديلبية	١٦٧٠
قرية تجمعا تابع عكا	١١٠٠
خيام	٤٢٢١
مزرعة هيماس تابع عكا حاصل	٧١٠
مزرعة نبرتين العقبة	٨١٠
قرية شعت تابع عكا العشر	١٠٨٥
مزرعة كفران	١٠٨٠
جميعها	١٢٦٥١

واما التيمار فقد توزع بين موظفى السلطة وبلغ ١١٦ على النحو التالى

- تيمار حسن جلبى كاتب وجمعية ٩٩٠٦ من ١٠ مزارع و٦ قرى فى اماكن متفرقة .

- تيمار ادريس بن محمد ، ٤٦٨١ ، من قرية وطاحون واحدة ومزرعتان

- تيمار عبد اللطيف ٥٧١٥ من ٣ قرى و ٥ مزارع

- تيمار ابراهيم بن اسماعيل ، ٤٠١٠ من ٤ طواحين مع رسم النصف على اثنين ومزرعتين .

- تيمار مقصود بن حاج احمد ، ٥٨١٠ عن مزرعتين .

- تيمار جعفر كتخدا (عسكر سلطانى فى الشام) ٤٧٢٦ عن ٣ قرى .

- تيمار يحيى مخدوم سليمان باشا ، (بموجب حكم شاهانى) ١١٦٨٠ عن قرية ومزرعتين

- تيمار زين الدين بن امير حاج : ٥٩٩٩ عن ثلاث قرى ، والعشر و١٨ حصة والعشر .

ويمضى الدفتر فيعدد ١١٦ تيماراً شملت قرى ومزارع والأعشار ورسوم النحل وطواحين وللمشاهرية والمعادية وبلغ مجموع ماتقاضاه التيمارية من عوائد ارض اللواء ، وكان فرادى وبعضها مشاركة مبلغ ٨١٣ر٥٥٧ر٥ آقجة .

تمتع بها الأمراء واولادهم والكتاب ومخدومى الأمراء والكتاب والدفتردار والصوباشية والجاوشيه ، وعلى الأخص مخدومى ميرلواء نابلوس وصفد ، حيث حظى كل من محمد جلبى بن أحمد حاجى بك ، ميرلواء نابلوس صفد ومصطفى بن بدوى تيمار عوائده ١٧٠٠٠ ، أقجة وتلاهما فرج بن محمد الذى كان تيمار ١٦١١٠ ومحمد

سراج حيث كان عائد تيماره ١٤١٥٠ اقجة وعلى اغا بن احمد حاجى بك ، ميرلواء نابلوس وصفد ، وامين قرمانى الذى كان عائد تيمارهما ١٢٥٠٠اقجة ،ويحيى مخدوم سليمان باشا ،والذى كان عائد تيماره ١١٦٨٠ثم حسين جلبى كاتب تيمارعائده ٩٩٠٦، ومانى بن عبدالله مخوم حاجى بك ، ميرلواء نابلوس وصفد ، والذى كان تيماره ٦٩٣٠ اقجة .

وما ايرادات الأوقاف فكانت تأتى من قرية او مزرعة (مزارع) وقطعة ارض ، وارض اوقطع ارض او حكر او حاكوره وغراس نخل او زيتون اواشجار مختلفة وبستان او بساتين وعوائد المبانى تأتى من بيت او بيوت حبست على الوقف او دكان اودكانين وطاحون اوطواحين وحمام وخان وحوانيت وفرن وبركة وصهريج وقبو وحوش وسوق ومصبنه ومخزن أو مخازن ومعصرة مصبغة بويخانه وعماره او معالم طاحون ، وتجعل لما وقفت عليه وصيانة وترميم عين رقبتها ، ثم يؤخذ العشر عن مال الوقف للدولة وكنموذج على الوقف نورد ماذكر فى ورقة ٦١ من الدفتر موضوع الدرس .

وقف جامع الظاهرى يعرف جامع الاحمر فى نفس صفد المحروسة .

قرية	زيتون	زيتون	زيتون	زيتون
سعسع تابع جيرة	فى قرية عكبرا	فى قرية عرابة	فى قرية قيومة	فى قرية مجدل الكرْوم
حاصل ٩٣٠٠	حاصل روغت زيت ٦	روغن زيت ١٤	حاصل ٢٠	روغنزيت ٤ رطل ٨

زيتون فى قرية	زيتون
فرادية	فى قرية البعينة تابع م
حاصل رطل ١٠	حاصل
٢٠	خالى

فيكون مصروف الجامع الظاهري (الأحمر) في سنة ٧٦٣٠ وعوائده ٩٣٥٨ ، وما فضل يحول الى خزينة الدولة ، والأوقاف كما هو معلوم اما ذرية اوخيرية ، وغالبية اوقاف صفد كانت من النوع الذري حتى اذا ماانقرضت ذرية الواقف ، جعلت على مصالح البر والصدقة او المساجد ، كمسجد الحرمين الشريفين وجامع الأزهر وغيرها ، اما الأوقاف الخيرية في لواء صفد فكانت توقف على مصالح جهات خيرية عامة ، مثل المدرسة الأشرفية قرب ستي نفيسة في مصر وزاوية شيخ عبد الرحمن بن داو الصالحي في الصالحية ، وخانقاه سرياقوس والحرمين ، وعلى زاويتي كوكب الأكراد (تابع عكا) وزاوية شيخ الضامن في صفد ، وزاوية دير النوابيت في الناصرة ، والمدرسة الغورية في مصر ، والبيمارستان المنصوري في مدينة القاهرة والمدرسة الشيخونية في مصر ، وزاوية قاسمية تابع عكا ، وزاوية ابن الموصلي ، أو المدينة الشريفة والساقية ، والجامع الظاهري (يعرف بجامع الأحمر) في نفس صفد ، وقف جامع الكبير يعرف (بتربة ارقطائي) وقف جامع جلنداري في محلة الأكراد بصفد ، جامع احمد صبح ، جامع حارة الصواوين ، على مصالح وقف بني شعيب ، وقف سيدة سكينة بنت الحسين في مدنية طبرية ، جامع الحراب في جوار دار العدل ، الزاوية القرمسية ، ببيمارستان شادي ومسجد المعلق في حارة الأكراد ، وزاوية سعد الدين في حارة الأكراد مغرة يعقوب ، زاوية يوسف ، زاوية شمس الدين بن علاء الدين ، جامع سبع ، وزاوية المؤله ، مسجد ابن شهاب الدين ، مسجد الصدر وجامع العامله في حارة الوطا ، زاوية الصوانية ، وقف مسجد يونس النبي ، مسجد يعر بالحليل ، زاوية دقمان ، زاوية ارغون في ميدان جامع السوق الكبير ، حيث يحدد حاصل المصالح الموقوفة مقيمة بالاقجة او بالقيراط (محاصصة) فيما عدا عائدات المتصرفين في رقبة الموقوفات كأراضي القرى والمزارع والطواحين وقطع الأرض ، او بستان او كروم او حكر حاكورة او غراس الزيتون أوغيره ، او حمام وحوانيت ومسلخ وبيوت وأفران وخزانات ومعاصر وكناقد ذكرنا بأن الدولة تأخذ العشر عن مال الوقف .

ونقرأ فى الدفتر ٣١٢ تاريخه ٩٦٥هـ ، الملاحظات التالية حول الوقفيات وقفية رقم ٢٣ ، وقف فتح الدين بن نجم الدين خالد وتاريخهما ٩٣٤ هـ ، تتعلق بمزرعة بدية تابع جيرة ، ١٢ط ، حاصل ٩١٠ وجاءت الملاحظة التالية :

ان القيراطات الإثناعشر من المزرعة المذكورة والمسجلة فى الدفتر القديم ملكاً للمذكور نجم الدين قد انتقلت حالياً باسم ولده المسمى ولى الدين ثم سجلت وقفاً له ، وبعد تأمين ذلك سجلت وقفاً فى الدفتر الخاقانى الجديد (دفتر ٢٣/٣١٢ اوقاف)

اما الوقفية رقم ٣٠ والواقف هو السلطان الأشرف خليل فاتصلت بطاحون المفشوخ الكائنة فى المزرعة عينها القريبة من قرية غابسية على التل اى تال المفشوخ بين وادى المفشوخ والمجنونة ، وعلى بعد ٨ كم من عكا والتى كان قد حبسها على مصالح بعض المنشأت فى القاهرة ، حيث جاءت الملاحظة بأن الوقفية (بيد امير زين الدين بن عبد اللطيف امير حاج الدمشقى والشيخ سعيد الكواكبى بطيق الاجارة من سنة ٩٢٧ هـ / ٩٥٠هـ فى كل سنة اجارها بـ ٢٥٠ درهماً وانشأها فاذا تم ٥٠ سنة من تاريخ المزبور عاد الوقف الى اصله امير زين الدين بموجب المحاكرة ١٢ ط .

حصة الشيخ سعيد الكواكبى ١٢ ط (دفتر رقم ٣٠/٣١٢) .

ثم وقفية ابو بكر وشهاب الدين احمد وزين الدين وعبد اللطيف اولاد زين الدين حامد والتى تضم قرى ومزارع جاءات الملاحظة التالية :

« لقد انتقلت هذه القرى والمزارع الموقوفة بموجب الثلثين الى قريبته المدعوة خاتون ، وانه بعد ان اعطيت للخاتون المذكورة وذلك بموجب الفرمان فان الثلث الخالى ، انتقل الى جبلى اوغلو ، الذى هو ابراهيم بن يحيى بن بشير ، وبعد ان ثبت ذلك بموجب الحجة الشرعية فإن الوقف المذكور قيد، فقد صدر الأمر بموجب الشرع الشريف بتقييد ذلك فى الدفتر الخاقانى الجديد (دفتر ٥٨/٣١٢) .

الأملاك في صفد :

استناداً الى دفتر الطابو رقم ٣١٢ فإن عدد الملكيات بلغت ٢٠ ملكية كانت كلها خلا واحدة فقط تتصل بامتلاك طواحين مائية على الأنهر والوديان مثل وادي دلبية او وادي الاردن ، او وادي صلامية ، ووادي ربضية والتملك ما ان يكون بالكامل ، وحينئذ يشار اليه تماماً او بالحصص ، ويعبر عنه بالرمز ط دلالة علي القيراط من ٢٤ قيراطاً .

ويكون المتملك فرداً او جماعة (شراكة) واذا مااوقف احد الشركاء حصته فهنا تتدخل الاوقاف في مثل هذه الحالة كما في تملك طاحون البويضا تابع نهر الاردن حيث ملك كل من عبد القادر بن على الشرابى عن طاحون البويضا حصة ٦ ط حاصل ٢٠٠ ، وملك حاجي محمد بن احمد سواداني ، عن طاحون البويضا حصة ١٢ ط ، حاصل ٤٠٠ .

ووقف حمدة (سمرة) بنت محمد العلاية عن طاحون البويضا حصة ٦ ط حاصل ٢٠٠[1] .

وملك محمد بن كبير واخيه يحيى طاحون النورية تابع وادي دلبيه حصة ٩٫٥ ط حاصل ٢٣٧ ، ووقف اولاد سيد حافظ حصة ٣٫٥ ط حاصل ٨٧٫٥ [2] .

وما عدا ذلك فقد ملك شمس الدين محمد السبتي حصة ١٢ ط ، من مزرعة طير الشومر تابع عكا ، وكان حاصلها سنة ٩٣٢ هـ / ١٥٢٥ م ، ٥٠٥ اقجة .

وبموجب تحرير الدفتر ٥٢٢ بتاريخ ٩٥٤ هـ/١٥٤٨م ، ارتفعت عدد الملكيات الى ٦٥ ملكية شملت :

---

(١) انظر دفتر تحرير رقم ١٣٢ ص ٦٨ .

(٢) انظر المرجع السابق ، ونفس الصفحة .

مزارع حيث تملك شهاب الدين احمد بن شمس الدين السبتى ، سنه ٨٨٦ هـ/مزرعة بندى تابع جيرة ، طبريا وكانت حصته ٩ ط وربع وثمن ط والحاصل سنة ٩٥٤هـ/ ٥ر٩٠٦(١) .

ملك الشيخ نجم الدين وولده فتح الدين خالد ، الذى امتلك حصة تقدر بـ ١٢ط حاصلها ٢٥٠ فى مزرعة فى البندية ايضاً تابع جيرة وملك الشيخ شمس الدين محمد بن الشيخ زين الدين بن يعقوب الصفدى ، ٦ ط من مزرعة الفياضية الواقعة قرية جولس والتابعة لناحية عكا وكان حاصلها ٢١٦٠ ، ومزرعة جرار قرب كفر كيله تابع تبنين تماماً وحاصلها ٢٠٠٠ (٢) .

وكما ملك المشار اليه سابقاً حصته ٥ر١ ط عن قرية صفورية تابع طبرية حاصلها ١٢٧٥ آقجة .

معصرة زيت كائنة بقرية صفورية ملك فيها سيد محمد بن سيد عيسى الشهير بقابيل ١٢ ط وتاريخ الملكية ٩٣٧ هـ .

معصرة اخرى فى رامة ملكها بالتمام محمد بن احمد بن جراح تماماً وتاريخ الملكية ٩٢١ هـ .

حمام العنبرى ملكه احمد جلبى الكاتب بصفد ، تاريخ الملكية ٩٤٤ هـ ، وهو كائن نفس صفد ، غراس زيتون فى مزرعة بلعم تابع جيرة ملك محمد بن على الغورى المشهور بالحجازى الكردى والحاج ابو الخير عبد القادر العربى في مشاركة بتاريخ الملكية ، ٩٣٤ هـ ، ١٢ ط من المزرعة المذكورة (٣) .

---

(١) انظر الدفتر رقم ٥٢٢، ص ٧٨ .

(٢) انظر الدفتر رقم ٥٢٢ ، ص ٧٨ ، رقم ٣١٢ ملك رقم ٢١ .

(٣) انظر الدفتر رقم ٥٢٢ ، ص ٨١ .

واما الطواحين فقد بلغ عددها حسب الدفتر ٥٢٢ ، ٣٩ طحوناً كانت راكنة على الوديان والأنهر فى وادى دلباى وشريعة نهر الأردن ووادى ربضية ووادى صلامية ووادى العرب بنى بشارة تبنين ووادى المعظمية ووادى الجر ، ونهر الليطانى ونهر اليرموك ونهر قرعون ، ونهر راس العين وبعض مزارع اللواء مثل مزرعة عبيدية طبرا ، ومزرعة شبكية ومزرعة حيس بتبنة ومزرعة فويجيرة وغيرها .

ومن الجدير بالملاحظة ان كل طاحون يعطى اسماً ويحدد مكانه والقرية او المزرعة القريبة منه واسم المالك أو الملاك وموجبات التمليك وتاريخ الملكية والحصص .

وتضاف بعض الملاحظات ان طرأ مايوجب الإشارة الى ذلك ، ومن خلال تحليلنا للبيانات الواردة فى الدفتر المشار اليه فإن نسجل الأمور التالية :

كانت موجبات التملك فى حالات مستندة الى حجة قاضى صفد وقاضى الشام وحالتين بموجب دفتر اوقاف جرت المصادقة فى احدها على حجة قاضى صفد بموجب دفتر الأوقاف العتيق ، وحالة واحدة كانت بموجب طابو نامه امين خواص سلطانية ، وحالة بثبوت عمارة الطاحون من قبل التملك (وضع اليد) وفى خمس حالات بالشراء الشرعى .

فى حالة تملك واحدة فى طاحون ام التوت الواقعة فى وادى دلباى والتى كان يملك حصصاً منها ابراهيم بن عثمان بن محمد كبير ، كانت حصة خاص شاهى (سلطانى) هى ١٢ ط، اى النصف ، وفى حالة ثانية اتصلت بالطاحون الجديدة فى وادى دبلياى والتى امتلك حصصا منها عيد بن يوسف بن بريكى من قرية ظاهرية الغربية بموجب حجة قاضى صفد وقاضى الشام كانت حصة عيد هى ١٢ ط ، واما ١٢ ط الأخرى فكان حصة قاضى الشام سنة ٩٥١ هـ / وفى حالة ثالثة اتصلت بطاحون الجبيلى فى وادى دبلياى ايضاً تقاسم محمد ناصر عرف بالسعدى الحصص الـ ٢٤ مع قاضى صفد ، صفد ٦ط ومع الميرى ١٢ ط ، وتملك هو ٦ ط .

- ان التدقيق فى اسماء الملاكين يفيد بان نسبة عالية منهم كانت من الأتراك او أجراء السلطنة ممن اقطعوا تيماراً ثم حولوه بطرق متعددة الى ملك ومن الأسماء الملفتة للنظر ، الأكوز جرى باشى ، على بن يعقوب بن مبارك شاه حاج على بن الياس السباهى ، ابو الجيش بن حاجى ، احمد جلبى السباهى الكاتب ، فاطمة بنت ناصرى / محمد دويدارى الناصرى / محمد بن احمد الشهير بابن طوير وسنية بنت سيف الدين بن فخر الدين بن اخ حاجب ثانى بصفد ، وغيرهم ، وهناك عدد من القضاة قد تملكوا حصصاً فى الطواحين مثل القاضى حميد الدين بن احمد القادرى والذى تملك سنة ٩٤٢ مقدار ١٢ ط حصة من طاحون شبكة الراكنة قرب قدية شعبكة بعكا ، وتملك على بن ابو بكر سنه ٩٤٤ هـ ، ٦ط منها ، وصفى الدين محمد بن شهاب الدين احمد ٦ ط ، سنة ٨٣٨ هـ ، اى ان الطاحون قد ملكت بالتمام خلال ١٠٦ سنوات ، وطاحونة الديك والتي قوتها ٢ حجر وتقد جوار قصر حضرت يعقوب النبى عليه السلام ، على نهر شريعة الاردن فقد ملك منها محمد بن يحيى المعروف بالنهر كوب سنة ٩١٧ هـ مقدار ٣١ ط (قيراط) ، وملك شهاب احمد بن خفاجة ، سنة ٩٢٩ هـ ، مقدار ٤ ط ، وملك الناصرى محمد بن احمد الشهير بابن طوير سنة ٩٣٦ هـ مقدار ٧ ط ، فاستغرق تمليكها بالكامل قرابة عشرين عاماً ، اما الملكيات كماوردت فى الدفتر ٣١٢ هـ والذى يبينها الجداول المرفقة ، فكانت عبارة عن تملي طواحين مائية تقوم على مزارع والملكية اما كاملة او حصص منها ، وكان عدد الطواحين الواردة فى الدفتر ٣١٢ . ٧٣ طاحون بينت الجداول المرفقة موجبات التملك والسندات التى ابرزت وكذا تاريخ الملكية ، ومن خلال تدقيقنا فى الجداول نلحظ وبكل يسر اية تبسيطات وتساهلات فى تقيد الملكية ، ومن ثم نوعية الناس الذين كان يتملكونها ، ومن المعروف ان الطواحين تلحقها مزارع ومن الملاك قضاة وشيوخ زوايا واصحاب عمائم واولاده عساكر سباهية وبنات أسر مملوكية وحتى كتاب الولاية ، وملاك من عامة الناس ولم يرد اسم يهودى واحد قد ملك مزرعة او طاحوناً .

وهناك من ملك افران وعددهم ٣ وبستان فيها غراس مختلفة زيتون وتين ورمان وعنب وغيره وبلاغ عدد الغراس والبساتين ١٣ ، وحالة واحدة لتملك حمام وحالة واحدة

لتملك بيت ملكه سيدى محمد بن المصرى امين خواص صفد الذى تملك سنة ٩٦٣، بيت فى محلهة الأحمر من محلات صفد فوقانى وتحتانى ، كما ملك نفس الشخص محمد بن المصرى امين الخواص السلطانية ، ٥ر٣ ط من طاحونة ، ومزرعة راس العين اى عين الحمرا المسماه القبلية فى ١٢ ربيع الاخر ، وطاحونة ثانية قائمة على نهر الزهرانى حيث تملك نصفها وقوتها ٢ حجر ، وثالثة فى ١٩ ربيع الاخر ٩٦٣ هـ ، على نهر العين الكبير حيث تملك ربعها وقوتها ٢ حجر ، ورابعة على نهر العين تابع صور الكبير بتاريخ ٢٧ ربيع الاخر ٩٦٣ هـ ، حيث ملك ١٢ ط ونصف ربع ط وقوتها ٢ حجر ، بمعنى ان أمين الخواص ملك البيت واجزاء من الطواحين الأربعة خلال الفترة من اوائل ربيع الأخر ٩٦٣ هـ حتى ٢٧ ربيع الاخر من نفس السنة [1] ثم طاحون خامسة راكنة علي نهر راس العين فى اواسط رجب ٩٦٣ هـ، حيث ملك ٢ ط وربع ط وقوتها حجر واحد ، وقد تملك الاخيرة حسب ماجاء فى الدفتر بموجب حجة القاضى محمود محمد الشافعى الصادرة فى التاريخ المشار اليه وهذا فيه مافيه .

إن الجداول الملحقة تضع امام الباحث المدقق المزيد من الاستقراءات والقراءات لحالة ملكية الاراضى ، وادوات الانتاج فى اللواء المذكور .

---

(١) انظر الدفتر رقم ٣١٢ وثائق ملكية صفد رقم ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٧ .

ملاك لواء صفد : كما وردت في الدفتر (تحرير الطابو) ، ٣١٢ ، ٥٢٢

رقم الوثيقة	نوعية المالك	الموقـــع	المـــالك	موجبات التملك	تاريخ الملكية	الحصص	الحاصل (الناتج)	ملاحـــظات
١ –	فرن	قرية حطين ، تابع صفد	ابراهيم بن شرف الدين واخوة بركات			تماماً باب١		
٤ –	مزرعة شتوى	تابع ناحيةجيرة	شهاب الدين احمد بن شمس الدين السبتي		٨٨٦	٩ط وربع وثمن	١٠٠حاصل ٦٠٩٠٥	وردت في الدفتر ٥٢٢ ص٧٨
٧ –	بستان يعرف ببستان شيخ الفوقاني	في قرية حطين تابع طبرية	شيخ يحيى بن مولانا شمس الدين احامد		٩٥٠	٢٤ط تماماً		
٨ –	حمام العنبوري	في نفس صفد	احمد حلبي السباهي الكاتب من اهل صفد		٩٤٤	تماماً		وردت في الدفتر ٧٩/٥٢٢
٩ –	قرية صفورية مزرعة مزرعة	تابع طبرية في مياهضية قرب قرية جولس تابع عكا في البوار قرب تربيخ كفر كولع تابع تبنين	شيخ شمس الدين بن شيخ زين الدين بن يعقوب الصفدي			١٠.٥ ط ٦ ط تماماً	١٤١٥ ٢٥.١ ١٠٠٠	وردت في الدفتر ٥٢٢ ص٧٨
١٦ –	بستان	في ارض البستان الفوقا قرب الفرن الجديد في صفد	حاج علي بن الحاج محمد بستاني		٩٤٨	عدد الاشجار ١٠٠		أشجار رمان وغيره
١٧ –	فرن	في قرية بركا تبع صفد	صفي الدين محمد بن شهاب الدين احمد		٨٣٨	٩ ط		وردت في الدفتر ٨٣/٥٢٢
٢٠ –	مزرعة حمراء التحتا المعروف بثلاث كفوات غراس وثيق وعنب وغيره	في نفس صفد	شهاب الدين احمد بن الزيتون		٩١١			لها شرب من عين الحمراء كل خمسة أيا م
٢٢ –	غراس	في حاكورة غرتوبة وحاكورة وروزة وام الخير وارض حمراء التحتا قرب صفد	احمدبن الداخل من اهالي صفدومن محلة صواوين			٣ قطع ارض		
	غراس زيتون كرم داود غراس زيتون في كرم الذهب غراس زيتون في كرم زريق غراس زيتون	ارض حمراء التحتا في مزرعة نمراين ارض حمراء التحتا ارض حمراء التحتا ارض حمراء التحتا				نصف خمس نصف خمس ربع خمس خمس		
٢٣ –	غراس توت	في ارض مزرعة اشجار	شعبان الرخيم (الرقيم)					
٥١ –	فرن الخبز	في بركا	حسن بن الكابولي وعبد الستارابن الكابولي من جماعة كوابله		٩٣٦	١٥ ط باب		
٥٤ –	غراس زيتون	في ارض مزرعة تلعم (بلعم)	محمدبن علي الفوري المشهوربالحجازي الكردي والحاج ابو الخير بن عبد القادر العربي		٩٣٤	١٢ ط		
٦٨ –	بيت	في محلة البلمع الاحمر من محلات صفد فوقاني وتحتاني	سيدي محمد المصري ، امين خواص صفد		٩٦٣	تماماً		وردت في الدفتر ٥٢٢ ص٨٣

من الدفتر ٥٢٢

				موجبات التملك	السنة	الحصص الحاصل		
صمم ١٥	مزرعة	فى التدية تابع جيرة	الشيخ نجم الدين وولده فتح الدين خالد			١٢ ط	٢٥٠	
صمم ١٩	معصرة زيت	صفورية تابع طبرية	سيد محمد بن سيد عيسى الشهيد بقابيل واخوى سيد عمرو وسيد يعقوب		٩٣٧	١٢ ط		
صمم ٢٧	معصرة	قرية الرامة تابع عكا	محمد بن احمد بن جراح		٩٢١	تماماً		

ملكية الطواحين بموجب دفتر رقم ٥٢٢ ، ٣١٢ ، ١٣٢

	اسم الطاحون	موقعها	المـــالك والمـلاك	موجبات التملك	تاريخ الملكية	الحصص	الحاصل	ملاحـــظات
١ -	طاحون ام التوت (حجر)	فى وادى دلبية	ابراهيم بن عثمان بن محمد كبير من قرية الظاهرية التحق	حجة قاضى صفد وقاضى الشام	٩٢٩ ط	حصة خاص شاهى حصة المالك ١٢ ط ١٢ ط		
٢ -	طاحون الجديدة	وادى دلبية	عيد يوسف بن بريكى (من قدية ظاهرية الغربية)	حجة قاضى صفد وقاضى الشام	٥١٩ هـ	حصة خاص الشام حصة ملك المزبور ١٢ ط ١٢ ط		الان فى عبد القادر ومحمد وشمية اولاد الذكور
٣ -	طاحون الحبيلى	وادى دلباى (دلبية)	محمد ناصر عرف السعودى	حجة قاضى صفد وقاضى الشام	٩٢٩ ط	حصة مالك حصة ميرى حصا(؟) ١٢ ط ١٢ ط		
٤ -	طاحون (٣ حجر) البويضة .	مزرعة قصر يعقوب يعرف بالبويضة	حاج محى الدين بن الحاج محمد الشهير بابن المحتسب واخيه عثمان		٩٥٢ هـ	حصة ٥ ط		
٥ -	الكندورية حجار ٣	وادى دلباى	الحاج محمد بن الحاج عمر الشهير بابن العجولونى .		٨٩٨ ط	حصة ١٢ ط		
٦ -	طاحون ٥حجر ٥ ١	ارض مزرعة صيدية تابع طبريا	الاكوز جرى باشى	خاديتامة امج غواص ناحية مزبورا	٩٥٤ هـ	تماماً		إنشاء
٧ -	البويضة ٣ حجر السعفورية	ارض قصر يعقوب نهر الشريعة الاردن	شيخ محمد بن شيخ يوسف ابن سعد الدين الحناوى شيخ محمد بن شيخ يوسف ابن سعد الدين الحناوى		٩٥٤ هـ ٩٥٤ هـ	١ ط وثلث ط ١ ط وثلثين ط		عمارة عن معالم الطاحون الخراب
٨ -	طاحون البويضة بشركة ابن المحتسب	نهر الشريعة /قرب قصر يعقوب	على بن مبارك شاه إسماعيل العمرى	موجب دفتر أوقاف		١٠ ط ٨٠ ط دفتر ٣١٢		حاليا في يد شيخ محمد بن سعد الدين بموجب حجة قاضى صفد تاريخ المشترى ٩٢٦ من طاحون المزبور ٨
٩ -	الملبقط (١ حجر)	وادى دلبية	محمد الدهان	حجة قاضى صفد وقاضى الشام	٩٢٩			(٩٣٢ ، حاصل ، ١٢٠٠) ، دفتر ١٣١)
١٠ -	عمارة طاحون	جانب وادى دلباى تابع عكا	ذيب زين الدين عبد اللطيف بن على بن امير حاج وشريكه قاسم بن ابو بكر المعروف بابن دعار من قرية الذيب	ثبوت عمارة الطاحون	٩٢٦	تماماً		
١١ -	طاحون/قرية راس العين تابع صفد ٢ حجر	على نهر راس العين	علاء الدين على بن زين الدين عبد اللطيف بن امير حاج ، ساكن صفد		٩٢٣	٦ ط		
١٢ -	طاحون (١حجر)	مزرعة شبيكة تابع عكا	حاجى على بن الياس من ارباب تيمار السباهى					
١٣ -	طاحون (١ حجر)	قرية جعتون /عكا	ناصر الدين ابو الحسن صاحى من قرية جعتون (جعيتون)		٩٤٩ هـ	تماما طاحون ثانية		١٥٤ صدقى قرية ابرق تابع عكا ١ حجر (دفتر ١٣٢)
١١ -	طاحون	قرية راس العين /صفد	سنية بنت سيف الدين بن فخر الدين بن اخ حاجب ثانى صفد			في دفتر ١٧/٣١٢ وقف ابو الهيهل بن ناصي من قرية ... طاحون الشرايا على نهر وادي سهلون ٨ ط	بد تابع وقف	٨٤٥ هـ
١٠ -	معيطة ٢ حجر	وادى ربيطة/ياقوت	بدر الدين إبن شيخ يعقوب		٩٣٦ هـ	٢ ط المذكور		
١٦ -	طاحون	قرية ملاحة / جيرة	جمال الدين بن يعقوب من صفد		٩٣٤	٧ ط		
١٧ -	طاحون شبيكة	قرية شبيكة / عكه	القاضيحميد الدين بن أحمد القادرى		٩٤٢	١٢ ط		تاريخ الملكية ، سنه ٩١٧ هـ الى احمد المزبور سنه ٩٥٨ هـ
١٨ -	طاحون سبيكة	شبيكة / عكا	على بن ابو بكر ، واحمد جلبى السباهى الكاتب (من نفس صفد)		٩٤٤	٦ ط		
١٩ -	طاحون (٢ حجر)	مزرعة حيس / تنبه تبين الحاج فرج الكردى محمدبن	والشركاء ، محمد بن عز الدين ومحمد بن على الحجازى الكردى على الحجازى الكردى		٩٤٧	تماما		طاحون اراضى شجرة على وادى سلامية تابع جيرة ٦ ط

اضافات من الدفتر ٣١٢ تاريخ ٩٦٥ هـ /١٥٧ م

	اسم الطاحون	عدد الاحجار	موقـــعها	المالك او الملاك	موجبات التملك	تاريخ الملك	الحصص	الحاصل	ملاحظات
١-	طاحون	١ حجر	در قرية فرق تابع عكا	حاج علي بن الياس المزبور السباهي		٩٥٤			
٢-	طاحون في مزرعة تمرة		على نهر وادي صلامية تابع طبريا	احمد السباهي الكاتب		٩٥٨	٦ ط		
٣-	طاحون	١ حجر	در مزرعة حيس تابع جيرة	احمد بن حسين بن عمر - عمر بن محم الدكاني من جماعة الاكراد - سعيد ابن حموده العبايله - احمد بن زامل بروجه اشتراك			تماما		
٤-	طاحون	١ حجر	وادي تجورت / عكاء	حاج صفي الدين بن احمد		٩٤٧	٣ ط		
٥-	البويضة	٣ حجر	في ارض قصر يعقوب تابع جيم على نهر الشريعة	مولانا شيخ محمد بن سعد الدين العناوي		٩٥١	٨ ط		
٦-	طاحون		ارض مزرعة غربية راس العين / بنين	يحيى بن حمدان		٩٥٠	٣ ط		
٧-	طاحون	٣ حجر	ارض مزرعة درينه تابع تنين في راس العين	شيخ بدر الدين بن شيخ شمس الدين بن حامد وشريكيه شيخ يحي شيخ شهاب الدين بن احمد			١٦ط بدر الدين ٤ط شيخ يحيى ٤ط شيخ احمد٤ط		
٨-	العمونة	١ حجر	بأرض من تل مور	الحاج فياض بن حج علي بن خليل من قرية دير عامص		٩٣٩	١٣ ط		
٩-	طاحون	٣ حجر	في ارض الخيام / مرج العيون	شعبان الرسام			تماما		
١٠-	طاحون	١ حجر	وادي تجماس / طبرية	ابراهيم بن شموط من تركمانات غورية يونس ابن ابو اسامة حسن بن فلكان خميس بن رحال بن خالدي سليمان بن محمد بن شرف محمد الديوري بن ابي حسن من اكراد الغوالي		٩٦٢			
١١-	طاحون		نهر جعتون / معروفة خرابة تابع عكا	قاضي حميد الدين من نفس صفد		٩٤٢	٢١ ط		
١٢-	طاحون المزرعة الخارجة	١ حجر	على نهر تجماس / طبرية	يحيى بن حمدان من صفد شيخ يوسف الصمادي من نفس طبرية برمة فايز من قرية كفر كنه اشتراك		٩٥٩			
١٣-	البويضة الطورية (خراب)	٣ حجر	على نهر الشريعة الاردن	يحيى بن حمدان من نفس صفد		٩٥١	٢ ط		
١٤-	البويضة		على نهر شريعة الاردن اقرب عصر صفوت	على بن الكوازبي من قرية قناعية /تابع		٩٥١	٢ ط		
١٥-	عيلبونية		وادي الريضية	منها بن ابراهيم من اهالي قرية مغار الجروز/طبرية		٩٣٩	٢ ط		
١٦-	عيلوبنية		وادي الريضية	حكمة بنت يوسف من اهالي قرية مغار الجروز/طبرية		٩٤٦	١ ط		
١٧-	طاحون في المعروف ببركة الكبير	١ حجر	في ارض مزرعة القولية قرب طبرية	يحيى بن حمدان	بروجة اشتراكية	٩٥٧			

اضافات من الدفتر ٣١٢ ، تاريخ ٩٦٧هـ/١٥٥٧ م (٢٣)

اسم الطاحون	عدد الاحجار	موقـــعها	المالك او الملاك	موجبات التملك	تاريخ الملك	الحصص	الحاصل	ملاحظات
			شهاب الدين بن حامد محمد بن امير حاج عن نفس صفد حج مصطفى بن محمد الروحي	للبونامة اميني اصل حجة قاضي صفد				
١٨- طاحون / / شتوى الطاحون الفوقا	١ حجر	في ارض مزروعة شمعا /جيرة	علي بن عبده علي بن فرج حصة وقف جامع النيرون / جيرة		١٨/الجامع الازهر	١٨ ط /علي ٥ ط/فرج		
١٩- طاحون شتوي (طاحون التحتا	١ حجر	في ارض مزروعة شمعا /جيرة	علي بن فرج خليفة رعد بن محمد شرف الدين بن زيوان سيف اليان بن صالح محمد بن فضل حاج احمد			٢ ط ٣ ط ٥ ط ٣ ط ٥ ط ٢ ط ٣ ط		
٢٠- طاحون ابن طوير		وادي دلباي	محمد بن الخضر /من نفس صفد	٩٤٤	٩ط/خمس اسباع	١٤ ط		
٢١- طاحون مزروعة راس العين طاحون القبلية		في مزرعة راس العين/بتنين راكين على نهر الكبيرة	سيدى محمد بن الناصرى ، امين خواص صفد ،		١١ ربيع الاخر ٩٦٣	٥ر٢ ط		
٢٢- طاحون القبلية		في مزرعة راس العين/بتنين راكين على نهر الكبيرة	سيدي محمد بن المصرى امين خاص صفد		١٩ ربيع الاخر ٩٦٣	٦ ط		
٢٣- طاحون (عبد الوهاب)	٢ حجر	نهر الزهران	سيدى محمد بن المصرى		٢٨ ربيع الاول ٩٦٢	١٢ ط		
٢٤- طاحون المضباية	٢ حجر	نهر العين الكبير / راس العين تابع تبنى	سيدى محمد بن المصرى		٢٧ ربيع الاخر ٩٦٣	١٢ ط ونصف وربع ط		
٢٥- المقسان	١ حجر	نهر راس العين	سيدى محمد بن المصرى		اواسط رجب ٩٦٣	٢ ط وربع ط		
٢٦- عيلبونية	٢ حجر	في ارض مزروعة فريجيرة	نافع بن علي اللوانى /من قرية مغار العروز/طبرية		٩٥٣	١ ط وخمس ونصف ط وثلث وخمس ط		
٢٧- عيلبونية	٢ حجر	في ارض مزروعة فريجيرة	نافع بن علي اللوانى /من قرية مغار العروز/طبرية		٩٥٧			
٢٨- طاحون	٣ حجر	في وادي اليتم	محمد بن طبرية /برقية لويزية شقيق وابنه			تمام		
٢٩- طاحون الوالى	١ حجر	في وادي العجر	خليل فليفل /من نفس صفد	٩٢٨	٨١			

اضافات من الدفتر ٣١٢ تاريخ ٩٦٥ هـ /١٥٧ م

	اسم الطاحون	عدد الاحجار	موقـــعها	المالك او الملاك	موجبات التملك	تاريخ الملك	الحصص	الحاصل	ملاحظات
١-	طاحون	١ حجر	در قرية فرق تابع عكا	حاج على بن الياس المزبور السباهى		٩٥٤			
٢-	طاحون فى مزرعة تمرة		على نهر وادى صلامية تابع طبريا	احمد السباهى الكاتب		٩٥٨	٦ ط		
٣-	طاحون	١ حجر	در مزرعة حيس تابع جيرة	احمد بن حسين بن عمر - عمر بن محم الدكانى من جماعة الاكراد - سعيد ابن حموده العبابله - احمد بن زامل بروجه اشتراك			تماما		
٤-	طاحون	١ حجر	وادى تجرت / عكاء	حاج صفى الدين بن احمد		٩٤٧	٣ ط		
٥-	البويضة	٢ حجر	فى ارض قصر يعقوب تابع جير على نهر الشريعة	مولانا شيخ محمد بن سعد الدين العناوى		٩٥١	٨ ط		
٦-	طاحون		ارض مزرعة غربية راس العين / بنين	يحيى بن حمدان		٩٥٠	٣ ط		
٧-	طاحون	٢ حجر	ارض مزرعة درينه تابع تنين فى راس العين	شيخ بدر الدين بن شيخ شمس الدين بن حامد وشريكيه شيخ يحى شيخ شهاب الدين بن احمد			١٦ط بدر الدين ٨ط شيخ يحيى ٤ط شيخ احمد ٤ط		
٨-	العمونة	١ حجر	بأرض من تل مور	الحاج فياض بن حج على بن خليل من قرية دير عامص		٩٣٩	١٣ ط		
٩-	طاحون	٢ حجر	فى ارض الخيام / مرج العيون	شعبان الرسام			تماما		
١٠-	طاحون	١ حجر	وادى تجماس / طبرية	ابراهيم بن شموط من تركمانات غورية يونس ابن ابو اسامة حسن بن فلكان خميس بن رحال بن خالدى سليمان بن محمد بن شرف محمد الديورى بن ابى حسن من اكراد الغوالى		٩٦٢			
١١-	طاحون		نهر جعتون / معروفة خرابة تابع عكا	قاضى حميد الدين عن نفس صفد		٩٤٢	٢١ ط		
١٢-	طاحون المزرعة الخارجة	١ حجر	على نهر تجماس / طبرية	يحيى بن حمدان عن صفد شيخ يوسف الصمادى من نفس طبرية بوصة فايز عن قرية كفر كنه اشتراك		٩٥٩			
١٢-	البويضة الطورية (خراب)	٢ حجر	على نهر الشريعة الاردن	يحيى بن حمدان عن نفس صفد		٩٥١	٢ ط		
١٤-	البويضة		على نهر شريعة الاردن اقرب قصر صفوت	على بن الشواربى من قرية قناصية /تابع		٩٥١	٢ ط		
١٥-	عيلبونية		وادى الريضية	منها بن ابراهيم من اهالى قرية مغار الجروز/طبرية		٩٣٩	٢ ط		
١٦-	عيلبونية		وادى الريضية	حكدة بنت يوسف من اهالى قرية مغار الجروز/طبرية		٩٤٦	١ ط		
١٧-	طاحون فى المعروف ببركة الكبير	١ حجر	فى ارض مزرعة الفولية قرب طبرية	يحيى بن حمدان	بروجة اشتراكية	٩٥٧			

اضافات من الدفتر ٣١٢ ، تاريخ ٩٦٧هـ/١٥٥٧ م (٢٣)

	اسم الطاحون	عدد الاحجار	موقـــعها	المالك او الملاك	موجبات التملك	تاريخ الملك	الحصص	الحاصل	ملاحظات
				شهاب الدين بن حامد محمد بن امير حاج عن نفس صفد حج مصطفى بن محمد الروحي	للبوناسة امينى اصل حجة قاضي صفد				
-١٨	طاحون / / شترى الطاحون الفوقا	١ حجر	فى ارض مزروعة شمعا /جيرة	على بن عبده على بن فرج حصة وقف جامع النيرون / جيرة		١ ط/الجامع الزهور	١٨ ط /على ٥ ط/فرج		
-١٩	طاحون شتوي (طاحون التحتا	١ حجر	فى ارض مزروعة شمعا /جيرة	على بن فرج خليفة رعد بن محمد شرف الدين بن زيوان سيف اليان بن صالح محمد بن فضل حاج احمد			٢ ط ٣ ط ٥ ط ٣ ط ٥ ط ٢ ط ٣ ط		
-٢٠	طاحون ابن طوير		وادى دلباى	محمد بن القشر /من نفس صفد	٩٤٤	٩ طوشمس اسباع	١٤ ط		
-٢١	طاحون مزورعة راس العين طاحون القبلية		فى مزرعة راس العين/يتتنين راكين على نهر الكبيرة	سيدى محمد بن الناصرى ، امين خواص صفد ،		١١ ربيع الاخر ٩٦٣	٥ر٣ ط		
-٢٢	طاحون القبلية		فى مزرعة راس العين/يتتنين راكين على نهر الكبيرة	سيدي محمد بن المصرى امين خاص صفد		١٩ ربيع الاخر ٩٦٣	٦ ط		
-٢٣	طاحون (عبد الوهاب)	٢ حجر	نهر الزهران	سيدى محمد بن المصرى		٢٨ ربيع الاول ٩٦٢	١٢ ط		
-٢٤	طاحون المضباية	٢ حجر	نهر العين الكبير / راس العين تابع تبنى	سيدى محمد بن المصرى		٢٧ ربيع الاخر ٩٦٣	١٢ ط ونصف وربع ط	٠	
-٢٥	المقسان	١ حجر	نهر راس العين	سيدى محمد بن المصرى		اوسط رجب ٩٦٢	٢ ط وربع ط		
-٢٦	عيلبونية	٢ حجر	فى ارض مزروعة فريجيرة	نافع بن على اللوانى /من قرية مغار العروز/طبرية		٩٥٢	١ ط وخمس ونصف ط وثلث وخمس ط		
-٢٧	عيلبونية	٢ حجر	فى ارض مزروعة فريجيرة	نافع بن على اللوانى /من قرية مغار العروز/طبرية		٩٥٧			
-٢٨	طاحون	٣ حجر	فى وادى اليتم	محمد بن طبرية /برقية لويزية شقيق وابنه			تمام		
-٢٩	طاحون الوالى	١ حجر	فى وادى الحجر	خليل قليقل /من نفس صفد	٩٢٨	٥١ ط			

ان ما نلفت اليه هو احصاء نفوس سكان مدينة صفد عينها وقد اتكأ امنون كوهين وبرناد لويس علي دفاتر التحرير ذوات الارقام ٤٢٧ تاريخه سنة ٩٣٢ هـ / ١٥٢٥ م - ١٥٢٦ م ، والدفتر رقم ٣٠٠ تاريخه ٩٦٣هـ/ ١٥٥٥ - ١٥٥٦ م ، والدفتر رقم ١٧٧٣٨ تاريخه ٩٧٥ هـ / ١٥٦٧ - ١٥٦٨ م ، وقفزا عن الدفتر رقم ٦٨٦ تاريخه ١٠٠٥ هـ / ١٥٩٥ - ١٥٩٦ م ، والدفاتر ما يلاحظ من تواريخها انها متصله بالقرن السادس عشر ، وحين امعنا النظر فيما جاء خلال احصاءات حاراتها فقد سجلنا الملاحظات التالية :-

دفتر التحرير رقم ٤٢٧ سنة ٩٣٢ هـ /١٥٢٥ - ١٥٢٦ م

حارة الاكراد		حارة الخندق	
سباهية (اجناد حلقة)	١٣	امام	٠١
أئمة وخطباء	٠٥	خانة	٤١
خانة	١٠٥		
مجرد	٢٦		

حارة صواوين		حارة السوق	
أئمة وخطباء	٠٠٦	إمام ومأذون	٠٣
خانة	١٧٤	خانـــــة	٤٢
مجرد	٠٠٧		
عميان	٠٠٤		
أجناد الحلقة (قدماء)	٠٢٠		

حارة صواوين		حارة اليهود	
أئمة وخطباء	٠٠٦	يهود مستعربان	٣١ خانة
خانة	١٣٥	افرنج	٤٨ خانة
مجرد	٠٠٧	برتغاليون	٢١
عميان	٠٠٣	مغاربة	٣٣
أجناد الحلقة	٠٠٦		

بمعنى ان عدد اليهود المتزوجين كان ٢٣٣ خانة اما المسلمون فكانون ٧٦٨ بين خانة ومجرد واعمى وجندى حلقة وامام ومأذون وخطيب ، ويلاحظ بأن الدفتر اشارة بوضوح الي البلدان التى جاء منها اليهود ، فاليهود الاصليون المقيمون عادة فى المدينة ميزهم بعبارة يهود مستعربة ، وغيرهم برتغاليون ومغاربة .

اما الدفتر رقم ٣٠٠ وتاريخه ٩٦٣ هـ /١٥٥٥. ١٥٥٦م ، والذى وقع تحريره بعد سقوط الاندلس بيد الفرنجة ، ومن ثم توال عمليات التهجير القسرى للمسلمين واليهود من الاندلس و قد جاء فى الدفتر مايلى :

دفتر التحرير رقم ٣٠٠ سنة ٩٦٣ هـ /١٥٥٥-١٥٥٦ م .

حارة الاكراد		حارة الفندق	
خانة	١٥٣	خانة	٢٧
مجرد	٠٧١	مجرد	٤١
امام	٠٠٢		
مأذون	٠٠٢	**حارة السوق**	
اعمي	٠٠١	خانة	٥٠

اجناد الحلقة	١٢ خانة	مجرد	٠٩
		امام	٠٢
		مأذون	١٣

حارة صواوين

خانة	٣٨٥	مجنون	١
مجرد	٠٣٠		
امام	٠٨	**حارة الجامع الاحمر**	
مأذون	٠٨	خانة	١٥٧
أعرج	٠٢	مجرد	٣٩
اعمى	٠٢	امام وخطيب	٠٧
اكراد	١٤ خانة	مأذون	٠٩
	٠١ مجرد	اعرج	٠١
اجناد الحلقة	٢٦ خانة	اعمى	٠١

حارة الوطا		**غزاوية**	
خانة	١٨٣	خانة	٤٠
مجرد	٠٦٣	مجرد	٠٤
امام	٠٧		

مأذون	٠٥
اعمى	٠١
اجناد الحلقة	٩ خانة
	١ مجرد

حارة اليهود

مستعربان	٩٨ خانة	قسطيلى	١٨١ خانة
	١٠مجرد		١٢ مجرد
برتغاليون	١٤٣ خانة	ارغون وقتلان	٥١ مجرد
	١٨٠ مجرد		٠٣ مجرد
مغاربة	٣٨ خانة	هنغار (مغار)	١٢ خانة
	٠٧ مجرد	بوليه	٢١ خانة
قرطبيون	٣٥ خانة		٠١ مجرد
	٠٧ مجرد	كلبارية(كلافاريا)	٢٤ خانة
طليان	٢٩خانة	اشبيلية	٦٧ خانة
المان	٢٠خانة		٠٤ مجرد
	٠١ مجرد		

ويسجل على الدفتر إن عدد اليهود ٧٨٢ مابين خانة ومجرد أما أصول اليهود كما جاءت فى الدفتر ، فيهود مستعربة بلغ عددهم ٩٩ مابين خانة ومجرد ثم برتغاليون ومغاربة والمان وطليان وقسطيلى وارغون وقتلان وهنغار وبوليه وكلافارية واشبيلية ،

حيث جاء بعضهم من الاندلس ومناطق اوربية ، اما اعداد المسلمين ، فكانت ١٣٨٧ مابين خانة ومجرد وامام ومأذون ومعوق (اعرج) واعمى واجناد الحلقة ، وخطيب واعراب (غزاوية) ، ولنقرأ ماورده صاحباً الكتاب فى ص ١٥٨ وباللغة التى كتبها بها الكتاب ،

Total : House holds of the Muslims of the city of safad , 1099 households , 217 bachelors , 16 imamsand Khatibs ,37 muezzins , 2 Cripples , 6 Blind 2 men House holds of Jews 1175 .

فأية أمانة علمية هذه : ـ

أما دفتر التحرير رقم ١٧٧٣٨ وتاريخه سنة ٩٧٥ هـ /١٥٦٧-١٥٦٨ م فقد جاء فيه كما فى الجدول التالى :

اليهود عددهم ٩٢٠ مابين خانة ومجرد واما اصولهم ، فاليهود المستعربة ٧٠ خانة ثم برتغاليون وقرطبيون وطليان والمان وهنغار وقسطيلى وارغون وبوليه وكلافاريا واشبيلية ،وأما أعداد المسلمين فكان ١٥٥٠ ما بين خانة ومجرد أجناد حلقة وإمام ومأون وخطيب وفقيه وشريف واعمى ومجنون ، وقد عمد امنون كوهين وبرنارد لويس للتلاعب بالارقام كما فعلا فى الدفتر السابق .

حارة الاكراد		حارة الخندق	
خانة	١٥٥	خانة	١٩
مجرد	٠٥٩	مجرد	١١
مأذون	٠٥	شريف	٠٢
امام	٠١		
اعمى	٠١	حارة غزاوية	

مجنون	٠١	خانة	٢٩
اجناد الحلقة	٦ خانة	مجرد	١٥
	٤ مجرد	مأذون	١٠

حارة صواوين		حارة الجامع الاحمر	
خانة	٢٨٧	خانة	١٦٠
مجرد	١٤٣	مجرد	٠٢٧
امام	٠٠٤	امام	٠٢
مأذون	٠٠٩	خطيب	٠٢
اجناد الحلقة	٢٨ خانة	مأذون	٨
	٠٣ مجرد	اجناد الحلقة	٣١ خانة
اكراد	٠٨ خانة		٠٤ مجرد

حارة السوق		حارة الوطأ	
خانة	٥٩	خانة	١٩٨
مجرد	١٢	مجرد	٠٣١
اجناد الحلقة	٦ خانة	امام	٠٢
مأذون	٠٣	مأذون	٠٣

اجناد الحلقة	١١ خانة

دفتر التحرير رقم ١٧٧٣٨ سنة ٩٧٥ هـ/١٥٦٧ م .

حارة اليهود		
مستعربان	٧٠ خانة	
برتغاليون	٢٠٠ خانة	
مغاوية	٥٥ خانة	
	٣٠ مجرد	
	٥٥ خانة	٢ مجرد من ضمنها
طليون	٣٥ خانة	
المان وهنغار	٥٠ خانة	٤٣ خانة ٧مجرد
قسطيلى	٢٠٠ خانة	
ارغون	٧٢ خانة	
بوليه	٢٥ خانة	
هنغار (مغار ، مغار)	١٥ خانة	
كلاباريا	٢٠ خانة	
اشبيلية	١٢٠ خانة	

أما الدفتر رقم ٦٨٦ وتاريخه ١٠٠٥ ع/١٥٩٥-١٥٩٦ م ، والذى يعتبر من اهم دفاتر الطابو ، فهو دفتر اجمال ومفصل ، وفيه معلومات وافيه عن تحرير اللواء فى

الفترة المذكورة وكمثال على ذلك نقدم ورقة منه اتصلت بوقفية الناصرى محمد بن محمود ادوادنى وشقيقة الزينى عبد القادر والجمالى محمود ، وفيه كيفية ادارة الاررض والتصرف بها وقد تتبعنا الوقفية المذكورة ، وقفية الناصرى .

وقفية الناصرى محمد بن محمود بن دويدارى وشقيقه الزينى عبد القادر والجمالى محمود ، والمحبسة على انفسهم وذريتهم ونسلهم وعقبهم فاذا انقرضوا كانت على مصالح حددت فى الوقفية بموجب الدفتر رقم ٣١٢ المجمل .

وكان من جملة الاوقاف قرية مارونية ناحية جيرة وهى التى كان يعمل بها من الفلاحين ١٦ خانة (أى رجل متزوج ، عائلة) و٧ مجرد (اى عازب) . هم حسب ما ورد فى الدفتر وكلمة (م) التى فى البحث ، يقصد بها (مجرد ، اى اعزب) .

ولد	ولد	ولد	ولد	ولد
ابراهيم	مصلح	على	موسى	محمد
مصلح	عمر	عويدى	طعمة	قرار
		م		
ولد	ولد	برادر(هى اخ)	ولد	برادر
علي	احمد	محمد	حسن	يوسف
مسرور	مصلح	او (اخوه)	حسين	او
م	م		م	
ولد	ولد	ولد	ولد	ولد
محمد	عبدالله	عبد القادر	على	خليل
حداس	المصرى	على	او	عبدين

ولد	ولد	ولد	ولد	ولد	ولد
على	عامر	على	سلمان	سلمان	على
او	المصرى	او	عبدين	عبدالله المصرى	المصرى
ولد	ولد	او	٢٣ نفرا	خانة	مجرد
حسن	طعمه			١٦	٧
عبدالله	سعيد				
	م				

وحين اجريت حسابات الضرائب عليها كانت كمايلى

حاصلات قسم من الرابع هى :	حنطه	شعير	مال صيفى
٤٣٠٠	غراره	غراره	
	٢٥	٥	١٠٠
	بهر	بهر	
	٣٧٥٠	٤٥٠	

العشر عن مال الوقف : ٢٠٠٠

رسم معز ونحل : ١٠٠

رسم عروس وبادهوا : ٢٠٠ يكون العشر ورسوم : ٢٣٠٠ (١)

---

(١) انظر دفتر طابور : رقم ٦٨٦ ،ورقم ٢٦ .

وقد جاء فى الورقة ٢٦ من دفتر احصاء لسكان احياء صفد ، اضاف اليها دراويش بيت احزان فى قصور يعقوب ، والاعراب

خانة	٧٩٧	
مجرد	٣٥٥	
خطيب وامام	٠١٦	
مؤذن	٠٢٧	
كنحدا محلى (والى)	٠١	
فيكون عدد المسلمين		١١٩٦
اما اليهود ، فكان عدد اليهود المستعربة		٩٩
برتغال		٢٠١
قسطيلي		٢٠١
المان		٦٠
ارغون مع جماعة افرنج		١٠١
طليان		٦١
مغاربة		٦٦
كلابرية		٣٥
بوليه		٢٠

رومانية	٣٢٠
مايوركا	٤٠
اشبيلية	٧٠
فيكون مجموع اليهود	٩٨٦

ونلخص من ذلك ، ان اليهود ماكانوا يوماً لاملاكاً لارض صفد ولا ضواحيها ولامزارعها فيما عدا بيوت حاراتهم ، وماكانوا اكثرية فى المدينة المذكورة ، وهل لى ان اسئل الله العون فى تحقيق ونشر بقية دفاتر الطابو المتصلة بفلسطين ، مدنها وقراها ، انهارها وضواحيها ومزارعها وبساتينها ، اسواقها وقاعاتها وحماماتها ، وماعلى الا ان الوذ بالصمت والصبر ازاء ما يجرى فى وطننا الموصوف بالعربى والكبير ، عسى الله ان يجعل لنا من امرنا فرجا .

يا مَنْ رأى صفداً والنار تأكلها
والقائد الوغد يولى الظهر سكرانا
الحولة البكر إسرائيل تزرعها
وأنت تزرع مرسومــاً واعلانــا



المحتويات



تم الطباعة والتنفيذ والتجليد بمطبعة الوادى الجديد للطباعة
١٧ ش سراج الدين – دار السلام – الملأة ت : ٣٢٠١٤٧٢